وزارة التعليم العالي

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ



السياسة الأوروبية وتطورها في بلاد الشام

(١٨٤٠– ١٨٧٨م)

رسالة أُعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

إشراف

د. حسام النايف

إعداد

الطالب: عبد الإله أحمد المصطفى

العام الدراسي ٢٠١٤

الإهداء

إلى سيدي ومعلمي، وصاحب الفضل في كل خير، أعز ما لدي، والدي، عرفاناً وتقديراً .. وحباً ...

إلى سيدتي ونهجة قلبي، وبسمة حياتي، والدتي، علها تعوضك القليل من أمانيك فيّ... مذ كنت طفلاً ...

إلى صديقي، ورفيق دربي، أخي طلال، سلواناً وصبراً في الغربة...

إلى أولئك الذين ضربوا المثال في التفاني والإخلاص والمحبة، ومنحوني الثقة والصبر... والحب والاحترام، إخوتي وأخواتي.. وبقية أفراد العائلة.

إلى وجه الخير، رفيقة الدرب، شريكة أحلامي التي لم تدخر جهداً في توفير كل مستلزمات النجاح، زوجتي.

إلى موارد الأمل وفلذات كبدي هيزو، وآمدي

إلى تلك الروح الطاهرة، جدتي، التي لن أنسى أفضالها ما حييت...

إلى كل محب... من الأقارب والأصدقاء والمعارف...

محتويات البحث

المقدمة:

كانت بلاد الشام في مختلف العصور محطّ أطماعِ القوى العظمى التي تعاقبت عبر المراحل التاريخية المختلفة؛ وذلك لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية ، فهي تتوسط القارات الثلاث (آسيا وأوروبا وإفريقيا)، وكان يتوجب على التجارة المتبادلة بين هذه القارات– منذ أقدم العصور– أن تشق طريقها عبر أراضي هذه المنطقة، غير أن هذا الأمر كان نعمة ونقمة في الوقت ذاته.

كما شكلت الكشوف الجغرافية الأوروبية أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر الميلاديين إحدى أهم المفاصل التاريخية لتاريخ أوروبا والعالم؛ لأنها أحدثت تغييرات جذرية جيوسياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية للكثير من الحضارات والثقافات المنتشرة في أرجاء العالم.

وجاء سقوط الدولة العربية في الأندلس انهياراً لهذا السد، وكان ذلك إيذاناً للدول في غرب قارة أوروبا لتعلن عن بدء مرحلة جديدة من التاريخ العام، وذلك بظهور إمبراطوريات استعمارية جديدة؛ كالإسبانية، والبرتغالية، ومن ثم الهولندية التي استطاعت أن تجتاح العديد من المستعمرات، بعيداً عن مراكز تواجدها، وقد انتشرت انتشاراً سريعاً ومذهلاً، وغريباً في بعض الأحيان، في كل قارات العالم بدءاً من أمريكا بجزأيها الجنوبي والشمالي، وقارة إفريقيا شمالاً وغرباً وجنوباً. كما جاء اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حول إفريقيا للوصول إلى شرق وجنوب شرق آسيا؛ مصادر الحرير والتوابل، كالضربة القاضية للتجارة المشرقية المسيطرة على الطرق التجارية منذ أقدم العصور، فقد حولت هذه التحركات والكشوف للمرة الأولى في التاريخ وجهة الطرق التجارية بين الشرق الأقصى وأوروبا التي تمر من بلاد الشام ووادي النيل؛ أهم الطرق الرئيسية للتجارة العالمية، إلى وجهة جديدة، شكلت فيها المحيطات وسواحلها مجمل مساراتها، مما أدى إلى ضعف التجارة العربية، وهذا الأمر كان في مصلحة نهوض مطّرد للتجارة والبرجوازية الأوروبية التي تمثلت في الأطماع الاستعمارية التي جسدها بشكل أكبر الجيل الثاني من الإمبراطوريات الاستعمارية؛ فرنسا وانكلترا؛ إذ ورثت الإمبراطوريات القديمة ومستعمراتها، وتحولت الثانية إلى "إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس".

وظلّت الولايات العربية من الدولة العثمانية بعيدة عن السيطرة الأوروبية طيلة ثلاثة قرون، عدا بعض الثغور مثل سبتة، ومليلة، وطنجة، وأغادير، رغم المحاولات العديدة لضمها لاسيما في المغرب العربي، غير أن أوروبا استطاعت في هذه المرحلة أن تحكم الطوق على الولايات العربية، فقد كانت في أواخر القرن الثامن عشر قاب قوسين أو أدنى من السيطرة الفعلية والمباشرة لولا فشل الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، وفي القرن التاسع عشر استطاعت بعض القوى

الأوروبية أن تسيطر على بعض الأجزاء بشكلٍ مباشر، نحو ما حصل في الجزائر عام ١٨٣٠، وعدن ١٨٣٩، كما أنها استطاعت السيطرة على بعضها الآخر بطريقة غير مباشرة كما في إمارات الخليج العربي منذ عام ١٨٢٠.

والناظر في تاريخ هذا الاستعمار يلاحظ بقاء بلاد الشام بمنأى عن السيطرة الأوروبية المباشرة طيلة تلك المرحلة. ولذلك- ولتحقيق هذه الغاية- قامت هذه الدول بالتدخل التدريجي في شؤون الدولة العثمانية بشكل عام، ولاسيما بلاد الشام، بأشكال مختلفة، قصدت من ورائها جميعاً التمهيد للسيطرة المباشرة، واحتلال هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة، وكان الأمر سيستحيل عليها لولا توفر بعض الظروف والعوامل التي ساعدتها على إدراك غايتها، إضافة إلى أدواتها الخاصة للقيام بذلك، ولكن كان عليها أن تنتظر حتى أواخر العقد الثاني من القرن العشرين.

عزلت الدولة العثمانية نفسها وولاياتها عن العالم الخارجي، وعن الحضارة الأوروبية، مع أن التبادل التجاري ظل قائماً طيلة العهود التاريخية، والعلاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية لم تنقطع أبداً، ولكن تلك الصلات والعلاقات التجارية كُتب لها أن تُقام في حالة من عدم التوازن، لاسيما بعد أن تم ربطها بنظام الامتيازات، لذلك فإنها تحولت بدعم من القوى الأوروبية- إضافة إلى دعائم أخرى فكرية وعقائدية وسياسية كالاستشراق، والتبشير، وأعمال القناصل وغيرها- إلى أكبر الأدوات الأوروبية في العصر الحديث فتكاً وانتهاكاً لسيادة دولة ما، لاسيما أن نظام الامتيازات هذا كان في تطور دائم ومستمر، وهو الذي بدأ كنظام لحفظ أمن التجار الأوروبيين وسلامتهم وسلامة بضائعهم في النصف الأول من القرن السادس عشر، غير أنه ما لبث أن تحول إلى هيمنة اقتصادية طالت آثارها القطاع العام والخاص على حدٍ سواء، وهيمنة سياسية طالت كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وفي هذه المرحلة، شكلت الحكومة المصرية في بلاد الشام علامة فارقة في العهد العثماني لتاريخ المنطقة، وقد تركت بصمات واضحة على مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما تركت آثاراً ملحوظة حتى بعد عودة الحكم العثماني إليها الذي جاء بتدخلِ ومساندةِ القوى العظمى، فقد كان لانسحاب قوات محمد علي ونظامه الحاكم من بلاد الشام، إضافة إلى عزل ونفي حليفه بشير الثاني، وأمام عجز السلطات العثمانية، والتدخل الأوروبي المستمر في شؤون البلاد، أن دخلت البلاد في حالة من الفوضى المجتمعية سياسياً واجتماعياً، وهذا الأمر مهد الطريق أمام القوى الأوروبية لتجد لنفسها مكاناً "ملائماً"، في خضم تلك الفوضى، للتعشيش فيه، والبدء بعمليات السيطرة الفعلية بالاستفادة مما وفرته تلك الفوضى من

بيئة مناسبة للتحركات الأوروبية، وهذا جاء تزامناً مع ازدياد المصالح الأوروبية في بلاد الشام بعد عودة الأهمية الاستراتيجية للطرق التجارية المارة من بلاد الشام ومصر؛ فقد زاد معها التنافس الدولي على هذه المنطقة. وقد أدت مجمل هذه التطورات إلى إدخال عناصر حيوية فاعلة أسهمت في رسم ملامح جديدة لتاريخ المنطقة، جنباً إلى جنب مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية السارية بفعل التراكم الكمي الموروث داخلياً، والمؤثرات الخارجية بفعل التدخل الأوروبي المتعدد الأوجه.

- **موضوع البحث وأهميته :**

لوحظ أن الأضواء المسلطة على المشرق العربي كانت وكأنها تتبع الأحداث الساخنة، وكانت دولة محمد علي الحدث الأبرز في هذا المشرق، ومن هنا كثرت الدراسات في تاريخ المنطقة ومن ضمنها بلاد الشام، قبل وخلال سيطرته عليها. ولوحظ أيضاً أن خروج قوات محمد علي وابنه إبراهيم باشا من بلاد الشام قد أحدث فراغاً سياسياً لوهلة قصيرة، وهنا يمكن طرح مسألة أخرى، وهي هذا الفراغ في الدراسة التاريخية للمرحلة التي تلت خروج هذه القوات على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي شكلت السياسة الأوروبية ركناً أساسياً فيها، لاسيما في ضوء ضآلة التأليف في كل المجالات تقريباً والنقص الشديد في الكتابة التاريخية المحلية، الذي عانته بلاد الشام طيلة القرن الثامن عشر، وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بفعل عوامل تتحملها الجهات المحلية والسلطات العثمانية لا يتسع المجال للخوض في تفاصيلها.

ولا ننكر وجود بعض الإضاءات على بعض المناطق- كما في جبل لبنان ودمشق- وذلك للأسباب نفسها، ألا وهي الأحداث الساخنة، وقد جاءت الدراسات لتلك المناطق وغيرها على شكل شذرات تاريخية هنا وهناك، وكانت مبعثرة في بطون الكتب الكثيرة التي تناولت بعض أجزاء الموضوع، دون وجود عناصر الربط والتحليل المناسبين للممارسات الأوروبية وأساليبها التي أسهمت بشكل كبير في رسم الخارطة التاريخية للمنطقة. ومما سبق فإن أهمية البحث تكمن في نقطتين أساسيتين هما:

الأولى: إعادة تسليط الضوء على أوضاع المنطقة سياسياً، ضمن إطار السياسة الأوروبية كونها صاحبة التأثيرات والمتغيرات القديمة والجديدة، مع محاولة تحليل تلك السياسات، ودراسة عواملها ومرتكزاتها.

الثانية: تتعلق بشكل مباشر باختيار بداية مرحلة موضوع البحث، وهو عام١٨٤٠، الذي شكل فيه مؤتمر لندن وانسحاب القوات المصرية من بلاد الشام بداية مرحلة جديدة من التغلغل

الأوروبي، الذي أصبح ينذر بتدخل أكثر خطورة من ذي قبل؛ وذلك لاستفحال هذا التدخل الذي تزامن مع زيادة الأطماع الاستعمارية من جهة، وتردي الواقع العثماني من جهة ثانية، والظروف المحلية الطارئة من جهة ثالثة. وهذا ما دعا إلى تتبع تطورات هذا التغلغل، وما أحدثه من تأثيرات، وردود فعل.

ولا تقل نهاية مرحلة موضوع البحث أهمية عن البداية، وهي عام ١٨٧٨؛ الذي شكل فيه مؤتمر برلين منعطفاً خطيراً آخر في السياسة الأوروبية تجاه تطلعاتها الاستعمارية الجديدة في مختلف مناطق العالم، ومن ضمنها البلاد العربية، ولاسيما بلاد الشام.

- **إشكالية البحث:**

تتعلق الإشكالية الأساسية في البحث بالممارسات الأوروبية وسياساتها في بلاد الشام، التي يمكن طرحها على شكل ثلاثة تساؤلات هي:

أولاً- كيف تم التغلغل الأجنبي الأوروبي في بلاد الشام؟ وما هي بداياته، وأسبابه، وأشكاله؟ فقد تباينت الآراء واختلفت حول هذا الأمر، فهناك من يرى أن تزايد النفوذ الأجنبي في بلاد الشام قد حدث بفعل رغبة فخر الدين المعني الثاني بداية، ثم جاءت بفعل سياسة محمد علي وابنه إبراهيم باشا في بلاد الشام، وهذا ما وجدناه في قراءة عبد العزيز العظمة في كتابه "مرآة الشام"، على سبيل المثال.

وذهب بعض الباحثين إلى أن البوابة الكبرى للتدخل الأجنبي كانت عن طريق الجاليات الأوروبية التي اجتاحت الدولة العثمانية وولايتها العربية في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين، وكان ذلك تمهيداً للاستعمار الأجنبي في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهذا ما تحدثت عنه الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها "الجاليات الأوروبية". ويرى عدد من الباحثين أن الامتيازات الأجنبية التي قدمتها الدولة العثمانية كانت البوابة الأوسع لهذا التدخل. في حين مضى آخرون إلى أن التنظيمات العثمانية وإصلاحاتها هيّأت البيئة المناسبة للتغلغل الأوروبي.

وسيحاول البحث هنا تحليل أسباب هذا التدخل من خلال الآراء المطروحة، ومحاولة الربط بينها، إضافة إلى دراسة أحوال الواقع المحلي كسبب سمح بتنفيذ هذا التدخل.

ثانياً- ما دور السياسة الأوروبية في رسم الملامح التاريخية للمنطقة في مرحلة البحث؟ ولماذا تأخر التدخل الأوروبي المباشر في بلاد الشام إذا ما قيس مع التاريخ الاستعماري للدول الأوروبية؟ ثم لماذا هذا التحول في السياسة الأوروبية في هذا الوقت ١٨٤٠؛ إذ ستشهد المرحلة اللاحقة تحولات أخطر؟

فقد شكل مؤتمر لندن مفصلاً حقيقياً في تاريخ بلاد الشام المعاصر؛ إذ كتب نهاية حكم محمد علي في بلاد الشام، وبداية التدخل الأوروبي الذي جاء لتقاسم تركة "الرجل المريض"، وهو ما جعل من دراسة الأوضاع السياسية الأوروبية، والعثمانية، والمحلية في بلاد الشام- بدءاً من هذا المؤتمر وما قبله- شيئاً لا بد منه، في محاولة لبيان أثر تلك الأوضاع كعوامل رئيسة ساعدت على التدخل الأوروبي في المنطقة، وأسهمت بشكل كبير في رسم الملامح التاريخية لها في مرحلة هذه الدراسة.

ثالثاً- ما هي منعكسات السياسة الأوروبية على بلاد الشام؟

أدت السياسة الأوروبية خلال هذه المرحلة (١٨٤٠-١٨٧٨) دوراً كبيراً في رسم مستقبل بلاد الشام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي؛ لذا كان لابد من دراسة النتائج العامة لهذه السياسة في مختلف المجالات، إذ سيتم دراسة هذه الانعكاسات على مختلف الأصعدة الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية- الثقافية، والسياسية. إضافة إلى الكثير من التساؤلات التي سيتم طرحها ومناقشتها في سياق النص لتحقيق أهداف البحث وغايته.

- **حول منهجية البحث:**

جادل الكثير من علماء الطبيعة والفلاسفة الأوربيين في القرن التاسع عشر في علمية المعرفة التاريخية وصحة حقائقها؛ لأن التاريخ لا يخضع لطرائق العلم الوضعي الحديث، كما أنه يستحيل أن يكون علماً تجريبياً؛ لأن مادته الحوادث البشرية، إضافة إلى الكثير من الأقاويل في هذا الصدد، فانبرى مؤرخو القرن التاسع عشر في أوروبا متسلحين بنجاح العلوم الطبيعية نفسها ليثبتوا في أبحاثهم أن التاريخ بمنهج بحثه الصحيح وإن اختلف عن منهج العلوم الطبيعية فهو يقود إلى وضع الأطر للحقائق، مع طرائق البحث عن الحقيقة الثابتة والمؤكدة.

كان المؤرخ والعلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م)، من أقدم المؤرخين الذين أشاروا إلى أهمية منهج البحث التاريخي، فقد شرح فكره هذا في مقدمته الشهيرة، التي أشار فيها إلى قضية أن التاريخ في باطنه نظر، وتحقيق وتعليل، وعلم بكيفيات الوقائع، ودراسة لطبائع الكائنات، مع ضرورة اعتماد النقد للوصول إلى التركيب التاريخي الأمثل الذي يقود إلى الحقائق المؤكدة.

وحسب هذه الرؤية، فسوف ترتكز الدراسة على المنهج التحليلي، للوقوف على المسببات، والربط بين الأحداث. كما أن منهجي الاستقراء والوصف هما منهجان شبه ملازمان للدراسات التاريخية؛ إذ لا تكاد تخلو دراسة تاريخية من الاعتماد عليهما، وكذلك الحال بالنسبة لهذه الدراسة، إضافة إلى ضرورة اتباع عملية النقد العلمي والموضوعي للمصادر والوثائق، والدراسة

المتأنية للأحداث؛ لمعرفة بواطن الأمور ومسبباتها، ومحاولة الربط والبحث بين أوجه الاختلاف والتشابه بين مختلف المصادر والمراجع العربية والأجنبية، ثم الاستفادة من الموسوعات التاريخية والجغرافية والسياسية والمعاجم اللغوية لشرح وتعريف المصطلحات الجديدة والغامضة، على أمل أن يقود ذلك إلى تحقيق شروط الكتابة في التاريخ، وتحقيق غاية البحث وأهدافه.

- **خطة البحث:**

جاء البحث مكوناً من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع إضافة إلى الملاحق التي تضم مجموعة من أهم الوثائق التاريخية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة:

- **المقدمة:**

جاء فيها رسمٌ للمشهد العام الذي كان يحيط بالمكان الذي يتناوله البحث والقريبة منه زمنياً، مع محاولة وضع المحاور والأطر التي سترتكز عليها الدراسة تحت عناوين أولية، والتعريف بهيكل البحث، مع شرح سبب اختيار البحث وأهميته، والإشارة إلى الإشكالية الأساسية فيه مع تحديد المناهج المتبعة في هذه الدراسة، تمهيداً للدخول في تفاصيل البحث.

- **الفصل الأول: التغلغل الأوروبي في بلاد الشام قبل عام ١٨٤٠:**

يتناول هذا الفصل عدة محاور، وهو بمثابة تمهيد تاريخي وفكري لمحاولة فهم الأسباب والدوافع التي دفعت بالدول الأوروبية للتوجه الدائم إلى بلاد الشام؛ لذلك عُرض فيه الموقع الجغرافي لبلاد الشام وأهميته الاستراتيجية بالنسبة للتجارة الدولية، وما أفرزته هذه الأهمية من صراعات دولية، وتم التطرق في السياق نفسه إلى العلاقات السياسية بين أوروبا وبلاد الشام في المرحلة التي سبقت مرحلة البحث. وتمت في المحور الثاني الإشارة إلى أشكال التدخل الأوروبي في بلاد الشام بشيء من التفصيل لهذه الأشكال وهي: قضية الامتيازات الأجنبية، والقناصل الأوروبيون، والاستشراق، والإرساليات التبشيرية، والرحلات والبعثات الاستكشافية الأوروبية. وتناول المحور الثالث الأوضاع السياسية الأوروبية، مع الإشارة إلى أهم ملامح التطورات السياسية والاقتصادية في القارة الأوروبية، والبحث في تحديد اتجاهات السياسة الخارجية لأهم القوى الأوروبية، وعلى رأسها القوى العظمى. وفي المحور الأخير تم التطرق إلى قضية المسألة الشرقية ووضعها في الأطر المناسبة؛ لأنها جزء لا يتجزأ من الإطار العام للسياسة الأوروبية في المشرق العربي.

- **الفصل الثاني: السياسة الأوروبية والصراع الدولي على بلاد الشام (١٨٤٠-١٨٥٣):**

تناول هذا الفصل تفاصيل التدخل الأوروبي في بلاد الشام التي بدأت مع المساهمة الفعالة للدول الأوروبية في إخراج محمد علي من بلاد الشام بعد ما يقارب عقداً من الزمن من سيطرته عليها، وتم عرض تفاصيل المفاوضات الأوروبية- الأوروبية بشأن هذه المسألة، مع محاولة تحليل المواقف الأوروبية بما يخص توجهاتها وآرائها في هذه الأزمة، وذلك كمحور أول. وتم في المحور الآخر وضع إطار عام للعلاقات الأوروبية- العثمانية، والبحث عن الروابط بين العمليات الإصلاحية العثمانية والتوازنات الأوروبية في كلٍ من أوروبا والدولة العثمانية، وفي بلاد الشام أيضاً بما أنها محور الدراسة. وتمت العودة في المحور الأخير إلى الممارسات الأوروبية في بلاد الشام، وما أحدثته التوازنات الأوروبية فيها من تقسيم فئوي لبعض الأجزاء، نحو ما رأيناه في جبل لبنان.

- **الفصل الثالث: السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٥٣-١٨٧٨):**

يبدأ هذا الفصل من حرب القرم، ويقف على المسببات الرئيسية لأزمة الأماكن المقدسة، ثم يحاول تتبع المواقف الدولية منها، ويعرض للدور العثماني فيها الذي بدى متخبطاً بداية، ثم ما لبث أن مال باتجاه الموقف الفرنسي بعد تلقيه تلميحات بالدعم والمساندة من فرنسا وبريطانيا، غير أن هذه الأزمة تحولت إلى قضية دولية أفضت في النهاية إلى حرب القرم. وفي المحور الآخر من هذا الفصل تمت دراسة السياسة الأوروبية في بلاد الشام بين عامي ١٨٥٦ و١٨٦٤، فقد شهدت بلاد الشام تطوراً لافتاً على المستوى الاجتماعي بعد ظهور الانتفاضة الفلاحية في جبل لبنان عام ١٨٥٨، التي جاءت دلالة على تطور بعض النواحي الاجتماعية، وكانت توجهاً لوضع حدٍ للعهود الإقطاعية في بلاد الشام، ولكن للأسف لم تكن البيئة الحاضنة جاهزة بعد، فبعد أن انتقلت الثورة من شمال جبل لبنان إلى جنوبها لبست ثوباً طائفياً، وهذا الأمر أدى إلى تشويه مضامينها، وبعد أن امتدت إلى دمشق أصبحت من أهم المبررات للقوى الأوروبية للتدخل في شؤون بلاد الشام، وكانت الحصيلة حملة عسكرية ولجنة دولية وضعت الأسس المتممة لنظام التقسيم الطائفي في جبل لبنان الذي بدأ منذ أحداث عام ١٨٤١-١٨٤٥ بنظام القائم مقاميتين. وتم التركيز في الجزئية الثالثة من هذا الفصل على تطور السيطرة والهيمنة الاقتصادية الأوروبية في بلاد الشام، وذلك عبر عدة منافذ من أهمها القروض الأجنبية للدولة العثمانية، والبنوك الأوروبية التي استلهمت مشاريع اقتصادية تم تطبيق بعضها، وبقي بعضها الآخر حبراً على ورق، ويُلاحظ تركيز رؤوس الأموال الأجنبية على المشاريع التي كانت من نوع خاص؛ كالنقل والمواصلات، ولم تركز على مشاريع صناعية أو إنتاجية. وفي المحور الأخير

من الفصل الثالث تم التطرق إلى الرؤى والممارسات الأوروبية تجاه المسألة الشرقية بين عامي ١٨٧٥ و١٨٧٨، التي أفضت إلى مؤتمرات دولية هامة، وفي مقدمتها مؤتمر برلين الذي تم اختياره كنهاية لمرحلة البحث، بعد أن وضع هذا المؤتمر منهجاً للسيطرة الاستعمارية، ولتعلن عن مرحلة التوزيع والتقسيم الاستعماري.

- **الفصل الرابع: أثر السياسة الأوروبية في تطور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام (١٨٤٠-١٨٧٨).**

تناول هذا الفصل دراسة معظم الآثار الناجمة عن التدخل الأوروبي في بلاد الشام، وعلى جميع الأصعدة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية- الثقافية. وعلى غرار الفصول السابقة تم توزيعه على عدة جزئيات، تناولت الجزئية الأولى المجال السياسي؛ إذ تم التركيز فيه على الانتشار القنصلي الأوروبي كأهم أداة لتنفيذ السياسات الأوروبية، ثم التحول إلى الإدارة العثمانية في بلاد الشام، ومحاولة كشف الأثر الأوروبي فيها، ثم متابعة بوادر التحول في الفكر السياسي المحلي في بلاد الشام. وفي المجال الاقتصادي تمت متابعة محاور الاقتصاد الثلاثة التجارة، والصناعة، والزراعة، وأثر السياسة الأوروبية في أدائها.

وفي المجال الاجتماعي تم تتبّع العلاقات الاجتماعية- الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية- السياسية، وكيفية التأثير الأوروبي في تطور تلك العلاقات الاجتماعية. وفي الجزئية الأخيرة تم دراسة أهم الأنشطة التعليمية والثقافية ومؤسساتها التي ظهرت بفعل المؤثرات الأوروبية.

- **الخاتمة:**

تضمنت مجمل النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

- **المصادر والمراجع التي استخدمت في البحث:**

اعتمدت هذه الدراسة على بعض الدراسات ذات الصبغة الوثائقية التي اعتمدت وثائقاً مهمة، تم للباحثين الحصول عليها عبر جهودهم الخاصة، واستخدموها في مسائل وقضايا بحثية مختلفة، وقد تم التركيز عليها والاستفادة منها بشكلٍ واسع بعد إعادة توظيفها بما يخدم خطة البحث، ومن تلك الدراسات والكتب التي اعتمدت الوثائق الأجنبية:

- كتاب: السياسة الدولية في المشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨، لمؤلفيها عادل إسماعيل وإميل خوري، وهو كتاب في أربعة أجزاء، تختلف تواريخ طبعات أجزائها، وقد اعتمد الكتاب على مجموعة جيدة من الوثائق التاريخية، إلا أنه يؤخذ عليه

عدم توثيق هذا الوثائق ليتعرف المرء على أماكن وجودها وللاطلاع على مضامين نسخها الأصلية.

- كتاب: أوروبا ومصير الشرق العربي، لمؤلفه جوزف حجار، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمه، وقد اعتمد الكتاب على الوثائق الأوروبية بشكل شبه كامل؛ إذ لا يكاد تخلو فقرة من الكتاب دون الاستشهاد بوثيقة من الوثائق التي كانت –في أكثرها– من المراسلات السياسية بين القناصل الأوروبيين، ومراكز الإدارة في الأستانة؛ السفارات أو مع وزارات الخارجية في العواصم الأوروبية.
- كتاب: بلاد الشام ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشرن لمؤلفيها م. ريجنكوف، إ. سميليا نسكاييا، استحضر الكتاب وثائق مهمة من الأرشيف الروسي، ولاسيما تلك التي تتعلق بالبعثات التجسسية الروسية في بلاد الشام في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

أما ما يخص الوثائق العربية والعثمانية، فقد قامت العديد من الأبحاث بالتركيز في دراساتها على هذا النوع من الوثائق، ونذكر من هذه الدراسات:

- كتاب: الدستور الذي قام بجمعه وترجمته نوفل نعمة الله نوفل، كتاب يجمع بين دفتيه كل المراسيم والقوانين والأنظمة التي اعتمدتها الدولة العثمانية لتسيير شؤون الحياة الإدارية في القرن التاسع عشر، بدءاً من خط كلخانه عام ١٨٣٩ حتى أواخر ذلك القرن.
- كتاب: المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية، التي جمعها وترجمها يوسف بك آصاف، فقد تم جمع معظم وأهم المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع مختلف الدول الأوروبية، وقد أتاح هذا الكتاب الاطلاع على معاهدات واتفاقيات مهمة تفيد مضمون هذه الدراسة.
- كتاب: المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان، جمعها وترجمها الأخوان فيليب وفريد الخازن، وهي تجمع بين الوثائق الأجنبية والعثمانية، والعربية– المحلية، التي تتصل بموضوع البحث بشكلٍ وثيق، والكتاب عبارة عن ترجمة للوثائق الأجنبية والعثمانية ونسخ للوثائق العربية، فقط دون تعليق، وتتيح بذلك حرية تداولها وتحليلها.
- كتاب: المحفوظات الملكية المصرية، قام بجمعها وتصنيفها الدكتور أسد رستم، وجاءت في كتاب مكون من خمسة أجزاء، خُصص الجزء الخامس لفهرسة مواضيع الأجزاء الأربعة الأخرى، وهو كتاب يحظى بأهمية تاريخية جيدة، لأنه جمع ذلك الكم الكبير من

الوثائق، مع عنونة بعضها الأخرى، ووضع فهارس حافظات خاصة لها لتسهيل الوصول إليها، وهي تهم موضوع البحث ولا سيما في الفترة التمهيدية أولاً، وفي أواخر الحكم المصري في بلاد الشام ثانياً.

هذا وقد قدمت دار الوثائق التاريخية في دمشق العديد من الوثائق المهمة التي دعمت خطة البحث ولا سيما الأوامر السلطانية لكلٍ من دمشق وحلب، ومما يؤسف له أن وثائق المحكمة التجارية تبدأ من عام ١٨٨٣ فقط، علماً أن الدكتور عبد الكريم رافق وغيره من الباحثين ذكروا أن المحاكم التجارية كانت قد بدأت العمل منذ خمسينيات القرن التاسع عشر.

إضافة إلى العديد من الكتب التي حوت في متنها وملاحقها العديد من الوثائق التي خدمت فكرة البحث، والعديد من هذه الوثائق كان من الممكن إعادة توظيفها مرة أخرى في خدمة خطة البحث، بالإضافة إلى جملة من المصادر والمراجع التي ساعدت على رسم المحاور الأساسية للبحث، وساهمت في توضيح الكثير من القضايا والمسائل العالقة. ونذكر منها، على سبيل الذكر لا الحصر:

- كتاب: مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر، لمؤلفه محمد سعيد الأسطواني، تحقيق أسعد الأسطواني، يتألف الكتاب من قسمين، أورد المحقق في القسم الأول الأوضاع العامة للدولة العثمانية، ثم عرض أوضاع دمشق في مطلع ومنتصف القرن التاسع عشر، ووقف على ظروف وملابسات حادثة الستين، فضلاً عن دراسة بعد مواضيع المخطوط شرحاً وتحليلاً، وذلك في سبعة فصول، في حين أنه أفرد القسم الثاني لنص المخطوط مرفقاً بالتعليقات والهوامش، وهو صغير نسبياً إذا ما قيس مع القسم الأول، ومن هنا فإن المعلومات المستقاة من القسم الأول تم توثيقها تحت اسم المحقق على أنها من مرجع سابق، أما المعلومات من القسم الثاني فجاءت تحت اسم المؤلف على أنها من مصدر سابق.
- كتاب: Ottoman reform in Syria and Palestine 1840-1861 ، لمؤلفه موشيه ماعوز Moshe Ma'oz ، صادر باللغة الانكليزية وارتكز على الدراسة الوثائقية بشكل كبير، وعلى الرغم من اعتماد المؤلف وثائق الخارجية البريطانية من الأرشيف البريطاني فقط، فإنه استطاع أن يرسم صورة واضحة عن واقع الحياة الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في الفترة ما بين عامي ١٨٤٠ و١٨٦١ في بلاد الشام، التي يسميها المؤلف فترة التنظيمات، على أنه لا يهوّل دور الامتيازات وباقي المؤثرات

الأوروبية الأخرى في الحياة العامة فيها، وربما قد يكون ذلك التزاماً منه بعنوان المؤلَّف وعلى ضوء نظام التنظيمات وأثرها.

- **شكر وتقدير:**

في ختام هذه المقدمة أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور حسام النايف الذي خصني بعلاقة أخوية خارج إطار العمل، ثم منحني حيزاً كبيراً من وقته، وفتح لي قلبه وعقله ومكتبته، وكان- أطال الله بقاءه- يتعهدني بكل لطف، ويرعى البحث بكل اهتمام، فاجعل اللّهم الحقّ أمامه وإمامه وصِلْ بالسعادة أيامه. كما لا يسعني هنا إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من أسهم في إنجاز هذا العمل، وأخص أساتذة قسم التاريخ في جامعة دمشق في سعيهم وتفانيهم في خدمة هذا العلم، وتقديمهم المعونة والمشورة دون تردد. وأتقدم بالشكر الجزيل لزملائي من دفعة طلاب الدراسات العليا لما تمتعوا به من روح التعاون والمحبة في ظاهرة قد لا تتكرر في كل حين. وأتوجه بالشكر أيضاً إلى مكتبة الأسد الوطنية والقائمين عليها، ومكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب في جامعة دمشق، والشكر كل الشكر لدار الوثائق التاريخية والقائمين عليه في دمشق، وأخص بالذكر مدير المركز الدكتور غسان عبيد والسيدات فلك خباز، وعائشة الناصر، وهند مهنا لما أبدَوه جميعاً من طيب النفس، وحسن الخاطر، فضلاً عن المهنية في العمل وتقديمهم التسهيلات اللازمة، كما أتوجه بالشكر إلى السيد الفاضل والباحث العلامة المرحوم أكرم حسن العلبي، طيب الله ثراه وتغمده برحمته وغفرانه، لما تمتع به من روح التلهف للبحث حتى آخر يوم في حياته، وتقديمه العون والمساعدة بشكلٍ منقطع النظير رحمه الله. وأخيراً ليس آخراً كل الشكر والاحترام والتقدير للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، الأستاذ الدكتور محمود عامر، والأستاذ الدكتور محمد أحمد، لأن البحث لا ينمو ولا يكبر إلا بتوجيهاتهم وآرائهم ومقترحاتهم التي ستلملم ما فرّطت به، وتُقَوِّم ما اعوج منه، وبها سيتم تدارك كل الثغرات، إن شاء الله.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

عوامل وأشكال التغلغل الأوروبي في بلاد الشام قبل عام ١٨٤٠.

أولاً- موقع بلاد الشام الجغرافي وأهميته الاستراتيجية في السياسة الأوروبية.

ثانياً- أشكال التدخل الأوروبي في بلاد الشام وأدواته.

ثالثاً- العلاقات الدولية واتجاهات السياسة الخارجية في أوروبا.

رابعاً- المسألة الشرقية.

الفصل الأول: عوامل وأشكال التغلغل الأوروبي في بلاد الشام قبل عام ١٨٤٠.

أولاً – موقع بلاد الشام الجغرافي وأهميته الاستراتيجية في السياسة الأوروبية:

١– دراسة في بعض التسميات الغربية لبلاد الشام والشرق.

إن المنطقة التي أطلق عليها العرب القدماء (بلاد الشام)[١] منذ قرون عديدة، تقع في ركن متميز من المشرق العربي[٢] الذي يشكل جزءاً كبيراً من المشرق الإسلامي، وهذا المشرق الأخير كان يعرف لدى الأوروبيين في أواسط القرن الثامن عشر، بمصطلح الشرق (The East)[٣]، وكان النجاح الباهر للإسلام قد ترك انطباعاً لدى الغرب أن مصطلح الشرق يعني الشرق الإسلامي، دون أن يمحي ذلك ما بقي من آسيا[٤].

---

[١] الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت،ج٣، ص٣٥٣. عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت، ص١٦. وتشير إحدى الدراسات إلى أنها تسمية للبلاد التي هي إلى الشمال (أو اليسار) من الكعبة المشرفة، مقابل اليمن التي تقع إلى يمينه، وسمي الحجاز بهذا الاسم لأنه يفصل بينهما. انظر: محمد، نجاح وأبو جبل، كاميليا، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، دمشق، د.ط، ٢٠٠٥–٢٠٠٦، ص٣٥. وجاء في إحدى الدوريات بأن تسميتها منسوبة إلى سام ابن سيدنا نوح عليه السلام، فقيل في اسمه شام لأن السين والشين تتبادلان في اللغات الشرقية. انظر: معلوف، اسكندر، حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها، مجلة المجمع العلمي العربي (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لاحقاً)، المجلد الأول، الجزء العاشر، تشرين الأول، ١٩٢١، ص٣٤١.

[٢] زين، نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيروت، د.ط، ١٩٧١، ص٩. كان أهل العراق يسمون كل ما وراء الفرات (شاماً). انظر المقدسي، البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط،١٩٨٧م، ص١٣٤.

[٣] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٤. كما تشير لفظة Orient إلى بلاد المشرق أو بلاد الشرق الأقصى كالصين واليابان وغيرها. انظر:

– Wehmeier, sally, Oxford Wordpower Dictionary, Oxford University Press, Oxford, Third Edition, 2004, p. 438.

[٤] سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤، ١٩٩٥، ص١٠٢.

فقد كانت الأقاليم جنوب غرب آسيا وشمال شرقي أفريقيا تشكل- بالنسبة لأوروبا- الشرق، دون الحاجة إلى تعريف أدق، وهي تسمية من العصور القديمة، وتعود إلى فترة العلاقات الإخمينية[١]- الإغريقية[٢].

ولكن فيما بعد بدأت الحاجة إلى إيجاد صيغة تكون أكثر وضوحاً، لمفهوم الشرق هذا، ولاسيما بعد تزايد اهتمام أوروبا بالشرق الأقصى[٣] (The Far East)، وأيضاً مع ظهور المسألة الشرقية[٤] (The Eastern Question) التي ارتبطت أول الأمر بمشاكل الدولة العثمانية وولاياتها في البلقان[٥] من جنوب شرقي أوروبا، فجاء نتيجة لذلك مصطلح "الشرق الأدنى"، الذي كان يطلق على هذا الجزء من أوروبا، ثم شاع استعماله ليشمل مناطق في جنوب غرب آسيا حتى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ومع أن "الشرق الأدنى" امتد نحو الشرق في آسيا وممتلكات الدولة العثمانية في أفريقيا، حسب التقدير الأوروبي، إلا أن هذا المفهوم ما لبث أن اختفى ليحل محله تعبير جديد مثير للجدل[٦]، وهو

---

[١] **الأخمينيون:** أسرة حكمت إيران بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد وأنشأت إمبراطورية واسعة امتدت سلطتها على معظم أرجاء "الشرق الأوسط"، وأبرز ملوكها قوروش، وداريوس. انظر: البستاني، دائرة المعارف، د.ن، بيروت، د.ط، ١٩٦٩، مج٨، ص١٢-١٣.

[٢] **الإغريق:** وفدت أفواج الإغريق (الآخيين) وانضمت إلى الحضارة المينوية، وأخذت بأسبابها، ثم قضى ميكيناي- إحدى أفواج الإغريق- على هذه الحضارة، وحلت محلها. ساءت العلاقة بين الأخمينين والإغريق بعد سياسة التوسع التي انتهجها داريوس الذي اجتاز البوسفور ووصل إلى مقدونيا، غير أنه لم يتمكن من الوصول إلى أثينا. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك، نسخة طبق الأصل عن طبعة عام ١٩٦٥، ج٢، ص١٩٩٥.

[٣] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٤.

[٤] **المسألة الشرقية:** ظهر مصطلح المسألة الشرقية أثناء انعقاد مؤتمر فيرونا عام ١٨٢٢ ليشمل المشكلات الدولية التي كان ينطوي عليها انحلال الإمبراطورية العثمانية الوشيك. انظر: زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٢٢.

[٥] **البلقان:** منطقة جغرافية تقع في جنوبي شرق أوروبا وتشمل عدة كيانات سياسية، منها بلغاريا، ويوغوسلافيا، واليونان، وألبانيا، والقسم الأوروبي من تركيا. شكّلت البلقان مسرحاً للحروب والهجرات والخلافات الحادة حول الحدود والأقليات القومية حتى أصبح مصطلح "البلقنة" يرمز إلى الخلافات الداخلية والتدخل الخارجي. انظر: الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥،ج١، ص٥٦١.

[٦] لوكمان، زكاري، تاريخ الاستشراق وسياساته- الصراع على تفسير الشرق الأوسط، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص١٧٠. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٤.

"الشرق الأوسط"[١]. وهكذا فإن مصطلح "الشرق الأدنى" مصطلح حديث ومصدره أوروبا التي رأت في غربها "مركزاً" للعالم تتجمع حوله بقية أقاليم المعمورة[٢].

إذاً فقد ارتبطت بلاد الشام– حسب التقدير السابق– بمنطقة "الشرق الأدنى"، وكانت بموقعها على السواحل الشرقية للبحر المتوسط، تُعرَف لدى الدويلات التجارية الإيطالية بـ (بلاد الشرق The Levant)[٣] وهو الاسم الذي ظل شائعاً في أوروبا خلال القرن التاسع عشر[٤]. وأما تسمية (سوريا)[٥] فينسبها فولني Volney – الذي زار مصر وبلاد الشام أواخر القرن التاسع عشر– إلى Assyria، ويشير بأن الإغريق، وتحديداً الأيونيون الذين كثيراً ما ترددوا على سواحل هذه البلاد، أول من أطلق عليها هذه التسمية، بعد أن أضعفها الآشوريون كي يضموها إلى إمبراطوريتهم[٦]، ويذكر أحد الباحثين أن هيرودوت هو أقدم من ذكرها[٧]. وغاب اسم (سوريا) في العصور

[١] **الشرق الأوسط:** مصطلح وضعه المؤرخ العسكري الأمريكي ألفرد ثاير ماهان Alfred Thayer Mahan (١٨٤٠–١٩١٤) عام ١٩٠٢، على أنه يمتد من شبه الجزيرة العربية عبر فارس وأفغانستان حتى حدود باكستان، وبالمقابل حدد الشرق الأدنى بأنه يتضمن البلقان وغربي الأناضول وأراضي شرقي المتوسط، إلى أن زال هذا التمييز بين "الشرقين"، بعد أن أُدمجت البلقان في الخارطة الأوروبية، وحل الشرق الأوسط محل مصطلح الشرق الأدنى ليشمل بذلك كامل المنطقة ما بين شرقي البحر المتوسط إلى حدود أفغانستان التي تستبعد عادة لتعامل كعازل جغرافي، كما ويتم أحياناً إدخال الدول العربية في شمال أفريقيا، والسودان أيضاً، إلى مجموعة دول الشرق الأوسط. انظر: لوكمان، مرجع سابق، ص١٧٠–١٧١.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٢–١٤.

[٣] The Levant: اشتقاق من مصطلح فرنسي يشير إلى الأرض التي تشرق عندها الشمس. انظر: لوكمان، مرجع سابق، ص٩٧.

[٤] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص١٠.

[٥] تشير إحدى الدراسات إلى وجود صلة بين تسميتي (سوريا وسريان)، وبأن تسمية سريان تنسب إلى منطقة السراة في بلاد العرب، انظر: محمد، نجاح وأبو جبل، كاميليا، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، دمشق، د.ط، ٢٠٠٥–٢٠٠٦، ص٣٨.

[6] Volney, M. C–F, Syria and Egypt in the years 1783.1784 and 1785, translated from the French, London, 1984, vol. 1, p287.

[٧] معلوف، اسكندر، حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً)، المجلد الأول، الجزء العاشر، تشرين الأول، ١٩٢١، ص١٤١.

الإسلامية[1]، بيد أن الأوروبيين حافظوا على هذه التسمية في وثائقهم وكتبهم ورحلاتهم، واستعملتها جالياتهم في بلاد الشام منذ العصور الوسطى[2].

٢- موقع بلاد الشام وأهميته الجغرافية:

يقول أحد المؤرخين: **(من أحسن ما جرى عليه المؤرخون وأنفعه أنهم إذا شاؤوا كتابة تاريخ بلاد قدموا عليه كلاماً موجزاً في تخومها وجبالها ...)**[3]، فغالباً ما يشير الباحثين والكتاب ممن بحثوا في التاريخ والسياسة والاقتصاد- على حد قول أحدهم- إلى الدور المهم الذي تؤديه الجغرافيا في القضايا الدولية (السياسات والعلاقات)[4]، حتى إن المؤرخين القدامى أمثال هيرودوت[5]، وسترابون[6] كانوا ممن آمنوا بضرورة دراستها لفهم تطور البلدان تاريخياً وسياسياً، ومن نافلة القول إن العوامل الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية هي في تغيرٍ مستمر، إلا أن هيئة الأرض وتضاريسها من سهول، ووديان، وجبال، وصحارى، وبحار، ومحيطات، وأنهار تكاد جميعها تظل ثابتة، باستثناء بعض التغيّرات الطفيفة التي لا تظهر إلا بعد حقب طويلة من الزمن[7].

---

[1] مكاريوس، شاهين، حسر اللثام عن نكبات الشام، دار لأجل المعرفة، ديار عقل-لبنان، ١٩٨٧، عن الطبعة الأولى، مصر، ١٨٩٥، ص٤. وسيغيب اسم (سوريا)، على المستوى الرسمي على الأقل، حتى عام ١٨٦٤، إذ سيظهر من جديد ضمن التقسيمات الإدارية العثمانية الجديدة. انظر: عوض، عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م، دار المعارف، القاهره، د.ط، د.ت، ص٦٩-٧٠ مع هوامشها. وانظر: ياب، مالكولم، نشوء الشرق الأدنى الحديث ١٧٩٢- ١٩٢٣، ترجمة خالد الجبيلي، الأهالي، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ص١٤٧-١٤٨.

[2] الصباغ، ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج١، ص٨.

[3] الدبس، يوسف، تاريخ سورية الدنيوي والديني، تحقيق مارون رعد، دار نظير عبود، د.م، د.ط، ١٩٩٤،ج١، ص٢٤.

[4] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٩.

[5] **هيرودوت** (٤٨٤-٤٢٥ق.م): مؤرخ إغريقي ولد في هاليكارناسوس بآسيا الصغرى، وعاش حتى بداية الحروب البلوبونيزية (٤٣١ ق.م)، زار بلاداً كثيرة ومنها مصر، أرخ للحروب بين الإغريق والفرس (الحروب الميدية) وتتبع العداء بين الشرق والغرب (أوروبا وآسيا) منذ أقدم العصور، لقبه شيشرون بأبي التاريخ لأنه أول من عالج التاريخ بشكل موضوعي وعلى أسس علمية. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٢٦.

[6] **سترابون** (٦٣-٢٤ق.م): جغرافي وعالم تاريخ اشتهر بكتابه "الجغرافيا" المكون من (١٧) جزء، وصف فيه كل العالم المعروف في عصره قام برحلات إلى شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا. انظر: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض ط١، ٣٠ج، ١٩٩٦، ج١٣، ص١٢٧.

[7] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٩.

قيل في بلاد الشام: (**إن في العالم بلاداً تتصافح فيه أقطار أوروبة وآسية وأفريقية، وتعيش بالألفة على السواحل نفسها، هي بلاد برية وبحرية، هي سوق جامعة لمرافق مئة مدينة ومرفأ، تتبادل فيه القارات الثلاث محصولاتها المتنوعة، هناك تتصلب وتتوارد الطرق التجارية التي فتحها العالم القديم، هي أقدم موطن يعاين فيه الإنسان آثار أقدامه، فيه نشأت أخص الديانات الشائعة، وخلاصة القول لست تجد حيثما نظرت بلداً أصغر من هذا في مساحته قد اختلطت فيه وتزاحمت أمم أكثر وديانات أعظم وآثار أخطر**) [١].

يحتل العالم العربي مركزاً جغرافياً متميزاً، ولاسيما أجزائه الشرقية التي تلتقي عندها القارات الثلاث؛ أوروبا، وآسيا وأفريقيا[٢]، وفي هذا المشرق توجد بلاد الشام التي مع حجمها الصغير نسبياً تتباين تناقضاتها الجغرافية؛ كونها تنحصر بين منطقتين، إحداهما صحراوية تختلط مع صحراء شبه الجزيرة العربية في الجنوب[٣]، والأخرى تمتاز بتربة خصبة صالحة للزراعة تمتد على شكل قوس في الشمال مشكلة الجزء الغربي من المنطقة التي عرفت بـ (الهلال الخصيب)[٤]، وتقع إلى الشمال منها أيضاً جبال طوروس التي تفصلها عن الأناضول[٥]، وإلى الشرق منها توجد سهول ووادِيي دجلة والفرات، وهي من أخصب بقاع المنطقة التي كانت مهداً للعديد من الحضارات العظيمة، أما في الغرب فيقع البحر المتوسط الذي منح هذه المنطقة موقعها الفريد والمتميز، وجلب لها مشاكل سياسية عديدة، ولاسيما أنه يربطها بالعالم الغربي بشكل مباشر[٦].

ولعل أهم ما يضفي على بلاد الشام تلك الأهمية الجغرافية امتلاكها لأجزاء ومراحل مهمة من طرق التجارة الدولية التي تعد من أقدم طرق القوافل والمواصلات[٧]، التي كانت تشكل مع طريق

---

[١] وهو ما يورده هنري لامنس نقلاً عن اتيان لامي في كتابه La France du Levant. انظر: لامنس، هنري، المذاكرات الجغرافية في الأقطار السورية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، ١٩١١، ص٧.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١١.

[٣] الدبس، مصدر سابق، ج١، ص٢٤.

[٤] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص١٠. **الهلال الخصيب**: يعد الهلال الخصيب- من الناحية الجيولوجية- امتداداً لشبه الجزيرة العربية ويضم بلاد الشام والعراق، ويتميز عنه من حيث المناخ والتربة والتضاريس. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج٧، ص١٢٦-١٢٧.

[٥] لامنس، مصدر سابق، ص١٠. ويحدد فولني شمالي وجنوبي بلاد الشام بخطين متوازيين، ففي الشمال هو الخط الواصل بين الاسكندرية ونهر الفرات، وفي الجنوب هو الخط الواصل بين غزة والصحراء العربية. انظر:

- Volney, op. cit, p. 288.

[٦] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص١٠.

[٧] المرجع نفسه، ص١١.

السويس أهم الطرق التجارية قبل الكشوف الجغرافية، فقد شكلت القنوات التي مرت من خلالها البضائع القادمة من الشرق الأقصى إلى الدويلات الايطالية ومنها إلى أوروبا الغربية والوسطى[١]. وكان الطريق البري على مسير وادي الفرات أقرب تلك الطرق وأكثرها أمناً لتجارة الهند قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، في أوقات السلم[٢].

أما أهم الطرق الداخلية في بلاد الشام هي تلك الطرق المتشعبة عن دمشق شرقاً وشمالاً وجنوباً، فالطريق نحو الشرق يتجه إلى الموصل مروراً بتدمر، وآخر يتفرع منه نحو بغداد، ثم الطريق المتجه نحو الشمال إلى حمص، ومنها إلى حلب وسواحل بلاد الشام، والطريق المتجه جنوباً نحو المدينة المنورة ومكة المكرمة، أما الشبكة الأخرى والأعظم شأناً في التاريخ، فهي التي تبدأ من خليج الإسكندرونة على شكل فرعين: أحدهما يتجه نحو حلب ومنها إلى الموصل وبغداد والخليج العربي، والآخر يتفرع من أنطاكية نحو الجنوب إلى جبيل وصيدا وصور، وهو الطريق الذي سلكه القائد الشهير الإسكندر المقدوني[٣] أثناء زحفه نحو مصر سنة ٣٣٤ ق.م[٤].

٣- الأهمية الاستراتيجية والصراع الدولي على بلاد الشام حتى عام ١٨٣٣.

أ- الأهمية الاستراتيجية.

يرتبط ما تم ذكره عن الأهمية الجغرافية لبلاد الشام - بما أنها أكثر الأجزاء أهمية في "الشرق الأدنى"- بأهميتها الاستراتيجية، بعد أدت مدن وتجار "الشرق الأدنى" دوراً مركزياً في التجارة بين أقاليم العالم القديم[٥]، فقد كان الطريق إلى الثروات الهندية يقتضي دائماً المرور عبر الأقاليم الإسلامية[٦]، وفي العصر الحديث ولاسيما بعد أن سيطر على عالم القرن التاسع عشر مبدأ توازن

---

[١] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٤.

[٢] لامنس، مصدر سابق، ص٢٠.

[٣] **الإسكندر المقدوني** (٣٥٦-٣٢٣ق.م): ملك مقدونيا، ابن فيليب الثاني من أوليمبياس، تتلمذ على أرسطو وأخضع الثورات التي قامت بعد موت أبيه، في عام ٣٣٤ ق.م بدأ بتنفيذ مشروع محاربة الفرس الذي ورثه عن أبيه فحقق انتصارات عديدة على الفرس وفي عدة مواقع أهمها كرانيكوس، وأسوس، وجاوجميلا، وتوغل في الإمبراطورية الفارسية- الأخمينية وقضى عليها، ثم سار نحو الهند غير إن جنوده رفضوا المتابعة فعاد أدراجه، تزوج من أميرة فارسية وأمر قادته ورجاله بالزواج من الشرقيات، وفي عام ٣٢٣ ق.م أُصيب بالحمى ومات وعمره (٣٣) عاماً. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ،ج٢، ص١٥١-١٥٢.

[٤] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص١٢.

[٥] لوكمان، مرجع سابق، ص١٠٤.

[٦] سعيد، مرجع سابق، ص١٠٣.

القوى والدبلوماسية الميكيافيللية[1]، أصبح "الشرق الأوسط" – ومركزه بلاد الشام– مجالاً حيوياً للدول العظمى، وشكل بذلك ميداناً كبيراً للمنافسات والمنازعات الدولية فيما بينها، لاسيما فرنسا، وبريطانيا، وروسيا، في الخليج العربي والسواحل العربية المطلة على المحيطات وإيران وبلاد الشام ووادي النيل، مما أدى إلى انجراف "الشرق الأوسط" أكثر فأكثر إلى دوامة المصالح الاقتصادية والسياسية المتضاربة للدول العظمى، منذ بداية القرن التاسع عشر[2].

ب– فقدان الطرق التجارية لأهميتها الاستراتيجية في الشرق.

كانت فكرة السيطرة على التجارة الدولية بين الشرق والغرب تراود كل الدول الأوروبية التي مضت في الكشوف الجغرافية[3]، ولاسيما بعد أن أدركت حجم الثروات التي يكسبها العرب والمسلمون من التجارة والضرائب المفروضة على السلع والبضائع القادمة من الشرق التي يتم بيعها لتجار الدويلات الايطالية؛ لذا فقد حاولت تلك الدول العثور على طرق جديدة لهذه التجارة بعيداً عن "الشرق الأدنى" والبحر المتوسط، فتوصل البرتغاليون إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ومنها الطريق إلى السواحل الشرقية لأفريقيا ثم إلى الهند. أما الإسبان فقد حاولوا الوصول إلى الشرق الأقصى بالتوجه غرباً وقطع المحيط الأطلسي عرضاً، فتم بذلك اكتشاف القارة الأمريكية[4]، ثُمّ تم قطع المحيط الهادي غرباً وصولاً إلى الشرق الأقصى[5].

نتج عن هذا التحرك الإسباني– البرتغالي ظهور حركة استعمارية سعت إلى نهب ثروات البلاد التي احتلتها، ما لبثت أن تحولت هذه الحركة إلى صراع استعماري دولي شغلت فيه كل من هولندا وبريطانيا وفرنسا في المراحل اللاحقة أدواراً مهمة، فقد تمكنت كلٍ منها من السيطرة على أجزاء معينة من العالم، ومن جهة أخرى أدى ذلك إلى تحول خطوط التجارة العالمية إلى يد الأوروبيين عبر المحيطات إلى أوروبا، مما ألحق الضرر الكبير بالشرق الإسلامي بعد أن نجح هؤلاء في

---

[1] **الميكيافيللية:** مذهب سياسي نسبة إلى ميكيافيلي (١٤٦٦–١٥٢٧)، وهو سياسي إيطالي ولد في فلورنسا، ويقول مذهبه: إن الغاية تبرر الوسيلة، فضُرب فيه المثل، وله كتاب "الأمير". انظر: مجموعة باحثين، المنجد في الأعلام، دار الشروق، بيروت، ط١٢، ١٩٨٢، ص٦٢٩.

[2] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص١٩–٢٠.

[3] يحيى، جلال، الاستعمار المقنع، المكتبة الإفريقية، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٠، ص١٤.

[4] الحيدري، إبراهيم، صورة الشرق في عيون الغرب: دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٢٨.

[5] لوكمان، مرجع سابق، ص١٠٥.

تحييده، وتحييد البحر المتوسط عن العملية التجارية[١]، ففقدت السواحل البحرية لبلاد الشام أهميتها تدريجياً لصالح سواحل الأقاليم المطلة على المحيطات[٢]. وكان لظهور أسواق جديدة لفائض الإنتاج الأوروبي ومصادر جديدة للمواد الخام في كلٍ من الأمريكيتين والهند، ما دفع أيضاً إلى تقلص الأهمية النسبية للشرق الإسلامي في تجارة أوروبا الغربية[٣].

ج- المتغيرات الإقليمية والدولية وعودة الأهمية الاستراتيجية لبلاد الشام .

تحول التنافس الاستعماري من أجل السيطرة على ثروات العالم إلى صراعات دولية أوروبية- أوروبية، وأدت هذه الصراعات إلى نزاعات وحروب طويلة منذ القرن السادس عشر[٤]. ثم تحول هذا الصراع في القرن الثامن إلى صراع فرنسي- بريطاني، وما كانت حروب نابليون وحملته على مصر وبلاد الشام إلا حلقة من حلقات هذا الصراع، إذ سعى نابليون إلى الوصول إلى الهند عبر تفعيل الطرق القديمة عبر الشرق الإسلامي والبحر المتوسط، لضرب التفوق البريطاني الملاحي عبر المحيطات[٥]، وأبرز هذا الصراع أهمية بلاد الشام الاستراتيجية في سياسة البلدين[٦].

فمنذ بداية الكشوف الجغرافية أواخر القرن الخامس عشر، أنجز الأوروبيون- طيلة ثلاثة قرون (١٥٠٠-١٨٠٠)- الإحاطة بالولايات العربية من الإمبراطورية العثمانية الآسيوية والإفريقية في الأطراف والهوامش، في حين كان الضغط الأوروبي المباشر يتركز على الولايات البلقانية في الإمبراطورية العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر[٧]، وقد تمثل في ظهور النمسا كقوة أوروبية وحيدة تنافس الدولة العثمانية في ولاياتها الأوروبية، بعد أن توجهت من الدفاع إلى الهجوم في النصف الأول من القرن الثامن عشر، ولاسيما بعد معاهدة كارلوفيتز[٨]

---

[١] يحيى، الاستعمار المقنع، مرجع سابق، ص١٤-١٦.

[٢] رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، مطابع ألفباء- الأديب، دمشق، ط٢، ١٩٩٣، ص٤١٤.

[٣] أوين، روجر، الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠-١٩١٤، ترجمة سامي الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١٩٩٠،١، ص١٢٣.

[٤] يحيى، الاستعمار المقنع، مرجع سابق، ص١٧.

[٥] المرجع نفسه، ص١٩.

[٦] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص١٤.

[٧] طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، ط١٠، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، ص٢٨-٢٩.

[٨] **معاهدة كارلوفيتز Karlowitz ١٦٩٩:** وقعتها الدولة العثمانية مع كل من النمسا وروسيا والبندقية وبولونيا، وتنازلت بموجبها عن كامل بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعن مدينة أزاق لروسيا وكان أول منفذ لروسيا على

Karlowitz ١٦٩٩ التي كانت أول وثيقة تتضمن هزيمة العثمانيين، ولكنها تراجعت في النصف الآخر من هذا القرن أمام ظهور بروسيا في وسط أوروبا، وروسيا في الشمال الشرقي منها، روسيا التي برزت كقوة أوروبية رئيسية مناوئة للدولة العثمانية[١]، استطاعت أن تتمركز على الساحل الشمالي للبحر الأسود، وأصبحت تتدخل في قضية المضايق العثمانية البوسفور[٢] والدردنيل[٣] على أنها شأن دولي[٤]. كما شكل الصراع الروسي– العثماني أكثر العوامل خطورة على الدولة العثمانية، فقد كانت الحرب الروسية– العثمانية (١٧٦٩–١٧٧٤) وبالاً على الدولة العثمانية، وانتهت بمعاهدة كوجك قينارجه[٥] عام ١٧٧٤، وكان من جملة ما حصل عليه الروس الحق في إقامة كنيسة أرثوذكسية في القسطنطينية والسماح لرعايا روسيا بالحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين[٦]، كما تنازلت الدولة العثمانية عن شبه جزيرة القرم لروسيا –بناءً على نصيحة فرنسية– خوفاً من استمرار تلك الحرب وعلى أنه أهون الشرور[٧].

أما بريطانيا فقد زاد اهتمامها بـ "الشرق الأدنى" بعد حروبها مع فرنسا في الهند بين عامي ١٧٤٤و١٧٤٨ وعامي ١٧٥٦و١٧٦٣[٨]، وقد ألقت بكل ثقلها السياسي والعسكري لتوطيد نفوذها في الهند مع طول المسافة التي تفصل بينهما، ودفع ذلك إلى ظهور فكرة الاتصال السريع بين الهند

البحر الأسود، كما تنازلت لبولونيا والبندقية عن أقاليم مهمة، وتوقفت النمسا وغيرها عن دفع الجزية للدولة العثمانية منذ ذلك الوقت. انظر: المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨١، ط٢، د.ت، ص٣١٠.

[١] ياب، مرجع السابق، ص ٦٣. حجر، جمال محمود، القوى الكبرى والشرق الأوسط (في القرنين التاسع عشر والعشرين)، دار المعرفة الحامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٩، ص١٠–١٣.

[٢] **البوسفور:** مضيق طوله ٢٧ كم يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة ويفصل بين تركيا الآسيوية وتركيا الأوروبية. انظر المنجد، مرجع سابق، ص١٥٠.

[٣] **الدردنيل:** مضيق يقع بين شبه جزيرة البلقان وأسيا الصغرى ويصل بحر إيجة ببحر مرمرة. انظر: المرجع نفسه، ص٢٨٤.

[٤] ياب، مرجع سابق، ص٦٤.

[٥] كوجوك **قينارجه:** مدينة في بلغاريا وقعت فيها معاهدة الصلح بين عبد الحميد الأول وكاترين الثانية قيصرة روسيا، وقد نص أحد بنودها على حق روسيا في حماية الحجاج المسيحيين إلى "الأرض المقدسة". المنجد، مرجع سابق، ص٥٩٧.

[٦] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٢١.

[٧] المحامي، مصدر سابق، ص٣٦٠.

[٨] سعيد، مرجع سابق، ص١٠٣.

وبريطانيا، وبما أن البحر الأحمر كان مقفلاً أمام الأوروبيين، فقد لاحت لهم فكرة الاستفادة من الموانئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط بعد الربط بين البصرة وحلب، ولكن عزيمتهم ما لبثت أن فترت بعد حصولهم على حق مرور بريدهم بحرية عبر الأراضي المصرية، وهذا الأمر كان يحدث بشكل متقطع بسبب الاضطرابات في مصر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر[١].

وفكرت فرنسا منذ القرن السابع عشر في إحياء الطريق البري القديم بين الشرق الأقصى وأوروبا، لمزاحمة النفوذ البريطاني التجاري في المحيطات وعن طريق رأس الرجاء الصالح؛ إذ عمل الفرنسيون على البحث عن بديل حتى توصلوا إلى فكرة تحويل طرق التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط السويس والفرات[٢]، لكن العثمانيون رفضوا فك الحظر عن الملاحة في البحر الأحمر، فتظافرت بذلك السياستين البريطانية والعثمانية اللتين كان لهما مصالح في استمرار هذا الحظر الذي أسهم في الحفاظ على أوضاع اقتصادية محددة لوادي النيل، بعد أن حرصت بريطانيا على مقاومة المشروعات الرامية إلى إحياء الطريق البري؛ طريق مصر والبحر الأحمر[٣]، وقد دفع ذلك بالفرنسيين إلى توجيه أنظارهم نحو الخليج العربي والبصرة وبلاد الشام[٤].

وجاءت الحملة الفرنسية كحلقة من حلقات الصراع الدولي على الشرق، وبناء الإمبراطوريات الاستعمارية والحصول على الامتيازات التجارية والسياسية، وكانت أول اعتداء أوروبي– عسكري، إذا ما استثنينا تقدم الأسطول الروسي إلى شواطئ بلاد الشام ١٧٧٣، ومع فشل الحملة إلا أنها أنهت العزلة التي فرضتها الدولة العثمانية على المشرق العربي كما أظهرت الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة، فأصبحت من جرّاء ذلك مجالاً حيوياً، وميداناً للتنافس بين القوى العظمى في تلك المرحلة[٥]. ولاسيما أن الصراع على المستعمرات بين بريطانيا وفرنسا كان على أشده، إذ أصبح

---

[١] بيشون، جان، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا في هذا الشرق، ترجمة محمد عزة دروزة، مكتبة الكشاف، بيروت، ط١، ١٩٤٦، ص٣٥–٣٧.

[٢] المرجع نفسه، ص٣٢–٣٣

[٣] عبد الكريم، أحمد عزت، العلاقات بين الشرق العربي وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص١٩٩.

[٤] بيشون، مرجع سابق، ص٣٢–٣٣. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٢٢–٢٢٣.

[٥] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٣٣–٢٣٥.

التحرك الفرنسي مصدر قلق بالغ لبريطانيا، لتخوفها من تنامي نفوذ فرنسا أو روسيا في الدولة العثمانية[١].

ومع بداية القرن التاسع عشر دخل الصراع الدولي مرحلة جديدة، فقد امتد الضغط الأوروبي الذي يدعم التحركات القومية في البلاد المسيحية التابعة للدولة العثمانية ليشمل البلاد الإسلامية- العربية، وقد تركز اهتمام الدول الأوروبية على بلاد الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط بهدف إحياء الطريق البري القديم، واحتكار تجارة الشرق، وهو ما سعى إليه نابليون بونابرت الذي فتح باب التنافس الدولي على المشرق العربي على مصراعيه[٢]. وأقامت بريطانيا علاقات جيدة مع إيران كفلت لها استقلالها مقابل منعها مرور أي جيش أوروبي يحاول الزحف نحو الهند، لذا فقد رأت في الحروب الروسية- الإيرانية خطراً داهماً وجعلتها ترى الخطر الروسي قد حل مكان الخطر الفرنسي. وكل هذا رسم ملامح سياسة بريطانيا في الشرق الأدنى، فهي لن تسمح بأي تحرك نحو ممتلكاتها في الهند، وستسعى إلى تأمين طريق بري وسريع بين بريطانيا والهند[٣]، وهذا يعني أنها ستحاول قطع الطريق أمام أي تقدم فرنسي نحو مصر وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي[٤]، وستعمل على إقصاء روسيا عن البحر المتوسط وإيران وأفغانستان، وجعل جميع المعابر المؤدية إلى المحيط الهندي والشرق الأقصى من البحر الأحمر والخليج العربي تحت إدارتها وإشرافها[٥].

ومع أن العلاقات الفرنسية- البريطانية اتجهت نحو التهدئة والتفاهم بعد مؤتمر فيينا ١٨١٥، غير أنها لم تدم وقتاً طويلاً؛ لأن طريقي الفرات والسويس كانا دائماً يعكران صفو العلاقات بين الطرفين[٦]، ولاسيما بعد ظهور أثر الثورة الصناعية وظهور الفائض في الإنتاج، وبروز الدور الخطير لرؤوس الأموال الأوروبية[٧]، ولاسيما البريطانية، وهذا الأمر اكسب هذين الطريقين أهمية

---

[١] مؤنس، حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، ط١، ١٩٣٥، ط٢، ١٩٣٨، ص٧٨-٧٩.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٤١.

[٣] بيشون، مرجع سابق، ص٥٤-٥٥. وحول الحرب وبنود الصلح، انظر: بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨، ص٦٥٨-٦٥٩.

[٤] ياب، مرجع سابق، ص٦٤-٦٥.

[٥] بيشون، مرجع سابق، ص٥٦.

[٦] المرجع نفسه، ص٥٧.

[٧] رمضان، عبد العظيم، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث- من ظهور البرجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ن، د.ط، د.ت، ج٢، ص٦٩.

خاصة، وهذا يظهر بوضوح في كلام بالمرستون Palmerston[١] الذي يقول: **(من الحماقة الكبرى أن تقوم بريطانيا، دون التزام أخلاقي أو سياسي، بأي عمل من شأنه أن يؤدي بطريق الفرات والسويس إلى الهند إلى الخضوع لسيطرة محمد علي في الوقت الذي أصبح فيه لهذين الطريقين أهمية سياسية بالغة)**[٢]، هذا بعد أن كان من الصعب على بريطانيا أن تنسى هزيمتها في الإسكندرية أثناء حملة فريزر ١٨٠٧، وما كان من تشهير محمد علي لرؤوس المئات من جنودهم في ميدان المعركة، وزاد في كرههم تكلل مساعي محمد علي بعد تمرده على السلطان العثماني بضم ولاية أضنة وبلاد الشام إلى حكمه[٣].

د- العلاقات السياسية بين بلاد الشام وأوروبا في التاريخ الحديث حتى بداية القرن التاسع عشر:

لم تستطع الولايات العربية ومنها الولايات الشامية إقامة أية علاقات سياسية مع الدول الأجنبية إلا عن طريق الدولة العثمانية، وإن حدث ذلك، فإنه يكون بعيداً عن سلطتها؛ لإنها حتماً لن توافق ولن تنظر إليها بعين الارتياح؛ لذا تجد أن كل الولاة العثمانيين والباشوات والزعماء المحليين الذين اختاروا العصيان حرصوا على إقامة علاقات سياسية مباشرة مع القوى الأجنبية للحصول على اعتراف بالكيانات التي يرغبون في إنشائها، وأخذ الدعم السياسي والعسكري والاقتصادي اللازم لإخراج كياناتهم من العزلة، والبحث عن المصالح المشتركة الممكنة مع تلك القوى[٤]. وغالباً ما تصدت الدولة العثمانية لتلك العلاقات وعملت على الحد من فعاليتها، والقضاء على صاحب العصيان أياً كان، كما حدث مع علي جنبلاط في حلب، والمعني في لبنان في القرن السابع عشر، وضاهر العمر في فلسطين وحليفه علي بك المملوكي في مصر في القرن الثامن عشر[٥].

---

[١] **بالمرستون Palmerston** (١٧٨٤-١٨٦٥): سياسي ورجل دولة بريطاني أصبح وزيراً للخارجية (١٨٣٠-١٨٤١)، أشرف على سياسة بريطانيا المعادية لدولة محمد علي باشا في مصر وبلاد الشام، وطرح مشروعاً لإقامة دولة يهودية في فلسطين، أصبح رئيساً للوزراء لإدارة حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)، ولم يتخلى عن رئاسة الوزراء حتى مماته عام ١٨٦٥. انظر الكيالي، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٢.

[٢] أمين، جلال، المشرق العربي والغرب (بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٨٣، ص٢٦.

[٣] بيشون، مرجع سابق، ص٥٨.

[٤] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٣٥.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٣٧.

ولم تكن للدول الأوروبية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر مصالحٌ قوية، وثابتة في المشرق العربي، ولم يكن لها مطامح حقيقة في السيطرة على هذا المشرق، كما أنها لن تغامر بمنازلة الدولة العثمانية في عقر دارها، وفي هذه المنطقة الحساسة بالنسبة للمسلمين، في حين أن الدولة العثمانية لازالت مبعث الرعب بالنسبة لأوروبا حتى ذلك الوقت القرن الثامن عشر؛ لذا فهي لم تسع إلى دعم تلك الحركات، وإقامة العلاقات السياسية إلا في أضيق الحدود[١].

أما عن تلك الحركات في بلاد الشام وعلاقاتها السياسية مع الدول الأوروبية في التاريخ الحديث، فقد برزت العلاقات السياسية التي أقامها علي جنبلاط الكردي صاحب كلّس وعزاز في شمال بلاد الشام الذي تحالف مع فخر الدين المعني صاحب الشوف في لبنان والثائرَيْن على الدولة العثمانية[٢]، مع فرديناند الأول أمير تسكانيا، وكانت تسكانيا قد عجزت عن نصرة جنبلاط الذي مُني بالفشل في مقاومة الدولة العثمانية، فاستمر أمير تسكانيا في علاقاته السياسية مع الأمير فخر الدين بعد هزيمة حليفه جنبلاط[٣]، وقد حافظ الطرفان على العلاقات المتينة والصلات التجارية، إضافة إلى علاقات فخر الدين المعني الثاني مع الدول الإيطالية الأخرى، وقد قدمت تسكانيا السلاح والذخيرة للأمير فخرالدين إلا أنها عجزت عن التدخل العسكري لدعم حليفها وشريكها التجاري، ولم يستطع الأمير فخر الدين مواجهة القوات البرية والبحرية العثمانية وحده، فاضطر إلى اللجوء إلى حليفته تسكانيا وغيرها من الدويلات الإيطالية بين عامي ١٦١٣و١٦١٨[٤]. وبعد عودته حقق نجاحات لافتة في بلاد الشام، فقد امتد نفوذه من حلب شمالاً إلى القدس جنوباً وتدمر شرقاً، كما أن علاقاته تحسنت مع الأستانة ونال لقب سلطان البر، ثم ما لبث أن عادت العلاقات بينه وبين الباب العالي إلى التوتر، فقد سيّرت الدولة العثمانية حملات عسكرية؛ برية وبحرية ضده أدت أخيراً إلى أسره وسوقه إلى الأستانة، بعد أن عجزت حليفاته الدويلات الإيطالية من نصرته مرة أخرى، وأُعدم هناك عام ١٦٣٥[٥]. بينما كان اشتراك الأسطول الروسي إلى جانب قوات علي بك المملوكي وحليفه ضاهر العمر أولَ عمل عسكري أوروبي منظم ضد السواحل الشرقية للبحر المتوسط عام ١٧٧٣–

---

[١] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٣٧–٢٣٩.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٣] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٤٠.

[٤] حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، د.ط، د.ت، ج٢، ص٣٢٨–٣٢٩. عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٤١–٢٤٢.

[٥] حتي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣١–٣٣٢. عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٤٢–٢٤٣. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص١٦٨–١٦٩.

١٧٧٤، وهذا كان خلال حروب كاترين الثانية[١] ضد الدولة العثمانية بين عامي ١٧٦٨ و١٧٧٤[٢]. فقد تحدى علي بك الدولة العثمانية، وامتنع عن الطاعة، وحاول الاستقلال بمصر، وقد نشط ضاهر العمر في المرحلة نفسها في هذا الاتجاه، فتظافرت جهود الطرفين للسعي في تحقيق هذا الهدف، وقد سعى كلا الزعيمين للاتصال بالقوى الأوروبية، فاتصلا بالبنادقة وفرسان القديس يوحنا في مالطا، ثم بالإنكليز، وأخيراً بالروس الذين حصلوا منهم على اتفاقٍ بدعمهم لهم بالسلاح والفنيين، إلا أن الأمر فشل برمته، فقد انقلب أبو الذهب على سيده علي بك، كما خلع أحمد الجزار طاعة الشهابيين في بيروت، ودخل في طاعة السلطان العثماني، ولم تحقق السفن الروسية التي حاصرت بيروت بين عامي ١٧٧٣-١٧٧٤ أي تقدم يذكر، فانسحبت بعد أخذ مبلغٍ من المال لقاء الامتناع عن نهب المدينة[٣]، ثم جاءت الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ كأول مشروع للاستعمار الأوروبي منذ الحروب الصليبية، غير أنها عجزت عن اجتياز أسوار عكا عام ١٧٩٩، فانسحبت إلى مصر، ثم إلى فرنسا عام ١٨٠١[٤].

ثانياً- أشكال التدخل الأوروبي في بلاد الشام وأدواته.

١- الامتيازات الأجنبية:

شكلت الامتيازات الأجنبية أهم وسيلة أمام الدول الأوروبية للتغلغل في الإمبراطورية العثمانية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، واستطاعت تحويل ولاياتها إلى شبه مستعمرات ومناطق نفوذ لها، بعد تغلغل الرساميل الأجنبية التي ساهمت في عرقلة نمو العلاقات الرأسمالية فيها، وفي توطيد أسس العلاقات الإقطاعية بهدف ضرب سيادة الدولة العثمانية، واستغلال موارد شعوبها لصالح سياسات الدول الاستعمارية منذ عام ١٥٣٥ حتى عام ١٩١٤[٥].

فما هي هذه الامتيازات؟ وكيف ظهرت؟ وما هي آليات عملها؟

---

[١] **كاترين الثانية Catherine** (١٧٢٩-١٧٩٦): إمبراطورة روسيا خلعت زوجها بطرس الثالث واستولت على الحكم، اشتهرت بانتصاراتها على الأتراك، وبرعايتها للعلماء والفلاسفة. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٧٨.

[٢] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٤٤-٢٤٦. مصطفى، نادية، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص١٢٥.

[٣] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٤٤-٢٤٦.

[٤] هنتش، مرجع سابق، ص٢٤٠.

[٥] السباعي، بدرالدين، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية (١٨٥٠-١٩٥٨)، دار الجماهير، دمشق، د.ط، د.ت، ص٧-٩.

أُطلق اسم الامتيازات على سياسة الدولة الرسمية تجاه الدول الأجنبية وجالياتها المقيمة في أراضيها حسب مجموعة من البنود القانونية التي تحدد وضع الأجانب في الإمبراطورية العثمانية، وتم من خلالها وضع التسهيلات الممكنة لتجارها مع تحديد مهام السفراء والقناصل، دون أن يكون في أي واحد من تلك البنود- في المراحل الأولى- إشارة إلى الأمور السياسية[١]؛ لأن السلاطين العثمانيين كانوا يفضلون عقد الهدن، ومنح الامتيازات على المعاهدات؛ لاعتقادهم بأن لهم الحق في أن ينقضوها متى شاؤوا، وعلى أساس أن الدول الأخرى وملوكها في أوروبا لايناظرونهم[٢]، لكنها تحولت بعد مراحل عدة إلى تمييز للأجانب من رعايا الدول أصحاب الامتيازات، بحيث لا يخضعون لإدارة البلاد، ولا لقضائها، أو لتشريعاتها[٣]، حتى إنها أصبحت تطال فئات اجتماعية كانت هي في الأساس من رعايا السلطان العثماني[٤]. كما أنها عرفت لدى الأجانب بـ (capitulations) وهي الأقرب إلى معاني (المعاهدات، والاستسلام بشروط، والكف عن المقاومة) إلى جانب معانٍ أخرى مثل (خُلاصة وملخص)، في حين تعني بالعثمانية (إذن نامة، أو عهد نامة) بمعنى (منح الإذن، وعهد الأمان)، التي كان يمنحها المسلمون لأهل الذمة والمستأمنين، وهو أمر درج عليه العثمانيون منذ عهودهم الأولى؛ لأنه ينسجم مع التشريع الإسلامي للمذهب الحنفي الذي كانت الدولة العثمانية تسير بموجبه[٥]. في حين يربطها أحد الباحثين اليونانيين بالعلاقات الدينية بين الطوائف المختلفة على أنها (**حقوق مدنية نشأت في البلاد التي تختلف ديانتها الرسمية عن مذهب الشعوب التي خضعت لها**)[٦]، ويعد الباحث نفسه أن تصريح عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهدته المشهورة[٧] لمسيحيي القدس بالأمان، إبان فتحها عام ١٥هـ/٦٣٧م، من أوائل الاعترافات بالحقوق

---

[١] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص٨٢.

[٢] بيهم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، د.ط، ١٣٣٤هـ/١٩٢٥م، ص٢٩٢.

[٣] الوعري، مرجع سابق، ص٦٢.

[٤] مخزوم، محمد، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الانماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٢١.

[٥] الصباغ، ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنيين السادس عش والسابع عشر(العاشر والحادي عشر الهجريين)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج١، ص٢٢٩-٢٣١.

[٦] فوتيراس، ستافروس، امتيازات الجماعات المسيحية في المملكة العثمانية- مقالات نشرت تباعاً في جريدة الحوادث سنة ١٩١٢، ترجمة غطاس أفندي قندلفت، المطبعة الوطنية، طرابلس الشام، د.ط، د.ت، ص٣.

[٧] للاطلاع على نص الوثيقة انظر: ملف وثائق فلسطين (مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية) من عام ٦٣٧-١٩٤٩، وزارة الارشاد القومي- الهيئة العامة للاستعلامات، لا يوجد دار نشر، د.ن، د.ط، د.ت، ص١٩.

الإنسانية والدينية للملل غير المسلمة في فجر العصر الإسلامي، وذلك بناءً على هدي الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، واستمر الخلفاء والقادة المسلمون في منح الأمان لأهل الذمة في مختلف المراحل التالية، ولما قامت الدولة العثمانية ورثت هذه المبادئ من الخلافة العربية وطبقتها في أحكامها، ولاسيما عندما بدأت بالتعامل مع أوروبا وممالكها المسيحية، على حد تعبير الباحث[١]. ويعيد أحد الأبحاث التي نُشرت في المقتطف عام ١٩١٤ تاريخ هذه الامتيازات في البلاد الشرقية إلى عصر الخليفة هارون الرشيد[٢] الذي منح الكثير من الضمانات والتسهيلات التجارية للتجار الأجانب من رعايا الإمبراطور شارلمان[٣]، الذين كانوا يؤمّون البلاد الاسلامية، وبعد سقوط إمبراطورتيه مُنحت تلك الامتيازات للمدن الايطالية التي قامت على أنقاضها[٤].

ومهما يكن من الأمر فقد طرأت تحولات خطيرة على مفاهيم هذه الامتيازات، بعد أن انتقلت من نوع من المعاهدات التجارية بين الدول العثمانية وإحدى الدول الأوروبية، إلى سياسات استراتيجية وأوضاع خاصة بهذه الدول في الأراضي العثمانية، بعد أن تحولت هذه الامتيازات إلى ذرائع وركائز قانونية اعتمدتها الدول الأوروبية للتدخل في الدولة العثمانية وولاياتها، ومنها بلاد الشام التي رأوا أنها "حق" يمنحهم التمتع، دون السكان المحليين، بأوضاع خاصة تخولهم الحركة والاستثمار في

---

[١] فوتيراس، مصدر سابق، ص٨-٩.

[٢] **هارون الرشيد:** خامس الخلفاء العباسيين حكم بين عامي ١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٧- ٨٠٩م، احتل اسمه شهرة واسعة في الكتب التاريخية ونُسِج عن شخصيته القصص والأساطير في الشرق والغرب خلّدها عنه كتاب ألف ليلة وليلة، وكان من أفاضل الخلفاء وفصحائهم، كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان كثير الصلاة ويحب الشعر والشعراء ويميل إلى الأدب والقصة. انظر: بيطار، أمينة، تاريخ العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، د.ط، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص٦٣.

[٣] **شارلمان (٧٤٢-٨١٤م):** مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وُلد عام ٧٤٢م في مكان غير معروف تماماً، وهو ابن بيين القصير- مؤسس العائلة الكارولنجية- وجدّه شارل مارتل قائد معركة بواتييه (بلاط الشهداء)، بعد وفاة والده قسمت المملكة بينه وبين أخيه الذي ما لبث أن توفي فجأة عام ٧٧١م، فأصبح الحاكم المطلق لمملكة الفرنجة، وكان يجمعه مع هارون الرشيد علاقات دبلوماسية. انظر: مجموعة مؤلفين، موسوعة مشاهير العالم، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ج٣، ٢٠٠٢، ص٣٢.

[٤] الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المقتطف، مج ٤٥، من تموز- كانون الأول ١٩١٤، ج٥، ص٤٥٧.

الأراضي العثمانية لتصل في مراحل لاحقة إلى الهيمنة الاقتصادية، التي تحولت في مراحل الذروة إلى احتلال عسكري مباشر[١].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن كيف تطورت هذه الامتيازات؟ وكيف انتقلت من مجرد كونها مزايا تجارية إلى امتيازات و"حقوق" تفرض قيوداً على سياسة الدولة العثمانية واقتصادها؟ وما هي المراحل التي مرت بها حتى وصلت إلى حد الهيمنة الاقتصادية أواخر القرن التاسع عشر الميلادي؟.

أ- المراحل الأولى:

كان تجار الشرق في العصور القديمة، حتى ظهور الإسلام إلى القرن العاشر الميلادي، يسيطرون على كل الطرق البرية والبحرية والمراكز التجارية والشبكات التي ربطت أوروبا الغربية بالبحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ووسط آسيا وشرقها، كما واجه تجار الدويلات الإيطالية منذ القرن العاشر الميلادي حقيقة وواقع احتكار تجّار المشرق العربي للتجارة المشرقية، فقد كان عليهم أن يشتروا البضائع المشرقية بالأسعار التي يفرضها التجار المحليون[٢]. أضف إلى ذلك أن العلاقات التجارية بين الشرق ولاسيما المشرق العربي والغرب قديمة قدم التاريخ، فقد كان للفينيقيين أدوار تجارية رئيسية في البحر المتوسط، وأقاموا علاقات تجارية مع أوروبا، وشمال إفريقيا في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد[٣]، واستمرت العلاقات التجارية والتفوق المشرقي التجاري من العصور القديمة حتى ظهور الإسلام الذي أعلن عن مرحلة مهمة ورئيسية من التاريخ العالمي، ودخلت العلاقات التجارية بين المشرق الإسلامي وأوروبا مرحلة جديدة فقدت خلالها الكثير من قوتها السابقة، بسبب وقوف الغرب موقفاً عدائياً من انتشار الإسلام، إلى أن ظهر الإيطاليون في القرن العاشر الميلادي كوسطاء في التجارة بين الشرق والغرب، واستمر ذلك زهاء خمسة قرون[٤]؛ لذا يُعدّ التجار الإيطاليون أقدم التجار الأوروبيين، وكان التجار الفرنسيون والإنكليز يمارسون التجارة

---

[١] السكيف، ماري سركو، الامتيازات الأجنبية وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية على سورية (بلاد الشام) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، ٢٠١٠، ص٣٣-٣٤.

[٢] لوكمان، مرجع سابق، ص١٠٤.

[٣] لامنس، مصدر سابق، ص١٤.

[٤] السكيف، مرجع سابق، ص٣٤-٣٦.

مع الشرق عن طريقهم[١]، فقد حصل التجار الإيطاليون على امتيازات مهمة قبل الحروب الصليبية، ولم تمنع تلك الحروب ظهور المراكز التجارية الأوروبية في بلاد الشام، وقيامها بأعمال تجارية هناك رغم معارضة الكنيسة البابوية وتحريمها حمل المنتجات الغربية إلى بلاد الشام لاسيما السلاح والذخيرة، فحظيت المدن الإيطالية بأوضاع مميزة في بلاد الشام لقاء عدم إصغائها للتعاليم البابوية[٢]. وبعد انهيار الممالك الصليبية في بلاد الشام وخروجهم منها، حافظت بعض المراكز التجارية الأوروبية على بقائها، وأخذت تستعيد شيئاً من قوتها، بعد أن أقامت قنصليات عديدة في بلاد الشام، ولاسيما في دمشق وحلب[٣]، ومع ذلك فقد ظل التجار والزوار الأوروبيون في خوف شديد على حياتهم وأموالهم، وقلما كانوا يقيمون أو يمرون في تلك الأصقاع إلا بمعاهدات تجارية (الامتيازات أو العهد نامه) بين حكومات بلادهم وحكام الشرق[٤].

وقد استمرت السلطات المملوكية في تقديم التسهيلات اللازمة، وعقد الامتيازات التجارية، وكثرت المراكب التجارية وأحدث ذلك منافع متبادلة بين الشرق والغرب، إلى أن تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أواخر القرن الخامس عشر، وهذا الاكتشاف كان بداية النهاية للازدهار الاقتصادي في المشرق العربي والإسلامي، وبداية السيطرة والهيمنة الغربية على الاقتصاد والتجارة الدولية[٥].

حافظ العثمانيون الأوائل على العلاقات الجيدة مع الدويلات الإيطالية في المراكز التي سيطروا عليها على حساب البيزنطيين، فقد حصلت جنوه على أولى الامتيازات العثمانية في القرن الرابع عشر، بعد أن دخل العثمانيون بلاد الروملي (الجانب الأوروبي من الإمبراطورية العثمانية) للمرة الأولى[٦]، وبعد سقوط القسطنطينية حافظ السلاطين العثمانيون على الحالة التي كانت عليه العناصر غير المسلمة، كما أيّدوا امتيازات الجنويين القاطنين فيها، إلى جانب عقد معاهدة تجارية مع جمهورية البندقية عام ١٥٢٢، وهذه المعاهدة تم فيها منح وكلاء الجمهورية حقوق الفصل في

---

[١] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٠٦.

[٢] السكيف، مرجع سابق، ص٣٧.

[٣] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٢.

[٤] الامتيازات الأجنبية، الهلال، السنة الرابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٥ إلى يوليو ١٩٠٦، مطبعة الهلال، الفجالة- القاهرة، ج٤، ص٢٠٧.

[٥] السكيف، مرجع سابق، ص٣٩-٤٠.

[٦] المرجع نفسه، ص٥٣.

بعض قضايا البنادقة داخل الدولة العثمانية[١]. وعليه فإن الامتيازات التجارية في الدولة العثمانية تعود إلى مرحلة أقدم من تلك التي منحها السلطان سليمان القانوني[٢] لفرنسا عام ١٥٣٥-١٥٣٦[٣].

وفي الحقيقة كانت جمهورية البندقية إحدى أهم الدويلات التجارية الإيطالية بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، إلا أن تغيير مجرى الطرق التجارية العالمية إلى رأس الرجاء الصالح إضافة إلى الصراع العنيف الذي نشب بينها وبين الدولة العثمانية أدى إلى ضعف مركزها مقابل تنامي وتفوق القوة العثمانية، وازدياد قوة دول أوروبا الغربية[٤]. وكان تغيير طرق التجارة العالمية القديمة المتمركزة في البحر المتوسط وانتقالها إلى المحيطات قد أثرت فقط في تجارة آسيا البحرية، في وقت غدت فيه التجارة البرية فيها تحت سيطرة بلاد فارس التي لم تكن تشكّل سوى مرحلة ثانوية، وأصبحت سيدة الطرق التجارية بين الدولة العثمانية والهند والصين، واستفادت منها الدولة العثمانية في الأناضول استفادة عظيمة[٥]، وهذا ما قد يفسر إغلاق العثمانيين البحر الأحمر أمام السفن التجارية لمدة طويلة من الزمن بحجة حماية الأماكن المقدسة[٦]. بينما تأثرت دولة المماليك، وتجارة إقليميها الرئيسيين بلاد الشام ومصر، بهذا التغيير الخطير في الطرق التجارية، فقد بدأت هذه الدولة تعاني من أزمة اقتصادية عنيفة، فتهاوت بسهولة أمام التقدم العثماني بين عامي ١٥١٦-١٥١٧[٧]،

---

[١] الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المقتطف، مرجع سابق، ص٤٥٧.

[٢] **سليمان القانوني:** (١٤٩٤-١٥٦٦) هو ابن السلطان سليم الأول ولد بإسطنبول وخلف والده عام ١٥٢٠، بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج الكمال والقوة (سياسياً وثقافياً وعسكرياً)، اشتهر بالتنظيم والتشريع، وتمتع بمهارة عسكرية عالية، ومن أهم فتوحاته وأبرزها الاستيلاء على بلغراد عاصمة الصرب ١٥٢١ فتساقطت على إثرها حصون المجر المهمة، واستيلائه على جزيرة رودوس ١٥٢٢، كما حاصر فيينا عام ١٥٢٦ولكنه فشل في فتحها، وانضم إليه خير الدين بربروسا فأسهم في حماية تونس من الإسبان والبرتغاليين، اشتهر بالقانوني نظراً للقوانين العديدة التي وضعها، إضافة إلى العديد من الأعمال والمنجزات الأخرى. انظر: الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج١٣، ص٨٧.

[٣] مصطفى، نادية، مرجع سابق، ص٢٩. مخزوم، مرجع سابق، ص٢٠.

[٤] ياغي، إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ص١٧٩-١٨٠.

[٥] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص٧٣

[٦] محمد، نجاح، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، ط٥، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص٧٣. أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٩٩٣، ص١٨٩.

[٧] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص٧٣

فقد تم الإعلان عن مرحلة جديدة من الاقتصاد العثماني بعد أن استولت على المشرق العربي الأمر الذي جعلها تسيطر على الطرق التجارية بين البحر المتوسط، والمحيط الهندي[١]، ثم اتبعتها الدولة العثمانية بفرض سياسة الامتيازات ذات الشروط المجحفة بحق التجارة والصناعة المحليتين في هذه البلاد، وهذا الأمر أدى إلى القضاء عليها قضاءً مبرماً، وبدء معها عهد طويل من العزلة الاقتصادية مصحوبة بعزلة سياسية وفكرية امتدت إلى مشارف القرن التاسع عشر[٢].

ب-الامتيازات الأجنبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر:

دفع الصراع العثماني مع البندقية[٣]، إلى جانب ظهور إسبانيا وصراعها مع فرنسا وتهديدها للسواحل الجنوبية للبحر المتوسط وشمال إفريقيا[٤]، هذا التهديد الذي كان سبباً مباشراً لسوء العلاقات العثمانية- الإسبانية[٥]، ودخول فرنسا في المشرق كلاعب جديد، دفع الأمر نحو التقارب الفرنسي- العثماني وتوقيع المعاهدة المعروفة باسم الامتيازات الأجنبية عام١٥٣٥[٦]، وهي تشبه المعاهدات التي سبق للدولة العثمانية أن عقدتها مع جنوه والبندقية[٧]. ومع أن هذه الامتيازات كانت كما سبق أسلوب تواصل قديم بين التجار الأجانب والسلطات الحاكمة في المشرق العربي[٨]، إلا أنها لم تأخذ أهميتها وجدليتها التاريخية إلا منذ عام ١٥٣٥ عندما تم توقيع المعاهدة التي تضمنت هذه الامتيازات بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الفرنسي فرانسوا الأول[٩]، وكانت على شكل عهودٍ

---

[١] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣، ص١٣٣-١٣٤.

[٢] عبد الكريم، مرجع سابق، ١٩٥.

[٣] السكيف، مرجع سابق، ص٥٧.

[٤] لوكمان، مرجع سابق، ص٩٤.

[٥] أنيس، مرجع سابق، ص١٦٧.

[٦] مصطفى، نادية، مرجع سابق، ص٢٧-٢٨. أنيس، مرجع سابق، ص١٦٧.

[٧] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٩٤.

[٨] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص٢١٥. مصطفى، نادية، مرجع سابق، ص٢٩.

[٩] فشل **فرانسوا الأول** في الوصول إلى عرش الإمبراطورية الجرمانية المقدسة أمام شارل الخامس ملك إسبانيا الذي أصبح يعرف بشارلكان، مع تقديمه عهوداً لبابا الفاتيكان (لاوون العاشر) بحروب صليبية ضد العثمانيين، كما أنه فشل في الحصول على المساعدة من هنري الثامن، ملك بريطانيا، وكان قد مُني بهزيمة قاسية في إحدى جولات الحرب مع شارلكان ووقع في الأسر، فأرغمه هذا الأخير التوقيع على معاهدة لتنظيم حملة صليبية ضد العثمانيين، وبعد خروجه من الأسر- وهو يضمر الشر لخصمه- نقض المعاهدة السابقة، واتجه بأنظاره نحو الدولة العثمانية المتاخمة شرقاً لإمبراطورية عدوه، وقرر إقامة علاقات جديدة معها، وتمخض عن هذه العــلاقات معاهــدة عام

حددت المزايا التي تمتع بها التجار الفرنسيون، ثم أصبحت نموذجاً يُتّبع في العلاقات بين بقية الدول الأوروبية والدولة العثمانية[١]، كما شكلت هذه العهود الأسس والأصول التي استندت إليها الجاليات الأوروبية عند إقامتها في الولايات العثمانية، ومن ضمنها الولايات الشامية[٢].

ومن المعروف أن الامتيازات الأجنبية مثيرة للجدل ولا يعرف السبب الأساسي الذي دفع بالسلطان سليمان القانوني- وهو في ذروة انتصاراته- إلى تقديم كل تلك التنازلات التي لم يكن مرغماً عليها[٣]، مع محاولة بعض الباحثين قراءة الفكرة على أنها كانت نوعاً من المناورة الدبلوماسية والتحالف الاستراتيجي الذي اتّبعه السلطان سليمان القانوني في التعامل مع أوروبا المسيحية[٤]، وفي ترغيب التجار الأوروبيين للسكن في البلاد العثمانية ومزاولة التجارة فيها؛ لكسب المنافع الاقتصادية[٥].

وبموجب هذه المعاهدة تم منح الفرنسيين امتيازات تقضي بعدم خضوع الفرنسيين للقانون العثماني[٦]، كما تمتعوا برسوم جمركية مخفضة مع الحرية المطلقة للملاحة التجارية في كل الموانئ العثمانية، وأعطاهم حق في ألّا تُبحر أيّ سفينة أجنبية في المياه العثمانية إلا تحت العلم الفرنسي، بالإضافة إلى امتيازات أخرى تتعلق بنقل الملكيات وحرية ممارسة طقوسهم الدينية، مع ملامح أولية لموضوع حماية رعايا السلطان العثماني من المسيحيين، وبعد توقيع هذه المعاهدة عقد كل من سليمان القانوني وفرانسوا الأول حلفاً سرياً لمواجهة آل الهابسبورغ[٧].

إن النص الأصلي لهذه المعاهدة غير موجود، وكذلك معاهدة ١٦٠٤ التي سنأتي على ذكرها، فليس في الأرشيف الفرنسي لوزارة الخارجية سوى أصل معاهدة عام ١٨٠٢، على أن معاهدة عام

١٥٣٥. انظر: خوري، إميل وإسماعيل، عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨ (من الثورة الفرنسية ١٧٨٩ إلى مؤتمر فيينا ١٨١٥)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، د.ط، ج١، ١٩٦٠، ص١١-١٥.

[١] مخزوم، مرجع سابق، ص٢١. الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص٨٣. فوتيراس، مصدر سابق، ص١٦.

[٢] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص٨٣.

[٣] المرجع نفسه، ص١٩٧-٢٠٠.

[٤] مصطفى، نادية، مرجع سابق، ص٣٠-٣٢.

[٥] الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المقتطف، مصدر سابق، ص٤٥٧.

[٦] المصدر نفسه، ص٤٥٨.

[٧] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٩٥.

١٥٣٥ كانت تضم (١٧) بنداً، وهي مؤلفة من معاهدتين منفصلتين، إحداهما تجارية والأخرى للصداقة والإقامة، على أنه لا يظهر فيها مبدأ المعاملة بالمثل[١]، كما أنها وردت في إحدى مقالات المقتطف عام ١٩١٤ بستة عشر بنداً[٢]، وكذلك الأمر نفسه في كتاب "تاريخ الدولة العلية العثمانية"[٣].

كان التجار من مختلف بلدان أوروبا يمارسون التجارة مع موانئ الشرق تحت العلم الفرنسي، بموجب الامتيازات السابقة، ثم سعى التجار الإنكليز ومن بعدهم الهولنديين للحصول على امتيازات خاصة بهم منذ منتصف القرن السادس عشر، ولكن هذه الخطوة البريطانية كانت تعني بالضرورة التصادم بين مصالح بريطانيا وفرنسا مما أدى إلى صراع وتنافس تجاري طويل بين البلدين في الشرق[٤]، وقد سعت بريطانيا بعد ضم إسبانيا للبرتغال ١٥٨٠، إلى تعزيز السيطرة على تجارة الشرق بإعادة التجارة مع بلاد المشرق The Levant، ولذا أنشأت الملكة إليزابيث[٥] شركة الليفانت البريطانية عام ١٥٨١[٦]. كما أن سوء العلاقات الإسبانية– العثمانية والإسبانية– البريطانية دفعت بريطانيا نحو الخطوات الأولى لبناء العلاقات مع الدولة العثمانية التي أفضت في النهاية إلى توقيع معاهدة ١٥٨١ الشبيهة بتلك التي وقعها الفرنسيون مع الدولة العثمانية، وقد قاومت فرنسا هذه المعاهدة بشراسة، ولكنها لم تنجح في إجهاض مشروع العلاقات العثمانية– البريطانية[٧] إلا أنها حصلت على امتياز جديد يمنح سفيرها في الأستانة التقدم والأفضلية على سائر سفراء الدول

---

[١] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص١٤١–١٤٣.

[٢] الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المقتطف، مصدر سابق، ص٤٥٧.

[٣] المحامي، مصدر سابق، ص٢٢٣–٢٢٩. كما جاء فيه أن المعاهدة عقدت في شباط ١٥٣٦ بين المسيو لافوري سفير فرنسا وإبراهيم باشا الصدر الأعظم في الأستانة. انظر: المصدر نفسه، ص٢٢٣–٢٢٤.

[٤] السكيف، مرجع سابق، ص٥٩–٦١.

[٥] **إليزابيث الأولى (١٥٣٣–١٦٠٣):** ملكة انكلترا، وهي ابنة هنري الثامن من زوجته الثانية آن بولين، نظمت الكنيسة الانغليكانية، وقربت إليها رجال الأدب والفن. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٢.

[٦] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص١٧٩.

[٧] المرجع نفسه، ص١٧٩–١٨٠. سنو، مرجع سابق، ص١٥. كما أن الملكة إليزابيث الأولى كانت قد اغتنمت فرصة تدهور العلاقات العثمانية– الفرنسية بسبب بولندا. انظر: خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج١، ص١٧. وجاء في بعض المراجع أن هذه الاتفاقية وُقعت عام ١٥٨٠. انظر:

Tibawi, A. L, A Modern History of Syria–Including Libanon and Palestine, Macmillan, London, 1969, p. 102.

الأخرى[١]، كما سعت هولندا إلى الحصول على الامتيازات نفسها بعد أن انسحبت من حماية العلم الفرنسي إلى العلم البريطاني لمدة من الزمن، فعقدت اتفاقاً مباشراً مع الدولة العثمانية عام ١٦١٢[٢]، وجاءت معاهدة عام ١٦٠٤ من أهم المعاهدات الفرنسية- العثمانية التي تشبثت بها فرنسا لتوسيعها وتجديدها دائماً، ولاسيما فيما يتعلق منها بحق حماية الأماكن المقدسة[٣]، كما نالت بقية الدول الأوروبية تجديداً لامتيازاتها، بسبب ما جرت عليه العادة من تجديدها عند اعتلاء كل سلطان جديد للعرش العثماني[٤].

وفي العام ١٦٧٥ حصل الإنكليز على الحقوق نفسها التي حصل عليها الفرنسيون ١٦٧٣، وزادت عليها بالحصول على تعرفة جمركية لا تتجاوز ٣% على الواردات والصادرات، لاسيما من حلب وأزمير. كما استطاعت النمسا أواخر القرن السابع عشر من تحقيق تقدم ملحوظ في صراعها مع الدولة العثمانية عندما وقعت معها على صلح كارلوفيتز[٥] Karlowitz عام ١٦٩٩، التي شكلت نقطة تحول كبيرة في العلاقات الأوروبية- العثمانية، فقد حصلت النمسا بموجبها على حقوق مساوية لتلك التي سبقتها إليها فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، ثم جُددت هذه الامتيازات في معاهدة بساروفيتز[٦] Passarowitz عام ١٧١٨[٧].

ج- الامتيازات الأجنبية في القرن الثامن عشر وبوادر التحول في مفهومها وعملها :

بعد أن جددت النمسا امتيازاتها عام ١٧١٨ ظهر التحول الحقيقي الذي طرأ على مفهوم الامتيازات ومجال عملها، لا سيما في معاهدة عام ١٧٤٠ بين فرنسا والدولة العثمانية[٨]، عندما اكتسبت هذه المعاهدة صفة العقد الدائم، وساهمت في تثبيت وتجديد البنود المتعلقة بحماية الرعايا

---

[١] أرملة، اسحق، آثار فرنسا ومآثرها في لبنان وفي سوريا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، ١٩٤٦، ص٩٤.

[٢] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص١٨٢-١٨٣. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج١، ص٢٢.

[٣] سنو، عبد الرؤوف، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ١٨٤١-١٩٠١، معهد الإنماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص١٤.

[٤] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص١٥٤.

[٥] جودت، أحمد، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، د.ط، المجلد الأول، ١٣٠٨هـ، ص٤٠٠، ٤٠٦. وانظر أيضاً: المحامي، مصدر سابق، ص٣١٠. أنيس، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٦] **معاهدة بساروفيتز Passarowitz عام ١٧١٨**: تنازلت فيها الدولة العثمانية عن ولاية تمسوار، ومدينة بلغراد، وجزء كبير من بلاد الصرب، والأفلاق للنمسا. انظر: المحامي، مصدر سابق، ص٣١٦.

[٧] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص١٨٤-١٨٥. سنو، مرجع سابق، ص١٥.

[٨] المرجع نفسه، ص١٧.

الفرنسيين[١]، والأهم من ذلك، أنها أسهمت في تثبيت ودعم "حق" حماية الأماكن المقدسة في فلسطين[٢]، وأن تشمل حمايتها كل المسيحيين في الشرق، وهذا ما رسمت معاهدة عام ١٦٠٤ بعض ملامحه، وكان هذا خطيراً للغاية؛ لأنه يعطي "حق" التدخل الفرنسي لمصلحة مسيحيي الدولة العثمانية[٣]. كما استطاعت روسيا- وبعد صراع طويل مع الدولة العثمانية بين عامي (١٧٦٨-١٧٧٤)- أن تدفع الدولة العثمانية إلى معاهدة كوجوك قينارجة[٤] عام ١٧٧٤ التي حصلت روسيا خلالها على "حق" حماية المسيحيين الأرثوذكس الذين هم من رعايا السلطان العثماني[٥].

ومن بوادر التحول في مفهوم الامتيازات أيضاً- ونتيجة لعادة تجديد المعاهدات والامتيازات التجارية، ونتيجة للتنافس بين الدول الأوروبية للحصول على أوضاع مميزة في الإمبراطورية العثمانية- ظهور مصطلحات جديدة تشير بشكل واضح إلى ذلك التنافس والتحول الذي طرأ على مفهوم الامتيازات مثل المفاهيم الدينية والسياسية (كالدولة الأكثر تفضيلاً، والأمة الأكثر تفضيلاً)[٦].

---

[١] آصاف، يوسف بك، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية، المطبعة العمومية- مصر، ط٢، ١٨٩٦، ص١٤-١٥. للاطلاع على نص المعاهدة، انظر : المصدر نفسه، ص٤-٣٦.

[٢] فقد جاء في البند (٣٣) من هذه المعاهدة: **(أن الرهبان الفرنساويين الذين يقيمون كما كانوا قديماً داخل مدينة أورشليم وخارجها وفي كنيسة القبر المقدس... لا يعارضون بشأن أماكن الزيارة التي يسكنونها... وتبقى في تملكهم كالسابق بدون أن تسوغ معارضتهم بهذا الصدد..)**. انظر: المصدر نفسه، ص١٥.

[٣] أرملة، مرجع سابق، ص٩٥. سنو، مرجع سابق، ص١٤.

[4] Tibawi, op. cit, p.102, 107.

- عقد السلطان العثماني هذه المعاهدة مع روسيا مرغماً، فاعترف فيها باستقلال شبه جزيرة القرم وبسارابيا وكوبان، مع حرية الملاحة للروس في البحر الأسود، والتعهد بضمان سلامة الحجاج الروس إلى بيت المقدس، ومنح كاترين الثانية حق حماية الأرثوذكس وكنائسهم في الإمبراطورية العثمانية، إلى جانب مزايا وحقوق تجارية وإنشاء القنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية. انظر: خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج١، ص٣٣. أنيس، مرجع سابق، ص١٦٩.

[٥] سنو، مرجع سابق، ص١٥-١٦. فوتيراس، مصدر سابق، ص١٣،١٩. فقد جاء في المادة السابعة من المعاهدة بأن الدولة العثمانية تتعهد أن **(تصون حق الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية)**، وجاء في المادة الثامنة بأن **(تعطى الرخصة التامة لرهبان دولة الروسيا ولسائر رعاياها بزيارة القدس الشريف وسائر الأماكن المقدسة..)** وجاء تحت المادة السادسة عشرة- الفقرة الثانية: أن تكون الديانة المسيحية حرة من كل الوجوه ولا يجوز ممانعتها، والأمر نفسه مكرر في المادة السابعة عشرة- الفقرة الثانية مع وجوب عدم التعرض أو التدخل في حق الأشخاص الذين يخدمون الكنائس المذكورة في مواد المعاهدة. انظر: جودت، مصدر سابق، ص٤٠٣.

[٦] السكيف، مرجع سابق، ص٦٢.

أما بروسيا فلم تكن تعير قضايا الشرق أي اهتمام مع أنها عقدت معاهدة صداقة وأخرى تجارية مع الدولة العثمانية، حصلت بموجبهما على امتيازات مماثلة لامتيازات الدول الأوروبية الأخرى، وتم تجديد هاتين المعاهدتين ١٧٩٠، غير أن ذلك لم يوطد العلاقات السياسية والتجارية بين الدولتين لعدم وجود أي دور سياسي مهم لبروسيا في المنطقة حتى ذلك الوقت[١].

د- الامتيازات في القرن التاسع عشر وبلوغ الذروة:

بقي النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية مهيمناً حتى جاءت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ بعد أن تبنت فرنسا سياسة جديدة ضد الدولة العثمانية تقوم على تفكيك هذه الدولة، الأمر الذي أدى إلى فتور العلاقات بين البلدين بعد فشل الحملة[٢]، بينما كانت بريطانيا تعمل دائماً لنيل ثقة الدولة العثمانية التي أعطتها أكثر مما حظيت به فرنسا، ولاسيما بعد الحملة الفرنسية ١٧٩٨، وسبب ذلك يعود إلى أسلوب التروّي والحكمة في السياسة البريطانية[٣].

وأحدث ظهور محمد علي باشا في مصر وبلاد الشام خللاً كبيراً في العلاقات بين المشرق العربي وأوروبا وأدى إلى تغيير الحسابات لدى الكثير من الدول الأوروبية، ولاسيما أن روسيا- وبسبب تقدم محمد علي نحو الأستانة- قد حصلت على معاهدة هنكار اسكلة سي ١٨٣٣ التي نالت فيها امتيازاتٍ كانت من نوعٍ جديدٍ كلياً، وهي الامتيازات العسكرية- الاستراتيجية، التي كان من أهم بنودها إقفال الممرات العثمانية في وجه السفن الحربية الأجنبية، فشكلت هذه المعاهدة نقطة تحول حقيقية في السياسة الأوروبية، ولاسيما السياسة البريطانية التي قررت الوقوف إلى جانب السلطان- ضمن سياستها القديمة لنيل الثقة العثمانية- في مواجهة محمد علي باشا، وإبعاد الخطر الروسي عن الدولة العثمانية بإفراغ معاهدة هنكار اسكلة سي من مضمونها[٤]. وقد جاءت اتفاقية بلطة ليمان لعام ١٨٣٨ كحلقة من حلقات تواصل منح المزيد من الامتيازات للدول الأوروبية، فقد تمكنت بريطانيا من عقد هذه الاتفاقية التجارية مع الدولة العثمانية، هي الاتفاقية الأكثر شمولاً وترسيخاً لبسط النفوذ والسيطرة، فقد فُرضت بموجبها تعرفة جمركية ثابتة على الواردات الإنكليزية وكانت بمقدار ٣%من قيمة السلع، دون أن تخضع هذه الشروط للمعاملة بالمثل، ومع عدم إمكانية تعديل هذه التعرفة دون

---

[١] سنو، مرجع سابق، ص٢١.

[٢] المرجع نفسه، ص١٥.

[٣] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج١، ص١٨٤.

[٤] سنو، مرجع سابق، ص١٦-١٨.

رضا بريطانيا، ومع منع الحكومة العثمانية من احتكار التجارة[1]، فأمّنتْ بريطانيا بذلك لنفسها سوقاً واسعاً لتصريف منتجاتها، وحظيت بمصدر غني للمواد الأولية الرخيصة، وما لبثت أن حصلت معظم الدول الأوروبية والولايات المتحدة على اتفاقيات مشابهة، حيث شملت تلك الاتفاقيات كل الولايات العثمانية، ولاسيما بلاد الشام ومصر، بحكم سيطرة محمد علي عليها[2]، وبذلك تكون المدة بين توقيع معاهدة هنكار اسكلة سي ١٨٣٣، ومعاهدة لندن ١٨٤٠، مدة انتقالية مهدت لسلسلة من التدخلات، وبسط النفوذ الأوروبي، عبر محاولات متتالية ومختلفة منذ عام ١٨٤٠[3].

وبالنتيجة بعد ظهور الضعف والوهن في الدولة العثمانية ومؤسساتها تحولت هذه الامتيازات من مجرد مزايا، إلى "حقوق شرعية" لا يمكن التراجع أو التخلي عنها، وأصبحت تطال فئات اجتماعية كانت تعدّ من رعايا السلطان؛ لتحظى هذه الفئات بمزايا خاصة؛ لأنها أصبحت الآن تحت حماية إحدى الدول الأوروبية، فقد رأت فرنسا– مثلاً– أن لها حق حماية الكاثوليك الأوروبيين، والعثمانيين، والإرساليات الكاثوليكية العاملة بينهم. أما روسيا– وبعد عقد معاهدة كوجوك قينارجه عام ١٧٧٤– فقد جعلت من نفسها حامية للطائفة الأرثوذكسية. وتحولت هذه الامتيازات في القرن التاسع عشر إلى صراع طويل حول مناطق النفوذ في أراضي الدولة العثمانية، مثلما حدث في حروب البلقان والقرم، وفي التنافس الأوروبي على "الشرق الأدنى" في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[4].

٢ – القناصل.

أ– ظهور النظام القنصلي:

لم يتوصل الباحثون إلى تحديد مرحلة زمنية لنشأة النظام القنصلي في بلاد الشام، ولكن يبدو أن الرأي الأكثر ترجيحاً هو أن النظام القنصلي ظهر مع نشوء وتطور نظام الامتيازات بعد أن تركزت مهام القنصل على تنفيذ البنود والتسهيلات التي حصلت الجالية التجارية الأجنبية عليها ضمن الاتفاقات والمعاهدات التي عقدتها حكومات دولهم مع السلطات الحاكمة المتتابعة على بلاد

---

[1] آصاف، مصدر سابق، ص٩٢-٩٦.

[2] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٩.

[3] عبد الكريم، مرجع سابق، ص١٩٨-١٩٩.

[4] مخزوم، مرجع سابق، ص٢١.

الشام[١]، ويشير أحد الباحثين إلى أن أقدم قرار تم الوصول إليه هو قرار المجلس الكبير عام ١٣٣١ الداعي إلى تأليف مجلس مؤلف من /١٢/ تاجراً في دمشق لمساعدة قنصل البندقية في عمله، فقد كانت السلطات الحاكمة في بلاد الشام تسمح للجاليات الأوروبية التجارية أن تقيم على أرضها في فنادق وخانات خاصة، وأن يكون على رأسها قنصل يشرف على إدارة شؤونها، وكانت البندقية أول من نالت هذا الحق، وقد اتخذت من دمشق مركزاً لإقامة قنصلها[٢].

أما القنصلية الفرنسية في بلاد الشام فتعود أيضاً إلى أيام الحروب الصليبية، تتمثل بتجار مرسيليا الذين استمر وجودهم في دمشق وبيروت بعد الحروب الصليبية[٣]، ومع ذلك فان المؤرخين الفرنسيين يرون أن البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين فرنسا والشرق "الليفانت" هو القرن السادس عشر، ويرجعون تاريخ هذه العلاقات إلى توقيع معاهدة عام ١٥٣٥، ويذهبون إلى أن أول قنصلية فرنسية أنشئت في بلاد الشام في القرن السادس عشر، لذا يبدو أن أصول إنشاء القنصليات الفرنسية يلفها الغموض، وهناك تضارب حاد بين آراء المؤرخين الفرنسيين حيال ذلك، ويبقى الأرجح بأن القنصليات الفرنسية في بلاد الشام هي أقدم القنصليات الفرنسية في الشرق، وكان مركز إقامتها ينتقل بين حلب وطرابلس[٤]. في حين أن ملامح النظام القنصلي ظهر بشكل أوضح مع ظهور نظام الامتيازات التي أخذت نمطاً رسمياً في المعاهدة الشهيرة بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٣٥، التي حصلت فرنسا بموجبها على حرية التنقل والملاحة والتجارة في أرجاء الدولة العثمانية، وحصلت أيضاً- وفي المعاهدة نفسها- على حق التمثيل القنصلي مع حصانة قنصلية للقناصل وأقاربهم وكل العاملين معهم في القنصلية، ومنحهم حق النظر في قضايا رعايا دولهم على أراضي الدولة العثمانية[٥]، فأخذ القناصل الفرنسيون يتسللون إلى معظم مدن بلاد الشام (صور، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وحلب، ودمشق)، وإلى الموصل وبغداد أيضاً[٦].

ومن جهة أخرى ارتبط النظام القنصلي الأوروبي بحركة التجار والتجارة، ولاسيما بعد أن احتكرت الشركات التجارية النشاط التجاري مع الشرق مثل شركة الليفانت البريطانية، وغرفة تجارة

---

[١] الوعري، نائلة، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ١٨٤٠-١٩١٤، دار الشروق، عمان، ط١، ٢٠٠٧، ص٤٩-٥٠.

[٢] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٥٦٩.

[٣] المرجع نفسه، ص٥٨٤.

[٤] المرجع نفسه، ص٥٨٥-٥٨٦.

[٥] الوعري، مرجع سابق، ص٥٤-٥٦.

[٦] أرملة، مرجع سابق، ص١٤٦.

مرسيليا الفرنسية، فلم يكن بوسع أي تاجر فرنسي أو بريطاني أن يزاول مهنة التجارة ما لم يحصل على رخصة من هذه الشركات، وذلك ضمن شروط تحددها هذه الشركات، كما أن هذه الشركات هي التي تقوم بتعيين القنصل وعزله ودفع رواتبه، وقد كانت شركة الليفانت تتدخل حتى في تعيين السفير البريطاني نفسه في الأستانة، ومن هنا فقد كان القنصل يمثل المصالح التجارية لتلك الشركات أكثر مما يرعى المصالح السياسية لبلاده[١].

تطور النظام القنصلي الأوروبي في بلاد الشام مع تطور نظام الامتيازات الأجنبية، فمع اتساع نطاق نظام الامتيازات، كان من الضروري تأهيل النظام القنصلي، وزيادة عدد قناصل الدول الأوروبية فيها، وهذا ما أدى إلى اتساع نفوذهم وإمكانية تدخلهم في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، وهذا التدخل ما لبث أن تحول إلى أشكال من السيطرة، تمثلت بمنح تلك الدول الحماية لرعايا الدولة العثمانية من الدروز والمسيحيين واليهود[٢].

ب- تعيين القناصل ومهامهم:

سعت الشركات التجارية والمؤسسة الشبيهة بها إلى تنظيم عمل جالياتها لتقيم في "أساكل"[٣]، تكون على الساحل أو قريبة منه، وكان من حق هذه الشركات إنشاء أو إلغاء هذه الأساكل، ونقلها من مكان إلى آخر وفق ما تراه مناسباً لحركة التجارة ومتطلبات الأمن، وكان على التجار إطاعتها في كل قراراتها وإلا فقدوا حماية دولهم لهم[٤].

وكان السفراء يرأسون جاليات دولهم في مختلف الأسكالات، فالسفير يمثل دولته لدى الدولة العثمانية، وكان مقره الرئيسي في العاصمة العثمانية الأستانة، وكانت البندقية تسميه بيلا Bajill[٥]، وتعيين هؤلاء القناصل في مناصبهم هذه يختلف من دولة لأخرى، وغالباً ما كانت الشركات التجارية تتدخل في هذا التعيين كما حدث للسفير البريطاني الأول لدى الأستانة الذي رشحته شركة الليفانت

---

[١] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٠٢-٢٠٣. ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، مرجع سابق، ص١٨٤-١٨٥.

[٢] الوعري، مرجع سابق، ص٥٠-٥١.

[٣] **الأسكلة** Iskele: كلمة إيطالية أو يونانية تبناها الأتراك وتعني شحن البضائع، وهي في معناها الواسع تشمل جميع المراكز والمدن التي تُشحن منها البضائع أو تفرغ فيها، ويقيم فيها الأجانب، أكانت هذه المراكز موانئ على الساحل أو مدناً في الداخل. انظر: الصباغ، الجاليات الأوروبية، ج١، ص٢٣٣-٢٣٤.

[٤] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٠٣.

[٥] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٥٤٦.

البريطانية مع تكفلها بدفع نفقات السفارة كاملة، ثم صدر تفويضه من الملكة إليزابيث عام ١٥٨٢[١]. في حين أن السفير الفرنسي كان شخصية يختارها الملك الفرنسي نفسه، وكانت السفارة في نزاع دائم مع غرفة تجارة مرسيليا لعدم وجود علاقة ضابطة بين السفراء والتجار الفرنسيين، وقد انتهى هذا النزاع في البداية لصالح غرفة التجارة دون أن يبقى للسفير أي سلطة على القناصل والتجار، وبقيت إدارة الأساكل من حق الغرفة فقط، واقتصر عمل السفير الفرنسي على حماية التجار ومصالحهم لدى الباب العالي في الأستانة[٢].

أما القناصل فقد كانوا يديرون شؤون جاليات الدول الأوروبية بشكل مباشر، وكان تعيينهم يتم من قبل الشركات التجارية الأوروبية. فهي التي تعيّين القناصل ثم يتم تثبيتهم من قبل الملك، ولكن القناصل الحقيقيون لم يكونوا يقيمون في مراكز عملهم، بل يكلّفون نواباً عنهم[٣]، واستمر ذلك حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر، ثم ظهر نزاع مرير بين الحكومة الفرنسية ومالكي القنصليات، وألغيت نتيجة ذلك جميع التعويضات، ثم مُنع القناصل من ممارسة أعمالهم القنصلية، وأصبح للملك الحق في تعيين قناصل جدد، فحاول قناصل بلاد الشام الفرنسيون الدفاع عن حقوقهم، والاحتفاظ بقنصلياتهم لكنهم لم ينجحوا، فتم بذلك القضاء نهائياً على الملكية الخاصة للقنصليات الفرنسية في الليفانت، وأصبح القنصل يمثل السلطة الملكية، إلى جانب مهامه التي أوكلت إليه بما أنه الحامي والمدافع عن الجالية، وكان عليه أن ينفذ الأوامر الحكومية وأن يتعامل معها وفق معايير إدارية محددة[٤]. وبالنسبة للقنصلية البريطانية فقد حصلت شركة الليفانت على حق تعيين القناصل في المراكز الكبرى، في حين أن السفير البريطاني في الأستانة كان يعين نيابات القناصل الصغيرة، وكان على القنصل أن يقسم اليمين بالحفاظ على حسن السلوك طيلة مدة خدمته، ولم يُسمح للقنصل بمزاولة التجارة، إلا لمدة محدودة، وبقي القرار ساري المفعول طيلة مرحلة عمل هذه الشركة حتى وقوفها عن العمل عام ١٨٢٥. وكانت القنصلية البريطانية أكثر تنظيماً من مثيلتها الفرنسية؛ إذ كانت الوظائف القنصلية لديها مأجورة، إلا عن نواب القناصل الذين كانوا يستوفون ٢% رسم قنصلية من البضائع والسلع العائدة لأعضاء الشركة، وما يدور في فلكها[٥]. أما القناصل الفرنسيون فقد كانوا

---

[١] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٥٥٨.

[٢] المرجع نفسه، ص٥٥٣-٥٥٤.

[٣] المرجع نفسه، ص٥٥٨، ص٥٩٠-٥٩١.

[٤] المرجع نفسه، ص٦٠٠.

[٥] المرجع نفسه، ص٦٠٧-٦٠٨.

يسعون للوصول للثروة، إلى جانب اهتمامهم بتجارتهم الخاصة على حساب التجارة العامة، حيث سمح لقناصلهم في البداية بمزاولة التجارة[١].

وكان القنصل يقيم في الأسكلة الكبيرة، وله نائب في الأساكل الصغيرة، وكانت حلب تعد أسكلة كبيرة فأقام فيها القناصل، أما نوابهم فقد كانوا في الإسكندرونة، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا، والرملة، وغيرها، وقد يرتقي نائب القنصل إلى قنصل إذا زادت أهمية الأسكلة التي يقيم فيها، مثلما حدث لصيدا في عهد فخر الدين المعني الثاني، وعكا في عهد ضاهر العمر، وبيروت في عهد الأمراء الشهابيين، وتجدر الإشارة إلى أن بعض نواب القناصل كانوا من السكان المحليين الذين أعلنوا ولائهم للدولة التي يتولون نيابة قنصليتها[٢].

تشابهت مهام القنصليات الأجنبية في الولايات العثمانية، ومنها بلاد الشام وكان من أبرز مهامها ضبط وتنفيذ بنود الامتيازات التي حصلت عليها دولها التي شكلت بدايات التدخل الأوروبي في الدولة العثمانية[٣]. وقد كانت القناصل رؤوساً للجاليات الأوروبية وممثلة لها عند السلطات الحاكمة، ومجمل هؤلاء القناصل كان قضاة للتجار، وبإمكانهم الفصل في القضايا المدنية بمساعدة المجلس المرافق له، وبوجود وجهاء التجار، وكان القنصل أكبر سناً من المفوضين والتجار الآخرين، وهو على علم بعادات البلاد، وله خبرة واسعة في التجارة[٤].

ج- القناصل الأوروبيون والمراكز التجارية في بلاد الشام في القرنين السابع عشر والثامن عشر:

كانت حلب مركزاً مهماً من مراكز التجارة، وشكلت نواةً للعديد من القنصليات الأوروبية[٥]، فقد كانت تنتهي إليها القوافل الآتية من فارس والخليج العربي، لذلك تنافس على التجارة فيها البنادقة- وكان لهم السبق- ثم الفرنسيون، ثم البريطانيون الذين حظيت تجارتهم بنجاح مميز، وفاقت نظيرتيها الفرنسية والبندقية، وعندما ضعفت تجارة البندقية لتوتر الأوضاع بينها وبين الدولة العثمانية

---

[١] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٥٩٧.

[٢] عبدالكريم، مرجع سابق، ص٢٠٤.

[٣] الوعري، مرجع سابق، ص٥٠.

[٤] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠١-٦٠٢.

[٥] المرجع نفسه، ص٦٠٥-٥٨٩. عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٠٧.

انحصرت المنافسة بين فرنسا وبريطانيا في بلاد الشام، في حين ركز الهولنديين في تجارتهم على أزمير، وكان تجارهم يتبعون القنصلية البريطانية[١].

وكانت طرابلس وإسكندرونة نيابات لقنصلية حلب[٢]، بينما كانت طرابلس تتحول إلى مركزٍ للقنصلية؛ لأنها من موانئ بلاد الشام المهمة، وكان البنادقة أول من نزلوها، ونقلوا إليها مركز قنصليتهم من دمشق عام ١٥٤٥[٣]، وتحولت مع الزمن إلى أسكلة مستقلة بعد التقدم الذي أحرزته صناعاتها، ولاسيما صناعة الحرير، التي احتكرتها جالية من التجار الفرنسيين حتى أواخر القرن التاسع عشر[٤].

وكانت صيدا قنصلية رئيسية في بلاد الشام بالتساوي مع حلب، بالنسبة للعديد من الدول الأوروبية، وغدت أسكلة رئيسية يقيم بها القناصل الأوروبيون بفضل صناعة غزل القطن والأقمشة القطنية، وزادت أهميتها بعد أن اتخذها فخر الدين المعني الثاني عاصمة له عام ١٥٩٣، وأصبحت ميناء تجارياً مهماً من موانئ سواحل بلاد الشام، وكان للتجار الفلورنسيين السبق في اكتشاف أهميتها وجعلها مركزاً للعلاقات التجارية[٥]، ثم خلفهم فيها الفرنسيون الذين اتسعت تجارتهم في المنطقة فأقاموا فيها قنصلية، وانتدبوا لها أبو نوفل الخازن نائب قنصل في بيروت عام ١٦٥٥، ثم قنصلاً عام ١٦٦٢[٦].

وأما يافا فقد أخذت أهمية خاصة؛ لأنها بمثابة ميناء للقدس[٧]، وقد فشلت الدول الأوروبية، وأولها فرنسا في تعيين قناصل لها في بيت المقدس طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، بسبب الرفض الشديد من أهل القدس[٨]. أما عكا فتعود أهميتها إلى عهد الشيخ ضاهر العمر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وحظيت بيروت بالأهمية التجارية منذ أن حل فيها الأمراء الشهابيون

---

(١) عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٥٨٩.

(٣) العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت، ج١، ص٦٥.

(٤) عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٥) المرجع نفسه، ص٢١٢. مطر، إلياس ديب، العقود الدرية في المملكة السورية، مطبعة المعارف، بيروت، د.ط، ١٨٧٤، ص١٢٢.

(٦) أرملة، مرجع سابق، ص١٠٠-١٠١. العقيقي، نجيب، مرجع سابق، ج١، ص٦٥-٦٦.

(٧) أرملة، مرجع سابق، ص٢١٢.

(٨) الوعري، مرجع سابق، ص٨٩-٩٠.

في القرن الثامن عشر، إذ أسهموا في تشجيع الحركة التجارية فقد بدء الفرنسيون بالإقامة فيها منذ ذلك الوقت[١].

وهكذا فقد تحولت بلاد الشام إلى ميدان للمنافسة التجارية بين الفرنسيين والبريطانيين[٢]، ومع أن التجارة الأوروبية في بلاد الشام اضطربت في مرحلة الحروب الروسية العثمانية (١٧٦٨-١٧٩٢)، لأن شركة الهند الشرقية البريطانية استطاعت أن تحافظ على تجارتها عن طريق رأس الرجاء الصالح رغم المنافسة والمعارضة الشديدة من شركة الليفانت البريطانية، فاضطرت هذه الأخيرة إلى إلغاء قنصليتها في حلب عام ١٧٩١، وتم حمل سجلاتها إلى الأستانة. ولم تفلح محاولات التجار الفرنسيين إحياء الطريق القديم الخليج العربي- الفرات- حلب؛ لعدم مساندة غرفة تجارة مرسيليا للمشروع لافتراضها لصعوبات بالغة أمام هذا المشروع[٣].

وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر ظهرت روسيا التي غدت لاعباً جديداً في السياسة الأوروبية في بلاد الشام وبقية الولايات العثمانية، بعد أن حصلت على حق تعيين قناصلها في المناطق التي تراها مناسبة وفق معاهدة كوجوك قينارجة عام ١٧٧٤[٤]التي شكّلت فاتحة المسألة الشرقية، وأدخلت مصير الدولة العثمانية في مجال المهام الفعلية للقنصليات الأوروبية[٥]، إضافة إلى جملة من الامتيازات الأخرى التي أسّست للدبلوماسية التي اعتمدت عليها روسيا في تعاملها مع الدولة العثمانية للتدخّل في شؤونها الداخلية[٦].

---

[١] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢١٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٢١٣.

[٣] المرجع نفسه، ص٢١٠-٢١١.

[٤] جودت، مصدر سابق، ص٤٠٣. بدأ العمل القنصلي الروسي في المشرق العربي عام ١٧٨٤ عندما تم تعيين قناصل عامون في الاسكندرية وصيدا، ومع تثبيت مناصب القناصل في دمشق وبيروت، إلا أنه لم يكن هناك قنصل روسي إلّا في يافا على الصعيد العملي، إلى أن تأسست القنصلية الروسية في بيروت عام ١٨٣٩ بإدارة قسطنطين بازيلي، ثم تحولت إلى قنصلية عامة عام ١٨٤٣، وبقيت مركزاً للنشاط الدبلوماسي في بلاد الشام طيلة القرن التاسع عشر، حتى بعد تأسيس قنصليتي روسيا في دمشق وحلب. انظر: بتكوفيتش، قسطنطين، لبنان واللبنانيون، ترجمة يوسف عطاالله، دار المدى، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٥ مع الهامش.

[٥] هنتش، تييري، الشرق الخيالي ورؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي- الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٤١.

[٦] الوعري، مرجع سابق، ص ١٢٣. للاطلاع على نص معاهدة كوجوك قينارجه، انظر: جودت، مصدر سابق، ص٣٩٨-٤١١.

د- القناصل في بلاد الشام حتى عام ١٨٤٠.

شكلت الامتيازات الأجنبية خطراً كبيراً على الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بعد أن أوغل القناصل في تأويلها واستخدامها، وأصبحت القنصليات الأجنبية في القرن التاسع عشر أوكاراً للدسائس والفتن[١].

لذلك فإن الجاليات الأوروبية عانت من الاضطرابات الداخلية التي هددت كيانها بسبب عوامل الفرقة والتنازع بين أفرادها وبينهم وبين القناصل ونواب القناصل[٢] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أُرهِقَ التجار الأوروبيون بالغرائم التي أثقلت كاهلهم ، وكان أحمد باشا الجزار مثالاً في التعسف وفرض الغرائم على التجار الأجانب بسبب حاجته الملحة إلى المال لتكوين القوة العسكرية الخاصة به، إضافة إلى رغبته في تحصين القلاع وجلب السلاح والذخيرة، وقد بلغ تعسّفه الذروة بعد أن اكتشف الاتصالات بين بعض التجار الفرنسيين وخصومه من القراصنة، فاضطر القنصل ومواطنوه إلى الهرب من مناطقه، وكان قد رفض عودتهم رغم تدخل الباب العالي، ونهج بقية الباشوات في بلاد الشام نهج الجزار، فألقى التجار اللوم في ذلك على قناصلهم وطالبوا بإلغاء مناصبهم، وما لبث أن أُلغيت غرفة التجارة الفرنسية بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ (غرفة التجارة بمرسيليا) التي كانت تشرف على التجارة الفرنسية في الشرق[٣].

وبقيت مدينة دمشق بعيدة عن سطوة القناصل حتى أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر؛ أي عندما سمح إبراهيم باشا عام ١٨٣٣ لقنصل بريطانيا بالدخول إلى دمشق[٤]، مع معارضة الدمشقيين؛ لعدم رغبتهم في دخول الأجانب إليها[٥]، وخوف التجار الدمشقيين من مزاحمة التجار

---

[١] عوض، عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٦٩، ص٣٢٢.

[٢] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢١٦.

[٣] المرجع نفسه، ص٢١٦-٢١٧. طرد أحمد باشا الجزار التجار الفرنسيين من صيدا عام ١٨٩١، وتحوّل بذلك المركز التجاري إلى بيروت منذ ذلك الوقت. انظر: مطر، مصدر سابق، ص١٢٢.

[٤] مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، د.ط، د.ت، ص٦٨-٦٩. ويشير أحد الباحثين إلى خروج قنصل البندقية من دمشق منذ عام ١٥٤٥، متجهاً صوب طرابلس الشام. انظر: العقيقي، نجيب، مرجع سابق، ج١، ص٦٥.

[٥] كان القنصل البريطاني قد حضر إلى بيروت، وفي نيته الاستقرار في دمشق في عهد الوالي العثماني محمد سليم باشا، قبيل دخول القوات المصرية. وقد كان هذا الوالي يريد تمرير بعض الرسوم الجديدة، إضافة إلى رغبته في جلب

الأجانب لهم، وقد فتح دخول القنصل البريطاني إلى دمشق الباب أمام قناصل الدول الأوروبية الأخرى؛ لذا قام هؤلاء القناصل إضافة إلى بقية القناصل في بلاد الشام بأعمال مثيرة للشبهات بعد أن إنحاز كل قنصل إلى طائفة من السكان المحليين، وشرعوا ببث الفتن والدسائس[١].

أما محمد علي باشا فقد جعل من القناصل- بعد دخوله بلاد الشام- قنواتاً اتصل من خلالهم بالدول الأوروبية، فقد أبلغهم في البداية بأنه سيأخذ مصالح دولهم بالحسبان، في محاولة لطمْأَنة الدول الأوروبية، وليثبت حسن نيته منح الأقليات المسيحية واليهودية حقوقاً تساوي حقوق المسلمين[٢].

لقد تخوف القناصل والتجار الأجانب من مشاريع محمد علي الخاصة، واحتكاره لبعض السلع الإنتاجية والزراعية، ونقلوا مخاوفهم إلى حكوماتهم. ولا ندري مدى صحة ما قيل عن معاملة إبراهيم باشا لمستخدمي القناصل والتجار الأوروبيين، واستعماله العنف والقسوة معهم، إلا أن هذا الخطاب قد يعكس مدى تذمّر القناصل من احتكارات محمد علي ومشاريعه التجارية، ولاسيما أن الخطاب صادر عن أنطوان كتافاكو (قنصل النمسا في صيدا في ذلك الوقت)[٣]. في حين أن بعض المؤرخين يحذر الباحثين من القناصل وتقاريرهم عند كتابة التاريخ[٤].

واجه محمد علي متاعب كثيرة في علاقاته مع المؤسسات القنصلية الأوروبية، ولاسيما بعد أن وضع التجار والوجهاء المسيحيين في جبل لبنان أنفسهم تحت حماية القناصل، مع أن ذلك لم يقهم

القناصل الأجانب إلى دمشق، ولذلك فقد دخل في نزاع شديد مع الأهالي. انظر: مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، مصدر سابق، ص٢٥.

[١] نوفل، نوفل نعمة الله، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، تحقيق ميشال أبي فاضل وجان نخول، جروس برس، طرابلس- لبنان، د.ط، ١٩٩٠، ص٢٧٧. ص٢٩٦. الأسطواني، محمد سعيد، مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر ١٢٥٦-١٢٧٧هـ/ ١٨٤٠-١٨٦١م، تحقيق أسعد الأسطواني، دار الجمهورية، د.ن، ط١، ١٩٩٤، ص١٦. عوض، مرجع سابق، ص٣٢٢-٣٢٣.

[٢] الوعري، مرجع سابق، ص٦٤.

[٣] غنام، رياض، المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠، الدار التقدمية، لبنان- المختارة، ط١، ١٩٨٨، ص٩٩-١٠٠.

[٤] "احذروا القناصل"، جاء هذا التحذير في مقالة نشرها يوسف إبراهيم يزبك في الطريق، نيسان ١٩٨٠، بعنوان: (أيها الدكاترة احذروا تقارير القناصل). انظر: شولش، الكزاندر، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٢ (دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي)، ترجمة كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، د.ط، ١٩٨٨، ص١٦.

تماماً من القانون العام الذي طبقه إبراهيم باشا، لذلك فالعلاقة بين الحكم المصري والنظام القنصلي في بلاد الشام لم تكن على ما يرام[١].

وبلغت نقمة التجار الأوروبيين في بلاد الشام ذروتها عندما حاولت حكومة محمد علي التدخل في حسابات التجار الأوروبيين وديون الفلاحين[٢]، فقد جاءت معاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨، كحلٍ ناجح لهذه الأزمة، بعد أن سعت بريطانيا من خلالها إلى القضاء على سياسة الاحتكار التي يتّبعها محمد علي، ولتسهيل العمليات التجارية لبريطانيا في سائر أرجاء الدولة العثمانية ولاسيما منها بلاد الشام[٣]. وكان إبراهيم باشا يشير دائماً إلى عرقلة القناصل للإدارة المصرية في بلاد الشام فقد صرح للسير لابي Lapi أمين سر القنصلية النمساوية في الإسكندرية بأن القناصل يشكلون مصدر عذاب بالنسبة له، وبأنهم بمثابة كارثة للبلاد، وهو عاجزٌ عن عمل أي شيء للحد من تدخلهم السافر[٤]. فقد تصرف القناصل بطريقة معادية للسلطة المصرية في بلاد الشام، فقد كانت مطالبهم لا تنتهي، وغير عادلة في كثير من الأحيان، ولاسيما تلك المتعلقة ببعض الرعايا المسيحيين واليهود، إضافة إلى حمايتهم لتجار غير شرعيين مارسوا تجارة التهريب، فضلاً عن بيعهم السلاح للسكان والثوار في الوقت الذي كانت السلطات الحاكمة تجردهم منها، ولم يكن هناك حد لعدد الأشخاص المتمتعين بحمايتهم، الذين كانوا يرون أنفسهم خارج سلطة القانون[٥]، ولاسيما أن اللبنانيين كانوا يدفعون المال

---

[١] حجار، جوزف، أوروبا ومصير الشرق العربي، ترجمة بطرس حلاق وماجد نعمه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٧٦، ص١١٦.

[٢] ففي رسالة من محمد شريف باشا إلى حسين باشا يشير فيها إلى المشادة التي نشبت بين بعض التجار الأوروبيين وبعض سكان القرى في إيالة صيدا في محرم ١٢٥٦هـ بسبب الديون وفوائدها، يقترح فيها ضرورة الاطلاع على دفاتر حسابات التجار نفسها لا على المستندات التي يقدمونها، وكان الرد: (**يجب عدم مداخلة الحكومة في حساب التجار مع الأهالي..**). انظر: رستم، أسد، المحفوظات الملكية المصرية، (بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد علي الكبير (١٢٤٨-١٢٥٠هـ/١٨٣٢-١٨٣٥م)، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦،ج٤، الوثيقة رقم٦٢٣٧، ص٣١١-٣١٣.

[٣] آصاف، مصدر سابق، ص٩٤-٩٥. غنام، المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠، مرجع سابق، ص١٠١. فقد عرقلت القنصلية البريطانية، على سبيل المثال، مشروع إنشاء بريد يحمل المراسلات التجارية بين حلب ودمشق وبيروت وصولاً إلى مصر، بحجة أنه يضر ببريدهم. انظر: رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٢١٠، ص٢٩٨-٢٩٩، والوثيقة رقم ٦٢٢٢، ص٣٠٨.

[٤] حجار، مرجع سابق، ص١١٧-١١٨.

[٥] المرجع نفسه، ص١١٩-١٢٠.

للقناصل مقابل حصولهم على الحماية حتى يقال إن نصف سكان مدينة بيروت كانوا خارج سلطة الحكومة المحلية والمصرية[١].

لقد مارس القناصل سلطاتهم وصلاحياتهم (امتيازاتهم) في بلاد الشام لعقود من الزمن، فقد استفادت الدول الأوروبية، ولاسيما بريطانيا من الدور الذي قاموا به لمواجهة محمد علي باشا في بلاد الشام، ونجحت في إجباره على الانسحاب منها[٢]، ثم أسهموا في بسط المزيد من النفوذ الأوروبي عليها، وفي شتى المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية التبشيرية، حتى العسكرية في مراحل لاحقة[٣]، في الوقت الذي وصلت فيه الدولة العثمانية إلى المزيد من الضعف والوهن[٤].

٣- الاستشراق:

ظهرت كلمة مستشرق في اللغة الانكليزية حوالي عام ١٧٧٩ ودخلت على معجم الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ وجسدت فكرة منظومة خاصة لدراسة الشرق[٥]، فالمستشرق Oreintalist هو من تبحر في لغات الشرق وآدابها، وكانت كلمة مستعرب Mozaraber أول مصطلح يشير إلى الباحثين في حقل الدراسات العربية وآدابها وهي التي تحولت إلى مستشرق Oreintalist[٦]. وجاء أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة بشكل خاص، وبأن الاستشراق Orientalism هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي[٧]، والمستشرق هو من جمع بين دراسة الشرق، أولاً كمكان جغرافي، وثانياً من حيث المضمون بالوقوف على الروح الأدبية التي كونت الثقافة الإنسانية الشرقية[٨]، بذلك يكون

---

[١] حجار، مرجع سابق، ص١١٦.

[٢] الوعري، مرجع سابق، ص٥١.

[٣] المرجع نفسه، ص١٣٤-١٣٥.

[٤] المرجع نفسه، ص٥١.

[٥] الفيومي، محمد ابراهيم، الاستشراق رسالة استعمار (تطور الصراع الغربي مع الإسلام)، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٩٩٣، ص١٤٦.

[٦] الحيدري، مرجع سابق، ص٣٧.

[٧] الفيومي، مرجع سابق، ص١٤٢.

[٨] المرجع نفسه، ص١٤٥.

الاستشراق علماً ذا حدود واسعة وغير واضحة تماماً، ويشترك فيه مجموعة من المختصين في الآثار وفقه اللغة والاشتقاق، والحفريات، واللاهوت، وغير ذلك[١].

كان لآسيا دائماً أكثر من شرق بالنسبة للأوروبيين، ولم يكن كل شرق منها يحظى بالاهتمام ذاته لديهم، فقد شكّل الشرق الذي يلفّ البحر المتوسط من شرقه وجنوبه جزءاً مهماً في دائرة الاهتمام الأوروبي[٢]، بعد أن شكلت البلاد الإسلامية الشرق الجوهري بالنسبة للقرون الوسطى الأوروبية وعصر النهضة، أما في القرن الثامن عشر فقد توسع الشرق وامتد إلى خارج نطاق العالم الإسلامي، وكان ذلك حصيلة الاستكشافات الأوروبية المستمرة والمتزايدة لأجزاء جديدة من العالم[٣].

لفت الانتشار السريع الذي حققه الإسلام في الشرق والغرب أنظار الغرب الأوروبي، وهذا الأمر أدى- من وجهة نظر رجالاته- إلى ضرورة الاهتمام بالإسلام ودراسته[٤]. كما أن فشل الحملات الصليبية، وخيبة أمل الأوروبيين بالتحالف مع المغول، إضافة إلى تقارير الرحالة والتجار بوجود شرق واسع، هي الأسباب التي أدت بمجملها إلى إدراك فئة كنسية متعلمة في الغرب أنه من الصعب تدمير الإسلام بالقوة العسكرية، وهذا ما دفع ببعض الباحثين الكنسيين إلى طرح فكرة تحويل المسلمين و"الكفار الآخرين" إلى المسيحية بالطرق السلمية، وذلك بأن تقوم الكنيسة بتشجيع دراسة الإسلام واللغة العربية بهدف الوصول إلى إقناع المسلمين بزيف عقيدتهم، وبأن المسيحية هي الدين الحق، وقد تمت محاولة ترجمة هذه الأفكار في المجمع الكنسي في فيين[٥] Vienne عام ١٣١٢[٦]، عندما تم اقتراح تأسيس فروع جامعية لدراسة اللغات الشرقية العربية، والسريانية، والعبرية، واليونانية وغيرها في الجامعات الأوروبية مثل جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون

---

[١] السايح، أحمد عبد الرحيم، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الاسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص١٢.

[٢] هنتش، مرجع سابق، ص١٥.

[٣] سعيد، مرجع سابق، ص١٤٠.

[٤] السايح، مرجع سابق، ص ١٨. فمنذ أن فتح المسلمون الأندلس حرص رجال الدين في أوروبا على معرفة عقلية هؤلاء الفاتحين الجدد، فعملوا على تعلم آدابهم وعلومهم منذ بداية من القرن التاسع الميلادي، فمثلاً درس البابا سلفستروس الثاني في الأندلس في القرن العاشر، وترجم كتب في الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية، وكذلك فعل الإيطالي جيرارد دي كريمون، والألماني ألبرت الأكبر، والإيطالي توماس الأكويني. انظر: قدورة، وحيد، بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ومكتبة فهد الوطنية، زغوان، تونس، د.ط، ١٩٩٢، ص١٨-١٩.

[٥] فيين Vienne: مدينة صغيرة على نهر الرون في جنوب شرقي فرنسا. انظر: لوكمان، مرجع سابق، ص٩٠.

[٦] المرجع نفسه، ص٩٠. قدورة، مرجع سابق، ص١٩.

وسالامانكا[١]، إلا أن المشروع لم ينفذ وتراجع الاهتمام به مؤقتاً. ومع بدء عصر النهضة الأوروبية Renaissance، ورغم تحول العالم المسيحي الغربي بشكل تدريجي إلى العلمانية، ووضوح المعنى الجغرافي لأوروبا بشكل أوضح، استمرت محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين[٢]، لاسيما بعد أن شكّل الاستشراق فرعاً متميزاً في الدراسات الإنسانية في الجامعات الأوروبية[٣].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر فُتحت ميادين آسيا الفسيحة أمام الاستشراق، عندما تم إنهاء ترجمة الآفيستا بلغتها السنسكريتية[٤] على يد وليم جونز[٥] W. Jones وانكتيل دوبرُن[٦] Anquetil– Duperron في الربع الأخير من القرن الثامن عشر[٧]، ومع منتصف القرن التاسع عشر اتسع الاستشراق إلى حدود يصعب تخيلها بعد أن اهتم هذا الفرع من الدراسات بلغاتٍ وأديانٍ وتواريخَ وثقافات هذا الشرق، ومع ذلك فقد شكّل الإسلام موضوعاً مركزياً في الأبحاث والدراسات التي قدمها المستشرقون الذين زعموا أنهم يطورون فهماً أكثر دقة وموضوعية لهذا الدين بعد دراسة واسعة للنصوص الشرقية نفسها، وذلك جاء عند تعلمهم اللغة العربية ودراستهم للتاريخ الإسلامي[٨]. ومع محاولات التحقيق العلمي والعمل الأكاديمي، كانت مواضيع المستشرقين لا تخلو

---

[١] سعيد، مرجع سابق، ص٨٠.

[٢] لوكمان، مرجع سابق، ص٩١.

[٣] سعيد، مرجع سابق، ص٨١.

[٤] **السنسكريتية**: لغة نشأت في الهند وهي تنتمي إلى عائلة اللغات الهندو أوروبية، يقسم المتخصصين تطورها إلى مرحلتين، الأولى: هي السنسكريتية الفيدوية نسبة إلى الفيدا– أقدم الكتب الهندوسية المقدسة– والثانية: السنسكريتية الكلاسيكية التي بدأت منذ القرن السادس ق.م، وهي مرحلة الشكل الفصيح لهذه اللغة، وقد تم إدخال نظام الكتابة إليها منذ ذلك الوقت. انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج١٣، ص١٣٤.

[٥] **وليم جونز (١٧٤٣–١٧٩٤)**: باحث ومستشرق إنكليزي ولد في لندن وتوفي في كلكتا في الهند، وهو أبو الدراسات الهندية في أوروبا ومؤسس الجمعية الآسيوية البنغالية في كلكتا ١٧٨٤، له ترجمة إنكليزية للمعلقات وعدة مؤلفات عن الشرع الإسلامي والأدب الجاهلي. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٢٢٢.

[٦] **انكتيل دوبرن (١٧٣١–١٨٠٥)**: باحث فرنسي اهتم بدراسة اللغات الشرقية وتنقل في أطراف الشرق، وجمع المخطوطات الهندية القديمة، ونشر عدة مؤلفات في أخبار الهنود والفرس والعرب والكرد، وهو أول من نقل كتاب زرادشت (زندافستا) إلى الفرنسية، إضافة إلى كتب قديمة أخرى، وله العديد من المقالات في المجلات الاستشراقية. انظر: شيخو، لويس، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت، ط٣، ١٩٩١، ص١٤.

[٧] المرجع نفسه، ص١٤.

[٨] لوكمان، مرجع سابق، ص٩٧–٩٨.

من التدليس والتحريف والمواقف الإزدرائية بحيث أصبحت بعض أعمالهم مزيجاً من الحق والباطل[١].

وأُقيم في فرنسا أول فرع جامعي لدراسة اللغة العربية منذ أوائل القرن السادس عشر في كلية فرنسا في باريس، وانتشر هذا الأمر تدريجياً في معاهد وجامعات أوروبية أخرى، بما فيها الفاتيكان، فقد نشر المستشرقون على مدى قرنين من الزمن ترجمات من العربية، والفارسية، والتركية لكلاسيكيات أدبية مثل ألف ليلة وليلة، ودراسات عديدة عن الإسلام وتواريخ الشرق[٢].

فالمستشرقون فئة من الباحثين والمؤلفين الأكاديميين الأوروبيين الذين اهتموا في أبحاثهم في قضايا التاريخ والأديان واللغة والأدب الشرقي، ومن هذه الأشياء تناولت كل ما يمت إلى التراث العربي والإسلامي، وقد اعتمد بعضهم الدقة والأمانة في عملهم[٣]، أما بعضهم الآخر فقد عملوا وفق اتجاهات وآراء مسبقة لا تخلو من المواقف السلبية الموروثة من العصور الوسطى الأوروبية تجاه الإسلام، وقد قُدِّر لهذه المواقف أن تستمر في البحث الاستشراقي لمدة طويلة من الزمن، فقد لُقنت لجمهور مهتم وواسع في أوروبا[٤].

أ- تطور الفكر الاستشراقي:

مرّت العلاقات الثقافية والمادية والفكرية بين أوروبا والشرق بمراحل كثيرة، وفي معظم هذه المراحل كان الغرب من يقوم بصياغة تصوراته عن الشرق[٥]. والفصل بين الشرق والغرب قديم، تعود فصوله الأولى إلى عصر إلياذة هوميروس[٦]، ثم مع مسرحية اسخيليوس (الفرس)[٧]، وهي أقدم

---

[١] السايح، مرجع سابق، ص٩.

[٢] لوكمان، مرجع سابق، ص٩٨.

[٣] عاقل، نبيه، المستشرقون وبعض قضايا التاريخ الإسلامي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، العددان ٩-١٠، تشرين الأول ١٩٨٢، ص١٦٨.

[٤] لوكمان، مرجع سابق، ص٩٩.

[٥] سعيد، مرجع سابق، ص١٠١.

[٦] **هوميروس**: شاعر ملحمي يوناني من القرن التاسع ق.م، قيل إنه كان أعمى، نسب إليه المؤلفون أشعار الألياذة والأوديسة والأغاني الهوميرية التي كان لها أثر كبير في مستقبل الشعر اليوناني. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٤٦٥.

[٧] **اسخيليوس (٥٢٥-٤٥٦ق.م)**: شاعر يوناني انصرف إلى الفن المسرحي فأبدع في المأساة حتى أصبح مبدعاً في الفن التمثيلي بقوة خياله وعمق عاطفته الدينية والإنسانية ومن مسرحياته: الفرس، والمترجّيات، وبرومتيوس المقيد بالسلاسل، وأغممنون. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٤١.

المسرحيات الأثينية الباقية، ومسرحية يوربيدس (الباكنتيون)[1]، فقد برز فيها جميعاً التمييز بين الشرق والغرب، وتم فيها رسم حدٍّ فاصل بين الطرفين: غربٌ "قوي وفصيح"، وشرقٌ "مهزوم ونائي"، وتكرر ذلك في العصور الكلاسيكية (اليونانية- الرومانية)، ثم أكمل العالم الغربي (المسيحي) هذا الفصل بإقامة أقاليم ومناطق مثل شرق أدنى، وشرق أقصى، وشرق مألوف وآخر طارئ[2]. ومع ازدياد سيطرة الإسلام العسكرية ثم الثقافية والدينية، وتوغل حكم الإسلام شرقاً وغرباً، لم يكن بوسع أوروبا أن تقدم سوى الخوف والشعور بالرهبة، ولاسيما أمام ظهور "الخطر العثماني" المتربص بأوروبا، وأصبح التمثيل الأوروبي للإسلام، وصياغته له، وسيلة للتعبير عن الفصل الذي نحن بصدده وطريقة للسيطرة على الشرق[3].

وقد يكون أحد الباحثين على حق عندما يقول: أن الاستشراق ارتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب، فقد أقام رجال السياسة والحكم والإدارة، والاقتصاديين في توظيف هذه "المفاهيم" كنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية ودراساتهم المختلفة، وقد غرق في مستنقع هذه المفاهيم العديد من الباحثين الغربيين ممن عُرِف عنهم الالتزام الأكاديمي والمنهجية العلمية[4]مثل كارل ماركس[5]، وغيره، وترك ذلك العديد من التساؤلات[6]حول هذه المفاهيم التي وجدت لها مكاناً في الحياة الفكرية والأكاديمية، وفق غايات لم تكن الحقيقة مقصدها[7]. كما أن التصورات والآراء الاستشراقية تركت انطباعات ذات اتجاهات محددة في الفكر الأوروبي إزاء الشرق ولاسيما الشرق الإسلامي[8]، بعد أن أخذت هذه الدراسات على عاتقها شرح كل ظواهر المجتمعات

---

(1) سعيد، مرجع سابق، ص٨٥-٨٦. **يوروبيدس (٤٨٠-٤٠٦ق.م):** ثالث كبار شعراء المسرح اليوناني، ولد في سلامين، ألّف ما يقارب مئة مأساة، وبقي منها أندروماك، والطرواديات، والفينيقيات، وأليكترا، وأفيبيجينا، كما امتاز بوصف الأحوال النفسية، انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٩٢.

(2) سعيد، مرجع سابق، ص٨٧-٨٨.

(3) المرجع نفسه، ص٨٩.

(4) الفيومي، مرجع سابق، ص١٤٨.

(5) **كارل ماركس (١٨٢٣-١٨٩٢):** وُلد في ترير Trier في ألمانيا، وهو من رجال السياسة والفلسفة الاجتماعية، حرر البيان الشيوعي بالتعاون مع انجلس، من مؤلفاته "رأس المال" وتعد عرضاً لنظريته ودستوراً للماركسية والنظام الشيوعي. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٢٦.

(6) الفيومي، مرجع سابق، ص١٤٨.

(7) حوراني، ألبرت، الإسلام في الفكر الأوروبي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ١٩٩٤، ص٧٣-٧٤.

(8) محمد، عبدالله يوسف سهر، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، دراسات استراتيجية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد٥٧، أبوظبي، ط١، ٢٠٠١، ص١٢.

الإسلامية وحضارتها، ثم استخدمت هذه الدراسات ضمن منظومة الاستشراق لتبرير السيطرة على المجتمعات الإسلامية والشرقية على أنها مجتمعات غير قابلة للتطور[١]. إذ زرعت في الفكر الأوروبي دوافع نفسية وحضارية، سياسية وأخلاقية، تحض على الفكر الاستعماري ولاسيما بعد ظهور ملامح الضعف في الدولة العثمانية، فقد تنامت الأطماع الأوروبية في الشرق، وبدأت القوى العظمى بالتآمر الاستعماري المنظم[٢]، ولاسيما بعد أن ربط المفكرون الأوروبيون صعود الغرب بالتقدم الأوروبي في العلم والتكنولوجيا، وأصبحوا بذلك يسودون العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً. وإذا كان رجال اللاهوت في العصور الوسطى الأوروبية قد عزو سوادهم إلى الحظوة الإلهية فإن الكثير من علماء العصور الحديثة ربطوا ذلك "بفوارق بيولوجية" بين الأعراق فعدوا "العرق الأبيض" متفوقاً بطبيعته، وهو ما يؤهله لحكم بقية الأعراق، وأفرز ذلك ثقافة شرّعت استعباد الأفارقة السود، وبقية الشعوب غير البيضاء في المستعمرات الأوروبية[٣].

ب- الاستشراق والتغلغل الأوروبي في الشرق :

تكمن أهمية الاستشراق وخطورته في قوته وفعاليته في التأثير في القارئ الغربي لدرجة أنها تذكره دائماً بأنه إذا أراد الوصول إلى الشرق أن يمر عبر التقنيات والقنوات التي يقدمها المستشرقون، بعد أن تم إحاطة الشرق بسلسلة من الآراء والرؤى الاستشراقية التي أصبحت مع مرور الزمن تصوب وتحقق المصادر الشرقية، وتقدم الشرق- الذي يصوره المستشرق- للقارئ الغربي على أنه هو فقط الشرق الحقيقي[٤].

إن مرحلة جديدة من حركة الاستشراق واكبت التغلغل الأوروبي والسيطرة البرجوازية الغربية في العالم العربي تزامناً مع تمدد الاستشراق بشكل أكثر تنظيماً، ووفق مناهج بحث أكثر تقدماً بلورت رؤى جديدة عن الشرق[٥]، كما أنتج عصر التنوير بعكس ما كان مفترضاً عقلية التفوق الأوروبي بعد أن شهد هذا العصر تحولاً في مفهوم التقدم الاجتماعي والأخلاقي إلى تقدم اقتصادي وتكنولوجي أسهم في بسط الهيمنة الأوروبية الاستغلالية على أوروبا والعالم وأظهرت وفقاً لذلك، عقلية أوروبية تشجع على فكرة التمركز الفكري السلالي الأوروبي على ذاتها، التي تجسدت في اعتقاد الإنسان

---

[١] حوراني، الإسلام في الفكر الأوروبي، مرجع سابق، ص٧٢.

[٢] محمد، عبدالله يوسف سهر، مرجع سابق، ص ١٣.

[٣] لوكمان، مرجع سابق، ص١١٧-١١٨.

[٤] سعيد، مرجع سابق، ص٩٥.

[٥] الحيدري، مرجع سابق، ص٣٣.

الأوروبي بأنه الأكثر تقدماً وعقلانية وواقعية، في حين أن بقية الشعوب خارج العالم الأوروبي، هي الأقل تقدماً، وتعيش حالات من التخلف والجهل[١]، كما انعكست هذه الفكرة على جميع المستويات والعلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية بين الشرق والغرب، وتردد ذلك في منظومة الاستشراق[٢]. وأصبح شعور التفوق يلازم الأوروبيين بشكل طبيعي، وصار من الصعب عليهم التصرف بمعزل عن هذا الشعور، حتى بداعي التسامح والتنوير[٣]، بعد أن اقترن هذا الشعور بالتفوق السياسي والتقدم التقني، وكان هذا في القرن السابع عشر الذي تزامن مع تحول الشرق من عنصر تهديد إلى مجال للرحلات والاستكشافات وفضاءٍ أدبي لخيال أدباء أوروبا[٤].

وفي القرن الثامن عشر أصبح "الشرق الأدنى" والمشرق العربي مركز اهتمامات المستشرقين الأوروبيين، فقد أسهم المستشرقون بالتبشير بالحركة الاستعمارية فيها، أمثال فولني Volney[٥] الذي يعد ممهداً لحملة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨[٦]، ورينان[٧] Renan الذي اعترف بصعوبة بالغة بأصالة الفلسفة العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبأنها المرحلة الوحيدة التي تستحق البحث في التاريخ العربي والإسلامي، وسيلفستر دوساسي[٨] S. De Sacy أبو الاستشراق الحديث وشاتوبريان[٩] Chateaubriand اللذين ينكران الغيرية والآخر بدواعي سلطة الهيمنة الأوروبية[١٠].

---

[١] الحيدري، مرجع سابق، ص٣٩.

[٢] المرجع نفسه، ص٤٠.

[٣] هنتش، مرجع سابق، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٤] خضر، بشارة، أوروبا والوطن العربي (القرابة والجوار)، ترجمة جوزف عبدالله، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٣١.

[٥] **فولني (١٧٥٧-١٨٢٠)**: رحالة فرنسي سافر إلى الشرق عام ١٧٨٣ ووصف أحواله في كتابه "رحلة إلى سوريا ومصر". انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٣٤.

[٦] خضر، مرجع سابق، ص٣٢. هنتش، مرجع سابق، ص٢٤٥-٢٤٦.

[٧] **أرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢)**: كاتب وعالم أثري فرنسي، له كتاب "حياة يسوع"، وكان من أول المهتمين بالتنقيب في لبنان وفلسطين. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٣١٧.

[٨] انظر: البحث، ص٢٩٩-٣٠٠.

[٩] **شاتوبريان (١٧٦٨-١٨٤٨)**: كاتب فرنسي ومن دعاة الحركة الرومانطيقية، كان غني المخيلة والتصوير والإنشاء، زار الشرق ودون ذكرياته في "رحلة إلى أورشليم". انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٣٨٠.

[١٠] هنتش، مرجع سابق، ص٢٦٠-٢٦٢.

وكانت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ نقطة انعطاف كبيرة في العلاقات بين الشرق والغرب؛ إذ تحول الشرق إلى مادة احتلال وميداناً للتنافس الأوروبي- الأوروبي، وبذلك أصبحت الحملة أول مشروع استعماري أوروبي للمشرق العربي منذ الحروب الصليبية، فقد أوضحت حجم الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية، كما دلّت أيضاً على تحول نظرة الغرب إلى الشرق من نظرة المراقب والباحث والمستكشف إلى نظرة الطامع والمتربص، وهذه النظرة التي تراكمت وفق نموذج الحيازة على ثقافة ما من قبل ثقافة أخرى، ليدل بوضوح أيضاً على مسألة أخرى خطيرة؛ وهي تحول الاستشراق بوصفه علماً منتظماً ومتخصصاً إلى وسيلة للتعبير عن الهيمنة الأوروبية، ويُشرْعِن المدّ الاستعماري الأوروبي نحو الشرق؛ لأن- وحسب وجهة نظر بعض المستشرقين- معرفة الآخر تسوّغ التدخل في شؤونه، فهذه المعرفة هي علم يسمح للأوروبي بإعادة خلق الشرق بمطلق الحرية؛ لأنه "يعرف الشرق" بشكل أفضل مما يعرفه الشرق نفسه، وهذا الخطاب، من دون شك، يعزز الخطاب الاستعماري ويبشر به، وعلى ضوء ذلك فإن فولني Volney يرى في "الشرق الأدنى" مكاناً لتحقيق الطموحات الاستعمارية لفرنسا، لذلك يُعدّ مؤلفه "رحلة إلى سوريا ومصر" تحضيراً للاجتياح الفرنسي لبلاد المشرق[١].

ج- الاستشراق في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأثره في بلاد الشام عام ١٨٤٠:

يشير أحد الباحثين الغربيين إلى أن العقلية التي سبقت الكولونيالية- إشارة إلى الاستشراق والمستشرقين- أنتجت **(من كتب الحماقات التي لا تنتهي، التي مازال الكثير من الغربيين يستخدمونها كذخيرة يرجعون إليها وقت ما يتعلق الأمر بوصف العالم العربي والإسلامي)**[٢].

لقد شكلت الحملة الفرنسية بداية الاختراق الاستعماري الأوروبي للمشرق بعد أن أسهمت رحلة فولني Volney إلى مصر وبلاد الشام عام ١٧٨٧ في تسهيل هذا الاختراق[٣]، ولاسيما بعد أن تحول الكره في القرون السابقة إلى حقد واحتقار للعنصر المسلم الشرقي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ممزوجاً برغبة فرض فكرة تفوق الغرب مع نسف شبه كامل للإسهام العلمي العربي والإسلامي[٤].

---

[١] هنتش، مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٥.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٥٨.

[٣] خضر، مرجع سابق، ص٣٢.

[٤] المرجع نفسه، ص٣٣.

ومن جهة أخرى أدى التوسع الاستعماري الأوروبي المتزامن مع تقدم كبير في المجال الاقتصادي والعلمي والثقافي إلى إعادة إنتاج نظريات "الشعور بالتفوق"، وبنوعية جديدة يظهر فيها تاريخ أوروبا كتاريخ استثنائي وفريد من نوعه، من خلال "بديهية غير قابلة للجدال" تقول: **(لا يمكن للرأسمالية إلا أن تنشأ في الغرب، وأنه لا يمكن في مكان آخر إلا إعادة إنتاج الرأسمالية الغربية)**[(١)].

كما يربط أحد الباحثين الاستشراق والتبشير بالاستعمار ربطاً وثيقاً بعد أن تحولت الأديرة- حسب قوله- إلى وزارات دعاية منظمة ترفد السلطة السياسية للدول الأوروبية[(٢)]، والأمر نفسه يدفعنا إلى دراسة الإرساليات التبشيرية ودورها في التغلغل الأوروبي إلى المشرق العربي، ولاسيما بلاد الشام.

٤-الإرساليات التبشيرية.

أ- ظهور فكرة التبشير :

يبدو أن الدوافع والأسباب التي كنت وراء ظهور منظومة الاستشراق كانت هي تقريباً نفسها التي أدت إلى ظهور فكرة الإرساليات التبشيرية في الشرق، ولكن إذا كان الاستشراق قد سلك الأسلوب الأكاديمي- الثقافي، واستخدم كرسي التدريس في الجامعات وإلقاء المحاضرات، وتأليف الكتب ونشر المقالات، فإن التبشير قد ركز على حاجات الناس التعليمية والصحية والمعيشية[(٣)]. فقد فشلت الحملات الصليبية واقتنعت أوروبا بعدم جدوى القتال ضد المسلمين[(٤)]، كما فشلت محاولة تنصير المغول الذين اعتنقوا الإسلام من تلقاء أنفسهم إلى جانب إدراك الأوروبيين وفهمهم للعالم، على ضوء تقارير الرحالة والتجار، بأنه أوسع مما كانوا يظنون، وأنه يضم سكاناً متنوعين بشكل فاق تصوراتهم، وبأن المسيحيين لا يشكلون سوى جزء صغير منه، فهذا ما دفعهم إلى فكرة تنصير العالم

---

(١) خضر، مرجع سابق، ص٣٤-٣٥.

(٢) الشلبي، جمال، العرب وأوروبا: رؤية سياسية معاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص٣٤.

(٣) عبد الرحمن، محمود، التنصير والاستغلال السياسي، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص١٥، ٢١-٢٢، ٣٧. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق، ط٧، ١٩٩٤، ص١٥٨.

(٤) عبد الرحمن، مرجع سابق، ص٣٩.

بشكل سلمي[١]، وهي أساس فكرة التبشير المسيحي التي طرحها أحد الأساقفة قائلاً: **(نريد مرسلين لا جنوداً لاسترداد الأرض المقدسة)**[٢]، وأخذ الأكليروس اللاتيني على عاتقه تنفيذ هذه الفكرة[٣].

ب – أهم فرق التبشير في بلاد الشام .

إن أول رهبنة تأسست على هذه الأسس هي الرهبنة **الكرملية**[٤]، نسبة إلى جبال الكرمل، في عام ١١٥٤، ومنها قد انتشرت إلى مناطق عدة في بلاد الشام، وتلا ذلك تأسيس رهبنتين جديدتين هما **الفرنسيسكان**[٥] **والدومينيكان**[٦]، أوائل القرن الثالث عشر [٧].

أما على المستوى الرسمي فقد كانت البداية من نجاح مساعي بعض الأمراء الأوروبيين لدى السلطان المملوكي الناصر محمد (١٣١٠–١٣٤١) بحصول طائفة الفرنسيسكان بالذات على حق الإقامة في بيت المقدس كجالية دينية أوروبية وحيدة، والإشراف على الأماكن المقدسة منذ عام ١٣٣٥، وأخذت هذه الرهبنة على عاتقها القيام بالنشاط الديني بين الأوساط المسيحية بمختلف كنائسها في جميع أرجاء بلاد الشام[٨]، إلى جانب عملهم كوسطاء بين الموارنة والكنيسة البابوية،

---

[١] لوكمان، مرجع سابق، ص٩٠. البساطي، أحمد سعد الدين، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، مكتبة الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت، ص٢١. غنام، رياض، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص٢٣٩. خالدي، مصطفى وفروخ، عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية (عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي)، منشورات المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، د.ط، ١٩٨٦، ص١١٥.

[٢] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٧٧١.

[٣] المرجع نفسه، ص٧٧١.

[٤] **الرهبنة الكرملية:** تأسست رهبانيتهم في فلسطين في القرن الثاني عشر، ومنها انتقلت إلى أوروبا ورجع بعض رهبانها إلى الشرق في القرن السابع عشر، وشيدوا مدارس عديدة في بلاد الشام في القرن السابع عشر والثامن عشر. انظر: العقيقي، نجيب، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٨.

[٥] **الفرنسيسكان (الأخوة الأصاغر):** أسسها القديس فرنسيس الأسيزي عام ١٢٠٩، وقد اتصلوا بالشرق منذ زيارته لها واستقروا فيها لحراسة "الأرض المقدسة" وأُعلن عن تأسيسها رسمياً عام ١٣٣٥. انظر: العقيقي، نجيب مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٠.

[٦] **الدومينيكان (الأخوة الوعاظ):** أسس رهبانيتهم القديس دومينيكوس عام ١٢١٦، لدحض البدع عن طريق العلم، لذلك اهتمت بالتعليم العالي، فساهمت بذلك في إرساء النهضة الأوروبية، وقد وفد رهبانها إلى الشرق منذ القرن السابع عشر. انظر: العقيقي، نجيب، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٨.

[٧] البساطي، مرجع سابق، ص٢١.

[٨] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٧٧٢– ٧٧٣.

معتمدين في حمايتهم على البندقية لِما تحظى به هذه الأخيرة من نفوذ تجاري، وعلاقات دبلوماسية مع الدولة المملوكية[١]. ومع سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ظهرت تبدّلات كبيرة، منها أن الكنيسة الأرثوذكسية[٢] استطاعت أن تحقق سيطرة دينية وسياسية حقيقية في الدولة العثمانية[٣]. وظهرت أيضاً فرنسا كحامية للكنيسة اللاتينية في الدولة العثمانية أمام انحسار دور البندقية كحامية للفرنسيسكان والكاثوليك، ولاسيما بعد أن عقدت معاهدة الامتيازات عام ١٥٣٥.

كما ظهر النزاع بين الروم واللاتين حول الأماكن المقدسة، في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية مستمرة في إصدار فرمانات تؤكد حقوق اللاتين في بعض الأماكن المقدسة[٤]. وقد قام الرهبان الفرنسيسكان بدور الحملات الصليبية "السلمية" عبر تسللها إلى مجتمعات بلاد الشام، وبدءاً من القرن السابع عشر شاركتها طوائف مسيحية أكثر تشدداً في تعصبها الكاثوليكي وأكثر تصميماً على نشر معتقداتها، وليس بعيداً عن فكرة توسيع نفوذ أوروبا السياسي. وأولى هذه الفرق هم **الكبوشيون**[٥] أو الجبليون؛ وهي جماعة انشقت عن الرهبنة الفرنسيسكانية نفسها، وحصلوا على مساعدة فرنسا وحمايتها[٦]، وقد أسهم دعاتها في دعم الفكرة الصليبية وبنشر المسيحية والنفوذ الفرنسي في بلاد الشام بشكل ممنهج، فقد أسّسوا إرساليات عديدة لهم في صيدا عام ١٦٢٥، وبيروت وحلب عام ١٦٢٦، وكذلك في غزير وعبيه وبعبدات وطرابلس، وتسرّبوا إلى دمشق، وكان لهم فيها منزل وكنيسة.

---

[١] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٧٧٢– ٧٧٣، ص٧٧٨.

[٢] **الأرثوذكس**: لفظياً تعني ذوو العقيدة السويّة، وهم مجموع المسيحيين الشرقيين الذين تمسكوا بتقاليد الكنيسة الأولى وبالعقائد التي تمت صياغتها في المجامع المسكونية السبعة الأولى، وهم ينتظمون في كنائس وطنية أهمها الكنائس الرسولية الأربع (القسطنطينية، والإسكندرية، وإنطاكية، والقدس)، وقد وقع الانفصال بينهم وبين المسيحيين الغربيين (الكاثوليك) عام ١٠٥٤. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج١، ص٣٨٧.

[٣] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٧٨٢.

[٤] المرجع نفس، ص٧٨٧.

[٥] **الكبوشيون**: تفرعوا عن الفرنسيسكان على يد ماتير دا باشيو في مطلع القرن السادس عشر، وقدموا إلى بلاد الشام في القرن السايع عشر ، وأسسوا فيها الأديرة والمدارس والمؤسسات الخيرية. انظر: العقيقي، نجيب، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٥.

[٦] أرملة، مرجع سابق، ص١٦٥–١٦٦. الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٠–٨١١.

أما اليسوعيون[١] فقد كانت بلاد الشام مركزاً ومجالاً حيوياً لنشاطهم[٢]، ولا سيما التي شهدت نزول أول يسوعيّيَن في الشرق عامة عام ١٥٧٨، وقد دخلا جبل لبنان بصفة رسولين بابويّين إلى الموارنة بدلاً من الفرنسيسكان، للكشف عن أحوال الموارنة وعاداتهم ومعتقداتهم؛ لأن لبنان كانت مركزاً للطائفة المارونية التي كانت على صلات قديمة مع الفاتيكان، وقد أسهم ظهورهم هذا في إنشاء مدرسة الموارنة الشهيرة في روما عام ١٥٨٠ التي أشرف اليسوعيون على إدارتها حتى عام ١٧٧٢– ١٧٧٣ عندما تم إلغاء رهبانيتهم[٣]. ولأنهم ممثلون الكنيسة البابوية أنشأ اليسوعيون عدة أديرة في بلاد الشام في القرن السابع عشر الميلادي مثل دير حلب ١٦٢٥. وقد أدى التعاون الوثيق بين الموارنة واليسوعيين إلى ظهور الطوائف الشرقية الكاثوليكية[٤].

وحظي اليسوعيون بتأييد فرنسا فبشروا باسمها وباسم الملكية الفرنسية، وقد استغلت فرنسا هذا الوضع للتقرب من مشايخ الموارنة، مقابل حصول الموارنة على منافع خاصة، فقد كان لهم دور فعَّال في تعيين أبي نوفل الخازن نائباً للقنصل عام ١٦٥٥، ثم قنصلاً لفرنسا في بيروت عام ١٦٦٢[٥]. وقد وصل المرسلون اليسوعيون إلى دمشق عام ١٦٤٣، وفشلت محاولاتهم الأولى في ضم السريان إلى الاتحاد الكاثوليكي، ثم نجح ذلك جزئياً عام ١٦٤٩. ولولا الدعم والحماية الفرنسية لما تمكنت الكنيسة البابوية (اللاتينية)[٦] من العمل وممارسة النشاط الديني في بلاد الشام؛ لأن ممثل البابا في الأستانة لم يكن معترفاً به من قبل الدولة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكان موظفو البابا يمارسون نشاطهم من خلال السفارة الفرنسية بموجب الحق الذي حصلت عليه فرنسا في حماية الكاثوليك، ولاسيما في المعاهدة الفرنسية– العثمانية لعام ١٧٤٠؛ لذا لم يكن لهم صفة رسمية

---

[١] **اليسوعيون:** أسس رهبانيتهم القديس أغناطيوس دي لويّولا عام ١٥٤٠، وقدموا إلى الشرق منذ القرن السابع عشر، وشيّدوا المدارس والأديرة في مدن بلاد الشام، وفي مناطق عديدة من الشرق. انظر: العقيقي، نجيب، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٤.

[٢] أرملة، مرجع سابق، ص١٤٥. الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨١١–٨١٣.

[٣] مجموعة مؤلفين، اليسوعيون في الشرق الأدنى والعالم، دار النهار، بيروت، د.ط، د.ت، ص٦١. الصباغ، ج٢، ص٨١٤.

[٤] اليسوعيون، مرجع سابق، ص٦١–٦٣. صالح زهر الدين، مرجع سابق، ص١٣.

[٥] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٤٩.

[٦] **الكنيسة الكاثوليكية:** إن المسيحيين الكاثوليك يعدون بابا روما زعيمهم الروحي ؛ لأنهم– وحسب تعاليمهم– يعدونه خليفة القديس بطرس الذي أشار إليه المسيح (عليه السلام) بأنه الصخرة التي ستُبني عليها كنيسته، تعرضت هذه الكنيسة لأزمات خطيرة، من أهمها: انشقاق الكنيسة البيزنطية (الأرثوذكسية)، وحركة الاصلاح البروتستانتي. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ص٢٠.

في الإمبراطورية، بل كانوا بمثابة أجانب يتمتعون بالحماية الفرنسية[١]. كما أدرك المبشرين بكل فرقهم ضرورة الاستفادة من نظام الامتيازات الأجنبية كي يتجولوا في أراضي الإمبراطورية العثمانية ومنها بلاد الشام بحرية شبه تامة، تحت حماية إحدى تلك الدول المتمتعة بمزايا وحقوق نظام الامتيازات[٢]. ولم ينته القرن السابع عشر حتى ظهر الإنجيليكان[٣] في بلاد الشام، وبالتحديد في حلب، في الوقت الذي كانت القوة العثمانية في طريقها إلى الانهيار، وكان من العسير الوقوف في وجه الضغوط الأوروبية المختلفة وأدواتها (القناصل والمستشرقون والمبشرون)[٤].

وتأخر دخول الآباء اللعازاريين[٥] حتى عام ١٧٨٣، الذين جاؤوا بدلاً عن الآباء اليسوعيين في جميع الأديرة التابعة لهم، بعد أن أصدرت البابوية قراراً بإلغاء الرهبانية اليسوعية في ٢١ تموز ١٧٧٢، وتسلَّم اللعازاريون الأديرة اليسوعية في بلاد الشام وأراضي الدولة العثمانية، وجعلوها إقليماً "كنسياً" واحداً حتى عام ١٨٣٣، وكانت بلاد الشام في ذلك الوقت تحتوي أربعة أديرة رئيسية لهم في كل من دمشق، وحلب، وطرابلس، وعينطورة[٦].

وتركزت مساعي المبشرين بشكلٍ عام، واليسوعيون بشكلٍ خاص، في محاولة الانتشار في بلاد الشام والتغلغل في أوساط الطوائف المسيحية الشرقية لنشر أفكارهم ومبادئهم فيها، وقد امتد المجال التبشيري لليسوعيين شرقاً وصولاً إلى ماردين وأسسوا فيها بعثة تبشيرية عام ١٦٨٢[٧].

---

[١] محافظة، مرجع سابق، ص٧٠.

[٢] خالدي وفروخ، مرجع سابق، ص١٣٤.

[٣] **الكنيسة الانغليكانية:** هي كنيسة إنكليزية مستقلة جاءت نتيجة حركة إصلاحية دينية قام بها هنري الثامن متخذاً من زواجه الثاني من آن بولين– عشيقته– حجة للقطيعة مع روما، بعد أن رفض البابا طلاقه من زوجته الأولى كاترين الأرجوانية– أرملة أخيه–، وقد سعى من خلال ذلك الاستيلاء على أملاك الكنيسة البابوية في إنكلترا، وساعده الشعب والبرلمان في هذا الإتجاه، فتمكن من تأسيس هذه الكنيسة وتحقيق استقلاليتها بين عامي ١٥١٥ و١٥٢٩. انظر: أحمد، محمد حمدان، والنايف، حسام جميل، تاريخ أوروبة الحديث من عصر النهضة إلى قيام الثورة الفرنسية ١٤٩٢–١٧٨٩، منشورات جامعة دمشق– كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د.ط، ٢٠١١–٢٠١٢، ص١٦٢–١٦٣.

[٤] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨٤٨.

[٥] **اللّعازاريون:** اسم أُطلق على جمعية من الكهنة أسسها القديس منصور دي بول عام ١٦٢٥، نسبة إلى لَعازر أخو مرتا ومريم، للاهتمام بالرسالات الشعبية وبتربية الكهنة والتعليم. انظر، المنجد، مرجع سابق، ص٦١٣.

[٦] زهر الدين، صالح، التبشير وأثره في جبل لبنان، منشورات رسالة الجهاد، طرابلس الغرب، ط١، ١٩٨٦، ص١٦–١٧.

[٧] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٩.

وفي الحقيقة كل فرق التبشير ركزت أعمالها على استمالة الفئات المسيحية الشرقية، وقد نجحت في اختراقها والتسرب إليها مثل الروم الأرثوذكس، والأرمن، والسريان، والموارنة، والنساطرة، كما أنهم اصطدموا بالرؤساء الروحيين الشرقيين الذين أدركوا مساعي المبشرين الأوروبيين، فأعلموا السلطات العثمانية بخطورة عمل هؤلاء المبشرين[١]. وقد لجأ المبشرون إلى التعليم كوسيلة لجذب الأهالي وبث آرائهم في أوساطهم[٢]، وقد اعتمدت فرق المبشرين هذا المنهج، وبذلك فقد تم إنشاء المدارس لتعليم الأطفال، فالفرنسيسكان والكبوشيون أسسوا مدارساً صغيرة في لبنان، وفعل اليسوعيون ذلك في القرى المجاورة لمراكز إرسالياتهم، كما فتح اليسوعيون مدرسة في حلب عام١٦٣١، إلا أنها لم تستمر أكثر من/١٥/ شهراً بسبب مقاومة الكنائس الشرقية، والسلطات العثمانية لها، ثم فتحوا معهد عينطورة الشهير في لبنان عام ١٦٥٦، ولم يقتصر التعليم على البنين، بل شمل الفتيات أيضاً، فقد شجع الكبوشيون عام ١٦٧٠ على إنشاء جمعية الراهبات في حلب[٣].

اعتمد المبشرون على البساطة، والتقشف، والمساعدة الطبية، إلى جانب المعارف الدينية، ليَظْهروا عند المسيحيين أنهم يعملون ابتغاء وجه الله فقط، فقد جذبوا قلوب الناس عند مكافحتهم وباء الطاعون، مع تقديم العون دون أي تفريق في المعاملة بين مختلف الطوائف الدينية، كما لم يقتصر نشاطهم التبشيري على الطوائف المسيحية فقط، فقد حاولوا التقرب من الدروز واليهود، واليزيديّين الأكراد في جبل سنجار[٤]. في حين أن المبشرين تحاشوا نشر الدعوة المسيحية في صفوف المسلمين، لعلمهم أنهم سيقاومونهم بتأييد من السلطات العثمانية الحاكمة، لذا فهم لم يتجولوا في أحيائهم، وبالمقابل فإن المسلمين لم يتعرضوا لهم بأي أذى[٥].

ج- التبشير في النصف الأول من القرن التاسع عشر في بلاد الشام حتى عام ١٨٤٠:

شكّل التبشير أحدى أهم أدوات التغلغل الأوروبي في بلاد الشام، بعد أن تحول إلى مظهر جديد من مظاهر التنافس الأوروبي فقد أصبحت هذه الدول تبحث من خلاله عن قواعد سياسية واقتصادية، واجتماعية في بلاد الشام، وهو السبب الذي دفع ببريطانيا، والولايات المتحدة أيضاً، إلى

---

[١] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨٢٢-٨٢٤.

[٢] خالدي وفروخ، مرجع سابق، ص٦٦-٦٧.

[٣] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨٢٦-٨٢٧.

[٤] المرجع نفسه، ص٨٣١.

[٥] المرجع نفسه، ص٨٤٧.

العمل على إيجاد طائفة بروتستانتية[1] لترتكز عليها في سياسة التدخل في شؤون بلاد الشام، ولاسيما بعد تنامي مصالح بريطانيا في الشرق عامة، ووقوع بلاد الشام على خط المواصلات بينها وبين الهند، ولضعف العنصر البروتستانتي تقربت بريطانيا من الدروز وحاولت استمالتهم.

أما روسيا فلم تظهر اهتماماً مباشراً بعملية التبشير، مع أنها حصلت منذ عام ١٧٧٤ على "حق" الإشراف على الرعايا الأرثوذكس، وحماية الأماكن المقدسة، في حين أن النمسا ستحاول مزاحمة النفوذ الفرنسي لدى الرعايا الكاثوليك بعد عام ١٨٤٠ بعد خروج محمد علي من بلاد الشام[2].

لقد سلكت الإرساليات التبشيرية شتى الوسائل والسبل للتغلغل والتأثير في سكان بلاد الشام مذهبياً وسياسياً، مستغلين حاجاتهم الصحية والتعليمية والحياتية، وتحت شعار **(افتح مدرسة تقفل مسجداً)**[3]. فبعد أن أحرزت الإرساليات بعض التقدم في عملها التبشيري بالاعتماد على المدارس، قامت بتأسيس إرساليات تبشيرية طبية حققت بدورها نجاحاً لافتاً وأخذت بالنمو والتوسع في مجال عملها[4].

وقد شكل تعدد الطوائف في جبل لبنان محوراً للتغلغل الغربي عن طريق الدين، وأكسب لبنان أهميتها لدى الدول الأوروبية، بعد أن نجحت كل دولة في استمالة إحدى طوائف جبل لبنان إليها ومنحها الحماية، مما أدى إلى خلط شديد بين الدين والسياسة، فتحول الدين إلى وسيلة في حين أن السياسة كانت هي الهدف الحقيقي[5]. وكان لدخول المبشرين البروتستانت بلاد الشام في عشرينيات القرن التاسع عشر، ونشرهم لثقافتهم وإنشائهم المدارس فيها، وإغرائهم الأهالي لاعتناق البروتستانتية، مثل هذه التصرفات أرعبت فرنسا؛ لأنها وجدت النفوذ البريطاني سيحلّ عوضاً عن نفوذها، فأعادت اليسوعيين الذين أخذوا على عاتقهم مقاومة المد البروتستانتي (الثقافي والديني والتعليمي)، وقد أخذ

---

[1] **البروتستانتية:** هي من الكنائس الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير حركة الإصلاح الديني في أوروبا، وكان قد بشّر لها لوثر وكالفن وزوينغلي، وانتشرت تعاليمها في ألمانيا والدول الإسكندنافية واسكتلندا وسويسرا وفي أمريكا الشمالية، وهي كنائس متشعبة وتختلف عن بعضها البعض في العقائد والقوانين، وأهم فروعها اللوثرية والكالفينية والانغليكانية، وهي ما تعرف بالكنائس الإنجيلية التي تعد الكتاب المقدس مصدراً وحيداً للوحي، وهي لا تعترف بالكهنوت. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج١، ص٥٢٧-٥٢٨.

[2] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٢.

[3] المرجع نفسه، ص٢٣٨-٢٣٩.

[4] البساطي، مرجع سابق، ص٢٧.

[5] زهر الدين، مرجع سابق، ص٩-١٠.

هذا الأمر منحاً خطيراً عندما أصبح التنافس بين الطرفين يشكل دعائماً للصراع بين الدروز والموارنة، وهو ما سيترتب عليه أهوال وحوادث مؤسفة بين عامي ١٨٤١ و ١٨٦٠[١].

وكان لظهور مرسلو البروتستانت دور كبير في تغيير أساليب التبشير في جبل لبنان[٢]، فقد أخذ عمل المؤسسات التبشيرية يتجه اتجاهاً جديداً في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعد نزول المبشرين البروتستانت بلاد الشام منذ عام ١٨١٩-١٨٢٠[٣]، فقد أخذ هؤلاء المطبعة البروتستانتية من مالطا إلى بيروت عام ١٨٤٣ وأسسوا الجمعية الاستشراقية الأمريكية لمساعدة النشاط التبشيري، وفي مدة قياسية أصبح للجمعية نحو ثلاثين مطبعة في أواسط القرن التاسع عشر، وتمكنوا من إقامة مراكز ومدارس تبشيرية في مناطق مختلفة حمص، وطرابلس، وصيدا، وبيروت، ودير القمر، وعبيه، وبذلك استطاعوا إيجاد قاعدة بروتستانتية تمكنت، مع صغر حجمها، من التغلغل في أوساط سكان بلاد الشام، ولاسيما جبل لبنان[٤].

وظهرت منافسات حادة بين البروتستانت واليسوعيين؛ إذ عدّ اليسوعيون تمركز المبشرين البروتستانت في بلاد الشام تحدياً "لتاريخهم العريق"، وضربة لنفوذهم، ولسياستهم في التبشير[٥]، فعادت الرهبنة اليسوعية إلى بيروت عام ١٨٣١، بعد أن حصلت على براءات جديدة، مع الكثير من التغيير في أسلوب العمل والأداء، باعتماد التأقلم والتكيف مع عادات وتقاليد ولغة سكان جبل لبنان، وقد ساعدتهم هذه السياسة المرنة على الانتشار السريع في بلاد الشام[٦]، وكان مرسلو البروتستانت من الإنكليز والأمريكان قد سبقوهم في هذه المرحلة، وكانوا قد جعلوا من جبل لبنان منطلقاً لعملهم التبشيري[٧]، فأشعل ذلك في اليسوعيين روح المنافسة والمثابرة مع اتخاذ أسلوب جديد في التبشير

---

[١] الحداد، جرجي، البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، لا يوجد دار نشر، سان باولو، د.ط، ١٩٣١، ص٢٤-٢٥، ٢٩.

[٢] زهر الدين، مرجع سابق، ص١٣.

[٣] خالدي وفروخ، مرجع سابق، ص٨٠. غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٤٢.

[٤] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٤٣.

[٥] زهر الدين، مرجع سابق، ص١٤.

[٦] اليسوعيون، مرجع سابق، ص٦٣.

[٧] لقد رأى المرسلون البروتستانت الأوائل أن بيروت ستكون- كمركز للإرسالية- أفضل من القدس نفسها، نظراً لمناخها وطبيعة أهلها وقربها من الجبل ومن دمشق والمدن الساحلية، لإرسال المبشرين والكتب الدينية إليها، إضافة إلى اتصالها بأوروبا. انظر: خوري، يوسف قزما، الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية العلمية في القرن التاسع عشر، دار سوراقيا للنشر، د.ن، د.ط، د.ت، ص٢٦-٢٧.

يعتمد على التربية والتعليم، وتكثيف الثقافة الإنسانية دينياً وخلقياً وأدبياً[١]، وترافق ذلك مع دخول محمد علي إلى بلاد الشام، وهذا الأمر أتاح للبعثات التبشيرية ممارسة نشاطها بعيداً عن المراقبة العثمانية[٢].

د- نتائج التبشير في بلاد الشام حتى عام ١٨٤٠.

جعل انفتاح بلاد الشام أمام عمل الإرساليات التبشيرية الميدان فسيحاً للمنافسات والصراعات الدينية والسياسية التي تورطت فيها الدول الأوروبية مباشرة، واستفحل الأمر أكثر فأكثر بعد إخلاء محمد علي لبلاد الشام، فقد تسابقت الدول الأوروبية لفرض حمايتها على رعايا السلطان العثماني من المسيحيين[٣].

وقبل ذلك، ومع إدراك الطوائف الشرقية خطورة تبدل التوازنات الطائفية بين السكان؛ ومع أن المسلمين كانوا بمنأى عن المبشرين، إلا أن هذا لم يمنع من تَنَصُّر بعض الأسر المعروفة مثل الأسرة اللمعية والشهابية، وبعض الأسر الدرزية في المَتن والشيعية في جبيل لأسباب سياسية أو اقتصادية أو لتدخل مباشر من المبشرين[٤]، في حين أن بعض الأسر الدرزية في بيروت كانت تتقرب من المرسلين الأمريكان بإظهار النصرانية للتخلص من الجندية التي فرضها إبراهيم باشا أيام حكمه في بلاد الشام[٥]. كما حارب الروم الأرثوذكس العمل التبشيري والمبشرين، لما تنطوي عليه- حسب رأيهم- من أسس التعصب المذهبي، وما تخلّفه من خصومات وعداءات في المجتمع الواحد، بل وفي العائلة الواحدة [٦].

ولعل أخطر النتائج المترتبة على النشاط التبشيري هو تمويه الحس الوطني لدى فئات السكان، في جبل لبنان تحديداً، بفعل بث ثقافات وأفكار الولاء مذهبياً لجهات دولية معينة، وهو ما يعكس حقيقة عمل المبشرين الهادف إلى السيطرة السياسية والاقتصادية، فالبروتستانت بحثوا عن قاعدة بروتستانتية بولاء أمريكي أو بريطاني، وحصلت فرنسا على ولاء الموارنة، واتجه الأرثوذكس بولائهم

---

[١] اليسوعيون، مرجع سابق، ص٦٣-٦٤.

[٢] منسى، محمود صالح، حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٧٨، ص٦٢.

[٣] سنو، مرجع سابق، ص٢١.

[٤] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٤٥.

[٥] مذكرات الدكتور فان ديك من سنة ١٨٣٩-١٨٥١، مجلة الهلال السنة الرابعة عشرة، ج٤، ١ يناير سنة ١٩٠٦، مطبعة الهلال، الفجالة- القاهرة، ص١٩٩.

[٦] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٤٥.

نحو روسيا[١]، وكانت لبنان "اختياراً موفقاً" كساحةٍ للنشاط التبشيري بسبب تنوعها الطائفي، فقد شكلت مدخلاً رئيسياً لتدخل الدول الأوروبية في شؤون هذا البلاد وشؤون بلاد الشام[٢].

ونتيجة لما سبق فقد كانت حركة التبشير جزءاً من عمل سياسي أوروبي كبير، ولاسيما بعد أن استغلتها كلٌ من فرنسا وبريطانيا وروسيا والفاتيكان، ولاحقاً الولايات المتحدة لأغراض استعمارية سياسية واقتصادية، وذلك بربط مجموعات سكانية وطوائف دينية بروابط من الولاء الثقافي والاجتماعي، وإن لم تحقق الإرساليات نتائج آنية ومباشرة لجهودهم "الكبيرة" إلا أن في الحقيقة أحدثت شروخاً وانقسامات دينية ومذهبية، تطورت في مراحل لاحقة إلى اختلافات في الانتماء الثقافي والفكري والاجتماعي والسياسي[٣].

٥- الرحلات والبعثات الاستكشافية.

أ- أدب الرحلات :

لا يندرج في الواقع أدب الرحلات تحت حركة الاستشراق؛ لأنه لم يشترط فيه البحث حسب المنهج الأكاديمي[٤]، فقد يكون المستشرق رحالة، في حين ليس بالضرورة أن يكون الرحالة مستشرقاً. فكل الرحالة الذين زاروا بلاد الشام لقرون عديدة من الفرنسيين والإنكليز والهولنديين والإسبان وغيرهم، قدموا إليها إما كمقرٍ للأماكن المقدسة وإما مركزٍ للجاليات الأوروبية أو؛ لأنها معبر ينفذون من خلاله إلى الطرف الآخر من الشرق؛ ومع أن بعضهم كانوا تجاراً أو مغامرين أو فضوليين أو علماء أو سياحاً أو مبشرين أو حتى سياسيين، إلا أنهم كانوا في حالات عديدة رحالة متشوقين لمعرفة البلاد التي يمرون بها، وقد دوّن معظمهم مشاهداته ووصفوا الكثير من عادات وتقاليد الأماكن التي زاروها، وفي الواقع ليس كل ما ذكروه كان صحيحاً ودقيقاً؛ لأن أغلبهم كان متأثراً بعواطف خاصة أو أفكار مسبقة، أو لأن بعضهم خانته الذاكرة، أو لسطحية آراء بعضهم الآخر، مما أدى إلى تشوّه الكثير من رؤاهم التي حرّفت وزيّفت الكثير من الحقائق[٥].

ولم تختلف وجهات نظر المستشرقين والرحالة في خطوطها العامة فكانت صورة الشرق الأسطورية هي الوجه الآخر المقابل للعقلانية الغربية، كما أن سحر الشرق وأهميته الثقافية

---

[١] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٥٤.

[٣] المرجع نفسه، ص٢٣٩.

[٤] لوكمان، مرجع سابق، ص١٢٧.

[٥] الصباغ، الجاليات الأوروبية، مرجع سابق، ج٢، ص٨٩٢.

والمصالح الاستراتيجية للغرب، وكنوز الشرق وآثاره، دفعت الأوروبيين رحالة ومستشرقين إلى الانغماس في الشرق، ولكن مع إيديولوجية متعالية، ما عدا بعضهم الذين عادوا وهم محمّلين بمعطيات كثيرة مثيرة للاهتمام[١].

وبعد استعصاء الشرق على الطاعة لم يبق لدى الأوروبيين سوى الفضول الذي تمثل في الرحلة إلى الشرق أو ما عرف بـ (أدب الرحلة)، وهذا ترافق مع نهب فكري ومادي، فالرحالة حملوا لدى عودتهم إلى بلدانهم النصوص والأحجار الأثرية والمنحوتات والنقوش والمسلات والمخطوطات، وبذلك شكلت الرحلات الأوروبية الأدوات الأولى للتغلغل الأوروبي إلى الشرق[٢].

ومن جهة أخرى كانت روايات كثيرة لهؤلاء الرحالة طريفةً نوعاً ما، وغريبةً أحياناً أخرى عندما اقترنت بفكرة تفوق الغرب، والاختلاف السياسي والثقافي بينه وبين الشرق، إلا أن بعضها الآخر شكّل مادة جدلية تستحق الدراسة والتداول[٣]. فقد رسم الرحالة الأوروبيون صوراً غامضة ومشوهة في أذهان قرّائهم، أما بعضهم الآخر فرسم صوراً واضحةً ولم يتخذ من الشواذ قوانين[٤].

يُقدَّر عدد الرحلات إلى الشرق عامة في القرن السابع عشر لوحدها أكثر من مائتي رحلة، وكانت على كثرتها، مكررة في الشكل والمضمون وكأنها تنسخ بعضها بعضاً[٥]. كما استمرت الرحلات طيلة القرن الثامن عشر، وفي الحقيقة فإن عدد الرحلات إلى المشرق العربي، والشرق عامة، قبل عام ١٨٤٠ يصعب عده، وكانت أهمها بالنسبة لبلاد الشام وأشهرها رحلة فولني Volney عام ١٧٨٣ التي دوَّنها في كتابه "ثلاثة أعوام في مصر وسوريا"[٦]. وكانت الدوافع الأولية لرحلة فولني Volney إلى بلاد الشام ومصر غير واضحة، إلا أن تركيزه على الحالة السياسية للمنطقة دفعت الباحثين إلى عدِّ رحلته بمثابة تحضير للاجتياح الفرنسي لبلاد المشرق العربي[٧]. ولعل الفلسفة التي طرحها فولني Volney في التعامل مع الإمبراطورية العثمانية، شكلت أساسَ الدبلوماسية الفرنسية التي قررت في النهاية مهاجمة حليفتها القديمة الدولة العثمانية أواخر القرن الثامن عشر، فقد وضع فولني Volney نفسه أمام الخيارات المتاحة لفرنسا في التعامل مع مسائل

---

[١] الحيدري، مرجع سابق، ص٤٦.

[٢] هنتش، مرجع سابق، ص١٧٨.

[٣] خضر، مرجع سابق، ص٢٩.

[٤] العقيقي، مرجع سابق، ج١، ص١٢٨. لوكمان، مرجع سابق، ص١٢٥.

[٥] هنتش، مرجع سابق، ص١٧٩.

[٦] العقيقي، مرجع سابق، ج١، ص١٢٩.

[٧] هنتش، مرجع سابق، ص٢٤٧.

الشرق التي أصبح مصير حليفتها أهم عناصرها، ويبدو أن الاحتقار الذي يكنه فولني Volney للدولة العثمانية "عدوة الجنس البشري" يمنعه من طرح فكرة نَجْدةِ الحليف القديم كإحدى تلك الخيارات[١].

كان فولني Volney الأوروبي المؤمن بتفوق حضارته وما ينطوي عليها من "واجبات" تجاه الشعوب الأخرى، يعتقد بإمكانية وضرورة إعادة الازدهار والتقدم للشرق، غير أن هذا الخطاب يُذكِّرنا بالمقولات التي تسوّغ الاتجاه الكولونيالي الاستعماري، مسجلاً فولني Volney بذلك تحولاً في مسألة "الفضول" الذي كان في كثير من الأحيان مجرد تفحص وتأمل للشرق، فقد أصبح هذا الاهتمام بالشرق عنصراً رئيسياً مرافقاً للتاريخ الحديث، بل أصبح "مسؤولية" الغرب، جاعلاً ذلك منسجماً مع مصالح فرنسا، وبذلك لم يعد الفضول مجرد رغبة، بل أصبحت القوة التي تمتلكها أوروبا للهيمنة على الشرق[٢]. ومع أن فولني كان لديه تحفظاً على المغامرة العسكرية في المشرق العربي، إلا أنه أسهم بشكل فعال في تسهيل الاختراق الاستعماري له[٣]، بعد أن تنوعت نظرة الغرب الفكرية نحو الإسلام في القرن الثامن عشر، وكانت هذه النظرة على العموم الأكثر تفهماً مما سبق إلى الإسلام والشرق، وذلك من خلال محاولات تصحيح الصورة السلبية عن الإسلام في أوروبا، وإعادة الاعتبار للعرب في التاريخ ضمن ما سميت بـ (الحركة الرومانسية التنويرية)، غير أنه سرعان ما تبدلت هذه النظرة في القرن التاسع عشر، وظهرت مجدداً نظرة الاحتقار إلى الشرق، فشاتوبريان Chateaubriand لم يقتنع بالتحالف الفرنسي– العثماني؛ لأن العثمانيين المسلمين هم الأعداء الأساسيون، بينما أطلق رينان Renan العنان لأحكامه المسبقة ضد العرب والإسلام[٤]. وإذا كان فولني لديه بعض التحفظات على التحرك الاستعماري في القرن الثامن عشر، فإن لامارتين[٥] Lamartine في القرن التاسع عشر حمل مشاعر الاستعمار الخالصة، ومع قبوله للشرق فهو يقلل من شأن غيريّته على أنه الطرف الآخر، ويجعله مجرد ملحق بالغرب ومكملاً له، ولامارتيـــن

---

[١] هنتش، مرجع سابق ، ص٢٥٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٥٨.

[٣] خضر، مرجع سابق، ص٣٢.

[٤] المرجع نفسه، ص٣٣.

[٥] **لامارتين Lamartine** (١٧٩٠– ١٨٦٩): من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومانطيقية، زار الشرق وشغف به، من مؤلفاته الشعرية "التأملات" و"الألحان الروحية"، ومن النثرية "رحلة إلى الشرق". انظر: بازيلي، قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩، ص٢٠.

Lamartine كان يسعى إلى التمكّن من ملء هذا الفراغ، فهو لم يكن يحتاج سوى إلى "شيءٍ" من الثروة، و"بعض المئات" من الجنود الأوروبيين ليحتل آسيا من أزمير إلى البصرة، ومن القاهرة إلى بغداد، بعد أن يجعل من الموازنة محوراً لهذه العمليات؛ لأنه- وحسب رأيه- قد "حان الوقت" لإقامة مستعمرة أوروبية في قلب آسيا لإعادة الحضارة الحديثة إلى الأماكن التي كانت مركزاً للحضارات القديمة، وإقامة إمبراطورية جديدة على جسد الإمبراطورية العثمانية التي انهارت قواها تماماً[١].

أما رحلة يوهان بوركهارت J. Burckhardt فهي من أهم رحلات القرن التاسع عشر؛ إذ تم إرساله عام ١٨٠٩ من قبل جمعية بازل العلمية السويسرية للقيام بدراسات جغرافية وتاريخية للعالم العربي لذلك جعل من القنصلية البريطانية في حلب مركزاً لتحركاته المتعددة [٢]، وكان في كل مرةٍ ينتحل شخصيةٍ معينة، فكان يرتحل تارة بزي بدوي، وتارة أخرى بزي تاجر هندي وهكذا..، وزار أغلب مدن بلاد الشام والعراق، وتجول في وادي نهر الفرات ومدنه وقراه[٣]، وفي الرحلة الثانية سافر إلى مصر وشبه الجزيرة العربية، وفي رحلةٍ ثالثة زار حلب مجدداً، ومنها سافر إلى مصر والتقى بمحمد علي باشا ثم سافر إلى الحجاز، وكان قد تنبأ بانتهاء سلطة العثمانيين في الحجاز لصالح محمد علي باشا[٤].

ب- البعثات الاستكشافية:

- **البعثات الروسية العسكرية في بلاد الشام في ثلاثينيات القرن التاسع عشر:**

في الواقع ارتبط عمل البعثات الروسية التجسسية والعسكرية بمستجدات الأوضاع السياسية في بلاد الشام التي أثارها تحرك قوات محمد علي باشا نحوها للسيطرة عليها[٥]، فأمام رفض الدول الأوروبية تلبية طلب السلطان العثماني بمساعدته للتصدي للتقدم المصري الذي بات يهدد الأناضول والأستانة، عرض القيصر الروسي مساعدته على السلطان العثماني واضطر هذا الأخير إلى

---

[١] هنتش، مرجع سابق، ص٢٦٧.

[٢] الحيدري، مرجع سابق، ص٥٢.

[٣] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص١٥. الحيدري، مرجع سابق، ص٥٢.

[٤] المرجع نفسه، ص٥٤-٥٥.

[٥] ريجنكوف .م، سميليا نسكايا .أ، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر (مذكرات رحّالة، تقارير علمية واقتصادية ووثائق قنصلية وسياسية وعسكرية)، ترجمة يوسف عطا الله، دار النهار، بيروت، د.ط، ١٩٩٣، ص٢٤٦.

قبولها[١]، فتوجهت هيئة الأركان الروسية المسؤولة عن مهام دراسة مسرح العمليات العسكرية لإعداد الخرائط والخطط العسكرية التي كانت تقوم بدراسة بلاد فارس والأراضي العثمانية على الحدود الروسية الجنوبية إلى دراسة بلاد الشام وميادينها[٢].

وكان الجنرال مورافيوف Muravyov من أشهر الشخصيات التي اعتمدت عليها هيئة الأركان الروسية للقيام بهذه المهمة، إلى جانب تكليفه بمهام التفاوض مع محمد علي باشا، وقد قام بتكليف العقيد ديوغاميل Diogamil لتنفيذ هذه المهمة واستطاع هذا الرجل دراسة أوضاع القلاع والحصون العثمانية وقدراتها الدفاعية في حال تعرضها لأي هجوم مصري محتمل[٣]. وبعد معاهدة هنكار اسكلة سي عام ١٨٣٣ عمدت روسيا إلى دراسة أوضاع بلاد الشام كمنطقة مرشحة للصراع بين السلطان العثماني ومحمد علي[٤]، وكان لدى مورافيوف Muravyov فريق عمل من الضباط الروس الذين زاروا بلاد الشام، وعملوا على دراستها حتى عام ١٨٣٨ وقدموا تقارير تفصيلية عنها، وكان أهمها التقرير الذي قدمه العقيد لفوف Lvov [٥] الذي قام بدراسة كاملة وشاملة عن بلاد الشام، وقدمها لهيئة الأركان العامة[٦]، وقد اقترح فيها إمكانية الهجوم على بلاد الشام على ثلاثة محاور؛ وهي: من الشمال من جهة الأناضول، ومن سهول بغداد من الجهة الشرقية، ومن البحر المتوسط من جهة الغرب[٧]، كما تضمنت الدراسة أوضاع السكان في بلاد الشام وأحوالهم وميولهم، وقد أشار لفوف Lvov إلى امكانية السيطرة على بلاد الشام خلال مدة سبعة أو ثمانية شهور شريطة أن يوافق السكان على ذلك، وإلا فإن المهمة ستكون بالغة الصعوبة وستكلف الكثير من الخسائر المادية

---

[١] العربيات، غالب عبد أحمد، وشنيكات، خالد حامد طاهر، الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١) "قراءة جديدة في التدخل الدولي"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، العددان١١٧-١١٨، كانون الثاني- حزيران ٢٠١٢، ص٣٩٠.

[٢] صالح، محمد حبيب، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، العددان ٦٧-٦٨، كانون الثاني- حزيران ١٩٩٩، ص٢٢٢-٢٢٣.

[٣] زيدان، براءة، السياسة الروسية في بلاد الشام ومصر (١٧٩٨-١٨٧٨)م، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الانسانية- قسم التاريخ، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص٨٥.

[٤] صالح، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٢٣-٢٢٤.

[٥] ريجنكوف وسميليا نسكايا ، مرجع سابق، ص٢٥٢.

[٦] هي وثيقة من الأرشيف العسكري التاريخي الروسي لم تُكتشف إلا مؤخراً، وهي عبارة عن ١٧٣ صفحة مكتوبة على الوجهين. انظر: ريجنكوف وسميليا نسكايا، مرجع سابق، ص٢٤٥.

[٧] ريجنكوف وسميليا نسكايا، مرجع سابق، ص٢٦٠. زيدان، براءة، مرجع سابق، ص٨٦.

والبشرية، واقترح أخيراً أفضلية التعاون مع القوى العظمى الأخرى لتنفيذ هذه المهمة البالغة التعقيد، وهو ما قد يعكس تركيز السياسة الروسية في القضاء على الوجود المصري في بلاد الشام بالاعتماد على قواتها تجنباً للتدخل الأوروبي. وهو يعكس أيضاً اهتمام الروس بمصير الدولة العثمانية بعد أن هاجمها محمد علي باشا، فما لبثت أن فقدت هذه العمليات أهميتها بعد انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام لتعود علاقات التوتر والعداء بين العثمانيين والروس إلى سابق عهدها[١].

- **البعثة البريطانية لدراسة الملاحة النهرية في وادي الفرات (١٨٣٤-١٨٣٨):**

كانت أولى عمليات الاستطلاع لوادي الفرات تلك العملية التي تطوع بها الملازم أورمسبي H. Orimsby من تلقاء نفسه، بين عامي ١٨٢٦ و١٨٣٠، وفي عام ١٨٣٠ قام جيمس تايلور J.Taylor شقيق المقيم البريطاني في بغداد بعملية مسح لنهر دجلة[٢]، أما أول عملية مسح منظمة فقد قام بها الملازم فرانسي روردن تشسني F.R.Chesney، وكانت بناء على طلب السفير البريطاني في إسطنبول روبرت غوردون R.Gordon؛ لإجراء المقارنة بين طريقي السويس والفرات[٣]، فقد جاء هذا العمل في إطار البحث عن إمكانية اختزال الطريق التجاري بين الهند وأوروبا عبر رأس الرجاء الصالح الذي يستغرق أربعة شهور، إلى طريق الفرات الذي قد لا يستغرق سوى ستة أسابيع[٤]، وهو الأمر الذي ظل مصدر نزاع مستمر بين الشركة الشرقية التي تعتمد الطرق البرية والداخلية بين الخليج العربي والبحر المتوسط وشركة الهند الشرقية التي تشجع نقل البضائع عبر المحيطات ورأس الرجاء الصالح[٥]، بعد أن أصبحت هذه المسالك التجارية ميداناً للتنافس البريطاني- الفرنسي والتنافس البريطاني- الروسي، إضافة إلى محاولات بريطانيا لجعل

---

[١] زيدان، براءة، مرجع سابق ، ص٨٧. صالح، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٢٧.

[٢] مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠٠٢، ص١١. لونكريك، ستيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، منشورات الشريف الرضي، أيران- قم، ط٤، ١٩٦٨، ص٣٥١.

[٣] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص١٥٣. مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، مرجع سابق، ص١١.

[4] Kirk, George, A short History of the Middle East- From the rise of Islam to Modern Time, University Paperbacks Methuen, London, Six Edition, 1961, p. 80.

[٥] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢١٠.

المشروع ورقة ضغط تحدّ به من السيطرة المصرية على بلاد الشام[١]. فقد طلب مكتب الهند من تشسني Chesney القيام بهذه المهمة، والنظر في إمكانية تحقيق هذه النظرية[٢]، بعد أن تم طرح هذا المشروع على الحكومة والبرلمان البريطاني لإقناعهما بإمكانية اختصار تلك المسافة إلى مستويات منخفضة جداً حسب المعطيات الجغرافية شريطة صلاحية نهر الفرات للملاحة بعد أن قاومت الحكومة البريطانية أي تجربة إحياء الطرق البرية، ولاسيما طريق مصر والبحر الأحمر لعقود طويلة من الزمن[٣]. وكان تشسني قد قدم تقريراً أولياً يشير فيه إلى العقبات الكثيرة التي تعترض سبيل الملاحة النهرية- التجارية في الفرات، ولكنه أكد أهمية وادي الفرات كطريق تجاري ينافس طريق السويس بشكل كبير[٤].

وحصل تشسني Chesney على الموافقات الكافية من حكومته، وبعد التنسيق مع الدولة العثمانية وصل إلى السويدية في ٣ نيسان عام ١٨٣٥[٥]، وكان ينتظر أن تسمح حكومة إبراهيم باشا لهم بالوصول إلى نهر الفرات، فقد كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تحت إدارة إبراهيم باشا حسب صلح كوتاهية عام ١٨٣٣[٦]، ولم يكن محمد علي باشا مقتنعاً بمهام البعثة، لذلك عارض المشروع بشكل قاطع، كما كان يعارض المشاريع الرامية إلى إنشاء قناة السويس[٧]. وقد حاول محمد علي التقرب من الباب العالي لإقناعه برفض المشروع، كما كان يأمل أن يفشل المشروع تلقائياً وفي النهاية فضل محمد علي وابنه إبراهيم باشا عدم التصادم مع بريطانيا، في الوقت الذي كان محمد علي باشا يبحث فيه عن اعترافٍ منها ومن بقية الدول العظمى الأوروبية بالكيان الذي قام بتأسيسه، فكتب محمد علي لابنه إبراهيم باشا أن يسمح للبعثة بنقل أمتعتها إلى مراكز عملها، ولم يمض ذلك دون أن تثير الصحف البريطانية موضوع عرقلة محمد علي باشا لمشروع نهر الفرات[٨].

---

[١] حجار، مرجع سابق، ص١٠٠-١٠٢.

[٢] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص١٥٥.

[٣] عبد الكريم، مرجع سابق، ص١٩٩. الخنساء، أحمد، تاريخ العلاقات الدولية (منذ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ حتى الحرب العالمية الأولى)، لا يوجد دار نشر، د.ن، ط١، ١٩٨٦، ص١٦٠.

[٤] لونكريك، مرجع سابق، ص٣٥١. مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق الحديث، مرجع سابق، ص١١.

[٥] الحمد، أحمد علي الخلف، السياسة البريطانية في بلاد الشام(١٧٩٩-١٨٧٨م)، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ، ٢٠١١-٢٠١٢، ص٩٢.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص١٠٢.

[٧] لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، د.ط، د.ت، ص١٣٧.

[٨] الحمد، مرجع سابق، ص٩٦-٩٧.

وفي ربيع ١٨٣٦ بدأ تشسني Chesney بالعمل وسار بمركبيه البخاريين المسميين بـ(دجلة والفرات)، وبسبر أغوار نهر الفرات بعد أن وضع خارطة دقيقة للنهر وواديه[١]، إلا أن المشروع فشل في النهاية نتيجة عوامل عدة أعاقت سير العمل، وهذه العوامل تتمثل في محاور منها، عدم الترحيب السكاني بهذه البعثة، فقد تعرضت لها بعض القبائل العربية القاطنة على ضفاف النهر. وكان مجرى نهر الفرات غير الدائم وتضاعف طوله بسبب مجراه المتعرج يجعل الأمر صعباً جداً[٢]، ومن جهة أخرى فقد غرقت الباخرة دجلة بكل عدتها ورجالها، واضطر تشسني أن يكمل مهمته بباخرة واحدة[٣]، ناهيك عن استحالة حفر ترعة توصل نهر الفرات بالبحر المتوسط بسبب ارتفاع الأرض في محيط حلب إلى أكثر من ٤٠٠م[٤].

كل ذلك أدى إلى فشل المشروع، وتابع تشسني Chesney طريقه إلى الهند في محاولة جديدة منه لتطوير مشروعه، ثم عاد إلى بريطانيا منتصف عام ١٨٣٧[٥]، إلا أن عمليات المسح ظلت مستمرة، فقد أكمل أحد أفراد البعثة؛ وهو هنري لينش H. Lynch عملية مسح دجلة وشط العرب وبعض أجزاء نهر الفرات بين عامي ١٨٣٩و١٨٤٢[٦]. وأعاد تشسني Chesney في ستينيات وسبعينيات القرن نفسه المحاولة مرة أخرى غير أن النجاح لم يكتب له فيها أيضاً[٧].

---

[١] غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦، معهد الدراسات العربية العالية- جامعة الدول العربية، ط١، ١٩٦١-١٩٦٢، ص١٥٥.

[٢] بازيلي، مصدر سابق، ص٢٨٢-٢٨٣. لونكرك، مرجع سابق، ص٣٥١-٣٥٢.

[٣] المرجع نفسه، ص٣٥١. مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، مرجع سابق، ص١٢. بشير بين السلطان والعزيز، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٤] كرد علي، محمد، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، د.ط، ١٩٢٧، ج٥، ص١٦٤.

[٥] الحمد، مرجع سابق، ص١٠٠.

[٦] لونكرك، مرجع سابق، ص٣٥٢. مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، مرجع سابق، ص١٢.

[٧] المرجع نفسه، ص١٨٥-١٨٦.

ثالثاً- العلاقات الدولية واتجاهات السياسة الخارجية في أوروبا.

١- مبدأ توازن القوى الأوروبي وظهور القوى العظمى :

ظهرت الملامح الأولى لنظام توازن القوى الأوروبية في القرن السابع عشر، مع نهاية آخر ملامح العصور الوسطى[١]، ومنذ نهاية القرن الخامس عشر ظهرت دول أوروبية ذات سيادة لم تكن تقبل بسلطة أيَّ قوة أعلى وكانت تسوّغ وجودها بقدرتها عل الحفاظ على كيانها ضد أي تهديد من الدول الأخرى[٢]. وكان لبقاء فرنسا وبريطانيا، على سبيل المثال، خارج سيطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة[٣] التي سيطرت على كامل أوروبا تقريباً، أن منعت بلوغ هذه الإمبراطورية من السيطرة المركزية في أوروبا[٤].

كما أن صفة القوة العظمى لدولة ما تنبع من مصدر رئيسي؛ وهو قدرتها المادية والعسكرية على شن الحرب، إلى جانب قدراتها الاقتصادية ومصادر أخرى ثانوية كرفاهية سكانها وعظمة حكامها، وضرورة إحراز دبلوماسيتها نجاحاً لكسب حلفاء تجمعهم مصالح وأخطار مشتركة، فقد كانت هذه التحالفات من أبرز مظاهر الدبلوماسية في العصر الحديث، لأنه ومهما كانت قوة أي دولة عظمى فهي لن تجازف لتحارب وحيدة ضد تحالف للقوى العظمى الأخرى[٥].

---

(١) كيسنجر، الدبلوماسية من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة، ترجمة مالك فاضل البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٥، ص٧٠.

(٢) A.J.P.Tayler، الصراع على السيادة في أوربا ١٨٤٨-١٩١٨، ترجمة كاظم هاشم نعمه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٧٦، ص٣.

(٣) **الإمبراطورية الرومانية المقدسة:** تشكلت بعد الوحدة السياسية التي ظهرت عند تتويج أوتو الأول في روما عام ٩٦٢، واستمرت حتى تنازل فرانسيس الثاني عن اللقب الإمبراطوري عام ١٨٠٦، عدّها بعض الأوروبيين امتداداً للإمبراطورية التي أسسها أغسطس في النصف الثاني من القرن الأول ق.م. فقد اتحدت كل من إيطاليا وألمانيا في ظل حاكم واحد تحت فكرة أن يكون الإمبراطور هو الحاكم الزمني للعالم المسيحي ويتسلم التاج والصولجان من البابا، إلا أن هذه الإمبراطورية لم تحصل على اعتراف بقية الدول الأوروبية. الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج١، ص٢١٩.

(٤) كيسنجر، مرجع سابق، ص٧٠-٧١.

(٥) Tayler، مرجع سابق، ص٨-٩.

أما مصطلح الدول الكبرى والصغرى فقد دخل قاموس المفردات السياسية والدبلوماسية الأوروبية في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥[١]. ومن جهة أخرى فقد كانت الدول الكبرى قد أسست سياساتها من خلال التفاعل بين وضعها الدولي المستمر، وبين تقاليدها وأنظمتها مع مراعاة المتغيرات السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية[٢].

ارتكز مبدأ توازن القوى الأوروبية على فكرة أن كل دولها بإمكانها المساهمة في استتباب أمن الآخرين أو عدم استتبابه. وكان لفرنسا السبق في بلورة هذه الفكرة، عندما أدركت أن الضعف والفوضى المستفحلة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلى جانب الصراع الفعلي والمتواصل بين البابا والإمبراطورية، وما تركه عصر الإصلاح الكنسي من أثر من شأنها تهديد الأمن الفرنسي[٣]، ولاسيما بعد ظهور سياسيين فرنسيين نشروا مفهوم مصلحة الدولة دون اكتراث لسخط الكنيسة الكاثوليكية وغيرها، أمثال ريشيليو[٤]، الوزير الأول لفرنسا بين عامي ١٦٢٤ و١٦٤٢ الذي استغل حرب الثلاثين عاماً[٥] لصالح فكرة "مصلحة الدولة فوق أي اعتبار"، فقد تسامح مع الأقلية البروتستانتية الفرنسية، وتحالف مع الدول البروتستانتية كالسويد وألمانيا ضد دولتي النمسا وإسبانيا الكاثوليكيتين[٦]، وفي سعي منه لوضع حدٍ لسيطرة آل هابسبورج على أوروبا، وتمخض عن ذلك

---

[١] المقرحي، ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث ١٤٥٣–١٨٤٨، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٦، ص٣٥٨.

[٢] عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥–١٩١٩)، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، د.ط، ٢٠٠٠، ص١٠–١١.

[٣] كيسنجر، مرجع سابق، ص٧٢–٧٣.

[٤] **ريشيليو (١٥٨٥–١٦٤٢)**: كاردينال فرنسي من كبار رجال السياسة الفرنسيين، كان وزيراً للويس الثالث عشر، وكان صاحب نظرية متكاملة في الإدارة، ومنسجماً مع الأفكار الميكيافيللية، وبالرغم من كونه كاردينال، إلا أنه لم يسمح للدين أن يقف في طريقه لتحقيق أهدافه السياسية. أحمد والنايف، مرجع سابق، ص١٨٩–١٩٠.

[٥] **حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨–١٦٤٨)**: حرب أوروبية عامة، كانت ألمانيا مسرحها الرئيسي، وتعددت أسباب هذه الحرب، فمن تملك الأراضي إلى مسألة وراثة العرش، إضافة إلى الأسباب الدينية، كما تميزت بالتحالفات المتغيرة وغير الثابتة، ومن أهمها انضمام فرنسا إلى السويد، الأمر الذي أدى إلى تحقيق انتصارات كبيرة على الإمبراطورية المقدسة، واستمر القتال حتى إبرام صلح ويستفاليا عام ١٦٤٨، تصدعت– نتيجة لها– هيبة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وخرجت فرنسا منها دولة أوروبية عظمى. الموسوعة العربية الميسرة، ج١، ص٦٩٨.

[٦] أبو جابر، فايز صالح، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، دار البشير ،عمان، ط١، ١٩٨٩، ص٩٩. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ص٢٣. أحمد والنايف، مرجع سابق، ص١٩٤.

ظهور فكرة توازن القوى كحقيقة فعلية لتنظيم العلاقات الدولية بشكلٍ عام[١]. فبعد أن تخطّت فرنسا حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) بنجاح، ازدادت قوتها وأمست سيدة أوروبا، بعد أن طبّق ريشيليو المبدأ الميكيافيللي بشكلٍ حرفي، فأرسى بذلك دعائم سياسة فرنسية جديدة جعلت منها نهجها الذي سارت عليه ثلاثة قرون، وقد كانت وصيته تصوغ هذه الفكرة على الشكل الآتي :**(من له القوة له الحق، ومن كان ضعيفاً، عليه أن يجاهد بشدة كي لا يقصى، لإثمه، عن غالبية العالم)**[٢].

وفي القرن الثامن عشر تحدد مفهوم توازن القوى بالوقوف ضد السيطرة الكاملة أو الجزئية لدولة أوروبية، فعندما سعت الدول الأوروبية إلى توطيد نفوذها بالتوسع الإقليمي في أوروبا وخارجها أدى ذلك إلى تبادل الأدوار ومواقع القوة المركزية بشكلٍ عنيف[٣]. ففي أواخر القرن الثامن عشر، تحركت الجيوش الفرنسية بحماسة إيديولوجية لتحقيق مبادئ ثورة عام١٧٨٩، وضمت بذلك الكثير من الممالك الألمانية على امتداد الراين إضافةً إلى مناطق من إيطاليا وإسبانيا، ونقلت من جراء ذلك بروسيا إلى مصاف الدول الثانية، كما أنها أضعفت النمسا، بينما توسعت روسيا نحو الجنوب والغرب، وأصبحت عنصراً فاعلاً في توازن القوى الأوروبية[٤].

أما مصطلح الدول الكبرى والدول الصغرى فقد دخل قاموس المفردات السياسية والدبلوماسية الأوروبية في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥[٥]، وذلك بعد أن أثار التوسع الفرنسي في أوروبا في العقد الأول من القرن التاسع عشر قلقاً كبيراً لدى القوى الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، فأمام هذا التحدي رأت بريطانيا ضرورة خلق كتل أوروبية عظمى لمواجهة فرنسا، دون الإشارة إلى أي حكومة أوروبية مركزية، وشكلت هذه النقطة تحولاً في السياسة البريطانية داخل أوروبا بعد أن رأت ضرورة المساهمة الدائمة في أوروبا، وبعد أن بدأت ببناء سياستها على أساس "الوجود الدائم للعدو"، فعندما كانت الحروب النابليونية تلفظ أنفاسها الأخيرة، استعدّت أوروبا لبناء نظام عالمي جديد يقوم على أساس مبدأ توازن القوى[٦]، واستطاع المتفاوضون في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥، رسم مسار للسلام

---

[١] كيسنجر، مرجع سابق، ص٧٤.

[٢] المرجع نفسه، ص٨٤.

[٣] المرجع نفسه، ص٨٧-٨٨.

[٤] فعند منتصف القرن الثامن عشر أصبحت روسيا طرفاً في حرب السبع سنوات؛ إذ وطأ جنودها مشارف برلين، وكل ذلك على حساب نفوذ النمسا. انظر: المرجع نفسه، ص٩٧-٩٨.

[٥] المقرحي، ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٦، ص٣٦٠.

[٦] كيسنجر، مرجع سابق، ص١٠٠-١٠١.

استمر عدة عقود في أوروبا، ولم يعكر هذا المسار سوى حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦)[١]؛ إذ اتفق الحلفاء في هذا المؤتمر على تبنّي مبادئ الشرعية وتوازن القوى الأوروبية، وكان مبدأ التوازن يعني وجوب عدم هيمنة أي قوة عظمى على القارة الأوروبية وإلّا فإنه سيؤدي إلى تحالف القوى الأخرى ضدها[٢].

٢– العلاقات الدولية في القارة الأوروبية وأثر ثورات عامي ١٨٣٠و١٨٤٨:

كانت حالة توازن القوى– كما رأينا– هي التي ترسم ملامح العلاقات الدولية في أوروبا طيلة التاريخ الحديث، وتحولت في القرن التاسع عشر إلى معادلة تعمل وفق حسابات دقيقة، لاسيما بعد أن تم تفعيل القوانين الاقتصادية حسب مقولات ومعادلات سياسية– دولية[٣]، فضلاً عن دخول عامل جديد إلى ميزان تعادل القوى، وهو ظهور النزعة القومية بشكل أصبح أكثر وضوحاً[٤]، ولم تتغير الخارطة السياسية في أوروبا منذ مؤتمر فيينا عام١٨١٥ ما عدا ظهور دولة بلجيكا وإمارة صربيا ومملكة اليونان، فيما بدا الفرق واضحاً بين أوروبا الغربية التي اجتاحتها المبادئ الليبرالية بعد استلام البرجوازية الصناعية والوطنية مقاليد السلطة، وبين أوروبا الوسطى والشرقية التي لا تزال تحتفظ بالنظام السياسي القديم المتمثل بالحكم الاستبدادي المطلق[٥].

أ– أثر ثورات ١٨٣٠ في أوروبا:

كانت ثورة تموز ١٨٣٠[٦] في فرنسا ثورة ضد الرجعية، وما لبثت أن انتقلت إلى بقية العالم الأوروبي[٧] الذي اجتاحته موجة من اليقظة القومية التي ترافقت مع التقدم الاقتصادي والصناعي[٨]،

---

[١] كيسنجر، مرجع سابق، ص١٠٣.

[٢] شارل موجل، فرانسوا وباكتو، سيفرين، تاريخ العلاقات الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة شفيق محسن، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص١٧–١٨.

[٣] Tayler، مرجع سابق، ص٥.

[٤] المرجع نفسه، ص٧.

[٥] حاطوم، نور الدين، تاريخ القرن التاسع عشر في أورية والعالم، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥، ج٢، ص٧.

[٦] **ثورة تموز ١٨٣٠:** قام بها الباريسيون على ملك فرنسا شارل العاشر ٢٧–٢٩ تموز، أدّت إلى خلعه وتعيين لويس فيليب مكانه، وانتشرت على إثرها ثورات مماثلة في معظم إرجاء قارة أوروبا. المنجد، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٧] راشد، زينب عصمت، تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص٢٦٨.

[٨] Tayler، مرجع سابق، ص٦.

الذي حقق نتائج مختلفة في أوروبا، ففي فرنسا وبريطانيا انتقل الحكم من يد الارستقراطية إلى الطبقة الوسطى، وتأثرت بلجيكا بهما فسعت إلى الحصول على استقلالها الكامل[١]. وفي إسبانيا والبرتغال، انتصر أصحاب الاتجاهات الدستورية، وسعت بريطانيا إلى تشكيل كتلة دستورية في غرب أوروبا تضم كل من فرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، والبرتغال لتحقيق التوازن مع الملكيات المحافظة الثلاث (روسيا وبروسيا والنمسا)، ولكن يبدو أن إسبانيا والبرتغال لم تكونا مهيأتين تماماً، كما عاد التوتر إلى العلاقات البريطانية–الفرنسية بعد مرحلة من التحسن الملحوظ[٢].

واختلفت نتائج هذه الثورة في أوروبا الوسطى والشرقية، ففي سويسرا حدثت سنة ١٨٣٠ سلسلة من المظاهرات التي أدت في النهاية إلى تنازلات دستورية كبيرة من قبل الزمر الحاكمة، إلا أن التغيير في سويسرا كان ليبرالياً أكثر منه ديمقراطياً، كالمطالبة بالمساواة وضمان حرية التعبير والصحافة[٣]. وفي بولندا كانت الدوافع الوطنية هي التي تقف وراء مطالب البولنديين لنيل الاستقلال عن السلطة الروسية، ووقفت بروسيا والنمسا مع روسيا ضد الثورة البولندية حتى أنهما أغلقتا حدودهما أمام تدفق اللاجئين، ومع ميل الرأي العام الفرنسي والبريطاني نحو الثوار البولنديين إلا أن حكومتي البلدين اكتفتا بالتضامن أحياناً والتهرب أحياناً أخرى[٤]، وفي إيطاليا لم تحدث ثورات عام ١٨٣٠ إلا في إيطاليا الوسطى وكانت على شكل تمرد، وكان رد الفعل النمساوي قوياً ومباشراً في احتواء الأزمة وآثارها، أما فرنسا فقد ترددت في التدخل لصالح الثورة هناك[٥]. وكان مجال الثورة في ألمانيا محدوداً جداً حيث استطاعت كل من بروسيا والنمسا إعادة الأمور إلى نصابها[٦]، أما الحالة اليونانية فستُناقش ضمن المسألة الشرقية والمتغيرات الإقليمية والدولية لبلاد الشام.

وتمخض عن هذه المتغيرات أن تفرقت الأسرة الأوروبية القائمة منذ مؤتمر فيينا ١٨١٥، واختلفت في الاتجاهات بعد أن أظهرت أحداث عام ١٨٣٠ التناقضات الأساسية بين مصالح الدول الأوروبية، فانسحبت بريطانيا من التحالف الرباعي لعام ١٨١٥ شيئاً فشيئاً[٧]، لتعود الدول أنصار

---

[١] شارل موجل وباكتو، مرجع سابق، ص٢٢. زينب، مرجع سابق، ص٢٦٨.

[٢] جرانت.أ.ج، وتمبرلي، هارولد، أوروبا في القرنين التاسع عشر ١٧٨٩–١٩٥٠، ترجمة بهاء فهمي، مؤسسة سجل العرب، د.ط، د.ت، ص٣١٣–٣١٤.

[٣] المقرحي، مرجع سابق، ص٣٧٩.

[٤] شارل موجل وباكتو، مرجع سابق، ص٢٣.

[٥] المقرحي، مرجع سابق، ص٣٨٨.

[٦] المرجع نفسه، ص٣٨٩–٣٩٠.

[٧] المرجع نفسه، ص٣٩٧.

الشرعية بروسيا، والنمسا، وروسيا للتجمع من جديد في معاهدة مونخن غراتز München gratz عام ١٨٣٣، مع بقاء فرنسا وبريطانيا في فضاء من الاتفاق الذي يشوبه الحذر والحسابات الدقيقة[١].

ب- التطورات الاقتصادية والسياسية وأثرها في أوروبا:

تكمن أهم المتغيرات في أوروبا في القرن التاسع عشر في الناحيتين الاقتصادية والسياسية، فمن الناحية الاقتصادية أحدث المحرك البخاري ثورة في عالم المواصلات والنقل البري والبحري، فقد ظهرت الملاحة البخارية إلى جانب ظهور سكك الحديد التي غيرت الأحوال المادية والاقتصادية بشكل كبير[٢]، وأثّر هذا على العلاقات الاقتصادية الدولية التي أدّت إلى ظهور الرأسمالية المالية بعد تضخم الاستثمارات والتبادلات التجارية، وأصبحت الرأسمالية بذلك من أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية المحلية والدولية[٣]، بل كانت مظهراً من مظاهر التنافس الحاد بين الدول الصناعية على الأسواق الدولية داخل أوروبا وخارجها[٤]. أما على الصعيد السياسي فقد بدأت تنتشر مبادئ السيادة الشعبية وتتضح الأفكار القومية على اختلاف مدارسها[٥]، وظهر تقدم واضح في الآراء الديمقراطية التي ارتكزت على مبدأ سيادة الشعب، وإصلاح العملية الانتخابية[٦]. وظهر في الاتجاه الاجتماعي لنتائج الثورة الصناعية في أوروبا بعضُ الآفات الاجتماعية[٧]، مثل أزمة الحرفيين، وبؤس البروليتاريا[٨]، وأزمات البطالة، وزيادة خطورة عدم المساواة الاجتماعية، فظهرت التيارات الفكرية

---

[١] شار موجل وباكتو، مرجع سابق، ص٢٤.

[٢] رمضان، مرجع سابق، ج٢ ، ص٧٢. رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٤)، ترجمة جلال يحيى، دار المعارف- المطبعة العصرية، الاسكندرية، د.ط، ١٩٨٠، ص١٥٢ - ١٥٣.

[٣] الجمل، شوقي وعبد الرزاق، عبد الله، تاريخ أوروبا- من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٠، ص١٧٥، ١٧٨. شارل موجل وباكتو، مرجع سابق، ص٤٠. أنيس، مرجع سابق، ص١٨٢.

[٤] رمضان، مرجع سابق، ج٢، ص٧٣.

[٥] شارل موجل وباكتو، مرجع سابق، ص٤٠.

[٦] رنوفان، مرجع سابق، ص١٥٥.

[٧] المرجع نفسه، ص١٥٨.

[٨] **البروليتاريا:** مصطلح روماني قديم كان يشير إلى الطبقة السادسة والأخيرة في المجتمع الروماني، أُعيد استعماله أوائل القرن التاسع عشر في الأدبيات السياسية للدلالة على الطبقات الدنيا والبائسة والمعدمة من المجتمع، كما وظّفها

التي حاولت حل هذه المشاكل، واختلفت فيها الآراء بين الديمقراطيين والاشتراكيين والأوساط الدينية[١]. وفي هذه المرحلة أيضا ظهر نمط جديد لفكرة "القومية"؛ إذ ظهرت الدول القومية نتيجة صراعها مع الإمبراطوريات الرجعية، بعد أن استفادت من انتشار التطور الصناعي، لتصل إلى حد راحت تبحث فيه عن مستعمرات خارج أوروبا[٢].

وهذه التغيرات الاقتصادية والفكرية قامت بدورٍ مهم ومباشر في العلاقات الدولية داخل أوروبا وخارجها، فقد فرض تقدم الإنتاج الصناعي في بريطانيا وفرنسا البحث عن أسواق لتصدير منتجاتها داخل أوروبا وخارجها[٣]، بينما اهتمت الصناعة الألمانية بأسواقها المحلية فقط، إلا أن الصادرات الأوروبية داخل أوروبا كانت تواجه مشكلة الحواجز الجمركية والضرائب المرتفعة بين دولها، وكانت أكثر المتضررين من هذه السياسة بريطانيا؛ لأنها كانت المركز الرئيسي للصناعة في العالم[٤].

أمام التحركات الدولية لرؤوس الأموال، والاستثمارات الضخمة، والأنظمة المصرفية الجديدة وتدهور أحوال العمال والشعوب، وظهور طبقات مجتمعية جديدة تعيش على حساب الطبقات الفقيرة، وظهور رؤوس الأموال الأجنبية، ظهرت بوادر انتشار الفكر الاشتراكي بين طبقة من المفكرين ومن الأحرار – الإنسانين وراحت تنادي بضمان مصلحة الطبقة العاملة وإشراكها في عائدات الإنتاج وإدارته، ومن ثم تطورت هذه النظم والآراء الاشتراكية وتنوعت، فنادى بعضها "بالاشتراكية الوطنية"، وتمثلت في بريطانيا– على سبيل المثال– في العملية الانتخابية ليشمل الطبقة الكادحة، وظهرت اشتراكية فكرية تسعى إلى إنشاء ديكتاتورية عمالية تعمل على إزالة النظام الرأسمالي وإقامة نظام شيوعي يستند إلى مبدأ توزيع الثروة[٥].

ماركس وأنجلس للإشارة إلى طبقة العمال التي تعمل كي تعيش، وتتحمل جميع أعباء المجتمع. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج١، ص٥٣٣.

[١] أبو علية، عبد الفتاح، وياغي، إسماعيل أحمد، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ، الرياض، ط٣، ١٩٩٣، ص٢٨٩. رنوفان، مرجع سابق، ص١٥٦ – ١٥٧.

[٢] رمضان، مرجع سابق، ص٧١.

[٣] أبو علية وياغي، مرجع سابق، ص٢٩٠.

[٤] رنوفان، مرجع سابق، ص١٦٣.

[٥] الجمل وعبد الرزاق، مرجع سابق، ص١٨٠، أبو علية وياغي، مرجع سابق، ص٢٨٩–٢٩٠.

٣-اتجاهات السياسة الخارجية للدول الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

لم ترتبط سياسة الحكومات الأوروبية بالظروف الجديدة، والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية فقط، بل إنها كانت من صنع الفكر الشخصي لرجال الدول أحيانا[١]، وكان لمسألة ميزان القوى إلى جانب التقدم الاقتصادي الصناعي، وظهور النزعة القومية، أن بدأت الدول العظمى الأوروبية تتطلع إلى خارج القارة الأوروبية وفق رؤىً جديدة بدأت معها رحلة التنافس الاستعماري للبحث عن الأسواق في البلدان الأخرى، وكان الشرق الأقصى أكثر إغراءً، وزادت هذه السياسة من إمكانية الاصطدام مع القوى الأخرى خارج أوروبا إضافة إلى مساهمتها في ظهور مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة للغاية[٢].

اختلفت تطلعات السياسة الخارجية للدول الأوروبية ولاسيما العظمى منها، بالنسبة لداخل أوروبا وخارجها، فقد تحاشت روسيا وبريطانيا التطلعات التوسعية في أوروبا بعد مؤتمر فيينا ١٨١٥، غير أن بريطانيا كثفت من حضورها الدبلوماسي في شؤون القارة للحفاظ على أسواقها، وضبط إيقاع ميزان القوى فيها، فكانت النتيجة أن نالت بريطانيا مكاسب في الهند وإفريقيا إلى جانب احتكار التجارة مع معظم دول العالم[٣]، أما روسيا فقد حصلت على مكاسب في آسيا والشرق[٤] الأقصى وأوروبا الشرقية. بينما بقيت فرنسا مع تطلعاتها الخارجية، لاسيما في شمال إفريقيا تعاني من قضية عدم الاستقرار السياسي الداخلي[٥]، بسبب توالي ظهور أنظمة حكم جديدة فيها[٦]، كما أنها لم تستطع تحاشي المسائل الإقليمية والأوروبية، مثل تدخلها في الشأن الإسباني، وفي علاقاتها مع بروسيا والنمسا[٧].

لكن بروسيا أحرزت تقدماً ملموساً على الساحتين الألمانية والأوروبية بفضل نهضة رجال العلم والسياسة والحرب فيها، ولأنها ركزت على الداخل الألماني والأوروبي، وتحاشت الأهداف التوسعية داخل أوروبا وخارجها، فاستفادت من الاتحاد الجمركي للدول الألمانية؛ إذ راجت أسواق التجارة

---

[١] رنوفان، مرجع سابق، ص١٩٤.

[٢] رمضان، مرجع سابق، ص٦٩. رنوفان، مرجع سابق، ص١٦٥-١٦٦.

[٣] المرجع نفسه، ص٤٧.

[٤] Tayler، مرجع سابق، ص٦.

[٥] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٣٠٥.

[٦] المرجع نفسه، ص٣٠٥ – ٣٠٦.

[٧] السبكي، آمال، أوروبا في القرن التاسع عشر- فرنسا في مئة عام، عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٩٨٥م، ص٢٥٢.

الداخلية في ألمانيا[١]، وقد أوصلها ذلك إلى مصاف القوى العظمى، ولم تختلف النمسا عن بروسيا في تطلعاتها إلى الداخل الأوروبي، ولكن- وبعكس بروسيا- فقد كان ذلك مصدر ضعف لا مصدر قوة لها[٢]؛ لأن الرجعية كانت تسود سلوكها السياسي، وكان لها أطماع توسعية إقليمية في أوروبا كالتي تركزت في الجنوب(إيطاليا)، وفي الشرق(البلقان)[٣]، وأفرطت في توجيه جهودها للتصدي لأي حركة تحررية أو وطنية، أو حتى وحدوية بالنسبة للممالك الألمانية حفاظاً على سلطانها المطلق، وكان مترنيخ[٤] هو مسيّر شؤونها السياسية هذه[٥].

فكان على بريطانيا أن تحافظ على أمن مواصلاتها البحرية؛ لكي تضمن وصول المواد الأولية الضرورية لصناعتها، ثم لتأمن وصول إنتاجها الصناعي إلى الأسواق العالمية، كما حاولت الحفاظ على الوضع القائم في أوروبا لضمان السلم الدولي فيها الذي ساعد على تنمية النشاط الاقتصادي مع دولها وزودها بالمنتجات البريطانية[٦].

أما فرنسا فقد كانت الأنظمة المتعاقبة فيها تعمل دائماً للحصول على "نجاح ما" على الصعيد الخارجي أمام الرأي العام الفرنسي، غير أن ذلك كان مرتبطاً بشكل عضوي مع سياستها الداخلية أولاً، والمواجهة المحتملة مع بريطانيا ثانياً، إضافة إلى الأعباء المالية التي كانت ستصاحب أي عمل عسكري مفترض ثالثاً، وهذا ما يوضح سبب احتلال فرنسا للجزائر أواخر حكم شارل العاشر عام ١٨٣٠[٧].

أما روسيا فقد حرصت على العمل مع النمسا وبروسيا للحفاظ على الوضع القائم في أوروبا الوسطى والشرقية، كما اهتمت بأوضاع الدولة العثمانية وكانت تدرك أنها "الرجل المريض" الذي

---

[١] راشد، مرجع سابق، ص٣٦٧.

[٢] Tayler، مرجع سابق، ص٦.

[٣] ياغي وأبو العلية، مرجع سابق، ص٣٢٠.

[٤] **مترنيخ Metternich (١٧٧٣-١٨٥٩)**: رجل دولة نمساوي، من كبار رجال السياسة في أوروبا في القرن التاسع عشر، شغل منصب مستشار الإمبراطورية بين عامي ١٨٠٩ و١٨٤٨، قام بدور كبير في مؤتمر فيينا ١٨١٥، وقاوم الحركات التحررية في بلاده وفي أوروبا. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٣٣.

[٥] راشد، مرجع سابق، ص٣٦٦.

[٦] رنوفان، مرجع سابق، ص٤٧-٤٨.

[٧] شارل العاشر: ملك فرنسا بين عامي ١٨٢٤ و١٨٣٠ ، تم خلعه عن العرش في ثورة تموز عام ١٨٣٠، وفي عهده تم احتلال الجزائر. المنجد، مرجع سابق، ص٣٨١.

يحتضر، وأن هناك إمكانية لتقسيم ممتلكاته[١]، فضلاً عن رغبة الروس الدائمة في الوصول إلى المياه الدافئة، وذلك بالضغط على جيرانها في جنوب أسيا، وهذا ما أحدث اصطداماً كبيراً بين المصالح الروسية والبريطانية في الشرق عامة[٢].

رابعاً- المسألة الشرقية.

١- ماهية المسألة الشرقية وعوامل ظهورها:

تُجْمِع أكثر المصادر والمراجع تقريباً على أن المسألة الشرقية هي: تلك القضية التي تشير إلى العلاقات ما بين دول أوروبا العظمى والدولة العثمانية في مرحلة ضعفها وانحدارها، ذلك الضعف الذي أدى إلى ظهور أزمات متتالية تعرضت لها هذه الدولة، وشكلت مدخلاً لتدخل الدول الأوروبية في شؤونها، وشؤون ولاياتها، وأول تلك الأزمات ظهور الحركات الاستقلالية في الولايات العثمانية- الأوروبية (ثورات البلقان)، والثانية هي تلك الأزمات التي ظهرت في الولايات العثمانية- العربية فيما بعد[٣].

وقد رأى كارل ماركس- في منتصف القرن التاسع عشر- أن المسألة الشرقية تُختصر في نظر الدبلوماسية والصحافة الأوروبيتين بأنها إما تتعلق بدخول روسيا إلى القسطنطينية، أو أنها سياسة المحافظة على الوضع القائم[٤]. في حين رآها بعض الباحثين العرب أواخر القرن التاسع عشر بأنها تتعلق بظهور العثمانيين في أوروبا، وتأسيسهم لجزء من دولتهم على أراضيها بشكلٍ عام[٥]. وعلى ضوء ذلك رأى بعضهم الآخر أن هذه المسألة مرت بمرحلتين: شكَّلَ العثمانيون في المرحلة الأولى تهديداً حقيقياً للنظام السياسي والاجتماعي في أوروبا، غير أن هذا الأمر انعكس في المرحلة الثانية

---

[١] رنوفان، مرجع سابق، ص١٩٥.

[٢] حجر، مرجع سابق، ص٩٩-١٠٠.

[٣] مصطفى، نادية، مرجع سابق، ص١٦٣. زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٢٢. صفوت، محمد مصطفى، محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، د.ط، ١٩٥٨، ص١-٢. حسين لبيب، المصدر السابق، ص٥.

[٤] ماركس، كارل، المسألة الشرقية حول القوميات في الدولة العثمانية، ترجمة جوزيف عبدالله، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٧٦.

[٥] لبيب، حسين، تاريخ المسئلة الشرقية، مطبعة الهلال، مصر، د.ط، ١٩٢١، ص٥-٦. ويشير محمد فريد بك المحامي إلى أن المسألة الشرقية بدأت مع توقيع معاهدة كارلوفيتز عام ١٦٩٩، بعد أن بدأت الدولة العثمانية بالتنازل عن الأقاليم التي كانت تحت سيطرتها وتوقفت النمسا وغيرها من الدول عن دفع الجزية لها. انظر: المحامي، مصدر سابق، ص٣١٠.

فقد شكّلت أوروبا الخطر الذي يهدد وجود الدولة العثمانية وبقائها، وهو أمر أسهم في تفعيل مبدأ توازن القوى الأوروبية[١]، وتحولت المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر إلى رؤية غربية اندمجت مع فكرة "الرجل المريض" الذي قد يموت في أي لحظة ويترك وراءه ثروة عظيمة، وأصبحت أوروبا تفكر بتقاسمها[٢]، إلا أن ذلك كان بعيد المنال في ظل تضارب المصالح بين هذه الدول عندما بدأ الاقتصاد العالمي يدخل في طور الرأسمالية الصناعية الذي اقترن مع التوسع الاستعماري لدول أوروبا الغربية بُعَيْد ثورتها الصناعية، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا[٣]، وكان هذا الشيء تحولاً حقيقياً لمفهوم المسألة الشرقية، بعد تبادل الأدوار ومراكز الخطورة فيما بين أوروبا، والدولة العثمانية، ومع هذا التحول فإن المسألة في مرحلتها الثانية لم تعد تدور حول إجبار الدولة العثمانية على الانسحاب من أوروبا، بل على كيفية اقتسام تركتها عند سقوطها، ومن سيخلفها في القسطنطينية والبوسفور والدردنيل[٤].

وإذا كانت المصادر والمراجع تجمع على ارتباط المسألة الشرقية بضعف الدولة العثمانية فإن معظم هذه المصادر تتفق أيضاً على عدة عوامل وأسباب لهذا الضعف يمكن إجمالها على أنها عوامل داخلية ارتبطت ببنية الدولة العثمانية كاختلاف الأديان والأجناس، وشكل الحكومة الاستبدادية، وإهمال المرافق الاقتصادية، والتأخر العلمي، والضعف الذي دبَّ في الجيش والأسطول. وعوامل أخرى خارجية تركزت في ظهور كلٍّ من روسيا والنمسا كقوتين جديدتين أظهرتا العداوة للدولة العثمانية، وقد كانتا مدفوعتين بدوافع عصبية وتاريخية من جهة، وبأطماع مادية واستراتيجية من جهة أخرى[٥].

---

[١] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٢٣. الحسين، محمد المحمد، مستجدات المسألة الشرقية بعد مؤتمر برلين (١٨٧٨-١٩١٦م)، رسالة ماجستير، إشراف أ. د. محمد أحمد، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٢٢.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٢.

[٣] الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص١٣.

[٤] لبيب، مصدر سابق، ص٦.

[٥] المصدر نفسه، ص٧، ١٠، ١٣، ١٧، ٢٠،٢٣. صفوت، مرجع سابق، ص٢.

٢-أوروبا والمسألة الشرقية بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥:

شكّلت المسألة الشرقية- التي كانت في البداية وليدة الصراعات الاستقلالية في البلقان ضد الإمبراطورية العثمانية- المأزق الحقيقي أمام الحلف المقدس، ونظام مترنيخ بالذات[١]، بعد أن أعاد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ الشرعية للأنظمة الملكية وللأسر المالكة القديمة في أوروبا[٢]؛ لأنها أظهرت التعارض الواضح بين الالتزام بحماية الوضع الراهن وشرعية الملوك في أوروبا من جهة، وبين مسألة مساندة ودعم حركات الاستقلال والتحرر في أوروبا والدولة العثمانية من جهة أخرى، فعلى سبيل المثال كان القيصر الروسي ألكسندر الأول[٣] (١٨٠١-١٨٢٥) متمسكاً أكثر من غيره بالشرعية، غير أنه لم يكن في الموقع الذي كان من المفترض أن يوجد فيه في الأزمة البلقانية، حسب الحلف المقدس الذي انتهى للتوّ من تأسيسه[٤].

لذلك جاءت المسألة الشرقية لتضع بداية النهاية للتوافق الأوروبي الذي بدأ مع مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م، بعد أن أدى تكرار أزمات الشرق إلى جعل الأراضي العثمانية ميداناً مفتوحاً لهذه المسألة، وجعل من القوى العظمى تسهم مساهمة فعالة، فروسيا تراقب المضايق بهدف الحصول على منفذ بحري، وبريطانيا لاهثة وراء أمن وسلامة طرق تجارتها في السواحل الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط، وفرنسا تسعى جاهدة لاستعادة دورها الدولي كقوة عظمى بعد الحروب النابليونية، والنمسا تسعى وراء مكاسب لها في البلقان[٥].

---

[١] كيسنجر، مرجع سابق، ص١٢٣.

[٢] أبو جابر، مرجع سابق، ص٩٦.

[٣] **ألكسندر الأول (١٨٠١-١٨٢٥)**: ولد عام ١٨٧٧، وحارب نابليون عام ١٨٠٥، وسعى إلى مصالحته عام ١٨٠٧، ثم اضطر إلى مقاتلته بعد أن شن نابليون هجوماً على روسيا عام ١٨١٢، وهو الذي نادى بالحلف المقدس بين الدول الأوروبية عقب مؤتمر فيينا ١٨١٥، تميزت شخصيته بالازدواجية، فقد تأثر بداية بالمؤثرات الليبرالية، ثم وقع تحت تأثير رجعية دينية، ومات في ظروف غامضة. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ص٢٦٢.

[٤] لوتسكي، مرجع سابق، ص١١٧.

[٥] شارل موجل وباكتو، مرجع سابق، ص٢٥. لبيب، مصدر سابق، ص٥.

٣-الأزمة اليونانية:

شكّلت المسألة البلقانية أكثر القضايا تعقيداً في المسألة الشرقية، كما أنها تُعدّ البداية الفعلية لها[١]، فقد استطاعت الشعوب البلقانية الحفاظ على لغاتها وعاداتها ودينها ونظمها، وهذا ما أسهم في ظهور القوميات البلقانية، وفي قيام أول ثورة في اليونان ضد الحكم العثماني منذ أواخر القرن الثامن عشر[٢]، وتزامن هذا الشيء مع بروز روسيا كقوة إقليمية، ثم دولية فاعلة ترى في نفسها وريثة للدولة البيزنطية بعد اعتناقها الدين المسيحي على المذهب الأرثوذكسي، ولم تنقطع آمالها في دخول القسطنطينية؛ لأن مصالحها الجغرافية والمادية حكمت عليها بتحديد علاقتها مع الدولة العثمانية التي تسيطر على مضيقي البوسفور والدردنيل وفق سياسة العمل على إضعاف الدولة العثمانية، وكان تشجيعها لشعوب البلقان على الاستقلال عن الدولة العثمانية عملاً في هذا الاتجاه[٣]، وقد يكون كارل ماركس قصد إلى ذلك بقوله :(**كانت الثورة الصربية ١٨٠٩، والانتفاضة اليونانية ١٨٢١، مدبرتين تقريباً بالمال والتحريض الروسي)**[٤].

وقد يكون من المبالغة والإجحاف بحق الثورة اليونانية أن تُعدَّ مجرد تحريض روسي؛ لأنها من حيث المضمون يُعدُّ صراعاً بين البرجوازية اليونانية والنظام الإقطاعي العثماني[٥]، ولا سيما بعد ظهور الجمعية الوطنية اليونانية (اتنيكه اتريا) عام ١٨١٤ التي حرضت على الثورة[٦]. ومهما يكن فإنه ثمّةَ دورٌ فعال للروس في تأجيج ثورات البلقان استناداً إلى الرابطة الدينية الأرثوذكسية والرابطة القومية السلافية التي تجمع بين روسيا وشعوب البلقان، بل إن أحد الباحثين يرى أن ثورة اليونان[٧] انعكاس مباشر للصراع العثماني- الروسي[٨].

---

[١] عامر، محمود، تاريخ الدولة العثمانية (سياسية- اجتماعية)، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، د.ط، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص١٩٤.

[٢] العظم، حقي، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، مطبعة الترقي، مصر، ط١، ١٩٠٢، ص٦-٧. صفوت، مرجع سابق، ص٢.

[٣] المرجع نفسه، ص١١-١٢.

[٤] ماركس، مصدر سابق، ص٧٤-٧٥.

[٥] لوتسكي، مرجع سابق، ص١١٦-١١٧.

[٦] العظم، مصدر سابق، ص١٥.

[٧] تجدر الإشارة إلى أن اليونانيين ليسوا من العرق السلافي، ولكنهم مسيحيون على المذهب الأرثوذكسي وجزء رئيسي من شعوب البلقان. انظر: أبو جابر، مرجع سابق، ص١٠٧.

[٨] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٠٦.

وكان الصدام عنيفاً بين العثمانيين واليونانيين فقد وقعت مذابح عظيمة بينهما[١]، بعد أن حرّكت البرجوازية اليونانية الفلاحين اليونانيين ضد مضطهِدِيهم، فخاض هؤلاء الفلاحون كفاحهم دون رحمة وقد أبادوا آلاف الملاكين المسلمين اليونانيين والعثمانيين في المورّة[٢]، وقد رد العثمانيون عليهم بالمثل، إلا أن العثمانيين عجزوا عن القضاء على الثورة مع أنهم كانوا يملكون حاميات عثمانية كثيرة في اليونان، وكان السبب وراء ذلك هو فساد الإنكشارية[٣].

تنبهت أوروبا إلى أهمية الثورة اليونانية بدليل تسميتها بالمسألة الشرقية في مؤتمر فيرونا عام ١٨٢٢، ولما كانت روسيا تحرّض على الثورة كانت النمسا تخشى من أن تمتد نيران الثورة إلى ممتلكاتها. أما فرنسا وبريطانيا فقد تدخلتا للوقوف ضد تقدم روسيا نحو البحر المتوسط[٤].

وبنصيحة من مترنيخ Metternich طلب السلطان العثماني محمود الثاني[٥] (١٨٠٨-١٨٣٩) العون من واليه القوي في مصر محمد علي باشا، الذي تردد بدايةً في تلبية طلب السلطان العثماني، بسبب التكاليف الباهظة، والإساءة التي يتعرض لها من بعض رجال الدولة العثمانية في الأستانة[٦]، ولكنه ما لبث أن وافق بعد أن عرض عليه السلطان إدارة جزيرتي قبرص وكريت، كما نصحه مترنيخ بمنحه المورّة أيضاً، وهو ما كان محمد علي ينتظره بفارغ الصبر، لأنها تخدم طموحاته بالسيادة على كل شرقي البحر المتوسط، وتحويله إلى بحيرة مصرية[٧].

أحدث نزول القوات المصرية في المورّة فرقاً واضحاً على الأرض، فقد حققت هذه القوات بقيادة إبراهيم باشا انتصارات كثيرة على اليونانيين[٨]، كما أنها شكلت نقطة تحول كبيرة في العلاقات الدولية، والسياسة الدولية الأوروبية تجاه الشرق؛ وذلك لأنها أدت إلى تدخل القوى الأوروبية بشكلٍ

---

[١] مؤنس، مرجع سابق ، ص٢٠٧-٢٠٨. مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص٣٧.

[٢] لوتسكي، مرجع سابق، ص١١٧.

[٣] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٠٨.

[٤] صفوت، مرجع سابق، ص١٣.

[٥] **محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩):** ولد عام ١٧٨٤، تبنى عملية الإصلاحات في الدولة العثمانية، لاسيما إصلاح البنية العسكرية، وقاوم التوسع الروسي في جهة الدانوب، وتنازل لهم عن بسارابيا في معاهدة بخارست ١٨١٢، وفي عهده استقل اليونان، وقضى على الانكشارية ١٨٢٦، وهُزمت جيوشه أمام جيوش محمد علي باشا في جولات عديدة وكان أهمها موقعة نزيب. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٤٠.

[٦] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٠٩-٢١٠.

[٧] لوتسكي، مرجع سابق، ص١١٩.

[٨] العظم، مصدر سابق، ص٩. مؤنس، مرجع سابق، ص٢١٠.

مباشر في هذه القضية[١]. إلى جانب أن سقوط أثينا عام١٨٢٧[٢]، وتسلم نيقولا الأول (١٧٩٦-١٨٥٥)[٣] عرش روسيا عام١٨٢٥[٤]، وظهور بالمرستون Palmerston في عالم السياسة الأوروبية واستلامه لوزارة الخارجية البريطانية[٥]، فكل هذا أحدث تغييراً فعالاً في السياسة الأوروبية إزاء الأزمة اليونانية، فقد خشيت بريطانيا من تفرد روسيا بالأزمة اليونانية فاتفقت معها في معاهدة بطرسبورج عام ١٨٢٦ على التدخل لصالح اليونانيين، وقد أكدتا على حق اليونانيين في نيل الاستقلال الإداري تحت السيادة العثمانية، وأمام الرفض العثماني قررت الدولتان عام ١٨٢٧ توسيع المعاهدة السابقة بعد انضمام فرنسا إليهما، وقررت الدول الثلاث فصل اليونان مدنياً عن الدولة العثمانية، ولو باستخدام القوة[٦].

ورفض الباب العالي المطالب الأوروبية، واصطدم الأسطول العثماني- المصري مع أسطول الحلفاء بريطانيا، وفرنسا، وروسيا في الموقعة البحرية (نفارين) عام١٨٢٧، وأنزل الحلفاء هزيمة قاسية بالأسطول العثماني- المصري، وأدى ذلك إلى انسحاب محمد علي من المورّة، ثم انحصرت الحرب بين العثمانيين والروس بين عامي ١٨٢٨و ١٨٢٩[٧]، فقد رفض محمد علي المشاركة فيها[٨]، ومنيت الدولة العثمانية بهزيمة أخرى، وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩، ثم حصلت اليونان على استقلالها التام عام ١٨٣٠[٩]، وقد أنهى ذلك فصلاً مهماً من فصول المسألة الشرقية[١٠]، وشكلت حرب الروس وانفصال اليونان ضربة موجعة للدولة العثمانية التي كان عليها

---

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٢٠.

[٢] مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢-٤٣.

[٣] **نيقولا الأول (١٧٩٦-١٨٥٥):** قيصر روسيا (١٨٢٥-١٨٥٥)، انتزع يريفان من إيران عام ١٨٢٨، وساند الدولة العثمانية في صراعها مع محمد علي باشا، توفي قبل انتهاء حرب القرم التي انتصر فيها الحلفاء على الروس عام ١٨٥٦. المنجد، مرجع سابق، ص٧٢.

[٤] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٢٠.

[٥] صفوت، مرجع سابق، ص١٥.

[٦] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٢١.

[٧] العظم، مصدر سابق، ص١٠. مؤنس، مرجع سابق، ص٦٩-٧٠.

[٨] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٢٣.

[٩] مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣.

[10] Marriott, J. A. R, The Eastern Question an Historical Study in European Diplomacy, Amen house, London, Fourth Edition, 1956, p. 224.

وانظر: عامر، مرجع سابق، ص١٩٦.

مواجهة الداخل والخطر القادم من الجنوب، وهو تحرك محمد علي باشا الذي استطاع السيطرة على بلاد الشام، وتمكن من تهديد الأناضول والأستانة نفسها، وهذا الأمر أدى إلى تعديلات جذرية في السياسة الأوروبية إزاء المسألة الشرقية[١]، فقد تحولت المسألة الشرقية– منذ ذلك الوقت– من الأزمة اليونانية إلى الأزمة المصرية.

---

[١] لبيب، مصدر سابق، ص٧٠–٧١.

الفصل الثاني

السياسة الأوروبية والصرع الدولي على بلاد الشام

(١٨٤٠-١٨٥٣).

أولاً- الأزمة المصرية- العثمانية وبدايات التدخل لأوروبي في بلاد الشام.

ثانياً- الصراع الدولي على بلاد الشام ومؤتمري لندن ١٨٤٠ و١٨٤١.

ثالثاً- العلاقات الدبلوماسية الأوروبية- العثمانية وأثرها في السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٣٩-١٨٥٣).

رابعاً- السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٤٠-١٨٥٣).

- **الفصل الثاني: السياسة الأوروبية والصراع الدولي على بلاد الشام ١٨٤٠ – ١٨٥٣.**

أولاً– الأزمة المصرية– العثمانية وبدايات التدخل الأوروبي في بلاد الشام:

لم يقتنع محمد علي[١]– على ما يبدو– بجزيرة كريت التي منحها إياه السلطان محمود الثاني (١٨٠٨–١٨٣٩) لقاء خدماته وتضحياته التي قدمها للدولة العثمانية ضد الثورة اليونانية في بلاد المورّة[٢]؛ لأنه كان يطمح لحكم بلاد الشام[٣]، وتنصيب ولده إبراهيم باشا[٤] والياً عليها، فبعد تلكّؤ السلطان وتردده في قبول طلبه، بدأ بمقاطعة السلطان، وظهر ذلك بوضوح عند عزوفه عن المشاركة في حروب السلطان مع روسيا ١٨٢٨ وتفرغه لتقوية جيشه وأسطوله[٥]، وبعد يأسه من قبول الباب العالي لمطلبه هذا باشر بالتقدم نحو بلاد الشام للسيطرة عليها بالقوة[٦]، منتهزاً

---

[١] **محمد علي باشا (١٧٦٩–١٨٤٨):** وُلد في قوله جنوب بلاد الروماللي (ألبانيا)، توفي والده وهو في الرابعة من عمره، انضم إلى سلك الجهادية، وجاء مصر في قوة بحرية (ثلاثمئة جندي ألباني) بصفة معاون قائد الحملة بعد أن احتل الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨، وبعد خروج الفرنسيين نافس العثمانيين والمماليك، واستطاع إقناع الأهالي في مصر لدعمه حتى نال الحكم فيها عام ١٨٠٥، فقضى على المماليك، وقاتل الوهابيين، وفتح السودان، وحارب إلى جانب السلطان في اليونان، ثم فتح بلاد الشام وحكمها لمدة عقد من الزمن إلى أن انسحب منها تحت ضغط القوى العظمى الأوروبية أواخر عام ١٨٤٠، وتوفي عام ١٨٤٨. نعيسة، يوسف وصالح، محمد حبيب، تاريخ العرب الحديث والمعاصر (مصر والسودان)، منشورات جامعة دمشق، د.ط، ٢٠٠٧م، ص١٧٣، ٢٤٨–٢٥٠.

[2] Marriott, op. cit, p. 231.

- **بلاد المورّة:** شبه جزيرة في القسم الجنوبي من بلاد اليونان، كانت قديماً تدعى بالبلوبونيز. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٧٨.

[٣] دولينا، نينل الكسندروفنا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ترجمة أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٩، ص٢٩. فبعد أن شارك محمد علي باشا في إخماد الثورة في كريت والمورة أواخر عام ١٨٢٧، طلب من الباب العالي تولي حكم بلاد الشام، وذلك لما يقتضيه أمن مصر. انظر: رستم، أسد، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤–١٨٤١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥، ص٤٩–٥٠.

[٤] **إبراهيم باشا (١٧٩٠–١٨٤٨):** وُلد في نصرتلي بالقرب من قوله وصل إلى مصر عام ١٨٠٦، ويقال أنه ولد محمد علي بالتبني، قاد الحملات العسكرية إلى الحجاز والمورّة وبلاد الشام، وعقد صلح كوتاهية ١٨٣٣، ثم انسحب من بلاد الشام تحت ضغط الدول الأوروبية، تنازل محمد علي له عن الحكم عام ١٨٤٨، ثم مرض وتوفي في مصر في العام نفسه. الزركلي، خيرالدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٤، ج١، ١٩٩٩، ص٧٠.

[٥] مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩٣، ج٢، ص٤٤–٤٥.

[٦] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤–١٨٤١، مرجع سابق، ص٥٠.

فرصة ضعف جيش السلطان العثماني، نتيجة صراعه مع الإنكشارية عام ١٨٢٦ وحروب السلطان مع روسيا بين عامي ١٨٢٧ و١٨٢٩[١]، فهاجمت قواته بقيادة ابنه إبراهيم باشا عكا بحجة معاقبة واليها عبدالله باشا عام ١٨٣١ لخلافات إدارية، وبعضها شخصية بينهما[٢]، ثم تجاوز إبراهيم باشا عكا، بعد أن ترك بعض القوات لمحاصرتها، إلى يافا وغزة وبيت المقدس، وأكمل السيطرة عليها جميعاً في ٢٧ أيار ١٨٣٢[٣]، ثم بدأ بالسيطرة على سواحل بلاد الشام، بعد أن انضم إليه بشير الثاني الشهابي[٤]، ورؤساء جبل نابلس، فسيطر على دمشق في ٢٥ حزيران ١٨٣٢، ولم تفلح قوات السلطان بإيقافه في حمص، فأكمل إبراهيم باشا طريقه إلى حلب ودخلها يوم ٢٦ تموز ١٨٣٢ ثم انتصر على جيش السلطان في ممر بيلان[٥] في ٢٩ حزيران ١٨٣٢ فأصبح الطريق مفتوحاً أمامه نحو آسيا الصغرى[٦].

---

[١] الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٧٦، ص١٦٤. عمـر، عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت، ص٣١٥. ويشير أحد الباحثين أن اختيار وقت الهجوم على الدولة العثمانية لم يكن اعتباطياً من جهة محمد علي. انظر: - Tibawi, op. cit, p. 65.

[٢] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٢٧٧. حجر، جمال محمود، القوى الكبرى والشرق الأوسط (في القرنين التاسع عش والعشرين)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٩م، ص٢٤-٢٥. رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٥٦-٥٧.

[٣] ذُكر في إحدى الوثائق المحفوظة في دار الوثائق بدمشق نبأ خروج إبراهيم باشا عن طاعة السلطان واحتلاله بعض السواحل مثل غزة وطرابلس وغيرها، وقد طُلب الجنود والقوات لمحاربته، وهو كتاب صادر عن قائد منطقة حلب ودمشق بتاريخ ٢١ ذو القعدة ١٢٤٧هـ. انظر: دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الرابع، الوثيقة رقم ١٧٤. وفي وثيقة تالية بتاريخ ٢٩ ذو القعدة ١٢٤٧هـ طُلب شراء خمسة عشر ألف رأس غنم وماعز من قبل والي دمشق لإطعام الجند واستبقائهم في منطقة حماه. انظر: المصدر نفسه، الوثيقة رقم ١٧٥.

[٤] بشير الثاني الشهابي (١٧٦٧-١٨٥٠): ابن قاسم ابن عمر حيدر الشهابي ولد في غزير، تولى الحكم في لبنان على يد الجزار عام ١٧٨٩، عزز مكانته الإدارية بعد أن حدَّ من نفوذ الإقطاعيين، ولاسيما الشيخ بشير جنبلاط، عمّم الأمن والعدل في جبل لبنان، وحالف محمد علي باشا ضد العثمانيين عام ١٨٣١، ونفي عام ١٨٤٠، وتوفي في إسطنبول عام ١٨٥٠، ونُقل رفاته إلى بيت الدين عام ١٩٤٨. المنجد، مرجع سابق، ص١٣٤.

[٥] **ممر بيلان:** من أهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول وله شهرته في التاريخ فقد سلكه العديد من الجيوش والقادة العسكريين، مثل الإسكندر المقدوني وجيوش الإفرنج. انظر المحامي، مصدر سابق، ص٤٥٠.

[٦] الدسوقي، مرجع سابق، ص١٦٥-١٦٦. وانظر: - Marriott, op. cit, p. 232.

طلب السلطان العثماني المساعدة من الدول الأوروبية الكبرى، غير أنها أبدت عدم اهتمامها بما يعانيه؛ لأنها كانت مشغولة ببعض أوضاعها الداخلية لاسيما بعد ثورات أوروبا عام١٨٣٠[١]، فمثلاً رأت بريطانيا، بعد تردد، ومع تعرض مصالحها للخطر بعد التدخل الروسي في الأزمة، أن تبتعد عن المشاكل في الأناضول وبلاد الشام ؛ لأنها مناطق حساسة جداً وستجلب لها المشاكل مع كل من فرنسا وروسيا، إلى جانب انشغالها بالثورة الإيرلندية، والثورة البلجيكية المطالبة بالانفصال عن هولندا[٢]، أما فرنسا فكانت تجمعها علاقات مودة مع محمد علي باشا، وكانت تقدم الخبرات الفرنسية لمصر في العديد من المجالات، كما أنه من المفترض تشجعيها التقدم المصري في الأناضول فهي تعده امتداداً لمشاريع نابليون بونابرت[٣]، ومع ذلك فقد عرضت وساطتها لتسوية الخلافات من منطلق علاقتها الطيبة بمحمد علي وحرصها على صداقته ومصالحها في البلاد التي يحكمها[٤]، أما النمسا وبروسيا فآثرتا التريث وانتظار ما ستسفر عنه الوساطة الفرنسية[٥].

أما روسيا كان لها رأي آخر، فبعد أن أدركت خطورة التقدم المصري نحو الأناضول، وأنه لا يناسبها أن يكون لها جار قوي[٦] يسبب لها المشاكل في الوقت الذي كانت تنالُ فيه بالتهديدِ ما يحلو لها من امتيازات من الدولة العثمانية، وبعد الكارثة التي حلت بالجيش العثماني في معركة

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٢] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٨٩. حجر، مرجع سابق، ص٢٩-٣٠.

[3] Marriott, op. cit, p. 232-233.

- **نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١)**: وُلد في أجاكسيو، إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥)، أشهر حملاته العسكرية هي حملة إيطاليا الأولى ١٧٩٤، والثانية ١٧٩٦، ثم حملته الشهيرة على مصر ١٧٩٨، كان أول من جلب المطابع إلى مصر، استلم منصب قنصل أول عام ١٧٩٩، ثم قنصل مدى الحياة عام ١٨٠٠، ربط الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بالدولة (الكونكوردا) عام ١٨٠١، نشر القانون المدني ١٨٠٤، حقق الكثير من الانتصارات في أوروبا، وعُزل عام ١٨١٤ ونُفي إلى جزيرة ألبا، ولدى هروبه من المنفى وعودته إلى باريس تحالفت ضده أوروبا وهزمته في معركة واترلو ١٨١٥، ثم نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة وتوفي فيها. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٧٠٣.

[٤] حجر، مرجع سابق، ص٢٩.

[٥] المرجع نفسه، ص٣٠.

[٦] سنو، عبد الرؤوف، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ١٨٤٠-١٩٠١، معهد الإنماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص١٦. حجر، مرجع سابق، ص٢٨.

قونية يوم ٢١ كانون الثاني ١٨٣٣، التي أُسِر الصدر الأعظم رشيد باشا فيها[١]، عرضت روسيا المساعدة على السلطان العثماني الذي قبل العرض الروسي على مضض؛ لأنه يعلم مدى طموح روسيا في السيطرة على البوسفور والدردنيل، والقسطنطينية نفسها، إلى جانب مطامعها في البلقان. وسرعان ما استجابت روسيا لقبول السلطان، فأرسلت الأسطول الروسي إلى البوسفور وأنزلت ستة آلاف جندي على الشاطئ الآسيوي من هذا المضيق[٢]، وأغلقت قنصليتها في الإسكندرية وأحالت أعمالها إلى قنصل توسكانا[٣]، في وسط جو من عدم الرضا الفرنسي- الإنكليزي من هذا التدخل المنفرد، ولم يفلح احتجاجهما في إقناع السلطان برفض المساعدة الروسية[٤].

دخل محمد علي باشا في مباحثات الصلح- بعد ضغوط فرنسية وبريطانية-[٥]، ولأنه أدرك خطورة وجود الجيش الروسي في الأناضول، فتوصل الأطراف إلى عقد صلح وتسوية مؤقتة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا، وهو ماعُرف بصلح كوتاهية[٦] في ١٤ أيار ١٨٣٣، تنازل بموجبه السلطان عن سائر بلاد الشام وأضنه لمحمد علي باشا، واعترف بحكمه لمصر والجزيرة

---

[١] مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي ١١٩٢-١٢٥٧هـ/ ١٧٨٢-١٨٤١م، تحقيق أحمد غسان سبانو ،دار قتيبة، ط٢، ١٩٨٢، ص٨١. نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٢٨٢. الدسوقي، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٢] صالح، محمد حبيب، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٦٧-٦٨، كانون الثاني- حزيران ١٩٩٩، ص٢١٩. كان القيصر الروسي نيقولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) قد شكل لجنة لدراسة أوضاع الدولة العثمانية والقضايا الدولية المتعلقة بها، وأكدت اللجنة على خطورة طرد الأتراك من البلقان واقتسام الأراضي العثمانية، بسبب أطماع الدول العظمى فيها، فقرر القيصر وحكومته مساعدة الدولة العثمانية والحفاظ عليها لتعيش مدة أخرى من الزمن، والوقوف ضد تقدم محمد علي باشا. انظر: رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٩٠.

[٣] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٩٠.

[٤] حجر، مرجع سابق، ص٢٩. وانظر: - Tibawi, op. cit, p. 69.

[5] Marriott, op. cit, p. 235.

[٦] يختلف صلح كوتاهية عن سائر الاتفاقات الأخرى المعروفة، فهو شفهي وينقصه نص معين، وتوقيع الطرفين المتعاقدين. أما ما تم منحه لمحمد علي باشا فقد كان بفرمان سلطاني. انظر: رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٩٤.

العربية وكريت[1]، ولم يتراجع الروس إلا بعد محاولة جني ثمار تدخلهم هذا؛ إذا تم عقد معاهدة هنكار أسكلة سي Hunkar Iskaelesi في ١٨ تموز ١٨٣٣، التي قضت بتبادل المساعدة بين الروس والدولة العثمانية في حال تعرضهما لأي هجوم، مقابل بنود سرية تقضي بإعفاء الدولة العثمانية من أي التزامات نحو روسيا شرط إغلاق الدردنيل في وجه السفن الحربية المتجهة نحو البحر الأسود[2]، وأمام الرفض الفرنسي- الإنجليزي وغضبهما من هذه الاتفاقية[3]، اتجهت روسيا إلى كسب النمسا لصالحها بسبب العلاقات الخاصة، والمصالح المشتركة بينهما، فتوصل الطرفان إلى عقد اتفاقية مونخن غراتز München gratz في ١٨ أيلول ١٨٣٣، تعهدتا فيها بالمحافظة على الدولة العثمانية، وبأن أي تقسيم لها لن يتم إلا بالاتفاق بين روسيا والنمسا[4].

لم يكن صلح كوتاهية في ١٤ أيار ١٨٣٣ إلا هدنة مؤقتة في الصراع العثماني- المصري، لأنه لم يحسم نتيجة هذا الصراع، بل على العكس من ذلك، فهو مع أنه منح محمد علي باشا السيادة على مناطق عدة[5]، إلا أنه ترك الاحتمالات مفتوحة، ولاسيما أن السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٧-١٨٣٩) سيسعى- بعد تشجيع أوروبي باستثناء فرنسا ربما إلى إعادة سلطته على بلاد الشام التي أخذها منه واليه محمد علي باشا بالقوة[6].

كما تنبهت القوى الدولية لظهور محمد علي الذي أثار الأهتمام بعد فتحه لبلاد الشام ، ثم وصوله لقلب الأناضول[7]،فهذا الأمر دفع فرنسا وبريطانيا للعمل، لمرحلة محدودة في الاتجاه نفسه، مع اختلافهما كلياً في موقفهما من توسع محمد علي في المنطقة، لإجهاض أي دور

---

[1] مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، تحقيق أسد رستم، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ج١، ص٣٠-٣١. صالح، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام، دراسات تاريخية، مرجع سابق، ص٢٢٠.

[2] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٩٥. الدسوقي، مرجع سابق، ص١٧١.

[3] المرجع نفسه، ص١٧٢.

[4] المرجع نفسه، ص١٧٣. وانظر: - Marriott, op. cit, p. 237.

[5] لوتسكي، فلاديمير بوريسوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، د.ط، د.ت، ص١٢٩.

[6] حجار، جوزيف، أوروبا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نغمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط، ١٩٧٦م، ص٨٣. وانظر:

- Marriott, op. cit, p.

- Anderson, M. S, the Eastern Question 1774-1923, Macmillan, London, St. Martin's Press, New York, 1966, p. 88.

[7] حجار، مرجع سابق، ص٨٤.

لمعاهدتي هنكار أسكلة سي Hunkar Iskaelesi ، ومعاهدة مونخن غراتز München gratz، في حين أن هاتين المعاهدتين كانتا حجر عثرة أمام أهداف محمد علي، وحرمتاه من ثمار انتصاراته[١].

ولقلقه من الوضع الغامض لصلح كوتاهية الهش أصلاً، ولرغبته في دعم انتصاراته، ومنح مكتسباته منها الشرعية الدولية[٢]، وفي محاولة للاستفادة من التناقضات القائمة بين سياسات الدول الأوروبية العظمى[٣]، تقدم محمد علي عام ١٨٣٤ باقتراح جريء إلى كل من النمسا وبريطانيا وفرنسا، ذهب فيه إلى أن ضمان وأمن وسلامة الإمبراطورية العثمانية يكمن في فصل المناطق العربية عنها في دولة مستقلة تحت حكمه أولاً، ثم بإعلان الحرب على روسيا ثانياً[٤]، وبين عامي ١٨٣٦ و١٨٣٧ تقدم بالاقتراح نفسه إلى الباب العالي مباشرة، غير أنه اصطدم برفض السلطان أيضاً[٥]، ولاسيما أن السلطان أصبح يحظى، بفضل معاهدتي هنكار اسكلة سي ومونخن غراتز München gratz ١٨٣٣، بدعم ومساندة الحكومات الثلاث؛ روسيا والنمسا وبروسيا من الفريق ذي المبادئ الاستبدادية، والحكم الفردي المطلق التي لا تزال تسير على خطا الحلف المقدس المعقود في فيينا عام ١٨١٥، فقد أكدت هذه الدول في اجتماع أباطرتها في ميونخ أيلول ١٨٣٣ في (معاهدة مونخن غراتز München gratz) على فكرة "الحلف المقدس" وبضم الإمبراطورية العثمانية إلى الحلف كدولة صديقة يجب الدفاع عنها عند الخطر[٦]، وبعد أن أدرك محمد علي صعوبة تحقيق هذا الأمر، راح يطالب بحقوق وراثية لأسرته في المناطق التي تحت حكمه على الأقل[٧].

وكان السلطان محمود الثاني منذ عام ١٨٣٤ يفكر باسترداد بلاد الشام من محمد علي، وأجرى مشاورات سرية مع بعض الدول الأوروبية التي نصحته بتأجيل الفكرة[٨]. في حين أن محمد علي فشل في إقناع الدول الأوروبية النمسا وبريطانيا وفرنسا بالاعتراف باستقلاله[٩]، بل كان رد الفعل الأوروبي عنيفاً للغاية. فقد اقترح مترنيخ Metternich أن تتفق الدول العظمى

---

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣١.

[٢] المرجع نفسه، ص١٣٦.

[٣] نعيسة وصالح، مرجع سابق، ص٢٢٤. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣١.

[٤] بازيلي، مصدر سابق، ص١٤٩– ١٧٦.

[٥] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص٨٥.

[٧] بازيلي، مصدر سابق، ص١٧. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣٦.

[8] Marriott, op. cit, p. 237.

[٩] حجار، مرجع سابق، ص٩٤، ٩٦.

بريطانيا وروسيا والنمسا وفرنسا على عدم قبول مطالب محمد علي بالاستقلال، إلى جانب اتخاذ تدابير وقائية لذلك[١]. وفي روسيا أعرب نيسلرود[٢] Nislroode عن استيائه الشديد لموقف محمد علي من روسيا، وأعلن أن محمد علي قد حكم على آماله بالفشل عندما حاول إثارة مخاوف الحكومات الأوروبية تجاه روسيا[٣]. أما بروسيا فلم تكن قد بدأت بالتدخل في قضايا الشرق بشكل فعلي إلا فيما يتعلق باستلام بعض خبرائها مهام تدريب الجيش العثماني[٤]. أما فرنسا التي كانت متحمسة لتوّسع حليفها الذي يحقق لصالحها مكاسب عجزت عن تحقيقها الجيوش والدبلوماسية الفرنسية لمدى عقود من الزمن[٥]، فقد خيبت آمال محمد علي الذي استغرب موقفها الرافض لاستقلاله في الوقت الذي كان ينتظر منها دعماً وتأييداً لمطالبه تلك[٦]، وذلك لأمورٍ تتعلق بالمصلحة الأوروبية ،ومبدأ توازن القوى[٧]، واكتفت فرنسا فقط بدعمها لمطلب التنازل لمحمد علي بالحكم الوراثي في كل من مصر وبلاد الشام.

أما في بريطانيا فقد وقف بالمرستون Palmerston ضد التوسع المصري، وأمام طلب الاستقلال الذي نادى به محمد علي؛ لأسباب اقتصادية- تجارية وأخرى سياسية. فمن الناحية التجارية ترى بريطانيا في دولة محمد علي الناشئة عائقاً أمام النفوذ الإنكليزي في بلاد الشام إضافة إلى إعاقتها لطرق مواصلاتها التجارية إلى الهند[٨]، كما أن محمد علي يشكل خطراً

---

[١] النواصرة، قاسم محمد أحمد، الموقف البريطاني والفرنسي من الحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١م)، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، د.ط، ٢٠٠٨، ص٢١٤.

[٢] **نيسلرود Nislroode (ت ١٨٦٢)**: سياسي روسي شهير ساند الاسكندر الأول (١٨١٠-١٨٢٥) في سياسة الاتحاد المقدس القائم على فكرة الحكم المطلق للملوك، شارك في جميع المعاهدات الشهيرة التي وقعتها روسيا مع الدولة العثمانية وأهمها: معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩، ومعاهدة هنكار أسكله سي عام ١٨٣٣. انظر: المحامي مصدر سابق، هامش ص٤٥٩.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص٩٧.

[٤] خوري، إميل وإسماعيل، عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨ (من مؤتمر فيينا١٨١٥ إلى معاهدة المضايق١٨٤١)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، د.ط، ١٩٦٠، ج٢، ص١٤٠. أدرك السلطان العثماني أن التنظيم العسكري لجيش محمد علي على الطريقة الأوروبية كان له دور كبير في الانتصارات التي حققها هذا الجيش، فحرص السلطان على جلب ضباط أوروبيين لتدريب الجيش العثماني، في وقت كان الجيش البروسي قد حاز على شهرة عالمية في المجال العسكري. انظر: حجار، مرجع سابق، ص١٦٢.

[٥] سمحات، قاسم، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠م، د.ت، د.ط، ص٢٦٠.

[٦] النواصرة، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

[٧] حجار، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٨] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣٩.

مباشراً على امتيازاتها الكبيرة في الإمبراطورية العثمانية؛ لأنه يصر على إدارة الصناعة والتجارة، وإدخال التقنية الأوروبية مع حصر حق المبادرة والتنفيذ في نفسه(١)، ناهيك عن سياسة الاحتكار للكثير من السلع والمواد الأولية(٢)، وهذا ماكانت يقض مضجع بريطانيا؛ لأن تجارتها الخارجية تقوم على إيجاد أسواق جديدة لتستوعب فائض إنتاجها(٣)، وسعيها إلى احتكار ما أمكن من المواد الأولية في البلاد التي تحت سيطرتها ونفوذ امتيازاتها(٤)،

ومن الناحية السياسية كانت بريطانيا ترى في الإمبراطورية العثمانية عنصراً مهماً للمحافظة على مبدأ التوازن بين أوروبا الغربية وروسيا؛ لأنها تشكل حاجزاً بين أوروبا وجنوب غرب آسيا، وتشكل عائقاً أمام التوسع الروسي نحو الجنوب مما يبقي المحيط الهندي بحراً إنكليزياً لا ينافسها فيه أحد، إلا إذا بنى محمد علي كياناً سياسياً موحداً يجمع بين بلاد الشام ووادي النيل، فسيكون عقبة في وجه المصالح البريطانية(٥)، ولتجاوز هذه العقبة عمدت بريطانيا إلى إقناع محمود الثاني أن السياسة الاقتصادية التي يتبعها محمد علي ستضع بين يديه ثروة ضخمة تمكنه من السيطرة على زمام الأمور، فهذا الأمر زاد من مخاوف السلطان، فسارع إلى عقد معاهدة بلطه ليمان(٦) في ١٦ آب ١٨٣٨ مُنح الإنكليز فيها حرية التجارة في جميع مناطق الإمبراطورية بما فيها مصر وبلاد الشام(٧)، وكان الغرض البريطاني من ذلك هو إلغاء الاحتكار، والتأكيد على الامتيازات التجارية السابقة في بلاد الشام(٨)، ولاسيما ما يتعلق بالمواصلات فيها، على أنها من أراضي الإمبراطورية العثمانية وهذا يؤكد حقوق السلطان فيها، ويمهد للعمل على استعادتها من محمد علي، بعد حشد جهود الدول العظمى في هذا الاتجاه(٩). وكان بالمرستون Palmerston قد انتهى من الكثير من المشاكل في هذه الفترة وتفرّغ للمسألة المصرية– العثمانية(١٠).

---

(١) حجار، مرجع سابق، ص٩١.

(٢) شيشلر، ليندا، دمشق في القرنين الثامن عش والتاسع عشر، ترجمة عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، دار الجمهورية، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ص٦٥.

(٣) فلقد بلغ حجم تجارتها الخارجية سدس تجارة الدول جميعاً، وظهر الفائض في إنتاجها الصناعي بشكل كبير. انظر: خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٢.

(٤) المرجع نفسه، ص١٣٢.

(٥) حجار، مرجع سابق، ص٩٣.

(٦) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٤.

(٧) آصاف، مصدر سابق، ص٩٥. أبو النصر، عمر، سورية ولبنان في القرن التاسع عشر، مطبعة وزنكوغراف طباره، بيروت، ط٢، ١٩٢٦، ص٥٠.

(٨) رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤–١٨٤١، مرجع سابق، ص١٥٢.

(٩) حجار، مرجع سابق، ص٩٩. وانظر: – Kirk, op. cit, p. 100–101.

(10) Ibid, p. 80.

ثانياً- الصراع الدولي على بلاد الشام ومؤتمري لندن ١٨٤٠ و١٨٤١.

١- المواجهة المصرية- العثمانية، ودور السياسة الأوروبية فيها.

وصلت المفاوضات المباشرة التي جرت بين محمد علي والمندوب العثماني صارم أفندي إلى طريق مسدود، مما زاد في شدة التوتر وأدخل العلاقات العثمانية- المصرية مرحلة جديدة اتسمت بالتصعيد من الجانبين، وكان صارم أفندي قد أعلن عن عروض الباب العالي انطلاقاً من الحكم الوراثي لمصر وشبه الجزيرة العربية وصولاً إلى اقتراحه الأخير بضم جنوب بلاد الشام كاملاً، بما فيه عكا وطرابلس، إلى حكم محمد علي دون الإشارة إلى طريقة الحكم فيها وراثياً أو مدى الحياة، إلا أن محمد علي رفض كل هذه العروض وأعلن أنه لن يتخلى عن أي منطقة تحت سيطرته، وسيكتفي بالأتاوة التي يحددها السلطان، وفي محاولة أخيرة تنازل الباب العالي وأعطى لمحمد علي حكم جنوب بلاد الشام مدى الحياة، وحكم مصر وشبه الجزيرة العربية وراثياً، لكن محمد علي رفض ذلك أيضاً. فضاعف السلطان جهوده لتنظيم الجيش، ورداً على ذلك أوقف محمد علي دفع الأتاوة له، وعاد إلى مطالبه القديمة فأعلم قناصل القوى العظمى ومن ضمنها روسيا بنيته في إعلان الاستقلال[١].

وكانت بريطانيا- منذ إبرامها لاتفاقية بلطه ليمان ١٨٣٨- أكدت توجهها السياسي في الشرق، والقائم على القضاء على النفوذ الروسي لدى الباب العالي بتعطيل أحكام معاهدة هنكار اسكلة سي، ودفع السلطان لمهاجمة محمد علي؛ لأن هذه المعاهدة هي دفاعية فقط، ولا تجيز للروس التدخل في الإمبراطورية العثمانية إلا عند تعرضها للهجوم، هذا من ناحية وسعت جاهدة من ناحية أخرى لإنهاء النفوذ الفرنسي في الشرق، وهذا لن يتم إلا بالقضاء على دولة محمد علي[٢]، كل ذلك حدث دون أن ترتبط بريطانيا بتعهد خطي أو بمعاهدة هجومية أو دفاعية مع الباب العالي، بل اكتفت بتقديم الخبرات، وبتنظيم الأسطول العثماني، والقيام ببعض المناورات البحرية المشتركة في البحر المتوسط بين أسطولي البلدين[٣]، كما لم تمنع بقاء الخبراء البروس مشرفين على الجيش العثماني البري، فضلاً عن السياسة القديمة- الجديدة لبريطانيا ولاسيما اعتماد بالمرستون Palmerston الإزدواجية في تنفيذ هذه السياسة وإدارة الأزمة، ففي لندن حديث عن السلم والاستقرار في الشرق، وفي الشرق وتحديداً في الأستانة عمل بريطاني مستمر لجعل الحرب أمراً حتمياً[٤].

---

(١) بازيلي، مصدر سابق، ص١٧٨-١٨٠.

(٢) لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣٨.

(٣) النواصرة، مرجع سابق، ص٢٢٥-٢٢٦. وانظر: - Anderson, op. cit, p. 97.

(٤) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٠-١٤١.

فخرج مترنيخ Metternich عن صمته، وأيّدته فرنسا، لذلك انطلق من مبدأ التوازن الدولي والأمن الأوروبي[١]، وأدراك المخاطر السياسة البريطانية، وعرف أن المصالحة بين السلطان ومحمد علي تشكل خطراً على المصالح البريطانية، إضافة إلى حقيقة ممارسات القنصل البريطاني بونسونبي Ponsonby في الأستانة بتحريضه السلطان العثماني لشن الهجوم على محمد علي[٢]، فأتصل بحكومتي روسيا وبروسيا للعمل على الحد من قضية التصعيد والحل بقوة السلاح، فهددت بروسيا الباب العالي بسحب خبرائها العاملين في الجيش العثماني، في حين ذكّرت روسيا السلطان بأنها لن تستطيع تقديم المساعدة عملاً بمعاهدة هنكار أسكلة سي في هذه الحالة[٣]، وعندما سألوا الباب العالي عن سبب الحشود العسكرية العثمانية على مشارف بلاد الشام تعلل بإخماد الثورة الكردية في شمال العراق[٤].

وكان لوصول المارشال سولت Sault إلى رئاسة الوزراء الفرنسية بعد موله Mollet، وتعيين سيباستياني Sebastiyani سفيراً في لندن خلفاً لدوبوركيني قد أوضح حقيقة التوجه الفرنسي، فموقف سولت Sault الحرج من إعلان محمد علي قراره بالاستقلال، دفعه إلى التفاهم مع التكتل الأوروبي، لذلك تجنب الفتور بين باريس ولندن[٥]، وفضّل أن تقوم فرنسا بدور الوسيط بين السلطان ومحمد علي، فأوفد مندوبَين عنه في ٢٨ أيار ١٨٣٩ أحدهما إلى محمود الثاني، والآخر إلى محمد علي وابنه إبراهيم باشا، سعياً منه للحيلولة دون وقوع القتال بين الطرفين[٦].

وبدأت الأزمة بين الدولة العثمانية ومحمد علي تتعقد وتأخذ أبعاداً دولية بعد أن حشد السلطان العثماني قواته على حدود بلاد الشام، وقام محمد علي بتطوير قواته العسكرية وإعلن عن نيته بالاستقلال، فأمست هذه الأزمة مثار اهتمام السياسة الخارجية لجميع القوى الأوروبية، وبعد أن تباينت وجهات النظر حيالها أصبحت العلاقات الدولية بين القوى العظمى تأخذ أشكالاً

---

[١] بازيلي، مصدر سابق، ص١٨٠.

[٢] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٢٣.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٤١.

[٤] المرجع نفسه، ص١٤٢. استعان الباب العالي بالقائد العسكري الألماني مولتكه Molltke (١٨٠٠-١٨٩١) لتنظيم الجيش العثماني وفق أساليب عصرية، وقد شارك مولتكه -كمفتش في الجيش العثماني- في معارك ضد الأكراد المنتفضين ضد السلطات العثمانية، وسجل بعض انطباعاته عن الأكراد في رسائله التي قدم خلالها صوراً واقعية عن الظروف التي عاشها الشعب الكردي في ظل الحكم العثماني، وعن نضاله الدؤوب من أجل التحرر، شأنه شأن سائر شعوب الإمبراطورية العثمانية، على الرغم من محاولته اعطاء تبريرات معينة لتصرفات السلطات العثمانية في تعاملها مع الثوار الكرد والسكان الآمنين. انظر: مظهر، كمال أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد ملا عبد الكريم، لا يوجد دار نشر، بيروت، د.ط، د.ت، ص٢٩.

[٥] سمحات، مرجع سابق، ص٢٧٨.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٤.

معقدة. ففي البداية اختلافهما في الرأي اقترحت كل من فرنسا وبريطانيا عقد مؤتمر في فيينا للقوى العظمى، وإرسال أساطيل فرنسية– بريطانية إلى الدردنيل للمحافظة على "وحدة واستقلال" الإمبراطورية العثمانية؛ لتفادي أزمة أوروبية محتملة، لكن روسيا رأت في ذلك تهديداً لنفوذها أكثر من استهدافها لمحمد علي ومشروعه في بلاد الشام، ومع كل محاولات مترنيخ Metternich اقناع روسيا بالعمل الأوروبي المشترك، إلا أنها رفضت الفكرة وأحبطتها بكل ما أوتيت من قوة[١].

أما ميدانياً فتشير وثائق كثيرة إلى[٢] أن محمد علي كان يؤكد على إبراهيم باشا تجنب الدخول في صدام مع الجيش العثماني قدر ما استطاع، وأن يتخذ مواقع دفاعية، ويحصن الثغور والممرات الجبلية[٣]. وبعد أن أدرك السلطان أن المواقف الدولية تسير لمصلحته أمر الجيش العثماني بالتقدم، مع تحفظ كل الدول على هذه الخطوة[٤]، ماعدا بريطانيا التي يشير الباحثون أنها كانت تحرض السلطان العثماني محمود الثاني على التحرك ضد محمد علي بعد أن كثرت الثورات المحلية ضد حكمه[٥]، فقد راهن محمود الثاني على أن الدول الأوروبية لن تسمح بهزيمته التي ستؤدي إلى تدخل روسي[٦]، كما راهن على التدخل بريطانية؛ لأنها لن تكرر خطأ عام١٨٣٢ مرة أخرى، وهو ما ذهب إليه بالمرستون Palmerston في رسالة إلى سفيره في الأستانة جاء فيها: **(إنه سيتعين على بريطانيا في حال اندلاع الحرب بين السلطان ومحمد علي استخدام القوة ضد الأخير، وذلك على الرغم مما قد يبدو عليه هذا الموقف من تحيّز وظلم ضده، ولكننا ظالمون، فالمصالح العليا لأوروبا تحتم علينا أن نكون كذلك)**[٧].

وكان عبور حافظ باشا بقواته نهر الفرات يعني أن الصدام أصبح أمراً حتمياً، وحدث ذلك في معركة نزيب[٨] ٢٤ حزيران ١٨٣٩ مع محاولات مبعوثي فرنسا إلى السلطان ومحمد علي

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٨–١٥٠.

[٢] رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج٤، الوثيقة رقم ٥٧٧٥، ص٤٦، الوثيقة رقم ٥٧٩٣ و٥٧٩٤، ص٥٣، الوثيقة رقم ٥٧٩٦ و٥٧٩٨، ص٥٤.

[٣] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٢٦.

[٤] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣٨. حجر، مرجع سابق، ص٤٨.

[٥] أبو النصر، مرجع سابق، ص٥١

[٦] البدري، محمد عبد الستار، المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص١٥٦.

[٧] البدري، مرجع سابق، ص١٤٨.

[٨] **نزيب**: بلدة تدعى نصيبين وتعرف في الكتب الأجنبية باسم (نزيب Nizip)، تقع إلى الجنوب الغربي من بيره جك القريبة من الحدود السورية والواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب. انظر: المحامي، مصدر سابق، ص٤٥٣. وهناك خلط بين نزيب ونصيبين في الكثير من المراجع التي تعرِّفها على أنها مدينة نصيبين التاريخية

لمنع وقوع الحرب[١]، وكانت النتيجة حاسمة حيث مُني العثمانيون بهزيمة قاسية، ولم يَدُم القتال سوى ساعتين[٢]، وأصبح الطريق إلى الأستانة مفتوحاً مرة أخرى كما حدث عام١٨٣٢[٣]. الذي توفي فيه السلطان محمود الثاني في٢٩ حزيران ١٨٣٩[٤] قبل سماعه نبأ هزيمة جيشه، فيما يُعتقد أن السلطان- الذي كان مريضاً- توفي من هول الهزيمة[٥]. ولم تكن هذه خاتمة المصائب، فقد انضم الأسطول العثماني كاملاً بقيادة الأميرال فوزي باشا إلى جانب محمد علي[٦]؛ لأنه علم بتسلّم خسرو باشا الصدارة العظمى، ولم تكن العلاقة بينهما على ما يرام، وهذا ما يشاركه محمد علي منه أيضاً، ثم لخوفه من استيلاء الروس على الأسطول العثماني. وعندما همّ إبراهيم باشا بمتابعة مسيره نحو الأستانة[٧] بلَغه كاليه Calais أحد مبعوثي فرنسا إلى السلطان العثماني ومحمد علي باشا[٨]، بعدم التقدم نحو الأستانة، لتداعيات الأزمة السورية في أوروبا فعليه انتظار ردة فعل القوى العظمى[٩].

الواقعة في جنوبي شرق تركيا، ولم يتم توضيح الفرق بينهما، فقد جاء في الكثير من الوثائق التي أوردها أسد رستم في كتابه "المحفوظات الملكية المصرية"، أن الجيش العثماني- قبيل وقوع الحرب- قد اجتاز نهر الفرات إلى جهة حلب، وهذا يعني اجتيازه من الضفة اليسرى (الشرقية) إلى الضفة الغربية للنهر حيث تقع نزيب (أو نصيبين) التي جرت فيها المعركة، ومن المعلوم أن مدينة نصيبين القديمة تقع في الجهة الشرقية من النهر وهي على مسافة بعيدة منه. للاطلاع على ما ورد في هذه الوثائق، انظر: رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٥٧٥٧، ص٣٤، الوثيقة رقم ٥٧٦٢، ص٣٩.

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٠.

[٢] رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٥٨٧٨، ص١٢٣.

[٣] مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، مصدر سابق، ج١، ص٦٠-٦١. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٠-١٥١. وانظر: Marriott, op. cit, p. 238. -

[٤] حجار، مرجع سابق، ص١٥٩.

[٥] البدري، مرجع سابق، ص١٦٥.

[٦] بازيلي، مصدر سابق، ص٢٠٤.

[٧] البدري، مرجع سابق، ص١٦٥.

[٨] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥١.

[٩] البدري، مرجع سابق، ص١٦٤.

٢- التدخل الدبلوماسي الأوروبي ومذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩.

قبيل معركة نزيب كان النشاط الدبلوماسي الأوروبي قد وصل إلى أعلى مستوياته في المسألة المصرية- العثمانية، وذلك في ظل التوفيق بين المصالح المتضاربة لدولها، وفي ظل ازدواجية سياسة بعضها الآخر، هذا الأمر جعل الأزمة أكثر تعقيداً، وجعلها تسير نحو التدويل[١].

في ظل ما سبق لاح في الوسط الدبلوماسي توافق فرنسي- بريطاني، بعد تقارير للتقارب الدبلوماسي بين الطرفين، وكان هذا التوافق يقضي بضرورة قيام القوى العظمى بعمل جماعي يحول دون انفراد روسيا في التدخل في الأزمة المصرية- العثمانية حسب اتفاقية هنكار أسكلة سي، في الوقت الذي كانت قضية المضايق هي القضية الأساسية التي تحدد معظم اتجاهات العملية السياسية الأوروبية، ولاسيما السياسة الفرنسية والروسية فيما يسمى "التوازن الأوروبي"، وكان الدور الروسي هو أكثر ما يقلق الإنكليز والفرنسيين في هذه المسألة في هذا الوقت[٢].

وكان لبالمرستون Palmerston، بازدواجيته الدبلوماسية المشهورة الدور الأساسي في العملية السياسية برمّتها فيما يخص الأزمة الشرقية، فقد سعى للوصول إلى اتفاق أوروبي مشترك في عملية تكون بديلة عن معاهدة هنكار اسكلة سي، فقد أظهر رغبة في التفاهم مع فرنسا، كي يبعدها عن محمد علي، في الوقت الذي كان يفضل التفاهم مع روسيا من منطلق أنه لا يرى في روسيا مصدراً للخطر بقدر الخطر القادم من مصر[٣].

كما أبدت روسيا قلقها من التقارب الفرنسي- البريطاني، ولاسيما أنها بدأت تلاحظ الدور الفرنسي الذي يحاول إبعادها عن العملية السياسية، وتحجيم دورها في المسألة الشرقية، فبادرت خارجيتها إلى محاولة لرأب الصدع بينها وبين بريطانيا، مع سعة ساحة التنافس بينهما في شمال إيران وآسيا الوسطى[٤]، وذلك بالتخفيف من حدّة التوتر بينهما في المنطقة الفارسية أولاً، وتجاهل معاهدة هنكار اسكلة سي بكل امتيازاتها ثانياً؛ لإقصاء أي دور فرنسي محتمل، ثم الركون لدور أوروبي مشترك في مؤتمرٍ كان قد اقترحه مترنيخ Metternich في فيينا[٥]. فقد أسهم هذا الأخير في عملية المقاربة بين الطرفين[٦] الإنكليزي والروسي، وسعى إلى عقد هذا المؤتمر على

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥١- ١٥٢.

[٢] المرجع نفسه، ص١٥٣.

[٣] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٣٠. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥١-١٥٢.

[٤] المرجع نفسه، ص١٥٧.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٧-١٥٨.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص١٤١.

مستوى السفراء لتجتمع فيه القوى العظمى للوقوف على الأزمة السورية وتداعياتها، وتم الاتفاق على منح محمد علي الحكم الوراثي في مصر، وإعادة بلاد الشام إلى الباب العالي[١].

ورداً على التقارب الروسي- البريطاني اقترح الملك الفرنسي لويس فيليب[٢] Louis Philippe عقد المؤتمر في بداية حزيران ١٨٣٩، لتشترك بروسيا فيه؛ وذلك لجذبها إلى جانب فرنسا في محاولة منه لتجميد التحالف الإنكليزي- الروسي الذي سيصبح دافعاً قوياً لقرار السلطان العثماني بمهاجمة محمد علي[٣]. وتشير التقارير إلى أن سفير بروسيا في القسطنطينية كان يلاحظ تناقض أعمال السفير البريطاني بونسونبي Ponsonby مع سياسة رئيسه وزير الخارجية بالمرستون Palmerston الذي ركن إلى الحل الذي اقترحه مترنيخ Metternich، الذي قضى بمنح محمد علي الحكم الوراثي في مصر، فقد كان هذا السفير يعارض وبشدة حق الوراثة، بل ويعدُّ محمد علي مجرد والٍ متمرد، وعاصٍ للسلطان العثماني[٤]، وكثيراً ما اضطر بالمرستون Palmerston إلى شرح مواقف سفيره هذا ورأى أنها لا تعبّر عن رأي الحكومة البريطانية وبأنه يخالف سياسة دولته[٥]. ولكن المصالح السياسية والاقتصادية المحدودة لبروسيا حالت دون بلوغها دوراً فعالاً في أزمة الشرق، كما فشل المقترح الفرنسي بعقد هذا المؤتمر[٦].

أما بالمرستون Palmerston فتلقف التوجهات الجديدة لروسيا ورغبتها في تسوية بعض أوضاعها في الشرق، وبتشجيع من القوى العظمى الأخرى أعلن عن رأيه الصريح دون مواربة في رسالة إلى سفيره في فيينا يقول فيها: **(إن أي تسوية للأوضاع في الشرق لا يمكن أن تتم إلا بإعادة بلاد الشام إلى السلطان وإرضاء محمد علي بإعطائه حق الوراثة على عرش مصر)**[٧]، أما إذا هدد محمد علي الأستانة فهو يرى أن جميع الأساطيل الروسية والفرنسية والبريطانية والنمساوية عليها أن تتدخل لتعمل على حماية العرش العثماني من الانهيار[٨].

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٧.

[٢] **لويس فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠):** مال إلى ثورة ١٧٨٩ طمعاً للحصول على الملك، وبعد إلغاء الملوكية سافر إلى الخارج ثم عاد مع لويس الثامن عشر، "أُنتخب" ملكاً بعد عزل شارل العاشر في ثورة عام ١٨٣٠، وبقي ملكاً حتى عزله الثوار في ثورة عام ١٨٤٨. انظر: المحامي، مصدر سابق، هامش ص٤٨٩.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص١٤١. النواصرة، مرجع سابق، ص٢٣٣.

[٤] حجار، مرجع سابق، ص١٤٤.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٧.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص١٤٥.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٨.

[٨] المرجع نفسه، ص١٥٩.

وكان المارشال سولت Sault يرفض تسوية الأوضاع في الشرق دون إرضاء محمد علي، وذلك تحت ضغط الرأي العام الفرنسي والصحافة الفرنسية والمعارضة، التي ترى في موقفه المتراجع عن تأييد محمد علي خطراً على مستقبل فرنسا السياسي والتجاري[1]، وبموجب ذلك دافعت فرنسا عن مقترحها بحسم القضية سلمياً وأن يحكم محمد علي مصر وبلاد الشام وراثياً، في حين اكتفت النمسا وبروسيا بمنحه جزءاً من بلاد الشام، أما روسيا فقد اهتمت بسياسة الحفاظ على الوضع الراهن، إلا أن بريطانيا كانت أكثر الأطراف تطرفاً وحقداً على محمد علي، لأسباب تمت مناقشتها فيما سبق، فهي تسعى إلى انتزاع بلاد الشام بأكملها منه[2].

وخلق هذا الرفض الفرنسي هذا أن خلافات في وجهات النظر بين القوى العظمى الأوروبية، فظهرت مقترحات عدة للتقريب بينها، ومنها أن بروسيا اقترحت تقسيم بلاد الشام بخط يمتد من بيروت إلى دمشق، يكون القسم الجنوبي لمحمد علي، والقسم الشمالي للسلطان العثماني لكن فرنسا وبريطانيا رفضتا المقترح؛ لأنه لا يتماشى مع سياساتها[3].

وفي هذه الأجواء المتوترة في أوائل شهر تموز ١٨٣٩ جاء خبر هزيمة الجيش العثماني ووفاة السلطان محمود الثاني، واعتلاء ابنه عبد المجيد[4] العرش[5]، فاقترح مترنيخ Metternich على القوى العظمى أن تتدخل مجتمعة- بما فيها روسيا- للحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية، فوافقت جميع الدول بما فيها فرنسا، فنزلت أساطيل هذه الدول على المتوسط[6]، ولكن كيف يُفسّر موقف فرنسا هذا، ولماذا هذا التخبط في السياسة الفرنسية ؟.

كان المارشال سولت Sault ينظر إلى المصلحة الأوروبية أولاً لذا كان- بخلاف سابقه- ضد أي اتفاق عثماني- مصري يؤدي بالنتيجة إلى القضاء على المصالح الأوروبية، وظهر ذلك جلياً في التعليمات التي أوصلها لسفيره سيباستياني Sebastiyany في لندن في ٢٦ تموز ١٨٣٩ التي يقول فيها: **(إن سرعة سير الأحداث تجعلنا نخشى التوصل إلى حل الأزمة لا يدع**

---

[1] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٣.

[2] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣٩-١٤٠.

[3] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٢.

[4] **السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)**: وُلد عام ١٨٢١، تولى العرش خلفاً لأبيه وله من العمر (١٨) عاماً وأكمل عنه مسيرة الإصلاحات ، فكسب شهرة المصلح، أصدر جملة من الفرمانات في إطار العملية الإصلاحية التي بدأ بها بعد رغبة أوروبية تقوم على المطالبة بالإصلاحات بحجة تعدد الأجناس القومية، والطوائف الدينية في الإمبراطورية العثمانية. انظر: عامر، مرجع سابق، ص٣٠٥-٣٠٧.

[5] أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، الجامعة الأمريكية في بيروت- منشورات كلية العلوم والآداب، بيروت، د.ط، د.ت، ص٢٦٦، ٢٦٨-٢٦٩.

[6] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٤.

مجالاً لتدخل الدول الأوروبية، لا يأخذ، نتيجة لذلك، بعين الاعتبار بشكل كاف المصالح الأساسية للسياسة العامة)[١].

انشغلت أوروبا فيما مضى بقضية استقلال محمد علي، وبعد انتصاره في نزيب أصبحت مشغولة الآن بالأستانة نفسها، واحتمال هجوم إبراهيم باشا وأسطوله عليها، وكان إبراهيم باشا يُلِحّ على والده اصدار أوامر التقدم نحو الأستانة[٢]، لكن محمد علي فضّل التمهل والانتظار بسبب التعقيدات التي حصلت في أوروبا بشأن هذه الأزمة[٣].

في حين أن المسؤولين العثمانيين تصدعت معنوياتهم، بشكل دفع خسرو باشا إلى البحث عن أي حلول ممكنة مع مصر لإنهاء الأزمة، فأرسل كتاباً إلى محمد علي يشير فيه إلى "عفو" السلطان عنه، ومنحه الحكم الوراثي في مصر، كما أتبع الكتاب بمبعوثَين هما عاكف أفندي، ثم وزير العدل سعيد أفندي، للدخول في المفاوضات معه، لكنها كلها فشلت أمام رفض محمد علي كل مقترحات الباب العالي. وفي محاولة أخيرة للحيلولة دون تدخل دولي- وبعد مشاورات مع وزراءه- عقد خسرو باشا العزم على إغلاق الدردنيل في وجه جميع الدول، وهذا الأمر أقلق سفراء الدول العظمى، فقد حاول بعضهم جاهداً إقناع الصدر الأعظم برغبة دولهم في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية واستقلالها[٤]، ولم يدّخر بعضهم الآخر جهداً في عرقلة أي سعي لإيجاد حلول ممكنة بين الباب العالي ومحمد علي حتى لا يحول دون التدخل الأجنبي[٥]. واختزالاً للمواقف الأوروبية حيال هذه الأزمة اقترح مترنيخ Metternich في ضوء اتفاقه مع ممثلي القوى العظمى بما فيهم فرنسا وروسيا، توجيه مذكرة موجزة للباب العالي يوقع عليها سفراء هذه الدول في الأستانة تطلب منه عدم اتخاذ أي قرار بشأن الأزمة الشرقية[٦]، وتم ذلك في ٢٧ تموز ١٨٣٩ وجاء فيها: **(يسر السفراء الموقعين أدناه أن يُعلموا وزير الباب العالي، طبقاً للتعليمات التي تلقوها من حكوماتهم، بأن اتفاق الدول الخمس الكبرى بشأن القضية الشرقية أمر أكيد ويرجون الباب العالي ألا يتخذ مطلقاً أي قرار نهائي بهذا الشأن دون مساهمتها، وأن يترقب تدابيرها العطوفة)**[٧].

---

(١) حجار، مرجع سابق، ص١٦٦. لم تكن فرنسا ترغب في أن يحصل محمد علي على الاستقلال التام عن الدولة العثمانية، ولا أن يكون تحت السيطرة الفعلية والمباشرة لها. وانظر: - Anderson, op. cit, p. 97.

(٢) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٣.

(٣) المرجع نفسه، ١٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص١٦٥-١٦٧.

(٥) حجار، مرجع سابق، ص١٦٦.

(٦) رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص١٦٨.

(٧) المرجع نفسه، ص١٦٧.

شكلت هذه المذكرة نقطة تحول مهمة في سير المفاوضات، وكانت صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الدولية ولا سيما في تاريخ التدخل الأوروبي الفعلي في مصر وبلاد الشام، فتحولت القضية بموجب هذا إلى قضية أوروبية[١].

٣- المفاوضات الأوروبية ونتائجها حول الأزمة المصرية- العثمانية (١٨٣٩-١٨٤١).

أ- من مذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩ حتى مؤتمر لندن ١٥ تموز ١٨٤٠ .

لم يحقق النصر الحاسم لقوات محمد علي في نزيب نهاية النزاع بينه وبين السلطان العثماني، بل أصبح البداية لمرحلة جديدة للأزمة الشرقية[٢]، فقد شكلت هزيمة العثمانيين فرصة لا تعوض لتدخل القوى الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، في شؤون الدولة العثمانية والمشرق العربي[٣].

فقد خشيت الدول الأوروبية، ما عدا روسيا[٤]، من المفاوضات المباشرة بين طرفي النزاع[٥]؛ لأن هذا يعني أن الأزمة ستنتهي بعيداً عن رعاية هذه الدول، وتصبح مصالحها في خطر، فالباب العالي سيرتمي في أحضان روسيا مرة أخرى، وتبقى الإمبراطورية العثمانية تحت الوصاية والنفوذ الروسي[٦]، كانت روسيا تحبذ إلى حدٍ ما سياسة "الحفاظ على الوضع الراهن"[٧]؛ لذا فقد رأت هذه الدول أن تتفق فيما بينها على البحث في شؤون الشرق للوصول إلى إتفاق شامل[٨].

أراد مترنيخ Metternich من مذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩، أن يحافظ على الوضع القائم، ويمنع الباب العالي من إظهار الضعف والمساومة مع الوالي المصري، وهو المعروف بفلسفته التي تنادي بمناصرة الحاكم ضد الثورات والحركات التحررية[٩]، لكن مجريات الأحداث

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٢-١٧٣.

[٢] حجار، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٣] دولينا، مرجع سابق، ص١٠٦. النواصرة، مرجع سابق، ص٢٣٠.

[٤] الخازن، فيليب وفريد، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة١٨٤٠ إلى سنة١٩١٠، دار الرائد اللبناني، الحازمية- لبنان، ط٢، المجلد الأول، ١٩٨٣، ص٣١. حجار، مرجع سابق، ص١٦٦. دولينا، مرجع سابق، ص١٠٦.

[٥] حجار، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٦] المرجع نفسه، ص١٥٠.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢ ، ص١٦٨.

[٨] حجار، مرجع سابق، ص١٦٧. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٢. بازيلي، مصدر سابق، ص٢٠٩-٢١٠.

[٩] حجر، مرجع سابق، ص٥٣.

والمفاوضات الدبلوماسية جعلها تحظى بأهمية سياسية وتاريخية[١]، فقد أصبحت بمثابة صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الدولية، وتاريخ مواقف الدول الأوروبية، وتدخلها في شؤون "الشرق الأدنى"[٢]، ومن جهة أخرى منعت هذه المبادرة أي اتفاق ممكن بين طرفي النزاع في الشرق، كما أنها ألزمت الدول الأوروبية بضرورة الاتفاق على فرض حلٍّ ملزم[٣]، وبذلك تحولت الأزمة الشرقية إلى قضية أوروبية، وأصبح مصطلح "المحافظة على استقلال ووحدة الإمبراطورية العثمانية" العنوان العريض للسياسة الأوروبية في "الشرق الأدنى"[٤]، ولكن ما سر هذا المصطلح، المصطلح، وهذا الاهتمام الأوروبي !!؟.

لم تكن المسألة الشرقية بالنسبة لأوروبا مجرد أزمة بين والٍ متمرد، وسلطان حاكم، بقدر ماكانت قضية أراضٍ شاسعة، وبحار ومضايق بحرية دولية في غاية الأهمية استراتيجياً واقتصادياً؛ ولأن المنطقة التي حلم محمد علي في بناء إمبراطوريته عليها منطقةٌ محورية ترتبط فيها مصالح دولية وأوروبية شديدة التناقض[٥].

وكانت مذكرة ٢٧ تموز للباب العالي فرجاً[٦]، من حيث لا يدري، أما محمد علي فقد ذُهل من توقيع فرنسا عليها، وهي التي طالما أظهرت دعمها وتأييدها لمحمد علي لمواجهة النفوذ البريطاني والروسي في الشرق[٧]، كما كانت الموافقة الروسية أيضا أمراً محيراً. فكيف يمكن فهم موقف البلدين!!؟.

يظهر الموقف الفرنسي واضحاً في رسالة أرسلها، فيما بعد، تيير[٨]Thiers رئيس الحكومة ووزير خارجية فرنسا االذي استلم السلطة خلفاً للمارشال سولت في آذار ١٨٤٠[١] إلى غيزو

---

[١] حجار، مرجع سابق، ص١٦٧.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٢-١٧٣.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٤] ماركس، كارل، المسألة الشرقية حول القوميات في الدولة العثمانية، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت ط١، ١٩٨٠، ص٧٦. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢٦. حجار، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٥] حجار، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٦] بازيلي، مصدر سابق، ص ٢١٠.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق،ج٢، ص١٧٤-١٧٥.

[٨] **تيير Thiers** (١٧٩٧-١٨٧٩): وُلد في مرسيليا عام ١٧٩٧ وتعلم في مدارسها واشتغل بالمحاماة، كان من الساعين لقلب نظام لويس العاشر في ثورة تموز ١٨٣٠، وفي عهد لويس فيليب عُيّن مأموراً للخزانة، ثم تولى وزارة المالية ثم نظارة الداخلية، ثم رئيسا للوزوراء مع الاحتفاظ بوزارة الخارجية حتى عام ١٨٣٦، ثم عاد إلى رئاسة الوزراء أوائل آذار عام ١٨٤٠، واستقال منها على خلفية المسألة المصرية. وأسهم في عزل لويس فيليب

Guizhou سفير بلاده في لندن في ٣ تشرين الأول ١٨٤٠ وجاء فيها أن فرنسا كانت تسعى إلى تحقيق هدفين اثنين هما: إيقاف تهديد محمد علي للعرش العثماني، وإبعاد روسيا عن حماية الدولة العثمانية مقابل وضعها تحت وصاية القوى العظمى[٢]. ومن جهة أخرى فهي تفادت العزلة حمايةً للمصالح البرجوازية الفرنسية في مصر وبلاد الشام[٣]، كما أن انفصال بلاد الشام سيكون نقطة تحول سياسي مثيرة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية؛ لأنها ستحرك خلايا انفصالية استقلالية عديدة كان أخطرها أقاليم حوض الدانوب التي تطمع فيها روسيا، في وقت لم يكن فيه التقارب الروسي الإنكليزي قد حدث بعد[٤].

أما الموقف الروسي فهو نابع من فكرة أن أي تسوية أو حل لا تشارك فيه روسيا سيفرض عليها العزلة، وسيؤدي إلى ضعف مركزها، ففضلت التضحية بمعاهدة هنكار أسكلة سي، التي أوشكت أن تنتهي مدتها، والبقاء في الصف الأوروبي من منطلق أن عليها؛ أي روسيا، كما يقول نيسلرود: **(أن تكون حاضرة في كل مكان للدفاع عن حقوقها وامتيازاتها في الشرق)**[٥].

واستغلت روسيا تناقض المصالح الفرنسية والبريطانية لإبعاد بريطانيا عن فرنسا ما أمكن[٦]، ولتبني حلفاً جديداً، إذ شكَّل هذا الحلف- حسب أحد الباحثين- مشهداً مدهشاً من مشاهد الصراع الدبلوماسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر[٧].

- **التنافر الفرنسي- الروسي:**

كان مترنيخ Metternich يأمل في إقراره لمذكرة ٢٧ تموز أن تحول دون انفراد روسيا في التدخل في هذه الأزمة، وأن يجعل من نفسه حكماً، وتكون فيينا مركز المفاوضات في هذه القضية[٨]، وكان يخشى أن تتجه الأمور نحو أزمة أوروبية- روسية إذا ماقامت فرنسا بالجمع بين قضية المضايق، وقضية محمد علي في قضية واحدة، وهو ما ستراه روسيا تحدياً لها[٩]، فقد كان المارشال سولت Sault مؤمناً بالخطر الروسي؛ لذا كان مصراً على سلامة البوسفور

في ثورة ١٨٤٨، ولم تكن علاقته جيدة بنابليون الثالث فقد عارض معظم سياساته، وتوفي عام ١٨٧٩. انظر: المحامي، مصدر سابق، هامش ص٤٦١-٤٦٢.

[1] Anderson, op. cit, p.100.

[٢] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٣٠.

[٣] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٣٩.

[٤] حجار، مرجع سابق، ص١٦٩.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٣.

[٦] المرجع نفسه، ص١٨٤.

[٧] حجار، مرجع سابق، ص١٧١.

[٨] المرجع نفسه، ص١٧٢.

[٩] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٧.

والدردنيل قبل كل شيء، واحتج نيسلرود Nislroode رداً على هذه الاتهامات، وأكد رؤية فرنسا لقضية الشـرق التي ترى أن (**المسألة الروسية قبل أن تكون المسألة العثمانية– المصرية**)(١).

ومهما يكن، فالفرنسيون يدركون خطورة دخول الأسطول الروسي إلى البوسفور، كما أن الروس يرون الأمر ذاته في وجود أسطول أجنبي في بحر مرمره، بل ويرونه عملاً عدائياً ضدهم، وضد الباب العالي(٢).

- **التقارب الروسي– البريطاني :**

سارت روسيا على طريق تخليّها عن معاهدة هنكار أسكلة سي، وهو ما أعلنه السفير الروسي في الأستانة بوتنييف، عندما وقَّع على مذكرة ٢٧ تموز(٣)، وهذ الأمر أثار حيرة الحكومات كما سبق، مما أدى إلى ظهور رغبة روسية– بريطانية في التقارب وذلك في سياق التنافس البريطاني– الفرنسي في البحث عن حلفاء(٤)، في عملية سادت فيها لعبة التنازلات والبحث عن مكاسب جديدة، وكان الأساس في ذلك إغلاق المضايق (البوسفور والدردنيل) أمام كلِّ السفن الحربية(٥).

أكد برونوف Bronov، المبعوث الخاص للقيصر الروسي، الذي وصل إلى لندن في ١٦ آب ١٨٣٩ هذا التقارب حول القضية الشرقية مقابل أن يكون إغلاق البوسفور والدردنيل مبدأً وقانوناً أوروبياً عاماً(٦)، إلى جانب تقديم روسيا برنامج عمل لا يستبعد استعمال القوة العسكرية ضد محمد علي كي يخضع لإرادة أوروبا(٧)، فهذه الحادثة كانت هي النواة والبداية لتحالف أوروبي سعى لتحقيق هدفين أساسين يشكلان الخطوط الكبرى للسياسة الأوروبية في الشرق في المرحلة اللاحقة وهما: إعادة بلاد الشام إلى حكم الدولة العثمانية، وإلغاء معاهدة هنكار اسكلة سي(٨).

وظلت فرنسا– التي سُيلحق هذا التحالف أضراراً كبيرة بمصالحها في الشرق– تحاول إقناع بريطانيا بالتخلي عن هذا التحالف، لكن بالمرستون Palmerston وبخلاف مواقف الحكومة

---

(١) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨١–١٨٢.

(٣) حجار، مرجع سابق، ص١٧٣.

(٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤–١٨٤١، مرجع سابق، ص١٨٦.

(٥) النواصرة، مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٦) حجار، مرجع سابق، ص١٧٥. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٤.

(7) Anderson, op. cit, p. 99,

– وانظر أيضاً: المحامي، مصدر سابق، ص٤٥٩.

(٨) حجار، مرجع سابق، ص١٧٥.

البريطانية، كان يرى في التنازل الروسي عن هنكار أسكلة سي إنجازاً مرحلياً أهم بكثير من إرضاء فرنسا، فلا يمكنه رفض هذه المبادرة من الروس(١).

أما النمسا فقد رضيت بهذا التقارب مع إبعادها عن دائرة الحدث، ولم يوصلها هذا إلى حد الانجرار مع التيار الفرنسي(٢)، مع أن مترنيخ Metternich كان يدرك نية نيسلرود Nislroode في طلب تعويضات من أوروبا مقابل العدول عن مزايا معاهدة أوشكت أن تنتهي مدتها أصلاً، لذلك فقد أوصى بالفصل بين المسألتين: المضايق، والمسألة المصرية- العثمانية(٣).

وحاول محمد علي في هذه المرحلة استعادة الحوار مع الباب العالي للوصول إلى حلول وسطية تقيهم جميعاً من التدخل الأوروبي، لكن وزير الخارجية العثمانية مصطفى رشيد باشا، والسفير البريطاني في الأستانة بونسونبي Ponsonby، والدبلوماسيين الروس في الإسكندرية وقفوا بالمرصاد في وجه أيِّ محاولة تفاهم أو تقارب بين السلطان ومحمد علي(٤). ومن جهة أخرى فقد أكد له القنصل الروسي التفاهم الروسي- البريطاني بصد أي تقدم محتمل لإبراهيم باشا نحو الأستانة، وبهذا يكون قد تم ضمان مصير الأستانة، وانتهاء مفعول هنكار أسكلة سي، وبقاء أزمة بلاد الشام فقط على طاولة المفاوضات في أوروبا(٥).

- **انتقال مركز المفاوضات من فيينا إلى لندن:**

كان من نتائج وصول المندوب الروسي إلى لندن أن انتقل معه النشاط الدبلوماسي الأوروبي من فيينا إلى لندن، فقد التقى فيها ثلاثة من كبار الدبلوماسيين في ذلك العصر وهم: بالمرستون Palmerston وبرونوف Bronov وسيباستياني Sebastiyany ، وهذا ما ترك أثراً سيئاً في نفس مترنيخ Metternich ، كما ظهر الشقاق الفرنسي- البريطاني كنجاح أولي لمسعى المبعوث الروسي(٦).

وفي الحقيقة كانت فرنسا في حيرة من أمرها(٧)؛ لأن انضمامها إلى الدول الأوروبية ومعاداة محمد علي تعني انتصاراً للسياسة البريطانية، والقضاء على المصالح الفرنسية، أما وقوفها إلى

---

(١) حجار، مرجع سابق، ص١٧٥. حجر، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢) حجار، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٣) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٥.

(٤) دولينا، مرجع سابق، ص١١٢. حجار، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٥) المرجع نفسه، ص١٧٦.

(٦) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٦- ١٨٧. وانظر:

- Anderson, op. cit, p. 98-99.

(7) Marriott, op. cit, p.240.

الجانب الآخر فيعني عزلها عن السياسة الأوروبية، وتدهور مصالحها في الشرق إذا ما فشل محمد علي[١].

ودخل النزاع العثماني– المصري مرحلة حاسمة عندما وصلت العلاقة بين فرنسا وبريطانيا إلى مرحلة القطيعة، وبدخول بريطانيا وروسيا مرحلة التحالف مع بقاء كل من النمسا وبروسيا تدوران في فلك التحالف الروسي– الإنجليزي، لتبدأ مرحلة شاقة من المفاوضات، وبقاء فرنسا كطرف معارض وصل إلى حد تهديد السلم الأوروبي[٢]، مع وصول حكومة تيير Thiers إلى الحكم بعد سقوط حكومة المارشال سولت Sault في نهاية شباط ١٨٤٠[٣]، وسبق هذا بعدة أيام وصول غيزو Guizhou إلى لندن سفيراً لبلاده في أوائل شباط، بعد أن ظهر عنصران جديدان في هذه المرحلة هما: دور بروسيا المتصاعد في الأزمة الشرقية، وإعلان "خط كلخانه" في تشرين الثاني ١٨٣٩[٤] التي نعتها محمد علي بالعمل الدعائي الذي يستهدف الرأي العام الأوروبي، وهو يقوم بذر الرماد في العيون[٥].

لم يكن لبروسيا، حتى ذلك الحين– عدا بعض اتفاقيات الصداقة والتجارة[٦]– أي مصالح سياسية أو اقتصادية كبيرة في الإمبراطورية العثمانية، ومع التمثيل القنصلي البروسي الضعيف في الإسكندرية، فإن دور بروسيا لم يكن ممكناً تجاهله في مسألة التوازن الأوروبي؛ لذا عملت بقية القوى على كسب ودِّها ودراسة ردة فعلها، وإن كان ذلك ضمن نطاق محدود، فدخلت بذلك إلى صف القوى العظمى، لتتصدر لائحة الأحداث العالمية في مراحل لاحقة؛ أي أواخر القرن التاسع عشر[٧].

– **محور الخلاف الفرنسي– البريطاني :**

ظهر الاختلاف في وجهات النظر الفرنسية–البريطانية حول القضية العثمانية–المصرية، عندما سعت بريطانيا لحرمان محمد علي باشا من كل فتوحاته وإعادته إلى حدوده الأصلية في مصر، وكانت فرنسا ترفض ذلك بشدة[٨]. وبعد هزيمة نزيب اقترحت بريطانيا استعادة الأسطول

---

(١) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٩١.

(٢) حجار، مرجع سابق، ص١٧٧.

(٣) النواصرة، مرجع سابق، ص٢٤٠.

(٤) حجار، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٥) المرجع نفسه، ص١٨١.

(٦) سنو، مرجع سابق، ص٢١.

(٧) حجار، مرجع سابق، ص١٧٩–١٨٠.

(٨) المحامي، مصدر سابق، ص٤٥٨.

العثماني من يد محمد علي بالقوة، لكن فرنسا أَبَت ذلك خشية تجدد القتال[١]، فشكل ذلك بداية الغضب البريطاني الفعلي على محمد علي، وبدء الخلاف مع فرنسا[٢]. فقد كان بالمرستون Palmerston يريد تحجيم دور محمد علي وحصره في وادي النيل فقط، ولو باستعمال القوة[٣]؛ لأن طموح محمد علي كان يربك مشاريع بريطانيا التوسعية- الاستعمارية[٤]. بينما دعت فرنسا إلى حقِّه في امتلاك بلاد الشام ومصر وراثياً، تماشياً مع مصالحها ومناطق نفوذها[٥]. وكان محمد علي يشعر بخطورة الإجماع الأوروبي مع معارضة فرنسا لهذا الإجماع، لذلك حاول جاهداً إقناع خسرو باشا (الصدر الأعظم) في رسالة سرية في ٢٣ شباط ١٨٤٠ بضرورة الاتفاق، كي لا تخضع كل من الدولة العثمانية ومصر لإرادة أوروبا ومصالحها، لكن خسرو باشا أطلع ممثلي القوى العظمى على هذه الرسالة، وسارع إلى تعيين نوري أفندي مندوباً عن السلطان ومنحه صلاحيات واسعة، وهو ما كان بالمرستون Palmerston ينتظره بفارغ الصبر فهو "**لا يحتاج سوى إلى يده للتوقيع في ذيل الاتفاقية التي نحررها**" على حدِّ تعبير المفوض النمساوي[٦].

في الواقع من الضروري تحديد ما أمكن من العوامل التي تسلح بها المتفاوضون؛ ولأنه من الصعوبة بمكان تحديد جميع العوامل الأوروبية الخفية التي تحكمت بسير المفاوضات، يكفي الوصول إلى تحديد الأطر التي انطلقت منها عناصر التفاوض[٧].

ظلت الحكومة الفرنسية برئاسة تيير Thier – التي حملت عبأ مذكرة ٢٧ تموز، ووزرها عن سلفها- تناصر مطالب مصر؛ إذا قام السفير الفرنسي الجديد في الأستانة الكونت بونتوا Pontoise الذي عين بدلاً عن الأميرال روسان Rosan ، بالرجوع عن توقيع مذكرة ٢٧ تموز[٨]، بعد أن ندمت فرنسا على التوقيع عليها بعد التقارب الروسي الإنجليزي[٩]، كما حاول غيزو Guizhou، الذي عُين بدلاً عن سيباستياني Sebastiany إقناع القوى العظمى المشتركة

---

[١] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص١٨٥-١٨٦.

[٢] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٣١-٣٢ .

[٣] حجار، مرجع سابق، ص١٨٣-١٨٤.

[٤] حجر، مرجع سابق، ص٥٤. رنوفان، مرجع سابق، ص١٣١.

[٥] دولينا، مرجع سابق، ص١٠٨. حجر، مرجع سابق، ص٥٣.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص١٨٦.

[٧] المرجع نفسه، ص١٨٧.

[٨] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٦.

[٩] المرجع نفسه، ص٢٠٠.

في التفاوض بمنح محمد علي حكماً وراثياً في مصر وبلاد الشام[١] وبشكل لا يخلو من التناقض بين فكرتين: الأولى: هي أن محمد علي "الباشا العجوز" لا يستحق قلق أوروبا واهتمامها، أما الثانية: وهي أن محمد علي هو الرجل الأصلح والأنسب للحفاظ على وحدة وسلامة الإمبراطورية العثمانية، رداً على ادعاءات بالمرستون Palmerston بضرورة الحفاظ على سلامة الإمبراطورية، في الوقت الذي تشكل حليفته روسيا الخطر الذي يهدد سلامة الإمبراطورية في كل حين[٢]، ففي مذكرة سلمها غيزو Guizhou إلى بالمرستون Palmerston في ٢٤ تموز ١٨٤٠يذكر فيها أن **(فرنسا لا ترى ذلك موافقاً لجلالة السلطان، لأنه يؤول إلى إعطائه ما لا يستطيع تولي إدارته أو حفظه. ولا تعده موافقاً للدولة العثمانية بوجه العموم ولحفظ التوازن الأوروبي خاصة، إذ يضعف دون فائدة للسلطان أميراً تابعاً يمكنه أن يساعد كثيراً في الدفاع عن السلطنة)**[٣].

كما حاول تيير Thiers نفسه مخاطبة محمد علي بشكل موضوعي، كي لا يستمر في رفض الشروط الأوروبية أن "**محمد علي باشا يقنع نفسه عبثاً أن يبهر أوروبا باستعداداته الحربية**" في حين أن الأهالي في بلاد الشام يشْكُون من حكمه، وقد تندلع ثورتهم في أي لحظة، كما زعم[٤].

ومن جهة أخرى سعى مترنيخ Metternich لإيجاد أي اتفاق ممكن بين الباب العالي ومحمد علي، فدعا بروسيا للاشتراك في الأمر إلا أن بروسيا لم تكن متحمسة بما فيه الكفاية، ولكنها؛ أي بروسيا حاولت مع النمسا القيام بالوساطة لتقريب وجهات النظر بين كل من فرنسا وبريطانيا، وذلك "باقتسام" بلاد الشام بين طرفي النزاع، ليكون ذلك حلاً وسطياً[٥].

في الواقع لم يقدّم محمد علي أي تنازلات حقيقية، غير تلك الرسالة التي أرسلها مع موفده إلى الأستانة، بمناسبة ولادة ابنة للسلطان مع هدية قيمة، وطلب فيها منحه حكم مصر وبلاد الشام مقابل خراج يحدد مقداره الباب العالي، ويبدو أن السلطان قبل الهدية لكنه رفض الاقتراح، وذلك بتحريض من السفير الإنكليزي في الأستانة[٦]، في حين أن المندوب العثماني الجديد في

---

[١] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص١٨٩.

[٢] حجار، مرجع سابق، ص١٨٧.

[٣] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص١٤.

[٤] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٤١.

[٥] حجار، مرجع سابق، ص١٩٠-١٩١.

[٦] بازيلي، مصدر سابق، ص٢٢٧-٢٢٨.

لندن شكيب أفندي كان مستعداً لتقديم كل التنازلات في سبيل إتخاذ أوروبا قرارات نهائية وعاجلة في القضية العثمانية– المصرية[١].

- **الانتفاضة اللبنانية الأولى في أيار ١٨٤٠:**

في الواقع كانت الأحداث على الأرض هي التي تقرر اتجاه المفاوضات الأوروبية، فقد حسمت الأخبار الواردة إلى بالمرستون Palmerston أمر صياغة الاتفاق النهائي بين المتفاوضين بعد أن حقق عملاء الإنكليز الهدف بحثّ اللبنانيين المتذمّرين على التمرد ضد سلطة محمد علي[٢]، بعد أن كان للمتذمرين جملة من الأسباب الداخلية، ولاسيما فيما ما يتعلق منها بالسياسة الضرائبية القديمة الجديدة، والتجنيد الإجباري، ونظام السخرة، وجمع السلاح، واستياء أمراء لبنان من احتكار بشير الثاني للسلطة، مما أدى إلى اندلاع الثورة في جبل لبنان[٣]. تلك الانتفاضة اللبنانية التي جاءت نتيجة طبيعية لسياسة العنف والاستغلال، وفرض الضرائب المرهقة التي فرضها إبراهيم باشا على السكان في بلاد الشام[٤]، واستغلها العثمانيون[٥] والأوروبيون مطلقين الجواسيس والعملاء الذين حرضوا سكان جبل لبنان على المضي في الثورة، وقدموا لهم المال والسلاح والعتاد[٦].

وكانت فرنسا تدرك تصرفات بريطانيا المتناقضة والمزدوجة، وأعلمتها باستغرابها؛ لأن بريطانيا تريد إحلال السلام في الشرق، وتعمل على تغذية التمرد بالمال والسلاح ضد الحكم

---

[١] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤–١٨٤١، مرجع سابق، ص١٩٢.

[٢] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٣٠٦.

[٣] مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، مصدر سابق، ص١٢٢–١٢٣. الخازن، مصدر سابق، ج١، ص٣–٤. سمحات، مرجع سابق، ص٥١. النواصرة، مرجع سابق ص٢٤٦.

[٤] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٣٠٤–٣٠٥.

[٥] ففي وثيقة صادرة عن القسطنطينية إلى ولاية حلب في جمادى الأول عام ١٢٥٦ وهو بلاغ صادر عن حكومة السلطان إلى المسؤولين والمواطنين في ولايات (مصر والشام وصيدا) عن خيانة والي مصر لسعيه الإنفصال عن الدولة العثمانية وتوجيه نداء للمواطنين بضرورة الحذر واليقظة. انظر: دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد (٥٠)، الوثيقة رقم ٥٨.

[٦] رستم، المحفوظات المكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٣٢١، ص٣٦٧–٣٦٩، الوثيقة رقم ٦٣٢٤، ص٣٧١، الوثيقة رقم ٦٣٢٩، ص٣٧٦–٣٧٧، الوثيقة رقم ٦٣٣٨، ص٣٨٠–٣٨١ خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢١–٢٢٢. ومن هؤلاء العملاء ريتشارد وود الذي حضر إلى كسروان بحجة رغبته في تعلم اللغة العربية، إلا أنه في الواقع كان يعمل على استثارة اللبنانيين ضد حكم محمد علي باشا. انظر: مشاقة، ميخائيل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص١٤٠. حجار، مرجع سابق، ص١٩٤. وانظر أيضاً:

- Tibawi, op. cit, p. 92.

المصري[١]، إضافة إلى الدور الذي قام به القناصل والإرساليات التبشيرية في تأجيج نار هذه الثورة فقد أصبح جبل لبنان في أواخر حزيران ١٨٤٠ جاهزاً لإعلانها[٢]، وكانت الدول الأوروبية ترى فيها الفرصة المناسبة للتدخل؛ لإعادة بلاد الشام إلى السلطان بحجة أن محمد علي قد أخفق في إدارة البلاد الشامية[٣].

- **مؤتمر لندن ١٥ تموز ١٨٤٠:**

أدرك بالمرستون Palmerston ، وممثلو القوى العظمى في لندن أن فرنسا تماطل لكسب الوقت للتوصل إلى اتفاق بين السلطان ومحمد علي حتى تفوت على هذه الدول عقد اتفاق بينها لحل الأزمة الشرقية ، وتنسف بذلك مذكرة ٢٧ تموز[٤]. كما أدرك أن نجاح التدخل الأوروبي في بلاد الشام يكمن في زعزعة استقرار محمد علي فيها[٥]، ليقف عاجزاً عن التصدي لأي هجوم محتمل تقوم به القوى الأوروبية، لذا كان للتقارير التي أرسلها العملاء دور حاسم في تعجيل توقيع اتفاق لندن[٦].

وتمت الاجتماعات التحضيرية بين ٤ و٨ تموز، وكان غيزو Guizhou قد أبلغ حكومته في ١١ تموز أن المتفاوضين يضعون اللمسات الأخيرة على المعاهدة التي عرفت (بمعاهدة التحالف الرباعي)، وقد تم التوقيع عليها في ١٥ تموز ١٨٤٠ الساعة السادسة مساء[٧].

وكانت معاهدة لندن تعدّ فوزاً كبيراً للسياسة البريطانية[٨]؛ إذ دعت هذه المعاهدة في بنودها الخمسة إضافة إلى الملحق والبروتوكول السري المضاف[٩] إلى حلٍّ نهائي لأزمة الشرق[١٠]، وتم

---

[١] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٤٨.

[٢] حجار، مرجع سابق، ص٢٤٨.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢١٨.

[٤] كامل، مصطفى المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، مصر، ط١، ١٨٩٨م، ص٩٦-٩٧. حجر، مرجع سابق، ص٥٧. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٣٦.

[٥] كامل، مصدر سابق، ص٩٧.

[٦] دولينا، مرجع سابق، ص١١٣-١١٤.

[٧] حجار، مرجع سابق، ص١٩٥-١٩٦. وقد ورد في المحفوظات الملكية مضمون رسالة أرسلها محمد علي إلى إبراهيم باشا يشير فيها إلى أن سفينة فرنسية قد تحركت إلى الاسكندرية خصيصاً لتنبيه الحكومة المصرية من قرارات مؤتمر لندن، ومن تطور المواقف الدولية وإمكانية نزول العساكر الانكليزية إلى الشاطئ الشامي. انظر: رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٤٠٦، ص٤٢٤.

[٨] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤١.

[٩] انظر: الملاحق، الوثيقة رقم ١٦، ص٣٤٦-٣٤٧.

[١٠] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٤٠.

فيها تحديد مصير بلاد الشام، ومصير محمد علي[١] على شكل فرصتين قُدمًا له كعروض وهما كما يصفهما صاحب كتاب (مشهد العيان بحوادث بلاد الشام ولبنان) أقربُ إلى التهديد منها إلى صيغة العروض[٢]، فضلاً عن تحديد مهلة زمنية لتنفيذ بنودها، وجواز استعمال القوة في حال رفض محمد علي الالتزام بها[٣].

وفي دراسة لنص المعاهدة يتبين أن الدول الأوروبية التي صاغتها تشير إلى توجه السلطان العثماني إلى هذه الدول **(بطلب العون والمساعدة، فيما يعانيه بفعل عداء محمد علي باشا من صعوبات، وشدائد تهدد سلامة الإمبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان)**[٤]، كما أن هذه الدول تستند في تداخلها إلى "**وفائها للصداقة الخالصة**"، ورغبتها "**رغبة صادقة**" في سلامة واستقلال الإمبراطورية العثمانية؛ لاستقرار السلام في أوروبا[٥].

لقد فرضت معاهدة لندن حدوداً لسلطة محمد علي في إطار الإمبراطورية العثمانية الموحدة، وذلك بتعهد حكومات هذا التحالف بإجبار محمد علي الموافقة على المعاهدة باستخدام وسائل الضغط المتفق عليها[٦]. فقد عُهد إليه على أنها "عرض" من السلطان العثماني إدارة ولاية مصر وراثياً، أما ولاية عكا وجنوبي بلاد الشام فتركت له مدى الحياة فقط، وعليه إعادة الأسطول العثماني والانسحاب من بلاد الشام فوراً، والالتزام بكل القوانين والمعاهدات التي سنها وعقدها الباب العالي[٧]، كما طرحت في هذه المعاهدة فيها قضية إغلاق المضايق أمام السفن الحربية الأجنبية وحمايتها من كل اعتداء[٨].

---

[١] مطر، مصدر سابق، ص١١٤.

[٢] مشاقة، ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، تحقيق ملحم خليل عبدو واندراوس حنا شخاشيري، مصر، د.ط، ١٩٠٨، ص٢٤٠.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٤٠-٢٤١. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 241.
- Tibawi, op. cit, p. 92.

[٤] انظر الملاحق، الوثيقة رقم ١٦، ص٣٤٦-٣٤٧.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق ، ج٢، ص٢٨٠. ويشير صاحب تاريخ حوادث الشام ولبنان إلى اتفاق دولي في لندرة (لندن) لإخراج محمد علي من بلاد الشام. انظر: مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي، مصدر سابق، ص٨٢، ١٤٩.

[٦] دولينا، مرجع سابق، ص١١٥.

[٧] حجار، مرجع سابق، ص١٩٦-١٩٧. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٤-٢٨٥. وانظر:

- Anderson, op. cit, p. 101.

[٨] دولينا، مرجع سابق، ص١١٥. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٣. كامل، مصدر سابق، ص٩٧.

وكان ذلك مرفقاً بمهلة زمنية لتنفيذ هذه الاتفاقية محددة بعشرة أيام في العرض الأول، فإذا رفضها محمد علي، ستقتصر المهلة اللاحقة– ومدتها عشرة أيام أيضاً– على منحه ولاية مصر فقط دون بلاد الشام الجنوبية، فإذا رفضها أيضاً، ستتخذ دول المعاهدة بحقه الإجراءات اللازمة حسب المتفق عليه[١].

وجاء في البروتوكول السري، أن هذه التدابير المتفق عليها والمتعلقة بمسألة المهلتين الممنوحتين لمحمد علي، يجب أن تنفذ في الحال بدون انتظار تبادل الوثائق التي تقّر ذلك، نظراً لبعد المسافة بين المتفاوضين الموقعين وعواصم بلادهم[٢].

ب– من مؤتمر لندن حتى خروج محمد علي من بلاد الشام.

- **مواقف الدول الأوروبية من معاهدة لندن:**

ادّعى بعض الدبلوماسيين الأوروبيين مثل بالمرستون Palmerston ومترنيخ Metternich أن الغاية من معاهدة لندن معالجة الأخطار المحتملة الناجمة عن الأزمة الشرقية التي قد تؤثر في السلم الأوروبي، وبأنهم يتأسفون لعدم اشتراك فرنسا في الحل النهائي، مع أن المعاهدة تستند إلى المقترح الذي تقدم به سيباستياني Sebastiyany السفير الفرنسي لحكومة فرنسا في لندن أيام حكومة المارشال سولت Sault[٣].

أما نيسلرود Nislroode فقد أبدى ارتياحه لمقررات لندن ولانهيار العلاقات البريطانية–الفرنسية[٤]، في حين أن مترنيخ Metternich لم يُخف مخاوفه من التحرك الفرنسي الذي قد يؤذي مصالح النمسا وممتلكاتها في شمال إيطاليا[٥]، كما حافظت بروسيا على تضامنها مع أوروبا بشرط بقائها على الحياد في حالة الحرب، إلى جانب مراقبتها لتهديدات تيير Thiers بجدية، وحرصت على تأكيد الصداقة والسلم مع فرنسا على مبدأ "الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية"، أما بالمرستون Palmerston، ومثله نيسلرود Nislroode، لم يأبها لِتهديدات فرنسا بشن الحرب[٦].

---

[١] بازيلي، مصدر سابق، ص٢٣١. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٤–٢٨٦.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٨٦–٢٨٧.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٤٢–٢٤٣. حجار، مرجع سابق، ص١٩٢.

[٤] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢٠. حجار، مرجع سابق، ص١٩١.

[٥] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٤٩.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٣. حجار، مرجع سابق، ص١٩٧–١٩٨. ففي رسالة من بالمرستون إلى اللورد بونسونبي بتاريخ ٢٧ تشرين الأول ١٨٤٠، عرض فيها بأن فرنسا لن تؤيد محمد علي بقوة السلاح لأنها ستتعرض لمواجهة الدول العظمى الأربع، ولأن قوة جيشها لن يضاهي قوة جيوش هذه الدول، عدا

وكانت لمعاهدة لندن وقع سيء على المستويين الرسمي والشعبي في فرنسا[١]، وكان مجلس النواب الفرنسي يرى كل تضارب في المصالح بين بريطانيا وفرنسا بمثابة عدم إمكانية المقاربة بين "الرجعية البريطانية"، وأهداف السياسة الفرنسية "التقدمية المتحررة"، وكان هذا يشكل دافعاً قوياً لتوحيد الرأي العام للضغط على تيير Thiers لتعبئة عسكرية[٢].

ومن جهة أخرى، كان لمواقف الجاليات الأجنبية التجارية المستاءة من السياسة البريطانية[٣]، إضافة إلى أن بالمرستون Palmerston لم يكن يحظى بالدعم الكامل من مجلس العموم، وأيضاً من رئيس الحكومة البريطانية اللورد ملبورن Melbourn ، ما دفع بتيير Thiers إلى تشجيع محمد علي لمجابهة التحالف الأوروبي[٤] وللبقاء على موقفه، مع تجنب الهجوم على الأناضول كي لا تكون ذريعة للتدخل الروسي، وبأن يحافظ محمد علي على بلاد الشام مهما كلفه ذلك من ثمن، كما أرسل تيير Thiers مبعوثاً خاصاً لهذه المهمة، وهو السيد فاليوسكي Valewski، إلى جانب كوشيليه Kochelet القنصل الفرنسي في الإسكندرية، وكل هذا دون أن يعطي محمد علي أي وعد بتقديم أي مساعدة عسكرية[٥].

وإذا عدنا إلى بلاد الشام، نجد أن قوات محمد علي أحكمت سيطرتها على الموقف هناك، وأخمدت الثورة اللبنانية الأولى التي أسهمت دول المعاهدة في التحريض عليها وتمويلها بواسطة عملاء جنّدتهم لهذه المهمة[٦]، كما أن الطرق السلمية المتاحة في المعاهدة لحل الأزمة قد فشلت، كل هذا استدعى من دول المعاهدة اللجوء إلى استعمال القوة[٧].

وكان محمد علي قد أذهل القناصل والسياسيين الأجانب بهدوئه وثقته، أما القنصل البريطاني "هودجز Hodges" فقد أدرك خطورة الموقف والخطأ الجسيم في سياسة محمد علي

عن أن استقالة المسيو تيير قد أكدت هذا الإتجاه. انظر: العطار، نادر، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ج١، لا يوجد دار نشر، د.ن، د.ط، د.ت، ص٢٨٤.

[١] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص١٩٥. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٤٧.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٥٠.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥١. مع العلم أن مواقف الجاليات التجارية وبعض الفئات المعارضة من مجلس العموم البريطاني، لم تؤثر أبداً في القرار السياسي الأوروبي، ولم تجد لها صدى في الأوساط الدبلوماسية. انظر: حجار، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٥] حجار، مرجع سابق، ص١٩٩. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥١-٢٥٢.

[٦] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٣٠٧. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص١٠-١١. سمحات، مرجع سابق، ص٢٦٣.

[٧] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٢.

بعد أن أشار إلى عزيمته على بناء كل هذا المجد في نصف قرن باعتماده الحكمة والواقع، وها هو الآن يقف وحيداً بوجه أوروبا مجتمعة[١]. وفي الحقيقة فإن محمد علي كان يعتقد أن القوى الكبرى لن تتفق على صيغة واحدة ضده، فهو توقّع أن لا تجازف روسيا بالامتيازات والمكاسب التي حققتها على الأرض في معاهدة هنكار أسكلة سي، وترسخ هذا الاعتقاد بالدعم المتواضع الذي قدمته فرنسا له في هذه الأزمة[٢].

وفي الأستانة اختار الباب العالي رفعت بك مندوباً عن السلطان ليعرض على محمد علي بنود اتفاقية لندن، التقى المندوب العثماني محمد علي في ١٦ آب ١٨٤٠، ورفض محمد علي كل تلك المطالب والعروض جملةً وتفصيلاً مع محاولة القناصل على حَثِّهِ لقبول شروط المعاهدة، لكن الباشا أبى وأعلن بأنه لن يتنازل عن شبر واحدٍ من ممتلكاته[٣]، وباشر بعدها باستعداداته الحربية، واستدعى تشكيلات إضافية من اليمن والحجاز[٤]، وطلب من إبراهيم باشا الاستعداد وجمع السلاح الذي كان قد وزعه بواسطة الأمير بشير الشهابي على مسيحيي جبل لبنان أثناء الثورة الدرزية[٥].

- **الانتفاضة اللبنانية الثانية في أيلول ١٨٤٠:**

كان بالمرستون Palmerston يخشى أن يتحرك محمد علي باتجاه الأستانة؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تحرك روسي نحوها، لكن هودجز Hodges قنصله في الإسكندرية، أكد له أن محمد علي لا يفكر بمهاجمة الأستانة[٦]. وكان الحلفاء قد رفضوا جميع الوساطات لتقريب وجهات النظر بين فرنسا ودول التحالف، كما أن بالمرستون Palmerston اقتنع تماماً بأن تيير Thiers غير جاد في الدفاع عن محمد علي[٧]. عندها رغب بالمرستون Palmerston في الإسراع بتنفيذ بنود الاتفاقية خوفاً من مضاعفات دولية تعقد الأمور، لذا كتب إلى مترنيخ Metternich في ١٦ تموز ١٨٤٠ لينضم قائد الأسطول النمساوي في المتوسط إلى الأسطول البريطاني لدعم الحصار على السواحل السورية والمصرية[٨]، وما أن رأى اللبنانيون الأسطول الأوروبي بالقرب

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٥.

[2] Tibawi, op. cit, p. 91.

[٣] رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٤٤٤، ص٤٣٣. حجار، مرجع سابق، ص٢٠٢-٢٠٤. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٨.

[٤] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٤٩.

[٥] النواصرة، مرجع سابق ، ص٢٤٦.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٩.

[٧] المرجع نفسه، ص٢٦٣.

[٨] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٤٥.

من السواحل حتى اشتعلت الثورة من جديد[1]؛ لأن عمليات التحريض التي يقوم بها ريتشارد وود Richard Wood لا تزال مستمرة، وتزامن هذا مع عملية إبراهيم باشا في جمع السلاح التي أمر والده بها[٢].

وكان ريتشارد وود Richard Wood قد اتصل ببشير قاسم ملحم شهاب منذ عام ١٨٣٦، بعد أن رفض بشير الثاني التعاطي مع وود هذا، واتفقا على أن يتزعم بشير قاسم الانقلاب بشرط أن يوفر وود السلاح، أما والآن فقد عرض وود عليه الحكم، فقبل بشير قاسم وبدء يدعو للثورة ضد بشير الثاني والحكم المصري[٣]. وحاولت فرنسا مراراً وضع حدٍّ لعصيان الموارنة في لبنان، فقد رغِبت في تجنب نشوب ثورة في هذا الوقت؛ إذ تمّت إقالة القنصل بوريه لما أبداه من تأييد للثوار، كما كانت تريد الحفاظ على علاقاتها مع الموارنة، ولكنها لم تكن لترضى منهم بالتمرد ضد الحكم المصري[٤].

- **التدخل العسكري.**

بعد أن رفض محمد علي بنود معاهدة لندن، وانتهت المهلة الأولى ولم يبقَ من المهلة الثانية لقبول حكم مصر إلا عدة أيام، شاور أركان دولته واستدعى ممثل السلطان، وقناصل الدول الأوروبية في أول أيلول وأبلغهم أنه قرر قبول الحكم الوراثي على مصر بشرط أن يحاول لمرة أخيرة أن يطلب من السلطان حكم بلاد الشام مدى الحياة، فبدت للحظة، وكأن الأزمة أوشكت أن تنتهي، إلا أن المندوب العثماني والقناصل طلبوا تنفيذ بندين أساسيين من معاهدة لندن أولاً؛ لأن نصوصها واضحة وصريحة ولا تقبل التأويل، إذ يجب إعادة الأسطول العثماني والجلاء عن بلاد الشام فوراً، لكن محمد علي أصرَّ على أن ينتظر ردَّ السلطان أولاً، فوصلت المباحثات إلى طريق مسدود[٥]، وبعد عدة أيام من التأمل والتفكير خرج محمد علي معلناً عدم قبوله أيَّ عرض أو شرط وأبلغ القناصل قراره الأخير هذا[٦].

---

[1] Anderson, op. cit, p. 103.

[٢] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٣١١-٣١٢. تشرشل، تشارلز هنري، بين الدروز والموارنة، ترجمة فندي الشعار، دار المروج، د.ن، د.ط، ١٩٨٤، ص٢٦. حجار، مرجع سابق، ص٢٠٣. رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٤٩٩، ص٤٤٥.

[٣] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٢٠١.

[٤] حجار، مرجع سابق، ص٢٠١-٢٠٢. وتشير الكثير من الوثائق الواردة في المحفوظات الملكية المصرية إلى تحرك القنصلية الفرنسية بهذا الاتجاه من دون ذكر اسم بوريه هذا. انظر: رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٣٢١، ص٣٦٨، الوثيقة رقم ٦٣٣٩، ص٣٨١-٣٨٣، الوثيقة رقم٦٣٩١، ص٤١٧-٤١٨.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٦١.

[٦] المرجع نفسه، ص٢٦٢. مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، مصدر سابق، ص١٤١.

بعد أن استعرت نار الثورة اللبنانية[١]، وبعد توجيه رسائل الإنذار، ومحاولات الرشوة إلى الحكام والقادة الميدانيين في جيش محمد علي[٢] قامت السفن الحربية البريطانية في ٩ أيلول بقصف مدينة بيروت، وفي ١١ أيلول تم إنزال قوات التحالف وقوات الدولة العثمانية على الساحل اللبناني وانضم إليهم الثوار اللبنانيون بعد أن اتسع نطاق الثورة[٣].

وفي هذه الأثناء وصلَ رفض محمد علي لبنود المعاهدة إلى مسامع السلطان مع انتهاء المهل الممنوحة له، فأصدر السلطان في ١٤ أيلول فرماناً عزل فيه محمد علي من ولاية مصر، وعيَّن السر عسكر عزت باشا خلفاً له[٤].

استدعى تيير Thiers في ١٧ أيلول سفراءَ الدول العظمى وأبلغهم استنكار الحكومة الفرنسية للطريقة التي تعاملت بها دول المعاهدة مع محمد علي، وكان تيير Thiers قد لمس جدية الدول الأربعة، وفي النهاية صرّح بأن فرنسا مستعدة للتعاون في حال تأكدها من ضمان سلامة الإمبراطورية ومحمد علي[٥]، ولكن وتحت ضغط الصحافة، والرأي العام الفرنسي الذي كان يرى محمد علي مثلاً يُحتذى به، فهو الذي بنى بلداً أحسن سياستها وحكمها ونظمها مدة أربعين سنة، فجعل منها دولة قوية، تمت الدعوة للحرب "محواً للعار والإهانة"، وتم الإعلان عن أنه إذا أصّر السلطان على عزل محمد علي ووافقت الدول الأربع على ذلك فسيعُّد ذلك سبباً للحرب بينها وبين الدول الأربع، فأدرك بالمرستون Palmerston جدية فرنسا هذه المرة؛ لأن السياسة البريطانية تمادت في إهانة فرنسا، فلجأ إلى التهدئة، وأشار إلى عدم علمه بعزل السلطان لمحمد علي، فاستحسن الملك الفرنسي منه ذلك، إلا أن تيير Thiers لم يقتنع وطالب بالمرستون Palmerston بالدخول في مفاوضات جديدة لتسوية الوضع، لكنه لم يجد رداً منه، فأراد توجيه خطاباً شديد اللهجة يفتتح به الملك الدورة الاستثنائية لمجلسي البرلمان، لكن الملك رفض تبني هذا الخطاب[٦]، فأعلن تيير Thiers استقالته في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٠[٧]، وكان

---

[١] رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٧.

[٢] سمحات، مرجع سابق، ص٢٧٥.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٦.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٦٢.

[٥] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٦.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٦٢.

[٦] المرجع نفسه، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٧] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٢. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 243.

ذلك نصراً سياسياً آخر لبالمرستون Palmerston فقد مهد هذا الانتصار للهيمنة البريطانية على الشرق مقابل انكماش إمبراطورية محمد علي، ومن ورائه النفوذ الفرنسي في المنطقة[١].

وتداعت سلطة محمد علي في بلاد الشام، وفقد الأمل في الدعم الفرنسي الذي كان يبني عليها الكثير من قراراته[٢]، وكان لاستقالة تيير Thiers ووصول المارشال سولت Sault إلى رئاسة الوزراء، واتّباعه سياسة التفاهم مع التكتل الأوروبي[٣]، وللانتصارات المتتالية لجيوش التحالف[٤]، وسقوط كل من طرابلس ٢٠ أيلول، ثم استسلام الأمير بشير الشهابي في ١١ تشرين الأول، وسقوط عكا ٤ تشرين الثاني[٥]، فكل هذه الشروط دفعت محمد علي إلى قبول شروط معاهدة لندن، واستلم الكومودور نابيير Napier عملية التنفيذ[٦]، ولم يكن مزوداً بالصلاحيات الكافية[٧]، لكنه وقع مع ممثلي محمد علي في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٤٠ مذكرة تعهد بموجبها محمد علي بالانسحاب من بلاد الشام، وإعادة الأسطول العثماني مقابل منحه الحكم الوراثي في مصر[٨]. وعليه فقد أصدر محمد علي أوامره لإبراهيم باشا بالانسحاب من بلاد الشام فوراً[٩]، فغادرها مع جيوشه انطلاقاً من دمشق في ٢٩ كانون الأول ١٨٤٠[١٠]، وقد لاقت عساكره

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٦٥-٢٦٧.

[٢] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٧٠. تشرشل، مرجع سابق، ص٢٦. حجار، مرجع سابق، ص٢١٠.

[٣] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٢. سمحات، مرجع سابق، ص٢٧٨.

[٤] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[٥] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٣١٦-٣١٧. النواصرة، مرجع سابق، ص٢٥٣.

[٦] ففي رسالة أرسلها الكومودور نابيير إلى بوغوص بك في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٤٠ ينصح فيها محمد علي باشا بإعادة الأسطول العثماني والانسحاب من بلاد الشام، كي يؤدي ذلك إلى الصلح مع الدولة العثمانية وسائر الدول العظمى، وإلا فإنه لا يضمن بقاءه في مصر آمناً ومطمئناً، وبأنه قد يخسر حكمه في مصر أيضاً. انظر: رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٦٠٥، ص٤٧٤-٤٧٥.

[٧] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٨.

[٨] رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج٤، الوثيقة رقم ٦٦١٥، ص٤٨٢. النواصرة، مرجع سابق، ص٢٥٥.

[٩] المرجع نفسه، الوثيقة رقم ٦٦٣١، ص٤٨٩، الوثيقة رقم ٦٦٤٣، ص٤٩٢.

[١٠] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٣-١٤٤. وقد جاء في وثيقة بتوقيع المشير عزت محمد باشا، قائد الجيوش العثمانية في بر الشام، إلى مواطني ولاية حلب من عسكريين ومدنيين بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٥٦، يشير فيها إلى انتصار "الدولة العلية" على إبراهيم باشا في عدة مواقع في بلاد الشام، وفيها تأكيد على مساعدة الدول الأوروبية (بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا) للدولة العثمانية واتفاقها جميعاً على إزالة حكم محمد علي من بلاد الشام. انظر: دار الوثائق التاريخية، أوامر حلب السلطانية، المجلد٥٠، الوثيقة رقم ٦٣.

الأهوال والمصائب عند الانسحاب، فقد كان الشتاء قاسياً في تلك السنة، فمات العديد منهم بسبب البرد القارس[١].

رفض الباب العالي والسفير البريطاني في الأستانة وقبلهم ستوبفورد Stopford ما قام به نابيير[٢] Napier ، ولكن مع سياسة التهدئة التي انتهجها بالمرستون Palmerston، ومسعى مترنيخ Metternich مع بروسيا لإعادة تفعيل الحوار مع فرنسا، مع نجاح غيزو Guizhou إلى حدٍّ ما في إنعاش الدبلوماسية الأوروبية، تم الضغط على السلطان العثماني لمنح محمد علي حكم مصر وراثياً طالما أنه سيلتزم بالمعاهدات والقوانين القائمة في الدولة العثمانية، فوافق السلطان على ذلك في ١٣ شباط ١٨٤١، ولكن بشروط قاسية جداً رفضها محمد علي تماماً، ولا سيما تلك التي يختار الباب العالي أحد أبناء محمد علي ليكون خلفاً له في حكم مصر؛ لأنه لن يعترف لغير ابنه إبراهيم باشا وريثاً شرعياً له[٣]، وعدّتَ القوى العظمى رفضه هذا رفضاً مشروعاً، فتدخلت مجدداً لتعديل الفرمان السلطاني[٤]، الذي عُدِّلَ في ١٩ نيسان ١٨٤١ لتنظيم الوراثة ، وجعلها حقا للأكبر سناً من سلالة محمد علي، كما صدر فرمان جديد في ١ حزيران ١٨٤١ جمع بين فرماني ١٣ شباط و ١٩ نيسان، وكانت تلك هي نهاية الأزمة في بلاد الشام بين محمد علي باشا والسلطان العثماني[٥].

- **قضية المضايق.**

يُظهر أحد الباحثين الفرنسيين "العسكريين" في أوائل القرن العشرين الكثير من الأسف على تأييد فرنسا ودعمها لمحمد علي؛ لأن السياسة الفرنسية آنذاك كانت تظنُّ أنه في مقدور محمد علي الدفاع عن الأراضي التي استولى عليها[٦]. بينما حاول غيزو Guizhou– وبعد انتهاء الأزمة مباشرة– أن يغطي فشل السياسة الفرنسية[٧]، فقد عدّ قضية محمد علي قضية ثانوية أمام المسألة الشرقية بشكلها العام، وأمام قضايا السلم والتضامن الأوروبي، كما أنه أكد استعداد فرنسا للعودة إلى التضامن الأوروبي لإيجاد حلٍّ جذري لمسائل الشرق تتجاوز قضية النزاع المصري–

---

[١] مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان، مصدر سابق، ص٨٣.

[٢] حجار، مرجع سابق، ص٢٠٨. وانظر:

- Anderson, op. cit, p. 104.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص٢١٠–٢١١.

[٤] النواصرة، مرجع سابق، ص٢٥٧.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧١–٢٧٢.

[٦] بيشون، مرجع سابق، ص٥٩.

[7] Anderson, op. cit, p. 105

العثماني، ولاسيما فيما يتعلق بمضيقي البوسفور والدردنيل، وأمور أخرى كثيرة متشعبة ومتشابكة التي رفضت الدول الأوروبية مناقشتها لشدة التعقيدات والمتناقضات فيها[١].

كما بدا واضحاً أن بريطانيا تهربت من مناقشة قضية الطرق التجارية بين أوروبا والهند عبر الشرق بفرعيها الرئيسيين: نهر الفرات وخليج السويس؛ لأنها الدولة الوحيدة التي تمتلك إمبراطورية تمتد من بريطانيا إلى الهند[٢]؛ لذا اكتفت الدول الأوروبية بالنظر في قضية المضايق بما أنها تهدد سلامة العلاقات الدولية[٣]. وبعد الخوض في مباحثات شاقة وطويلة تم التوصل إلى إلغاء معاهدة لندن ١٥ تموز ١٨٤٠[٤]، وتوقيع اتفاقية جديدة في لندن في ١٣ تموز ١٨٤١ بين الدول الأوروبية الخمس بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا إضافة إلى الباب العالي، ونصت هذه الاتفاقية على عدم دخول السفن الحربية مضيقي البوسفور والدردنيل أبداً في حالة السلم مع بقاء الحق للباب العالي في استدعاء أساطيل حلفائه في حالة الحرب[٥]، وبذلك انتهت الأزمة الشرقية بتصفية القوة المصرية، وبفرض الوصاية على السلطان العثماني، وأصبحت مقدرات بلاد الشام في أيدي أوروبا، ولا سيما بريطانيا، على أساس إعادة السلام إليها، كما أصبح جبل لبنان وفلسطين موضع اهتمام أوروبا بعد ظهور صيغة جديدة في خطابها؛ وهي "حماية المسيحيين، والمحافظة على "الأرض المقدسة"[٦]، ولكن هل عاد السلام فعلاً إلى هذه الديار !!؟.

ثالثاً- العلاقات الدبلوماسية الأوروبية- العثمانية وأثرها في السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٣٩-١٨٥٣).

بدا واضحاً في أواخر القرن الثامن عشر أن الإمبراطورية العثمانية تعاني من الانحلال والضعف وتفاقم عدم فعالية مؤسسات الدولة ونظام حكمها، كما تجلى بوضوح الفارق بين القوى المادية للشرق والغرب نتيجة تأخر العالم الإسلامي، الذي تقوده الدولة العثمانية في جزءٍ كبير[٧]، ولاسيما بعد أن فرضت على نفسها العزلة التامة عن العالم الأوروبي وامتنعت عن الاحتكاك بالحضارة والثقافة الأوروبية الناشئة[٨]. وقد أدى الضعف في الواقع العثماني مع التحول الخطير

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٧٢.

[٢] بيشون، مرجع سابق، ص٦١-٦٣.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٣.

[٤] بيشون، مرجع سابق، ص٦٠.

[5] Marriott, op. cit, p. 244.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص٢١٦.

[٧] مصطفى، نادية محمود، ص١٥٩، ١٩٤.

[٨] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، ص٤.

في عمل الامتيازات الأجنبية[١] التي ارتبطت بمطامع الدول الأوروبية، وتزايد نشاط حركات الاستقلال داخل الإمبراطورية العثمانية إلى ظهور ما يسمى "المسألة الشرقية" بدايات القرن التاسع عشر[٢]، واختلفت سبل المواجهة العثمانية لها، ومنها اعتمادها الوسائل السياسية، وقد تركزت هذه الوسائل في اتجاهين اثنين، الأول: القيام بالإصلاحات الداخلية[٣]، والثاني: تنشيط المجال الدبلوماسي، وتوظيف التوازنات والتناقضات بين الدول الأوروبية، والبدء بإقامة العلاقات الدبلوماسية معها، من أجل البقاء والحفاظ على الاستمرار[٤].

وقد مرت علاقات القوى والتوازنات بين الدول الأوروبية بتطورات مهمة ومراحل مختلفة، كان خلالها مصير الدولة العثمانية موضوعاً مهماً في هذه التوازنات[٥]، فأصبحت العملية الإصلاحية جزءاً من محاولات الطرف العثماني للاندماج مع التفاعلات الدولية، وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الإصلاحات بمنأى عن تأثير طبيعة التوازنات بين الدول الأوروبية من جهة، وعلاقاتها مع الدولة العثمانية وولاياتها من جهة أخرى[٦]. وبطبيعة الحال من ضمنها ولايات بلاد الشام التي ستحتل مركزاً مهماً في قضية "المسألة الشرقية" في القرن التاسع عشر.

أ- أثر السياسة الأوروبية في عملية التغيير والتنظيمات العثمانية.

مرت الإصلاحات العثمانية في دورين رئيسيين: الأول كان منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ إذ اهتم هذا الدور بالإصلاح العسكري[٧] بعد أن ساد الاعتقاد بأن القوة العسكرية هي الأساس في التوازن مع القوى الأوروبية[٨]، وشمل عَهْدَي كل من السلطان سليم الثالث[٩] (١٧٨٩-

[١] دولينا، مرجع سابق، ص١٦٠.

[٢] مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص٦٤. دولينا، مرجع سابق، ص٣.

[٣] المرجع نفسه، ص٤٩. مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص١٦٠.

[٤] المرجع نفسه، ص١٦٠.

[٥] ياغي، إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٦، ص١٤١-١٤٢. مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص١٦٤.

[٦] المرجع نفسه، ص١٦١.

[٧] طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق-كلية الآداب، دمشق، ط١٠، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، ص٢٣١. ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص١٤٥.

[٨] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠١. هرشلاغ، ز. ي، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت، د. ط، ١٩٧٣، ص٤٠.

[٩] **السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧):** وُلد عام ١٧٦١، وتولى العرش في عمر الثامنة عشر، وكانت البلاد تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، لاسيما فوضى الإنكشارية، فحاول التصدي لهذا الأمر بتنظم الجيش لإعادة هيبة الدولة، ولدى انشغاله هذا أعلنت النمسا وروسيا الحرب على الدولة العثمانية، وقد تم للروس فيها تحقيق العديد من الانتصارات والسيطرة الكاملة على شبه جزيرة القرم وبعض الأقاليم الأخرى ، ولدى انشغال

١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨–١٨٣٩)، أما الدور الثاني فبدأ مع عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩–١٨٦١)، ومرَّ بمرحلتين أساسيتين وعرفت الإصلاحات في المرحلة الأولى بـ"**التنظيمات**" وشملت عهدي السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز[١] (١٨٦١–١٨٧٦)، وتميزت بمحاولة تنظيم أمور الدولة الإدارية في شتى المجالات[٢]، وقد اعتمد الإصلاح في مرحلة التنظيمات على النظر إلى أوروبا وإصلاحاتها وما وصلت إليه من تنظيم واستجلب الخبراء منها لهذه الغاية لأن المؤسسات التقليدية العثمانية (العسكرية والمدنية) لم تعد قادرة على أداء وظائفها كما يجب.

أما المرحلة الثانية فكانت أكثر جرأة إذ اعتمدت على نقل أفكار ومؤسسات الغرب السياسية والتشريعية؛ لتقنين صلاحيات السلطان، وتقييد سلطته بالدستور[٣]، لذا عرفت هذه المرحلة بـ"**المشروطية**" وبدأت منذ عهد السلطان عبد الحميد الثاني[٤] (١٨٧٦–١٩٠٩) وبدأت الثانية منهما مع ثورة أنصار جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨، واستمرت حتى قيام الحركة الكمالية وإعلان الجمهورية التركية[٥].

أوروبا بأفكار الثورة الفرنسية أُتيح المجال لسليم الثالث لتنظيم إدارته، وضبط تصرفات الإنكشارية من خلال تأسيس فرق عسكرية نظامية على النسق الأوروبي، فاصطدم بذلك مع الإنكشارية التي عملت على عزله بإفتاء من شيخ الإسلام. انظر: عامر، مرجع سابق، ص٢٩٤–٢٩٦.

[١] **السلطان عبد العزيز (٢٨٦١–١٨٧٥)**: ولد عام ١٨٢٩ تولى العرش وله من العمر اثنتان وثلاثون عاماً، استمر في اصدار الفرمانات الداعية إلى الإصلاح، وكان أول سلطان عثماني يسافر إلى أوروبا، وكان ذلك عام ١٨٦٧، تنامت في عهده الأفكار القومية وبدء معها عزل السلاطين على يد القوميون بدلاً من الإنكشارية وبحجة المصلحة القومية للدولة، وكان السلطان عبد العزيز أول السلاطين العثمانيين الذين تم عزلهم بتهم وطنية والعبث بأموال الشعب. انظر: عامر، مرجع سابق، ٣١٢–٣١٤.

[٢] طربين، مرجع سابق، ص٢٣١– ٢٣٢. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٧٤.

[٣] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠١.

[٤] **عبد الحميد الثاني (١٨٧٦–١٩٠٨)**: وُلد عام ١٨٤٢، ودامت فترة حكمه ثلاث وثلاثون عاماً وهي أطول فترة حكم بعد السلطان سليمان القانوني، كان يميل إلى العزلة في صباه، وفي فترة حكمه قرّب إليه العرب والكرد والأرناؤوط والجراكسة، وتخلص من مدحت باشا ثم استبد بالحكم، وتقرب من روؤساء الطرق الصوفية لتجريد مفتي الإسلام من سلاح الإفتاء، كما اهتم بفكرة الجامعة الإسلامية ليواجه بها دعاة القومية ومن ضمنهم دعاة القومية التركية (الاتحاديون)، إلا أن المد القومي استطاع في النهاية الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٨ ليقضي باقي عمره طريداً وشريداً. انظر: عامر، مرجع سابق، ص٣١٩–٣١٢٨.

[٥] طربين، مرجع سابق، ص٢٣٢.

- **خط كلخانة ١٨٣٩:**

صدر منشور كلخانة[١] تشرين الثاني ١٨٣٩ في بدايات عهد السلطان عبد المجيد[٢]، وجاء لكسب ودِّ الدول الأوروبية والرأي العام فيها لتكون مواقفها مؤيدة للدولة العثمانية في صراعها مع محمد علي باشا[٣]، بعد أن نشطت الدبلوماسية العثمانية في محاولة لسد ثغرات السياسة الخارجية العثمانية، ولبناء علاقات سياسية جديدة مع القوى العظمى[٤]؛ إذ كان الصراع مع محمد علي هو ما يقلق رجالات الدولة العثمانية بعد أن امتدت سيطرته إلى بلاد الشام وأظهر حرصاً على الإصلاح والتجديد، وإعلانه عن دور مصر في إصلاح الدولة العثمانية من خلال إحياء الدولة الإسلامية الحديثة[٥]؛ لذا كان ضرورياً- من وجهة نظر الدبلوماسية العثمانية (الفتية)- إرضاء الدول الأوروبية كسباً لمواقفها من جهة، ومحاولة تفعيل الوحدة المجتمعية في الدولة العثمانية من جهة أخرى، من خلال إصلاح شؤون رعايا الدولة العثمانية المسيحيين[٦]، وإظهار السلطان بأنه لا يقل حرصاً عن محمد علي. ومع ذلك كانت الحاجة ملحة للإصلاح، وهذا ما شعر به نخبة من رجال الدولة، بعد أن رأى بعض المصلحين، ولاسيما أولئك الذين أقاموا في العواصم الأوروبية بصفة دبلوماسية، ضرورةَ إعادة تنظيم الدولة على نسق الدول الغربية لإنقاذها من السقوط، ولتدارك التفوق الأوروبي[٧].

يُعدّ مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠-١٨٥٨) مؤسس النظام الدبلوماسي الجديد في الإمبراطورية، بعد أن هيأت له ظروف عمله كسفير لبلاده في عواصم الدول الأوروبية أن يكتشف مدى التخلف الذي وصلت إليه مؤسسات الدولة العثمانية، وأن يطرح حلولاً موضوعية وإصلاحية، ثم ذاع صيته بعد وضعه لبيان "خط كلخانة"[٨]، فقد استغل مصطفى رشيد الأوضاع السياسية المحيطة بالإمبراطورية العثمانية ليحصل على موافقة الباب العالي في القيام بعدد من

---

[١] للاطلاع على نص المنشور، انظر: الملاحق، الوثيقة رقم ١٥، ص٣٤٤-٣٤٥.

[٢] نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص٣١٨.

[٣] بازيلي، مصدر سابق، ص٢١٨. ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق ص١٥٤. طربين، مرجع سابق، ص٢٤٧.

[٤] دولينا، مرجع سابق، ص٥٠.

[٥] البدري، مرجع سابق، ص٢٠٣.

[٦] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص١٩٩ .

[٧] طربين، مرجع سابق، ص٢٥٠. ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص١٥٤.

[٨] مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص٦٧. دولينا، مرجع سابق، ص٥٦

الإصلاحات[١]، وساعده على ذلك صغر سنِّ السلطان عبد المجيد الذي تخلى تحت تأثير رشيد وشركائه، وتحت ضغوط الظروف المحلية والدولية، عن الاستبداد بالسلطة، فترك المجال لحكومته لتقوية الدولة العثمانية عن طريق الإصلاحات[٢]، وكان رشيد يريد من هذه الإصلاحات أن يخفف من سخط الشعوب التي تخضع لنفوذ الإمبراطورية، على أمل أن يكون لها صدى إيجابي في أوروبا، وتُسهِم في إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الدولة العثمانية الداخلية والخارجية[٣].

بدأ عهد التنظيمات بتلاوة مصطفى رشيد باشا في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٩م المنشور السلطاني (خط كلخانه) في حفل كبير، وبحضور ممثلين عن الطبقات الاجتماعية والسفراء الأجانب[٤]، وهذا المنشور الذي كان علامة فارقة في التاريخ العثماني؛ إذ شجع على نمو النظام الاقتصادي الرأسمالي، ونشر الثقافة البرجوازية في المجتمع العثماني، فقد جاء في الخط الهمايوني: إن الإنسان عندما يفقد **(الأمنية على المال لا يعود يلتفت لا الى الدولة ولا الى الملة ولا ينظر الى إعمار الملك بل يكون دائماً غير خال من بلبلة الفكر والاضطراب...كما ان مادة تعيين التكاليف تستلزمها كل دولة بسبب الاحتياج الى العساكر وغيرها من المصاريف المقتضية لأجل المحافظة على بلادها وبما أن هذا الأمر لا يدرك إلا بالأموال ولايدرك المال إلا من إعطاء الأهالي كان التبصر في صورة حسنة له من أهم الأمور...يلزم بعد الآن أن يتعين على كل فرد من أهالي البلاد ويركو (ضريبة) مناسب بالنسبة الى أملاكه ومقدرته...والحاصل اذا لم تتحصل هذه القوانين النظامية لا يمكن تحصيل القوة والعمار والراحة..)**[٥]. وتمحور الجزء الآخر من البيان حول تمكين القانون المدني بين جميع رعايا السلطان العثماني بما يحفظ ممتلكاتهم وكرامتهم، من المسلمين وغير المسلمين، وذلك حسب ما ورد في الخط الهايوني: (.. **ولكي تكون أهل الإسلام وباقي الملل الذين هم من تبعة سلطتنا السنية نائلين مساعداتنا هذه الشاهانية بدون استثناء أُعطيت من طرفنا الشاهاني الأمنية الكاملة بمقتضى الحكم الشرعي لجميع أهالي ممالكنا المحروسة على نفوسهم وأعراضهم وناموسهم..)**[٦]، وكان ذلك أمراً

---

[١] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص١٩٩.

[٢] دولينا، مرجع سابق، ص٥٩.

[٣] المرجع نفسه، ص١٠٩.

[٤] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٧٤. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٠٠.

[٥] نوفل، نوفل نعمة الله، الدستور، مراجعة خليل أفندي الخوري، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٠١هـ، المجلد الأول، ص٣.

[٦] المصدر نفسه، ص٤

جديداً كلياً بالنسبة للثقافة العثمانية؛ إذ تعارضت مع التقاليد والشرائع التي سادت المجتمع العثماني[١]، وقد كانت هذه الإصلاحات خطوة جريئة لأسباب عديدة منها:

١- أن السلطة العثمانية- ولأول مرة- تتكفل بالمساواة أمام القانون بين المسلمين وغير المسلمين.

٢- عدم اعتماد التنظيمات النظم الموروثة ميزاناً ثابتاً للحكم.

٣- ضرورة الأخذ بالنظم الغربية، وإن تعارض بعض عناصرها مع شريعة الإسلام[٢].

اعتقد مصطفى رشيد باشا أن الظروف مواتية لتطبيق هذه الإصلاحات، إلا أنه بالغ في ظنّه أن السلطان العثماني الجديد قادر على أن يؤدي دوراً كبيراً في تطبيقها، إلى جانب سوء تقديره لمدى تأثير القوى المعارِضة لهذا التغيير من مختلف فئات المجتمع العثماني، إضافة إلى صعوبات كثيرة أخرى مثل إمكانية التخلي عن الاستبداد الشرقي في الحكم بين ليلة وضحاها، وأيضا فقد تخبط أصحاب المبادرة أنفسهم في طريقة التعامل مع الحالة الجديدة، لدرجة إن اتّباع الإزدواجية في التعامل أظهر ما يشبه عدم جدية القائمين عليها، وكل هذا دفع بالتشكيك في إمكانية المضي بهذه الإصلاحات وجدواها؛ لأن ذلك يعني "**تحطيم بنية المجتمع التركي وإقامة نظام جديد للأشياء على أنقاضه**"[٣].

لم تحقق الإصلاحات العثمانية (فترة التنظيمات) نتائج مباشرة، إلا أنها تركت الباب مفتوحاً أمام تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية لم يعد ممكناً الرجوع عنها[٤]، وتركت آثارها في النظام القائم من الناحيتين الاقتصادية- الاجتماعية والسياسية، فبعد الاندماج في السوق الرأسمالية العالمية ظهرت طبقة من التجار والصناعيين ألقت بظلالها على الدوائر الحكومية التي استأثر بها الطفيليون والفئات الخاملة، ومن جهة أخرى كان لهذه التحولات دور مهم في تنشيط التيارات الانفصالية في أوساط الشعوب الخاضعة للسيطرة العثمانية[٥].

أما جهة المواقف الأوروبية فإن النمسا وروسيا لم تنظرا إلى هذه الحركة بعين الارتياح[٦]، في حين أن بريطانيا وفرنسا قد أظهرت تأييدها ورضاها عن هذه الإصلاحات؛ لأن سياسة

---

[١] دولينا، مرجع سابق، ص١١٠.

[2] Ma'oz, Moshe, Ottoman reform in Syria and Palestine 1840-1861, the Impact of the Tanzimat on Plitics and Society, Oxford University Press, Ely House, London, 1968, p. 21-23.

[٣] دولينا، مرجع سابق، ص١١٠-١١١.

[٤] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠٥.

[٥] دولينا، مرجع سابق، ص١١١.

[٦] ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص١٦١.

التنظيمات تجعل الدولة العثمانية قادرة على مواجهة الضغوط الروسية[١]، كما أنها لم تمس امتيازات الدول الأوروبية، بل إنها زادت من مكاسبها الاقتصادية والسياسية، وفتحت المجال واسعاً أمام التبشير[٢]، وسمح للرأسمال الأجنبي- مدعوماً بنظام الامتيازات القديمة- أن يتغلغل في الإمبراطورية العثمانية وولاياتها عن طريق دخول القروض الأجنبية وبواكير المشاريع الاستثمارية التي أعلنت بدء سيطرة الرأسمال الأجنبي على الاقتصاد العثماني بجميع عناصره في المركز والولايات[٣].

ب- العلاقات العثمانية مع القوى الأوروبية وأثرها في بلاد الشام بين عامي (١٨٤٠-١٨٥٣).

كان السلاطين العثمانيون لا يرضون تعيين سفراء لهم في عواصم الدول الأوروبية، لاعتقادهم بأنهم في غنى عن ذلك، وبأن الأوروبيين هم الذين يحتاجون الإقبال إلى الدولة العثمانية للحج والتجارة[٤]. ومن ذلك فقد كان الإصلاح الداخلي في الدولة العثمانية يوازي إصلاحاً آخر لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وهو إصلاح السياسة الخارجية التي تمثلت في إعادة النظر في العلاقات الدبلوماسية العثمانية مع الدول الأوروبية على أساس تبادل التمثيل الدبلوماسي بداية، ثم الاندماج الواسع للدبلوماسية العثمانية في العلاقات الدولية مع الدول الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر[٥].

فقد ظهرت آثار العزلة الدبلوماسية والسياسية لدى العثمانيين في جميع مجالات الحياة في المجتمع العثماني، إذ لم يكن لهم أيُّ تصور عن الحياة الاقتصادية والإدارية، والنظم العسكرية في أوروبا[٦]، والعكس صحيح من الناحية السياسية على الأقل؛ لأن الأوروبيين أيضاً لم تكن لديهم تصورات كافية عن العثمانيين وأحوالهم، وذلك على حد تعبير ماركس الذي يقول: **(لم يتخلف جمهور أوروبا والأميركيين من تكوين رأي صحيح تقريباً حول المسائل العثمانية، إلا**

---

[١] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[٢] طربين، مرجع سابق، ص٢٥٣. عمر، مرجع سابق، ص٢٧٦.

[٣] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع سابق، ص٧-١٠. طربين، مرجع سابق، ص٢٥٣. مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص١١٤.

[٤] بيهم، مرجع سابق، ص٢٩٢-٢٩٣. كان على سفراء الدول الأجنبية تقديم الهدايا إلى رجال الحكومة العثمانية على سبيل الجزية السنوية، وكان على وفود الممالك أن يرفعوا الهدايا إلى قصر السلطان قبل مثولهم بين يديه، وكانت طريقة مقابلة السلطان لا تخلو من آثار الاستعباد، فالزائر يمسكه اثنان من الحرس من كتفيه وعليه إذا ما دنا من العرش، أن يخر ساجداً "لتقبيل موطئ قدم السلطان". انظر: المرجع نفسه، ص٢٩٣-٢٩٤.

[٥] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٦] دولينا، مرجع سابق، ص٤٨.

منذ وقت قريب جداً. كانت الدولة العثمانية، حتى الانتفاضة اليونانية، عالماً مجهولاً من جميع الوجوه، وكانت الفكرة المكونة عنها مبنية على حكايات ألف ليلة وليلة أكثر منها على معطيات تاريخية ما)[١]، لذلك تركز هذا الشق من الإصلاحات حول محور أساسي، وهو إقامة العلاقات الدبلوماسية، وإنشاء سفارات دائمة في العواصم الأوروبية. وتجدر الإشارة إلى أن الصراع على بلاد الشام مع محمد علي هو الذي نبه السلطان محمود الثاني وأرغمه على هذا الاتجاه، وجاء ذلك في رسالة كتبها ستيورمر Stuormer سفير النمسا لدى الإمبراطورية العثمانية إلى مترنيخ Metternich جاء فيها: **"لقد أجبرت المشكلة المصرية الحكومة العثمانية على أن تمدَّ بصرها صوب الدول الأوروبية"**[٢].

كانت بداية اليقظة العثمانية تكمن في ملاحظة الهزائم المتكررة مع الروس، وتتابع الاقتطاع التدريجي للولايات العثمانية من جسد الإمبراطورية بعد توالي ثورات القوميات البلقانية[٣]، وتزايد مطالب المساواة بين رعايا الدولة، وتزايد الضغوط الأوروبية وتدخلها الدبلوماسي والعسكري لصالح هذه القوميات، إضافةإلى الإطار الداخلي الذي ارتبط بالأزمة المالية الضخمة[٤]، وقد دفع ذلك مع الضغط المصري في ثلاثينيات القرن التاسع عشر إلى اعتماد العثمانيين دبلوماسية وسياسة خارجية أكثر مرونة وواقعية. ونتج عن ذلك ظهور سفارتين عثمانيتين في باريس ولندن عام ١٨٣٤، وفي فيينا عام ١٨٣٥، وفي برلين عام ١٨٣٧، حتى بلغ عدد هذه السفارات خمسة عشرة سفارة مع نهاية القرن التاسع عشر. كما ظهرت الحاجة إلى دبلوماسيين أتراك يتحدثون اللغات الأجنبية[٥]؛ إذ لم يكن لدى حكومة السلطان مؤسسة خاصة داخل الحكومة تختص بالشؤون الخارجية، مع بدء السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) بإنشاء سفارات عثمانية دائمة في العواصم الأوروبية، وفي باريس تحديداً عام ١٧٩٦[٦]، ولكنها أغلقت بعد خلعه[٧]. وفقط في عام ١٨٣٦ أنشأ الباب العالي وزارة لهذا الاختصاص، وهو ما يدل على تعاظم قضايا السياسة

---

[١] ماركس، مصدر سابق، ص٧٣ .

[٢] دولينا، مرجع سابق، ص٤٣.

[٣] اختلفت أزمنة وأمكنة الاستجابة لنمو الوعي القومي في الأقاليم التي ترزح تحت الحكم العثماني، نتيجة تباين التطور الاجتماعي والاقتصادي غير المتوازن في هذه الأقاليم، وكانت الأقاليم العثمانية الغربية (الأوروبية) الأكثر قرباً من التطورات الرأسمالية وحركة الأسواق الأوروبية في حين أن الأتراك أنفسهم- أصحاب الدولة العثمانية- قد تخلّفوا عن العديد من الشعوب الخاضعة لسلطانهم في هذا الشأن. انظر: المرجع نفسه، ص٢٥.

[٤] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠٦-٢٠٧.

[٥] دولينا، مرجع سابق، ص٥١.

[٦] بيهم، مرجع سابق، ص٢٩٤. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص١٧٧.

[٧] المرجع نفسه، ص١٩٣.

الخارجية مع الحاجة لتعبئة المساندة الخارجية للقضايا العثمانية؛ ولاسيما بعد الازمة العلاقات مع محمد علي والصراع على بلاد الشام[١].

سمحت هذه العلاقات لممثلي الدولة العثمانية بالاقتراب من المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الأوروبية وثقافتها[٢]، وأنتج هذا دبلوماسيين أتراك متنورين تولوا مناصب عليا في الدولة[٣]، وطرحوا مبادرات مهمة لاستكمال الإصلاحات في أواخر عهد السلطان محمود الثاني وفي فترة التنظيمات، وأحدث ذلك تغييراً جذرياً في مبادئ السياسة الخارجية للدولة العثمانية فقد تم التخلي عن "الأحكام الدينية" في هذه المسألة، كما ساعدت هذه العلاقات في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية أمام خطر الحركات الانفصالية من خلال استغلال قضية تعادل ميزان القوى بين الدول أوروبية[٤]. فقد بنى مصطفى رشيد باشا السياسة الخارجية لبلاده معتمداً على واقع العلاقات الدولية في أوروبا، واستفاد من التناقضات القائمة بين مصالح هذه الدول، مثل غياب العلاقات السياسية المتينة بين روسيا وبروسيا، وسياسة مترنيخ Metternich الذي كان يتظاهر بصداقة الروس، والتحالف المتعثر بين فرنسا وبريطانيا بسبب التنافس الحاد بينهما فيما يتعلق بالسياسة الشرقية[٥]، إضافة إلى الاستفادة من الخلاف الفرنسي- الروسي الذي يجعل من فرنسا، مع دعمها لمحمد علي لا تريد للدولة العثمانية أن تضعف بالنسبة لروسيا[٦]، إضافة إلى إدراكه؛ أي مصطفى رشيد باشا، خطورة التحالف الفرنسي- الروسي في حين أن التحالف الإنكليزي- الروسي كان مفيداً؛ لأن ذلك سيمنع تقدم الروس في الأراضي العثمانية[٧].

ومن جهة أخرى فإن الوقائع وتزامن الإصلاحات مع الأزمات العثمانية، تدل على حقيقة أن الإصلاحات العثمانية في معظم مراحلها كانت بمثابة سلاح دبلوماسي لمواجهة هذه الأزمات، وليست طرحاً مباشراً لبرنامج إصلاح حقيقي[٨]، فليس من محض الصدفة إصدار السلطان عبد المجيد مذكرة ٢٧ تموز ١٨٣٩ والجهود المبذولة في لندن لإنقاذ الدولة العثمانية بخط كلخانة[٩]،

---

[١] دولينا، مرجع سابق، ص٥٤. مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[٢] دولينا، مرجع سابق، ص٥٥.

[٣] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص١٩٤.

[٤] دولينا، مرجع سابق، ص٥٥.

[٥] المرجع نفسه، ص٨٣.

[٦] المرجع نفسه، ص٨٧.

[٧] المرجع نفسه، ص٩٠.

[٨] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[٩] حجار، مرجع سابق، ص١٨٠.

وتزامن خط همايون مع مؤتمر باريس ١٨٥٦ بعد حرب القرم، كما سيتزامن الدستور "قانون أساسي" بمؤتمر الأستانة عام ١٨٧٦[١] الذي انعقد لإقرار تسوية خاصة بالبلقان في العام نفسه[٢].

ولكن كيف أثرت هذه الإصلاحات والعلاقات الدبلوماسية في أوضاع بلاد الشام؟ وما هي آليات هذا التأثير ونتائجه ؟ .

إن اندماج الدولة العثمانية في العلاقات الدبلوماسية الأوروبية، ارتباط الأزمات الأوروبية بالعملية الإصلاحية العثمانية أدى إلى ظهور أنماط مختلفة للتدخلات الأوروبية في الولايات العربية العثمانية، من ضمنها وبشكل أساسي ولايات بلاد الشام؛ لأن التنافس الاستعماري على هذه المناطق شكَّلَ عنصراً جديداً ومهماً في التوازنات الأوروبية– الأوروبية، وشكل أيضاً مرحلة جديدة للتدخل الأوروبي في المنطقة العربية[٣]، وذلك بعد تزايد دور المتغير الأوروبي وتغير أهدافه وأدواته، وانتقال دول أوروبا من مرحلة الالتفاف حول إفريقيا والعالم الإسلامي إلى مرحلة التنافس التجاري والسياسي في المنطقة العربية، ثم إلى مرحلة التنافس الاستراتيجي الذي سيتطور في مرحلة لاحقة إلى تقاسم للنفوذ والسيطرة العسكرية[٤]. فبعد خروج محمد علي من بلاد الشام بدء تغلغل الرأسمال الأجنبي الأوروبي الذي سعى إلى تحقيق التبعية الاقتصادية فيها لتحويلها إلى مستعمرات أوروبية عن طريق الرأسمال الاحتكاري في المراحل اللاحقة[٥]. وكل ذلك جعل أي خروج أو تمرد على السلطة العثمانية أو ما يسمى "المسألة الشرقية" أمراً لا ينفصل عن توازنات القوى والصراع الاستعماري الأوروبي[٦]، ولاسيما بعد أن شكل القرن التاسع عشر في التاريخ العثماني مرحلة انهيار الكيان العثماني مقابل تعاظم جهود الهيمنة العالمية الأوروبية، إضافة إلى طبيعة التدخلات الأوروبية في الولايات العربية التي شكلت مشهداً جديداً من المشاهد الدولية، ومظهراً من مظاهر التفاعل بين الشرق والغرب[٧] الذي يضاف إلى مصاعب القرون السابقة[٨]، بعد تصاعد التفوق الأوروبي وتحول دولها العظمى بأنظارها نحو بلاد الشام لأسباب يلخصها أحد الباحثين في نقطتين:

---

[١] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٠٨.

[٢] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٨٢.

[٣] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٣٠-٢٣١.

[٤] المرجع نفسه، ص٢٣٧.

[٥] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٦.

[٦] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٣٧.

[٧] المرجع نفسه، ص٢٣٠.

[٨] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٦٤.

١- "تنبه" هذه الدول لحال المسيحيين "السيء".

٢- الحفاظ على الأمن في هذه البلاد حمايةً للمصالح التجارية لهذه الدول[١].

فبعد أن عملت الدول العظمى على إعادة بلاد الشام إلى حكم الدول العثمانية، كان هذا السببان يشكلان حجة كافية لتسوِّغ هذه الدول تدخلها في الشؤون العثمانية وولاياتها، ومن ضمنها بلاد الشام[٢]، ولاسيما أن التنظيمات العثمانية كانت موجهة لكسب رضى الدول الأوروبية فيما يتعلق بتحقيق المساواة بين رعايا السلطان، وضمان حقوق الطوائف غير الإسلامي،ة وأهمها المسيحية، وكانت بلاد الشام أولى الولايات، وأهمها لتطبيق التنظيمات العثمانية فيها، لكن صعوبة تطبيقها خلقت مشاكل عديدة أدت إلى زعزعة نظام الملل والاستقرار المجتمعي، وفتح المجال واسعاً أمام النشاط الأوروبي الثقافي والديني والسياسي، وتركت نتائج سيئة للغاية في بلاد الشام، التي تعددت فيها الأديان وكثرت المذاهب[٣].

ومن هذه المنطلقات ونتيجة لضعف الدولة العثمانية وتحوُّل الامتيازات الأجنبية إلى "حقوق شرعية" لا يمكن الرجوع عنها بدأ التدخل الأوروبي، واختلفت أساليبه، فقد عمدت بريطانيا إلى مدِّ تجارتها إلى معظم أنحاء بلاد الشام على خلفية امتيازاتها السابقة في الدولة العثمانية إلى جانب التسهيلات الإضافية الأخرى بعد إخراج محمد علي منها[٤].

أما فرنسا فقد سلكت مسلكاً آخر للتدخل، وتمثل ذلك في مد نفوذها عن طريق رعاية المسيحيين الكاثوليك (الموارنة) في بلاد الشام مستفيدة من امتيازات سابقة كانت قد حصلت عليها من الدولة العثمانية برعاية الأماكن المقدسة والاعتناء بها[٥]. وكذلك دخل الروس من الباب نفسه، بعد حصولهم على امتياز حماية الرعايا المسيحيين الأرثوذكس[٦] في معاهدة كوجك قينارجه عام ١٧٧٤، ثم حصل القيصر الروسي الإسكندر الأول (١٨٠١-١٨٢٥) على فرمان سلطاني يتيح للروس إصلاح الكنيسة الكبرى في القدس[٧]. ثم تحول الخلط بين حق رعاية الأماكن المقدسة في بلاد الشام وحق رعاية المسيحيين إلى وضع خطير بالنسبة لبلاد الشام؛ لأنه كان يعني تحول الحقوق الدينية إلى ادعاءات سياسية على المستوى المحلي في بلاد الشام،

---

[١] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٦٧.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٧٩.

[٣] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٩٥-٢٩٦.

[٤] مخزوم، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الإنماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٢١.

[٥] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٨٠.

[٦] مخزوم، مرجع سابق، ص٢١.

[٧] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٨١.

ولاسيما بعد منح القناصل الأوروبيين جنسية بلدانهم إلى مسيحي الدولة العثمانية الذين هم في حمايتهم، وهو أمر تداركه الباب العالي بحزم[١]، ثم تحوله على المستوى الدولي إلى سبب للنزاع العنيف بين الروس والفرنسيين أفضى في النهاية إلى نشوب حرب القرم عام ١٨٥٣[٢]. وبشكل عام ففي هذا المشهد الجديد للتدخل الأوروبي في الشرق اختلطت الامتيازات المختلفة الدينية، والتجارية، والسياسية، والتنظيمات العثمانية في صف واحد، لتُسهِم سوية في اختراق الغرب للدولة والمجتمع والاقتصاد والثقافة في الإمبراطورية العثمانية وولاياتها ولاسيما بلاد الشام[٣].

رابعاً – السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٤٠–١٨٥٣).

١– التدخل الأوروبي والتوازنات الأوروبية على أرض بلاد الشام بعد عام ١٨٤٠.

– التوازنات الأوروبية ودورها في الانقسام الفئوي في جبل لبنان:

كان النظام القنصلي الأوروبي حاضراً بقوة في كل من مصر وبلاد الشام مع تزايد حدة التنافس الاستعمارية وأطماعها بين الدول الأوروبية، وارتباط المنفذ إلى بلاد الشام بذيول الصراع الأوروبي من جهة، بحكم موقعها الاستراتيجي المميز، وتشابك امتيازات الدول الأوروبية التجارية والسياسية فيها من جهة أخرى، والارتباطات الدينية بسبب التكوين الطائفي المتعدد، ووجود الأماكن المقدسة من جهة ثالثة. فقد وظفت الدول الأوروبية النظام القنصلي، ونظام الامتيازات، وعمل البعثات التبشيرية، لدعم مشاريع بسط نفوذها والهيمنة على المنطقة، وزاد ذلك من حدة الصراع الأوروبي، ومن ورائه النزاعات المحلية في المنطقة[٤].

وكان للفرنسيين نفوذاً قديماً في لبنان يتعلق بمسألة حمايتهم للمصالح الكاثوليكية فيها، وذلك عن طريق علاقات قديمة مع الطائفة المارونية التي كانت أيضاً ترتبط بعلاقات قديمة مع الكنيسة البابوية[٥]، وقد اتسع هذا النفوذ في عهد بشير الثاني ومرحلة سيطرة محمد علي على بلاد الشام، وبعد انسحاب محمد علي منها عدت بريطانيا ذلك نصراً للسياسة الخارجية البريطانية؛ لذا حاولت كسب الساحة لصالحها، لكن غيزو Guizhou وزير الخارجية وصاحب

[١] مؤنس، مرجع سابق، ص٢٨٢.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٨١.

[٣] كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٨٤–٨٥.

[٤] ضو، أنطون، حوادث ١٨٦٠ في لبنان ودمشق (لجنة بيروت الدولية– المحاضر الكاملة ١٨٦٠–١٨٦٢، تحقيق وترجمة أنطوان ضو، مختارات ش.م.م، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٢–١٣. مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٩٤. الوعري، مرجع سابق، ص٥٤.

[5] Kirk, op. cit, p. 83–84.

التوجه الجديد في السياسة الفرنسية، حاول استعادة ما يمكن استعادته لإبراز فرنسا ودورها المهم في السياسة الدولية مع أنها انهزمت في بلاد الشام[١]، إضافة إلى رغبته الحثيثة لاستعادة النفوذ الفرنسي في بلاد الشام لدى الموارنة، ففي رسالة أرسلها إلى القنصل الفرنسي في بيروت في ٦ شباط ١٨٤١، يعترف فيها بالضرر الذي لحق بنفوذ فرنسا السياسي، وبفتور الميل للفرنسيين في الأوساط الكاثوليكية ولاسيما الموارنة ، كما يشير إلى ضرورة استعادة ثقتهم القديمة بفرنسا[٢]. وقد استغل مترنيخ Metternich الوضع الفرنسي هذا في البحث عن موطئ قدم له في لبنان بمحاولة دعم الكاثوليك أمام الباب العالي، والقيام بدور الحامي للمصالح المسيحية، ولم تتخلف روسيا عن هذا الركب، وبرز ذلك من خلال اهتمامها بدراسة فكرة حماية الحقوق الطائفية للأرثوذكس في بلاد الشام[٣].

أما بروسيا فلم يكن لها أي مصالح سياسية مهمة في بلاد الشام أو غيرها بلدان الشرق حتى هذا الوقت[٤]، ومع ذلك فإنها أصبحت طرفاً من أطراف النزاع بوصفها عضواً من أعضاء التحالف ضد محمد علي، كما أنها اقتنعت بدور ثانوي من وراء التصرف البريطاني نيابة عنها[٥]، واقتصر ذلك الدور على تأسيس أبرشية بروتستانتية في القدس بالتعاون مع بريطانيا بهدف دعوة اليهود إلى المسيحية[٦].

وكانت وسيلة الدين من أعمق الوسائل وأكثرها سهولة لعملية التغلغل الأوروبي التي اتخذ منها كل من الأوروبيين والعثمانيين قاعدة لنشاطهم، لِما تتمتع به بلاد الشام من تعدد للأديان والمذاهب، فقد أجادت هذه الأطراف الأوروبيون والعثمانيون استغلالها لتنفيذ سياساتهم، لتصفية الحسابات فيما بينهم[٧]، في بلدٍ يصفه بازيلي بقوله: **(في الشرق، وفي بلاد الشام خاصة، يشكل الدين في هذه المنطقة المباركة لدى كل الملل والطوائف العنصر الأول للمعيشة المدنية، لهذا بالذات يتجلى تأثيره في الحياة الخاصة، أو الحياة الاجتماعية، أو في المصير التاريخي، أو في شعور كل قبيلة...)**[٨].

---

[١] فرح، قيصر، أثر التحالف الرباعي في الإصلاحات الإدارية المقترحة لسورية، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق– كلية الآداب، دمشق، د.ط، ١٩٧٨، ج٢، ص٤٠٥.

[٢] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٤٩–٥٠.

[٣] فرح، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٥.

[4] Kirk, op. cit, p. 87.

[٥] فرح، مرجع سابق، ج٢، ص٤١٠–٤١١.

[٦] بازيلي، مصدر سابق، ص٣١٣.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٩.

[٨] بازيلي، مصدر سابق، ص٣١٤.

وترددت بريطانيا في البداية في تقديم تصريح علني عن المسيحيين في بلاد الشام، ولكنها- وبتحريض نمساوي- سرعان ما أعلنت عن سياسة دعم للمسيحيين[١]، بعد أن وثّقت علاقاتها بالسلطات الحاكمة في بلاد الشام (الولاة العثمانيين وبشير الثالث)، كما أنها دعمت مراكز وجودها العسكري والتجاري، ثم حاولت التقرب من الموارنة لمزاحمة النفوذ الفرنسي لديها، كما أنها حققت نجاحاً في أوساط الزعماء المدنيين الارستقراطيين إلا أنها أخفقت لدى الأكليروس الماروني الذي رأى في انتشار المرسلين الإنجيليين خطراً على الكثلكة. وحاول القنصل الفرنسي بويه Bouée الاستفادة من هذه الأزمة الحاصلة بين بريطانيا ورجال الدين الموارنة[٢] لاستعادة بعض شعبية فرنسا لدى الأوساط المارونية، ولاسيما بعد أزمة الخبز في مستهل عام ١٨٤١[٣]، على حساب التذمر من الأتراك والإنكليز، غير أنه اصطدم باليسوعيين الفرنسيين الذين رفض الموارنة مقترحاتهم بشأن إنشاء إمارة مسيحية، وهذا ماكان سبباً للعزلة بين اللعازاريين واليسوعيين في لبنان بسبب الميل الفرنسي الواضح لصالح اللعازابيين، وعندما كان اليسوعيون أقرب الفئات إلى رأس الكنيسة الكاثوليكية أيدت النمسا مواقفهم ومضت في سياسة حمايتهم وحماية مشاريعهم التعليمية والتبشيرية والسياسية[٤].

أما روسيا فبقيت محافظة على تقوية علاقاتها مع الكنيسة الأرثوذكسية في بلاد الشام مع عدم وجود مصالح مباشرة لها هناك، ولكنها التزمت بالدفاع عن مصالح العثمانيين فيها مقابل دعم مصالحها وسياستها في البلقان والروملي، كما أنها وقفت حجر عثرة أمام الامتيازات الفرنسية وأمام أي تقدم بروتستانتي باتجاه الأرثوذكس في حملاتها التبشيرية[٥].

وفي ذلك وصف القنصل الفرنسي الحالة في لبنان في رسالة إلى وزير الخارجية بباريس في ٢٨ كانون الأول ١٨٤١ قائلاً: **(إن القناصل في بيروت قد تبنوا ذهنية الطوائف في لبنان وبلاد الشام، وأصبح كل منهم مصدر الوحي والتوجيه والإرشاد والحماية لطائفة معينة...)**[٦]. لذا فإن العام ١٨٤٠ يعدُّ بداية مرحلة جديدة في تاريخ لبنان[٧] بعد أن مالت كل طائفة من الطوائف إلى

---

[١] فرح ، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٦.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٧-١٩.

[٣] يزعم بعض المعاصرين أن الأمير قاسم الشهابي لُقب بأبي طحين لتعاطيه تجارة الطحين في سنة الغلاء والقحط. انظر: أبو شقرا، يوسف خطار، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، تحقيق عارف أبو شقرا، لا يوجد دار نشر، د.ن، د.ط، د.ت، ص٣٥.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٠-٢٣. غرايبة، مرجع سابق، ص١٣١.

[٥] فرح، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٩-٤١٠.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٤.

[٧] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٧.

إحدى الدول الأوروبية، فانتهى بذلك الوفاق الموقع في ٨ حزيران ١٨٤٠ بين الدروز والمسيحيين على **(إننا لا نخون ولا نطابق بضر أحد منا كائنا من يكون القول واحد، والرأي واحد ...)**[١]، وبعد مساهمة قناصل دولتي فرنسا وبريطانيا في تأجيج الأوضاع[٢]. فما الذي حدث؟، وما هو دور هاتين الدولتين في تطور الأحداث في جبل لبنان؟.

كانت البداية عندما استدارت فرنسا إلى الزعماء الإقطاعيين من الدروز والمسحيين لاستعادة ما يمكن استعادته من النفوذ في بلاد الشام، بينما كان بشير الثالث مديناً بإمارته للبريطانيين، وكان يرفض مطالب هؤلاء الزعماء الذين كان أكثرهم من الدروز وغالباً ماكانت مطالبهم مدعومة بفرمانات سلطانية لإعادة أملاكهم وإقطاعاتهم، فثاروا في وجهه، واتفقوا مع الوالي العثماني والقنصلية الفرنسية وقاموا بالمطالبة بعزله[٣]. وكان الدروز قد رفعوا محضراً إلى السلطان العثماني يعربون فيه عن إلتزامهم بطاعة الدولة، ويشتكون فيه من الأمير بشير الثالث والمسيحيين، وطالبوا بتنصيب أمير درزي ليتولى أمرهم[٤].

وكانت هذه المطالب تروق للعثمانيين؛ لأنها كفيلة بالتخلص من الحكم المحلي، وتعيين حاكم عثماني في جبل لبنان، وكان الأكليروس الماروني قد حسم أمره بتأييد الأمير بشير الثالث، وهذا خلق أجواء من التوتر بين الزعماء الإقطاعيين الدروز، ورجال الدين المارونيين من جهة، وبين هؤلاء الزعماء والقنصل الفرنسي من جهة أخرى، فقد أدرك الإقطاعيون الدروز أن الفرنسيون يميلون للموارنة وكان ذلك نذير الانفصال بين الطرفين[٥]، وخلق ذلك فرصة لحدوث التقارب بين الدروز والقنصلية البريطانية وأدى إلى حصول الدروز على الحماية البريطانية ودعمها لهم ولحقوقهم إلى جانب تعهدها بتقديم السلاح[٦]، وحاولت فرنسا تدارك الأمر ومنع

---

[١] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢-٣.

[٢] الوعري، مرجع سابق، ص٥٣.

[٣] هشي، سليم حسن، المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون (١٦٠٠-١٩٠٠)، لا يوجد دار نشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١-١٩٨٢، ج١، ص٤٨. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٤. فقد كان بشير الثاني قد حدّ من سطوة مشايخ وأمراء الدروز بقتل بعضهم ونفي بعضهم الآخر، ومع عودة الحكم العثماني صدر فرمان سلطاني بإعادة أملاك هؤلاء المشايخ والأمراء. انظر: مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان، مصدر سابق، ص١٥٤-١٥٥.

[٤] مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، مصدر سابق، ج٢، ص٦٦-٦٧.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٤-٢٦.

[٦] استغل الكولونيل روز الخلاف الذي نشب بين الأمير بشير الثالث والدروز، فدعى آل جنبلاط إلى اجتماع عُقد في ٢٤ أيلول عام ١٨٤١، على ظهر سفينين حربية في مياه صيدا، وقد تعهد روز خلال المفاوضات بمساندة الدروز والعمل جدياً على إعادة أملاكهم التي صودرت منهم، ثم انفض الاجتماع على أن يتم إيفاد

حدوثه ولكنها فشلت، بل أضاعت فرصة كبيرة في تحقيق حماية دولية واحدة يتجنب شعب جبل لبنان بها شرور التفكك والانقسام والخصومات الحادة[١].

ومن جهة أخرى قامت المصالح الفرنسية في بلاد الشام على تقوية الكاثوليك، لذلك كان للبريطانيين أهداف أكبر من ذلك، فطرق بلاد الشام المؤدية إلى الخليج العربي، ومن ثم إلى الهند هي الهدف الأسمى لها، ويتجاوز حدود علاقاتها مع أي طرفٍ أكان مسلماً أم مسيحياً أم درزياً أم بدوياً في الوقت الذي استطاعت الطائفة اليهودية بناء علاقات قوية مع البريطانيين بعد أن حظيت باهتمام قناصل الإنكليز ومساعداتهم[٢].

وهكذا انعدمت الحكومة المركزية، وانقسم شعب لبنان إلى جماعات وطوائف وشيع يأخذ كل منهم أوامره من جهة أوروبية مختلفة؛ إذ عمل القناصل على تعميق الشروخ، وتصفية الحسابات وتحقيق التوازنات الأوروبية على أرض بلاد الشام ولاسيما في جبل لبنان، وبذلك تكون الدبلوماسية الأوروبية سلكت مسلكاً خطيراً في شؤونها بعدما ابتعدت عن الفكرة الإنسانية وروح العدالة، وكل ذلك تم على مرأى ومسمع من العثمانيين الذين لم يحركوا ساكناً، بل وجدوا في ذلك "نصراً" لدبلوماسيتهم المحدثة المبنية على فكرة الاستفادة من تضارب مصالح الدول الأوروبية[٣].

٢- السياسة الأوروبية وأزمة جبل لبنان (١٨٤١-١٨٤٥).

أ- إنهاء الحكم المحلي في جبل لبنان.

لم يكن خروج محمد علي وحده الذي ترك فراغاً سياسياً في بلاد الشام[٤]، بل يضاف إليه فرمان السلطان عبد المجيد الذي خلع فيه الأمير بشير الثاني عن حكم جبل لبنان وتعيين بشير قاسم خلفاً له ؛ إذ تشير بعض المصادر إلى حبِّ الشعب لبشير الثالث واحترامه له، ولكنه لم يكن ذا تجربة في الإدارة والحكم[٥].

وكان لخروج محمد علي ونفي حليفه أثر كبير في ترك المجال مفتوحاً أمام أمرين طارئين وهما: نزاع القوى المجتمعية فيما بينها لفرض سيطرتها وتثبيت تفوقها أولاً، نحوما رأيناه في

نعمان بك جنبلاط إلى لندن ليطلب الحماية الرسمية من الملكة فكتوريا، وإيفاد شقيقه الأصغر إسماعيل ليلتحق بإحدى المعاهد البريطانية الشهيرة. انظر: هشي، مرجع سابق، ص٥٠.

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧-٢٨. هشي، مرجع سابق، ص٥٠-٥٢.

[٢] فرح، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٨.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠-٣١.

[٤] المرجع نفسه، ص٣١-٣٢.

[٥] بازيلي، مصدر سابق، ص٣٠٧. مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٣٤.

لبنان بين الدروز والموارنة[١]، وفي فلسطين في جبال نابلس والقدس، فقد شهدت صراعاً طويلاً بين الزعماء المحليين[٢]، وثانياً تدخل الدول الأوروبية في بلاد الشام التي كانت تتنافس فيما بينها للحصول على أكبر قدر من النفوذ فيها،بينما الدولة العثمانية مع أنها تدين للدول الأوروبية باستعادة حكم بلاد الشام كانت تزاحمها على بسط نفوذها هناك، وتحاول فرض حكمها المباشر على جبل لبنان الذي كان يتمتع بشيء من الحكم المحلي[٣].

بعد عزل الأمير بشير الثاني ١٨٤٠ عاد الإقطاعيون المنفيون الدروز إلى جبل لبنان وأعادوا المطالبة باستعادة إقطاعاتهم وامتيازاتهم السابقة، فأبدى الفلاحون الموارنة المقاومة لمطالبهم تلك، وأثار ذلك صراعاً زاد من حدته التناقضات الطبقية والاختلافات الدينية بين الدروز والموارنة[٤]، إلى جانب التنافس بين الدول الأوروبية ولاسيما بريطانيا وفرنسا بعد مساندة كل منها لأحد طرفي النزاع، ناهيك عن الدسائس التركية بين الدروز والمسيحيين[٥]، وهذا مايظهر بوضوح في فقرة من تقرير الكولونيل روز بتاريخ ١ تشرين الأول عام ١٨٤١ جاء فيه: **(إن الموارنة مستسلمون نفساً وجسداً إلى فرنسا... وعليه فلم يبق لإنكلترا أن تختار في الأمر، بل أمسى من المحتم عليها عضد الدروز)**[٦]، وتحول النزاع الماروني- الدرزي إلى الغاية علَّقت عليها كل الأطراف آمالها لتحقيق أجنداتها ورغباتها، فقد جندها الأوروبيون للحصول على النفوذ، والعثمانيون يطمحون من خلاله إلى فرض الحكم المباشر، والإقطاعيون والأمراء يسعون إلى استعادة حقوقهم الإقطاعية القديمة[٧].

وكان هناك وفاق درزي عثماني عام؛ لأن الدروز وقفوا بجانب العثمانيين ضد محمد علي باشا، لذلك بعد أن عاد العثمانيون إلى حكم البلاد شجعوا الدروز على المطالبة بما صودر من أملاكهم، وأمدوهم بالفرمانات السلطانية اللازمة، غير أن بشير الثالث لم يمتثل لتلك الفرمانات، فطالب الدروز بعزله رغم تأييد الإنكليز له[٨]، وعندما وقف الموارنة والأكليروس الماروني إلى جانب بشير الثالث نتج عن ذلك أن اصطبغ النزاع بصبغة طائفية تمثلت في اضطرابات

---

[١] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٦.

[٢] بازيلي، مصدر سابق، ص٣١٥. الوعري، مرجع سابق، ص٥٣.

[٣] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٦.

[٤] تشرشل، مرجع سابق، ص٢٧-٢٨.

[٥] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٧٤،٨٠. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٢-١٥٣.

[٦] الخازن، المحررات السياسية، ج١، ص٧٣.

[٧] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٦.

[٨] المرجع نفسه، ص٣٥٨-٣٥٩.

ونزاعات مسلحة تطورت إلى نزاع أهلي في تشرين الأول ١٨٤١[١]، فقد أسهمت الدول الأوروبية باستغلال فجوة تحطم الوفاق القديم بين الدروز والموارنة الذي ارتبط بعامل الدين والطائفية، لملء الفراغ السياسي الناجم عن خروج محمد علي من بلاد الشام ونفي حليفه، بعد أن أدى قناصل هذه الدول دوراً كبيراً في إثارة النعرات الطائفية، واتباع سياسة الدسائس والفتن بين الطوائف في لبنان[٢]، فقد جاء في كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام أن هناك محادثات بين القنصل الفرنسي والبطريرك الماروني قد سبقت تقديم فرنسا السلاح، وأعقب ذلك أن أصدر البطريرك منشوراً لأهل طائفته يطالبهم فيه أن يجاهروا بالعداء للدروز[٣]، كما استفاد العثمانيون من هذه الأحداث بإرسال مصطفى باشا القائد العام للجيش العثماني للتحقيق في ملابسات الحوادث وأسبابها[٤]، ممهداً بذلك للحكم العثماني المباشر، والبداية انطلقت من عزل بشير الثالث عن الإمارة[٥]؛ إذ سقط بذلك حكم الشهابيين إلى الأبد[٦]، ثم في ١٥ كانون الثاني ١٨٤٢ صدر فرمان سلطاني وأنهى الحكم الذاتي في لبنان بحجة أن اللبنانيين غير مؤهلين لها، وكان ذلك أكثر أماني العثمانيين[٧]، فتم تعيين عمر باشا[٨] حاكماً مباشراً على جبل لبنان لأول مرة منذ

---

[١] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٧٥. أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٠. تشرشل، مرجع سابق، ص٣٠-٣١. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٢. إضافة إلى ما سبق، فقد أدت بعض الحوادث الفردية، مثل مقتل أحد رجال نعمان جنبلاط ورجلين آخرين من دروز الغرب، إلى توتر شديد بين الموارنة والدروز، وجاءت حادثة صيد الحجل كشرارة أشعلت فتيل الفتنة والاضطرابات بين الطرفين. انظر: أبو شقرا، مصدر سابق، ص٣٧-٣٨.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٧. ففي رسالة أرسلها ريتشارد وود، قنصل بريطانيا في دمشق، إلى سليم باشا والي صيدا في تشرين ١٨٤١، يرى فيها أن المسألة عالية التنظيم ومدبرة من أحد الطرفين، ويشير أيضاً إلى أن مقاومة المسيحيين الشديدة ستطيل أمد الأزمة مما يمهد السبيل أمام أعداء الباب العالي لانتزاع سلطته من تلك الولايات. انظر: الخازن، المحررات السياسية، ج١، ص٦٧-٦٨.

[٣] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٧٥.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٢.

[٥] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٨٨. تشرشل، مرجع سابق، ص٤١. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٤.

[٦] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٩.

[٧] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص١٠١.

[٨] عمر باشا: نمساوي الأصل وُلد في بلاسكي على حدود البوسنة ١٨٠٦، واسمه الأول ميخائيل، ودخل المدرسة الحربية ثم نزح إلى داخل البوسنة العثمانية واعتنق الإسلام وسمى نفسه عمر، ثم زار الأستانة وانتسب إلى المدرسة العسكرية، وكان من جملة الضباط الذين حاربوا إبراهيم باشا عام ١٨٣٩، ثم عمل قائداً عسكرياً في الولايات الشامية ثم في الولايات البلقانية وشارك في حرب القرم، وعُيّن والياً في بغداد، ونُفي بعد بعض

الفتح العثماني لبلاد الشام عام ١٥١٦[١]، أعاد عمر باشا للإقطاعيين إقطاعاتهم وعيّن المعارضين منهم على إقطاعيات جديدة، مع إتاحة فرص عمل للكثير من الأفراد من خلال زيادة عدد الوظائف، إلى جانب التزوير والرشوة للحصول على عرائض موقعة من اللبنانيين تشير إلى تأييدهم للحكم العثماني المباشر؛ لإنهاء الحكم الشهابي[٢]، فقد بذل مصطفى باشا جهداً للحصول على تواقيع وأختام المشايخ وأتباعهم في كل أنحاء بلاد الشام، ويظهر ذلك جلياً في رسالة أرسلها مصطفى باشا إلى أحد الأعيان وَرَدَ نَصُّها في كتاب مشهد العيان في أخبار جبل لبنان، وجاء فيها: **(لا تدعو أحداً من مشايخ العشائر وشيوخ القرى إسلام ونصارى إلا وتختموه منه، وبالخصوص تجتهدوا على تكثير أسماء النصارى..)**، ومن **(ليس له ختم تدعوه بالحال على عمل ختم وتختموه منه... واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما به البولتكة (السياسة) والتنازل لكاين من كان حيث لا تخلو أحد من وضع اسمه وختمه)**[٣].

ب – الحكم العثماني المباشر ودور السياسة الأوروبية في تقسيم جبل لبنان.

احتج القناصل الأوروبيون في بيروت، والسفراء في الأستانة على الطريقة التي تم فيها عزل الأمير بشير الثالث[٤]، واتهموا العثمانيين بالتزوير والرشوة، وأبدوا رفضهم لتعيين حاكم عثماني على جبل لبنان[٥]، وهذا ما لم يكن بعيداً عن التنافس البريطاني- الفرنسي، فالموارنة وفرنسا يرغبون في إعادة بشير الثاني، ويعدونه الشخصية الوحيدة القادرة على ضبط الأمور، وبريطانيا تقف إلى جانب الدروز الذين حاربوا الشهابيين، فقد أسهم ذلك في ظهور التناقض بين مطالب اللبنانيين بين الدعوة إلى بعث إمارة لبنانية، وبقاء الحكم العثماني المباشر[٦]. ومع ذلك فقد انتفض الدروز ضد رعونة عمر باشا، وسوء إدارته وفرضه للضرائب الباهظة، وكان اعتقاله لسبعة من أشهر مشايخ الدروز الإقطاعيين سبباً أدى إلى انتفاضة درزية[٧] قادها شبلي

الخلافات مع الباب العالي، تقاعد عن الأعمال العسكرية عام ١٨٦٩، ونال رتبة الوزارة وأصبح من مشيري الدولة، توفي عام ١٨٧١. انظر: زيدان، جرجي، مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٣، د.ت، ج١، ص٢٤٠.

[١] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٠.

[٢] تشرشل، مرجع سابق، ٤٢. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٣.

[٣] مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٤٠.

[٤] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٠.

[٥] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٨٨-٩١. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٤.

[٦] أبو النصر، مرجع سابق، ص٦١. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٤.

[٧] أبو شقرا، مصدر سابق، ص٤٤. تشرشل، مرجع سابق، ص٤٤-٤٦.

العريان[١]، ورفض الموارنة الاشتراك في هذه الانتفاضة، مع تشجيع الفرنسيين على ذلك، ولكن أسعد باشا الذي حلَّ بدلاً عن مصطفى باشا استطاع أن يقضي على ثورة الدروز هذه وانتهت بتسليم شبلي العريان نفسه[٢]، ثم قام أسعد باشا بإقالة عمر باشا وعيَّن محمد باشا خلفاً له[٣].

دخلت الدول الأوروبية في مفاوضات طويلة وشاقة إلى أن اقترح مترنيخ Metternich حلاً يقضي بتقسيم جبل لبنان إلى قسمين: أحدهما للمسيحيين وعليه أمير مسيحي، وآخر للدروز تحت إدارة أمير درزي[٤]، ويبدو أن ذلك كان قريباً ممن ترغب فيه الدولة العثمانية ولاسيما أنه ينهي الحكم المحلي هناك[٥]، أو أنها رضخت للضغوط الأوروبية الرافضة لحكمها المباشر في جبل لبنان[٦]، ومهما يكن من أمر ومع عدم استطاعة الدولة العثمانية رفض هذا المقترح، تبنت الدول الأوروبية هذا التقسيم في كانون الأول ١٨٤٢، بعد أن أخفقت روسيا والنمسا في تقسيم ثالث ورابع للروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك. بينما كانت فرنسا وبريطانيا راضيتين تماماً عما تحقق لحلفائها؛ لأنه يصب في مصالحهما ويخدم تطلعات حلفائهما، فالدروز حصلوا على حكم إداري وسياسي، تحت الحماية البريطانية المعلنة، هذا الحكم الذي غاب عنهم منذ منتصف القرن السابع عشر، أما الفرنسيون والموارنة فقد حققت لهم هذا جزءاً من فكرة الوطن القومي للمسيحيين الذي آمن به فريق من رجال الدين والسياسة[٧].

ج – مبدأ التقسيم وأثره في تطور المسألة اللبنانية.

أعلن الباب العالي في مذكرة ٢٧ كانون الأول ١٨٤٢ للسفراء الأوروبيين عن قبوله بمبدأ التقسيم و جاء فيها **(أمراً بوضع هذا النظام موضع التنفيذ وتعيين قائم مقامين: أحدهما درزي، والأخر ماروني يتم اختيارهما بين الشخصيات اللبنانية باستثناء الشهابيين وفاقاً لما تم**

---

[١] العطار، مرجع سابق، ص٢٠٠.

[٢] تشرشل، مرجع سابق، ص٤٦–٤٧.

[٣] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦١.

[٤] العقيقي، انطوان ضاهر، ثورة وفتنة في لبنان–صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ إلى ١٨٧٣، تحقيق وتعليق يوسف إبراهيم يزبك، د.ط، د.ت، ص٤٤–٤٥. أبو النصر، مرجع سابق، ص٦١. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣ ، ٣٥.

[٥] مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٥٢. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٧.

[٦] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٥. بازيلي، مصدر سابق ص٣٣٠. فقد جاء في المحررات السياسية: **(إن الباب العالي وهو مدفوع بعوامل الاحترام... للدول الخمس أعز صديقاته وحليفاته... أن يجيبها على تحقيق أمانيها بدلاً من رفضها)**. انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص١٠٩.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٥–٣٦. عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٢.

الاتفاق عليه بين الباب العالي والدول الكبرى)[١]. لكن الروم الأرثوذكس اعترضوا على كلمة (ماروني) بدعم القنصل الروسي بازيلي الذي رفض خضوع الأرثوذكس لسلطان الموارنة[٢]، واستطاع أن ينجح مبدئياً الرفض الروسي- الإنكليزي لتعيين أحد أفراد أسرة أبي اللمع[٣] قائم مقاماً على المسيحيين. ولكنه خلق رفضاً فرنسياً مضاداً بحجة أن ذلك يخالف "روح" مفاوضات الأستانة عام١٨٤٢ لحل الأزمة اللبنانية على أساس الفصل بين المسيحيين والدروز، وساعدها على ذلك إدراك أبي اللمع غايات القناصل في تمزيق المجتمع اللبناني فقد تراجع روز وبازيلي عن موقفهما وقبلا به قائم مقاماً على المسيحيين[٤]، وذهبت محاولات بازيلي التي حاول عن طريق تعيين قائم مقام أرثوذكسي هباء منثوراً[٥].

ظهرت بعض الخلافات الأخرى فيما يتعلق بتحديد صلاحيات كل من القائم مقامين الإدارية، وفي تحديد الرقعة الجغرافية لسلطة كل منهما[٦]، ثم تحول هذا الخلاف إلى نزاع بين الأهالي (أصحاب العلاقة) بظهور مشكلة ما يسمى (المناطق المختلطة)[٧]، فقد تمت الكثير من الاجتماعات والمداولات بين الأطراف جميعاً الأوروبية والعثمانية التي ركزت بمجملها على التقسيم الطائفي والجغرافي إضافة إلى مسألة الهجرة، وتبادل السكان بين القلة المذهبية بين منطقة وأخرى[٨]، ثم تقرر فيما بعد- وبمقترح فرنسي- تعيين وكيلين إداريين في كل قرية أحدهما للدروز، والآخر للمسيحيين، وهذا الأمر الذي زاد في شدة الخلافات[٩].

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٩.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٢.

[٣] أسرة أبي اللمع أسرة لبنانية تنوخية، كان لها دور مهم في معركة عين دارا عام ١٧١١، اشتهر منهم- عدا الزعماء الأقطاعيين- الكثير من رجال السياسة والأدب. عين عمر باشا النمساوي حيدر إسماعيل أبي اللمع (١٧٨٥-١٨٥٤) قائم مقاماً للمسيحيين عام ١٨٤٢، بعد إنشاء نظام القائم مقاميتين إثر حوادث عام ١٨٤٠-١٨٤٢. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦١٣.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٤٠-٤١.

[٥] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٦٢.

[٦] أبو النصر، مرجع سابق، ص٦١-٦٢.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٤١-٤٢.

[٨] المرجع نفسه، ص٤٢. تشير الوثائق الواردة في المحررات السياسية إلى حجم المداولات التي تمت بين الأهالي والقناصل من جهة، وبين قناصل الدول الكبرى مع السلطات العثمانية من جهة أخرى، وبينهم وبين رؤسائهم من السفراء ومن وزراء الخارجية للقوى العظمى وحكوماتها. انظر الفهرس في: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٤٢٠-٤٢٩ وما بعدها.

[٩] المصدر نفسه، ص١٥٧. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٥.

في هذه الأثناء ظهر خلافا مذهبيا بين القنصلية البريطانية والقنصلية الفرنسية على خلفية اعتناق عدد من الأرثوذكس للمذهب البروتستانتي، وظهر نزاع فكري بين المبشرين الأوروبيين على حدود التبشير ومساحته، وهذا انعكس على الواقع وأسهم بظهور تقارب أرثوذكسي ماروني للحدِّ من النشاط البروتستانتي، فأثار ذلك حفيظة البريطانيين، وأثر في العلاقات البريطانية العثمانية التي شابها القلق والتوتر بعد اتهام بريطانيا للباب العالي بمحاباة الفرنسيين والروس[١] هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشير أحد الباحثين إلى إزاحة الستار عن الصراع الديني، واتخاذ النزاع طابعه الحقيقي المتمثل في الصراع الطبقي، فقد استلم الفلاحون المسيحيون قيادة الانتفاضة ضد الإقطاعيين الدروز بعد رفض الشيوخ والأمراء قيادة انتفاضتهم، فالتفوا حول قيادات جديدة عرفت بـ "شيوخ الشباب" من طائفتهم لمجابهة الإقطاعيين الدروز[٢]. لكن الفلاحين المسيحيين لم يفقهوا خصائص الصراع الطبقي، فشملت نقمتهم ضد الإقطاعيين الدروز عامة الدروز[٣]، وأدت بالنتيجة إلى وقوع اصطدامات عنيفة بين الدروز والفلاحين المسيحيين، فأعلن أسعد باشاعن فشل نظام القائم مقامية، غير أن هذا لم يرضِ الباب العالي فعزله وعيَّن خلفاً له محمد وجيهي باشا الذي حاول الاستفادة من هذا الوضع كي يقنع الأوروبيين بتعذر استتباب الأمن في لبنان، وأن الحل الوحيد يكمن في تعيين حاكم عثماني على البلاد[٤]. وتطور الأمر محلياً إلى وقوع حوادث مؤسفة ومؤلمة في أنحاء جبل لبنان في أيار وحزيران ١٨٤٥، ولم يحرك الوالي العثماني وجيهي باشا أيَّ ساكن، وتحت ضغط سفراء الدول الأوروبية، قرر الباب العالي إرسال شكيب أفندي الدبلوماسي العثماني والمتخصص في قضايا الشرق ليضع حداً لما يجري هناك[٥].

د- نظام شكيب أفندي، والدور الأوروبي ونتائجه السياسية:

حاولت فرنسا جاهدة إعادة الحكم الشهابي[٦]، لكن بريطانيا وقفت لها بالمرصاد[٧]، كما أن ذلك لم يحظ بتأييد كافٍ من بقية الدول الأوروبية، وهذا ما شجع العثمانيين على متابعة سياسة الإصرار على التقسيم أو العودة إلى الحكم المباشر؛ إذ أوفد السلطان العثماني وزير الخارجية

---

(١) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٤٢.

(٢) عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٦٥.

(٣) لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٤) عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٢٦٥.

(٥) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٤٦.

(٦) المرجع نفسه، ص٤٧. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص١٣٩.

(٧) عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٥.

شكيب أفندي إلى بلاد الشام[١]، لوضع مذكرة ٢٧ كانون الأول ١٨٤٢ موضع التنفيذ، هذه المذكرة كانت تقضي بتقسيم جبل لبنان إلى قائم مقاميتين[٢]، فسعى شكيب أفندي إلى التأكيد على سياسة التقسيم وتحديد صلاحية القائم مقامية، كما سعى إلى تبرئة ذمة العثمانيين من تبعة الحوادث التي وقعت في لبنان، وردها إلى سياسة قناصل الدول الأوروبية، وتدخلهم في جميع شؤون البلاد[٣]، فقد عمد بعد وصوله إلى بيروت في ١٤ أيلول ١٨٤٥ إلى تبليغ قناصل الدول الأوروبية أن يمتنعوا عن التدخل في شؤون بلاد الشام[٤]، وان يسحبوا رعاياهم من جبل لبنان لمدة عشرة أيام كي يتسنى له تهدئة الأوضاع، وإعادة الأمن، فأذعنت كل القنصليات الأوروبية بما فيها القنصلية الفرنسية التي عبرت عن شكوكها بوجود مؤامرة بريطانية- عثمانية تستهدف النفوذ الفرنسي في الشرق[٥]، فقد وجه السفير الفرنسي في الأستانة مذكرة شديدة اللهجة إلى الباب العالي، بعد تلقيه رسائل من قنصل بلاده في بيروت تشير إلى دعوة شكيب أفندي القناصل الأوروبيين لوقف نشاط المسافرين والمقيمين الأوروبيين؛ لأجل غير محدد[٦]، وجاء فيها **(أنه إذا أجبر أحدهم بالقوة على مغادرة بيته فعلى الباب العالي أن يتحمل أمام حكومة الملك تبعة خرقة الامتيازات التي أنشأ التجار والرهبان متاجرهم وبيوتهم ومؤسساتهم في ظلها وعلى أساسها)**[٧]، ولم تثمر الجهود الفرنسية لمعارضة هذا الأمر؛ لأن بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا قد وافقوا على إجراءات شكيب أفندي[٨].

عمل شكيب أفندي على نزع السلاح من الأهالي[٩]، وقام بحجز الأمراء والإقطاعيين الدروز والموارنة كي يحرم اللبنانيين من القيادة الحربية، ثم خلع الأمير أحمد أرسلان من القائم مقامية الدرزية، وعين مكانه أخاه الأمير أمين[١٠]، وبعد ذلك بدأ بتنظيم شؤون الإدارتين في جبل لبنان،

---

[١] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٦.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣.

[٣] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٧.

[٤] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٨.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٤.

[٦] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢١٠.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥.

[٨] المرجع نفسه، ص٥٥.

[٩] أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٣.

[١٠] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٧.

وهو ما يعرف بـ "نظام شكيب أفندي"[١]، فقد أبقى على نظام القائم مقامين في الجبل وشكل مجلساً إدارياً إلى جانب كل قائم مقام حتى يكون المجلس برئاسة القائم مقام، ويتألف هذا المجلس من معظم المكونات الاجتماعية في جبل لبنان[٢]، وينتخب أعضاؤه من قبل رجال الدين ووجهاء الطائفة التي ينتمون إليها، ويكون لهذا المجلس صلاحيات إدارية ومالية وقضائية[٣]، وعدَّ طريق دمشق- بيروت الحد الفاصل بين الإدارتين[٤].

هذه التغييرات التي أحدثها شكيب أفندي كان يسعى من خلالها إلى القضاء على النظام الإقطاعي بعد تجريده الإقطاعيين لكثير من امتيازاتهم، ومنحها للقائم مقام والمجلس التابع له بدلاً عن حكم الأمير ومشايخ الإقطاع، لكنه ربط تلك السلطة بعجلة النظام العثماني بعد أن عدهم بمثابة موظفين حكوميين يعينهم والي صيدا رسمياً، ويدفع لهم لقاء خدماتهم، بعد أن أصبح هذا الوالي يتمتع بصلاحيات وسلطات واسعة، وأصبحت له الكلمة الأخيرة في تعيين الموظفين[٥]، ولاسيما بعد فرض مبدأ الإجماع على كل قرار في المجلس، فإذا لم يتم الإجماع يكون الرأي الفصل للوالي وهو ما يجعل الحكم عثمانياً بامتياز[٦]، وكان شكيب أفندي يُطبق نظامه هذا في المناطق المختلطة فقط، في حين أن المناطق المتجانسة تركت للأعيان حرية التصرف في الشؤون الإدارة والمحلية[٧]. لكن ذلك لم يزيل التناقضات الأساسية بين الفلاحين والإقطاعيين في جبل لبنان، بل زاد الشرخ في العلاقات، وعمق الخلافات الدينية، وأثار الانشقاقات بين الفئات الدينية المختلفة، فتح الباب لتدخل الدول الأجنبية في شؤون بلاد الشام الداخلية وبصورة مستديمة[٨]، ولاسيما بعد أن أدركت الدول الأوروبية مخاطر نظام شكيب أفندي على نفوذها وامتيازاتها، فعمد قناصلها وبمساعدة الزعماء الإقطاعيين لمقاومة شكيب أفندي وخططه[٩].

---

(١) العطار، مرجع سابق، ص٢٠٣. يتألف النظام من مقدمة و(٣٨) مادة. للاطلاع انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٧-٢٣٨. مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص١٢٢. وانظر: - Tibawi, op. cit, p. 95-96.

(٢) عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٧-٣٦٨.

(٣) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٦.

(٤) مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٥٢.

(٥) عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٨-٣٦٩.

(٦) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٦.

(٧) عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٦٩.

(٨) لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٧.

(٩) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٦.

وتشير الرسائل والوثائق المتبادلة بين القناصل والسفراء ووزير خارجية فرنسا- إضافة إلى التداول بين أعضاء الحكومة الفرنسية ومجلس النواب الفرنسي- إلى عدم الارتياح في هذه الأوساط مما يجري في جبل لبنان، كما انتقد بعض الأعضاء للسياسة الخارجية المتبعة في فرنسا وغضب بعضهم الأخر من سياسة بريطانيا التي قوضت أركان إمارة الجبل "المسيحية"، وقسمته إلى قائم مقاميتين[١]، كما أن بعض الأصوات في مجلس النواب الفرنسي كانت لا تزال تطالب بإعادة الحكم إلى الأمير بشير أو ابنه الأمير أمين[٢].

وبشكل عام اتّبع القناصل الأوروبيون سياسة جديدة لدعم نفوذ بلدانهم، فقد اعتمدوا وسائل التبشير والتعليم، عن طريق دعم أعمال الإرساليات التبشيرية ومساندتها، فقام البريطانيون والفرنسيون بإنشاء مدارس عديدة ومؤسسات ومعاهد لإرسالياتهم وجمعياتهم، ولم تتخلف عنهم روسيا والنمسا وبروسيا ومملكة سردينيا وغيرها[٣]، وبذلك يمكن استنتاج أن نشاط الإرساليات الدينية شكل **(طريقاً آخر للتغلغل الأجنبي في بلاد الشام)** بعد أن استغلها معظم الدول الأوروبية[٤].

٣ – جذور المسألة الصهيونية كجزء من السياسة الأوروبية في بلاد الشام.

فتحت حملة نابليون على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨-١٨٠١) باب الصراع الدولي في المشرق العربي، وألهمت مخططو السياسة الاستعمارية في أوروبا ابتكار مشاريع السيطرة والتجزئة، واقتسام ممتلكات الدولة العثمانية[٥]. وكانت فرنسا أول من أسهمت جدياً في خلق فكرة تجميع يهود العالم في فلسطين، وجاء ذلك في اجتماع سري عُقد في فرنسا بين حكومة الإدارة الفرنسية وبين شخصيات سياسية يهودية وفرنسية عام ١٧٩٨، ومن خلال الوعد الذي أطلقه نابليون لليهود في نيسان ١٧٩٩ بعد إدراكه صعوبة تحقيق مخططاته[٦]، إلا أن هذا المشروع لم يلق تجاوباً من اليهود في آسيا وأوروبا[١].

---

[١] الخازن، المحررات السياسية، ج١، من الفهرس ص٤٣٤-٤٣٩.

[٢] ففي بيان لأحد الأعضاء في مجلس النواب الفرنسي في ٣ تموز ١٨٤٧ تحدث فيه عن عريضتين رفعهما المسيحيون والدروز لإعادة الحكم إلى الأمير بشير أو ابنه الأمير أمين. انظر: الخازن، المحررات السياسية، ج١، ص٢٧٤-٢٧٥.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٥٩.

[٤] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٥] محافظة، علي، العلاقات الألمانية- الفلسطينية من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٨٤١-١٩٤٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص٩٥.

[٦] التونسي، موسى الكاظم، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، سلسلة وثائق سياسية(١)، دار البعث، دمشق، د.ط، د.ت، ص٤٠. محمود، أمين عبدالله، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى

ومن جهة أخرى أدى زوال المؤسسات القديمة- بما فيها المؤسسات الدينية والكنسية- إلى بعث ديني جديد في بريطانيا وألمانيا، ففي بريطانيا[٢] ظهر هذا الاتجاه بشكل واضح مع ظهور جمعيتين دينيتين في لندن هما: جمعية التبشير الكنائسية عام ١٧٩٩، وجمعية يهود لندن عام ١٨٠٩، واللتين أسهمتا في تسخير التبشير الديني لأغراض السياسة الخارجية البريطانية[٣]. وفي ألمانيا (بروسيا) ظهرت جمعيات دينية مماثلة كجمعية نشر المسيحية بين اليهود التي تميزت بأهمية عسكرية، فقد جرت العادة على أن يتولى رئاسة هذه الجمعية أحد كبار الضباط في الجيش البروسي، وقد توطدت العلاقة بين هذه الجمعية وجمعية يهود لندن التي بدأت نشاطها التبشيري بين اليهود في فلسطين منذ عام ١٨٢٦، وفي جنوب ألمانيا تأسست الجمعية المسيحية الألمانية عام ١٧٨٠، وقد قام بعض أعضائها بتأسيس جمعية بازل التبشيرية عام ١٨١٥، واتفقت هذه الجمعية مع جمعية التبشير الكنائسية في لندن على الاشتراك في التبشير الإنجيلي في الشرق. وكانت فكرة استعمار فلسطين تهيمن على تفكير مؤسسي هذه الجمعيات التي نشطت بشكلٍ أكبر في الفترة التي تلت انتهاء حكم محمد علي باشا في بلاد الشام أواخر عام ١٨٤٠[٤]، وقد شكلت المرحلة بين عامي (١٨٤٠-١٨٨٠) المرحلة الأساسية التي رُسِمَت فيها الخطوط العامة للاستيطان اليهودي في فلسطين، مع فشلها؛ ذلك لأنها مهدت وأسهمت في تأسيس أولي للاستيطان الزراعي الذي تحول إلى طرح إيديولوجي اعتمدت عليه الحركة الصهيونية في المراحل اللاحقة[٥].

ازداد النفوذ الأجنبي في فلسطين خلال فترة الحكم المصري، فقد اتسع نشاط القناصل الأوروبيين وازداد فعالية النشاط التبشيري، بعد أن سعت الحكومة المصرية إلى إقناع الدول

نهاية الحرب العالمية الأولى، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد٧٤، شباط ١٩٨٤، ص١٤-١٥.

[١] المرجع نفسه، ص١٦.

[٢] كان البيوريتانيون Puritans (المطهرون) يشكلون الطبقة الحاكمة والقوة الاقتصادية في بريطانيا في منتصف القرن السابع عشر، وكانت تربطهم علاقات وثيقة باليهود الذين تهيأ لهم مجال واسع للمساهمة في النشاط التجاري والاقتصادي في بريطانيا بشكل عام، مما ألهم أوليفر كرومويل، رئيس الحكومة البريطانية البيوريتاني، الاستفادة من تلك القدرات الاقتصادية، فأبدى اهتماماً كبيراً بشؤون اليهود. وقد نظم عدد من البيوريتانيين حركة تهدف إلى مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين، وعلى الرغم من عدم ظهور نتائج عملية لهذه الحركة، إلا أنها كانت مؤشراً للقوى الحاكمة في بريطانيا، في مراحل لاحقة، لدراسة جدية لتوطين اليهود في فلسطين نظراً للفوائد الاقتصادية والسياسية، بالنسبة لبريطانيا. انظر: محمود، أمين عبدالله، مرجع سابق، ص١٣.

[٣] محافظة، العلاقات الفلسطينية- الألمانية، مرجع سابق، ص٨٨.

[٤] المرجع نفسه، ص٨٩.

[٥] الوعري، مرجع سابق، ص٦٩-٧٠.

الأوروبية بأن مصالحها لن تتضرر وبأن أوضاع الأقليات الطائفية سيكون أفضل مما كانت عليه[1]، ورغم ذلك فإن هذا لم يكن كافياً على ما يبدو، وكان التدخل الأوروبي الذي ينبع من إرادة هذه الدول في "الحفاظ على سلامة أراضي الدولة العثمانية" يشكل نواة السياسة الأوروبية ولاسيما البريطانية؛ لعدم توفر أي إمكانية للتوصل إلى اتفاق لتقسيم هذه الدولة في ذلك الوقت، فالتغلغل الأوروبي لم يكن يدور حول السيطرة الإقليمية حسب المقدمات السابقة، بل كان يدور حول مسألة "النفوذ" من خلال "حماية" الأقليات الدينية ضمن وحدة أراضي الدولة العثمانية، وكانت بلاد الشام من ضمن هذه المعادلة، فكانت كلٌّ من فرنسا وروسيا الأسبق إلى تحقيق هذه السياسة، لأنهما تحميان كل من الكاثوليك والأرثوذكس، لذا كان على الدول البروتستانتية بريطانية وبروسيا أن تبحث عن قواعد كاليهود والبروتستانت لبسط نفوذها عن طريقهم[2]. كان بالمرسترون Palmerston يشجع هذا التوجه؛ لأنه نظر إليه من زاوية المصالح الاستراتيجية والاقتصادية البريطانية، فقد رأى أن هذه الخطوة ستفيد الدولة العثمانية نفسها، وستؤدي إلى تدعيم النفوذ البريطاني في بلاد الشام مكان ازدهار التجارة البريطانية، وكان لإنشاء القنصلية البريطانية في القدس عام ١٨٣٨- كأول قنصلية أوروبية هناك- انعكاساً لأهمية هذا التوجه لدى بالمرسترون Palmerston[3]، كما أيده القنصل البريطاني في القدس وليم يونغ W. Yoyng، فقد أقترح في رسالة وجهها إلى بالمرستون في ١٤ آذار ١٨٣٩، أن تكون بريطانيا الحارس الطبيعي لليهود والبروتستانت[4]، فأصدر بالمرستون تعليماته للقنصل يونغ بمنح اليهود في فلسطين الحماية البريطانية لضمان سلامتهم وضمانة ممتلكاتهم[5]. غير أنه ولعدم وجود أي قاعدة بروتستانتية في "الأرض المقدسة"، تم تأسيس أسقفية إنكليزية- بروسية في القدس عام ١٨٤١، وبناء كاتدرائية بروتستانتية عام ١٨٤٩م، بهدف تنصير اليهود وجلبهم إلى فلسطين

---

[1] مناع، عادل، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨ (قراءة جديدة)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص١٦٢-١٦٣. بعد افتتاح قنصلية بريطانية ١٨٣٨ في القدس في فترة الحكم المصري، استمر العثمانيون بالسماح للدول الأوروبية الأخرى بفتح قنصليات لها، فتم افتتاح قنصلية روسية في عام ١٨٤٢، وفرنسية ١٨٤٣، وأمريكية ١٨٤٤، ونمساوية ١٨٤٩. كما نشطت الارساليات التبشيرية وتمتعت بحماية الحكومات الأوروبية ودعمها. انظر: المرجع نفسه، ص١٨٦.

[2] شولش، الكزاندر، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦- ١٨٨٢ دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ترجمة كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، د.ط، ١٩٨٨، ص٦٢.

[3] سنو، مرجع سابق، ص٤٢. مناع، مرجع سابق، ص١٨٦. ويشرح بالمرستون آراءه هذه في مذكرة إلى سفير بريطانيا لدى الدولة العثمانية بخصوص توطين اليهود في فلسطين بتاريخ ١١ آب ١٨٤٠. انظر: ملف وثائق فلسطين، مرجع سابق، ص٤٧.

[4] المرجع نفسه، ص٤٣.

[5] محمود، أمين عبدالله، مرجع سابق، ص١٩.

لخلق نواة هذه القاعدة البروتستانتية[١]. تجدر الإشارة إلى أن الاهتمام البريطاني–البروسي (السياسي) بفلسطين كانت تدعمه فكرة "الألفية الإنجليكانية" التي تدور حول إعادة اليهود التي طورتها العقيدة الإنجيلية الألمانية والإنجليكانية الإنكليزية، وهي مفاهيم ترتبط بمسألة التبعثر والتجمع في فلسطين، وقبول الرسالة المسيحة التي تدعو إلى تحقيق "مملكة المسيح الحقة" التي يؤمن بها اليهود[٢].

كان من أهم المشاريع التي طُرحت ضمن الأزمة الشرقية، ولم يتطرق إليها مؤرخو الأزمة الشرقية "الكبرى" عام (١٨٤٠-١٨٤١)، مسألةُ إسكان اليهود الأوروبيين في فلسطين، ثم تدويل القدس وضواحيها[٣]. وكانت بروسيا قد أدت دوراً مهماً في هذا الاتجاه الذي أدى بالنتيجة إلى تقارب بريطاني– بروسي، فقد رأت بروسيا أن إنقاذ القوى العظمى للدولة العثمانية يجب أن يقترن بمكاسب سياسية ودينية، وعلى هذه الأسس صاغت الحكومة البروسية مذكّرات لحكومات الدول الأوروبية بين عامي ١٨٤٠-١٨٤١، وطرحت فيها مشروع تدويل القدس، ووضعها تحت الحماية المشتركة للدول الخمس، ومذكّرات أخرى دعت فيها إلى تأمين حماية اليهود في فلسطين، إلا أن الدول الأوروبية رفضت هذه المشاريع بشكلٍ قاطع[٤]؛ لأنه يخل بمبدأ توازن القوى الذي عملت هذه الدول على تحقيقه في المنطقة لعشرات السنين، ناهيك عن الممانعة الأرثوذكسية والكاثوليكية للامتداد البروتستانتي، وكل ما من شأنه أن يجعلها على قدم المساواة معهما[٥]، إلا أن بروسيا استمرت في طلبها للبحث عن موطئ قدم، واستقرت في النهاية على أن بريطانيا الإنجليكانية هي الحليف الطبيعي لبروسيا البروتستانتية، فتم الاتفاق بين الطرفين على إنشاء مطرانية بروسية– إنكليزية عام ١٨٤١[٦]، وكان توطين اليهود أحد أبرز مهامها، حسب ما سبق من دوافع استراتيجية وعقائدية. إلا أن جوانباً أخرى اقتصادية واجتماعية كانت تدفع بهذا الاتجاه أيضاً، وهذا ما انعكس في بعض الأدبيات الألمانية، كما هو الحال لدى الفيلسوف الألماني فيخته[٧]، الذي أشار إلى استحالة تغيير الواقع الاجتماعي لليهود سوى **(أن نستبدل في**

---

[١] شولش، مرجع سابق، ص٦٤.

[٢] المرجع نفسه، ص٧٦.

[٣] حجار، مرجع سابق، ص٢٢٧.

[٤] محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص٩٨-٩٩.

[٥] سنو، مرجع سابق، ص٢٧.

[٦] حجار، مرجع سابق، ص٢٢٧.

[٧] فيخته Fichte (١٧٦٢-١٨١٤): فيلسوف ألماني تأثر أول الأمر بتعاليم كنت، ثم مال إلى فلسفة مثالية محورها (الأنا). انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٣٦.

إحدى الليالي رؤوسهم برؤوس أخرى، خالية من أي أفكار يهودية)[1]، وكي تتم حماية الألمان منهم يجب أن تفتح لهم **(أرض الميعاد ونرسلهم جميعاً إلى هناك)**، بينما يتمثل الجانب الاقتصادي بما تمتعت به الرأسمالية اليهودية في الممالك الألمانية من امتيازات ولاسيما في حقول النشاطات المالية والصناعية واستثمار الأراضي، وفي مجال النشاطات المصرفية، وفي التجارة والزراعة والأعمال الحرفية، كل هذا هدد الأسس الاقتصادية للكثير من الألمان، وسرعان ما تحولت القضية إلى سخط ألماني عام أخذ طابعاً معادياً لليهود[2]، ولم تؤد عملية صهر اليهود في المجتمع الألماني، بمنحهم المواطنة الألمانية إلى جانب عملية التنصير، أيَّ حلٍّ ممكن للمسألة اليهودية في ألمانيا؛ لأن الحواجز النفسية والعنصرية والدينية والاقتصادية لليهود تحول دون ذلك، وتفصل بينهم وبين الألمان، فبدأت رحلة البحث عن حلٍّ، واعتقد بعض المفكرين أن "أرض الميعاد" قد يكون الحل المناسب[3].

وتزامن ذلك مع بعض التطلعات الفردية لبعض الأشخاص في هذه المسألة، وتزامن أيضاً مع أواخر عهد محمد علي باشا في بلاد الشام، بعد أن أسهمت الدول الأوروبية في إخراجه منها وإعادتها إلى الحكم العثماني[4].

ومن جهة أخرى، عندما كانت عملية تأسيس المؤسسات البروتستانتية تهدف إلى تنصير اليهود، بدا أن مقاومة اليهود لا يمكن التغلب عليها، ومنذ عام ١٨٤٦ تم تنحية هذا الهدف بصورة نهائية، وتم التوجه بدلاً عنهم إلى المسيحيين الأرثوذكس المحليين بالدرجة الأولى[5]. وبالمقابل فقد تم وضع يهود بلاد الشام تحت "الحماية السياسية المميزة" لبريطانيا[6]؛ إذ أوصت بريطانيا قناصلها في بلاد الشام بالتقرب من اليهود ومحاولة نشر فكرة "الكيان الجديد" في أوساطهم[7]، وتشير الوثائق الواردة في إحدى المراجع إلى الطلب المتكرر للحكومة البريطانية من قنصلها العام في القدس إلى تكريس الوجود البريطاني فيها، وفي المدن الأخرى، وحماية مصالحها ورعاياها من الطوائف اليهودية، والوافدين إلى فلسطين بذريعة الرحلات المقدسة، وأن يحولوا دون قيام الباب العالي بمنعهم من الإقامة، على أن هذه الطلبات هي **(أوامر سيُسأل**

---

[1] سنو، مرجع سابق، ص٣٩.
[2] المرجع نفسه، ص٣٩-٤٠.
[3] المرجع نفسه، ص٤١.
[4] المرجع نفسه، ص٤١-٤٤.
[5] مناع، مرجع سابق، ص١٨٧.
[6] شولش، مرجع سابق، ص٦٤.
[7] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٧.

القناصل عنها)[1]، إلى جانب الاتصال بالقبائل العربية لإقناعها بأن قيام هذه الكيان سيجر عليهم فوائد مادية كبيرة، إلا أن رفض زعماء القبائل كان عنيفاً وصارماً، حتى سبّب النفور لدى المسلمين من القنصل البريطاني، لدرجة أدرك القناصل البريطانيون فيها أن هذا المشروع سيؤلب العرب عليهم، ومن ثم فإن فرنسا وروسيا ستحظيان بفرصة كبيرة لتوسيع مجال نفوذها أمام تراجع النفوذ البريطاني، فاكتفت بريطانيا بإعلان تعاطفها مع اليهود المقيمين في بلاد الشام، واستعدادها لحماية مصالحهم[2]. كما أنها حرصت على إبداء التعاطف مع اليهود الذين هم من أصل روسي، فقامت القنصلية البريطانية بجهود القنصل جيمس فن J. Finn (القنصل البريطاني في القدس ١٨٤٥-١٨٦٠) لإعداد ملفات خاصة باليهود الروس، وحصر أعدادهم وتسجيلهم في سجلات خاصة، وعندما ازدادت احتجاجات الدولة العثمانية سارعت بريطانيا لحمايتهم ومنحهم الجنسية البريطانية[3]، بعد أن تقاعست القنصلية الروسية في حماية رعاياها اليهود، فقد فضل هؤلاء الحماية البريطانية[4]. وجاءت حادثة مقتل الراهب الكاثوليكي الأب توما الكبوشي على يد بعض اليهود في دمشق عام ١٨٤٠[5]، لتؤكد مدى الحماية والرعاية التي منحتها بريطانيا لليهود، وذلك عندما تدخل القنصل البريطاني لدى الوالي العثماني عام ١٨٥٠ لرفع لوحة على ضريح المغدور كُتب عليها: **(إن اليهود قتلوه ظلماً وعدواناً)**[6].

ولم تنجح هذه المشاريع، ولم تستطع استمالة أي مستوطن يهودي، وأخفق مشروع الاستيطان الانجليزي- البروسي[7]، ويضاف إلى ذلك أن دعوة اليهود الأوروبيين إلى "أرض الميعاد" كانت أقل جاذبية مما توقعها السياسيون الألمان والبريطانيون، ولاسيما بعد ربطها بالتنصير كشرط مسبق[8]، ولن تعود هذه المطالبات بهذا الزخم مرة أخرى إلا في مر مرحلة بعد عام ١٨٨٢، ثم خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)[9]. مع العلم أن المرحلة الممتدة

---

(١) الوعري، مرجع سابق، ص١٣٩.

(٢) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٧.

(٣) الوعري، مرجع سابق، ص١٠٨.

(٤) المرجع نفسه، ص١٥٩.

(٥) مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، مصدر سابق، ص١١٣-١٢١. مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، مصدر سابق، ص١٣٢-١٣٦.

(٦) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٧.

(٧) لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٨-١٥٩.

(٨) سنو، مرجع سابق، ص٤٥.

(٩) شولش، مرجع سابق، ص٦٧.

بين عامي ١٨٥٦ و١٨٧٨ شهدت تحولات جديرة بالاهتمام، تعلقت بالسياسة الأوروبية في فلسطين، وهذه ستُناقَش ضمن الخطة الزمنية للبحث.

الفصل الثالث

السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٥٣-١٨٧٨).

أولاً- حرب القرم.

ثانياً- السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٥٦-١٨٦٤).

ثالثاً- الهيمنة الاقتصادية- الأوروبية في بلاد الشام (١٨٦٤-١٨٧٨).

رابعاً- السياسة الأوروبية تجاه تطورات المسألة الشرقية (١٨٧٥-١٨٧٨).

- **الفصل الثالث: السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٥٣-١٨٧٨).**

أولاً: حرب القرم.

١- روسيا وجذور الأزمة:

كانت الأحداث التي مرت بالدولة العثمانية في القرن التاسع عشر بالإضافة إلى التمرد الذي قام به محمد علي باشا ضدها الذي أدى إلى تدخل الدول الأوروبية لصالحها، كل هذا وغيره أظهر بشكل واضح ما آلت إليه الدولة العثمانية من ضعف ووهن، ويبدو أن ذلك قد أقنع القيصر الروسي نيقولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) بأن الدولة العثمانية بلد يحتضر، فصار يصرح بشكل علني لدى زياراته للعواصم الأوروبية، برلين، وفيينا ١٨٤٣، ولندن ١٨٤٤، أن سقوط الدولة العثمانية بات وشيكاً[١].

وكانت روسيا بعد اعتناقها للمذهب الأرثوذكسي ترى نفسها وريثة للدولة البيزنطية[٢]، وأصبحت تحلم بالسيطرة على القسطنطينية منذ عهد بطرس الأكبر[٣] الذي أوصى بضرورة القضاء على الدولة العثمانية والاستيلاء على الأستانة[٤]، يدفعها إلى ذلك منطلقات جغرافية واستراتيجية أيضاً، ولاسيما أن الدولة العثمانية تسيطر على مضيقي البوسفور والدردنيل، لذا كانت روسيا تسعى- على أقل تقدير- إلى ضمان حرية المرور في كل الأوقات لسفنها التجارية والحربية، وإغلاق هذه الممرات أمام سفن الدول المعادية لروسيا[٥]. ودعماً لهذه التوجهات رفعت روسيا شعاري "الرابطة السلافية"، و"الدفاع عن المذهب الأرثوذكسي" للضغط على الدولة العثمانية عن طريق إثارة الثورات في البلقان، ولاسيما أن المذهب الأرثوذكسي ينتشر في كل أرجاء البلقان السلافية، وفي اليونان غير السلافية، وقد وجدت هذه الإدعاءات الروسية التي

---

[١] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٢٧.

[٢] صفوت، مرجع سابق، ص١١.

[٣] **بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥):** قيصر روسي منذ عام ١٦٨٢، له إنجازات كثيرة، فقد فتح قلعة آزوف التركية عام ١٦٩٦، وله الفضل في تمدن روسيا ونظم الجيش والإدارة وحرر المرأة، ونقل عاصمته إلى بطرسبورغ وأسس أكاديمية العلوم وغيرها من الأعمال. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٣٥.

[٤] كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٨٠. فقد جاء في تاريخ جودت في البند التاسع من وصية بطرس الأكبر ما يلي: **(ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدول الإيرانية وينبغي ضبط البحر الأسود شيئاً فشيئاً..)**. انظر: جودت، مصدر سابق، المجلد الأول، ص٢٩٦. المحامي، مصدر سابق، ص٣٢.

[٥] صفوت، مرجع سابق، ص١١.

تبنّت المذهب الأرثوذكسي آذاناً صاغية في البلقان، وعند الأقليات الأرثوذكسية في بلاد الشام بعد عودة الحكم العثماني إليها عام١٨٤٠[١].

ولم تحصل روسيا من معاهدتي لندن ١٨٤٠ و١٨٤١ على الشيء الكثير، مع تضحيتها بمعاهدة هنكار اسكلة سي ١٨٣٣، ومع إدراكها مدى قوة بريطانيا[٢]، وخلافاتها المزمنة مع فرنسا، لذلك كان عليها أن تمضي في سياسة التفاهم مع الأولى، وتأكّدَ ذلك من خلال الزيارة الرسمية التي قام بها القيصر الروسي للملكة فيكتوريا[٣] في أيار ١٨٤٤، في محاولة منه لعزل فرنسا قدر ما يمكن، ولدراسة إمكانية "اقتسام" الدولة العثمانية إذا ما شاءت الأقدار، فقد طرح القيصر على بريطانيا فكرة تقسيم الدولة العثمانية في هذه الزيارة، وحذَّر المسؤولين البريطانيين من إمكانية سقوط الدولة العثمانية، ومن سياسة فرنسا وأطماعها في مصر وبلاد الشام[٤].

ولم تكن العواصم الأوروبية تعتقد بجدية المطلب الذي تقدم به القيصر[٥]، كما رفضت بريطانيا فكرة سقوط وتقسيم الدولة العثمانية[٦]؛ لأنها مقتنعة بأن طموح القيصر الروسي لن يقف عند البلقان والأستانة والدردنيل، بل سيتعداها إلى الشرق، ولاسيما أن روسيا بدأت تبدي اهتماماً واضحاً بالروم الأرثوذكس في بلاد الشام، وتحاول بسط حمايتها عليهم، وتحاول إعطائهم شخصية خاصة بهم لهذا الغرض[٧]، فكان على القيصر أن ينتظر عقداً من الزمن، جرت خلاله الكثير من التغييرات في أوروبا، مثل ظهور ثورات عام ١٨٤٨، والتأثيرات التي تركتها بعد أن هزت معظم أرجاء أوروبا[٨]، وظهور مغامر جديد هو نابليون الثالث[١] (١٨٥٢-١٨٧٠) الذي

---

[١] أبو جابر، مرجع سابق، ص١٠٧.

[٢] حققت بريطانيا تقدماً مهماً في آسيا بين عامي (١٨٣٩-١٨٤٢) فقد انتصرت في حربي الأفيون في الصين عامي ١٨٣٩و١٨٤٢، وفرضت على حكومة بكين معاهدة نانكين ١٨٤٢ التي منحتها خمسة مرافئ صينية كبرى جديدة، وجعلت هونغ كونغ مستعمرة للتاج البريطاني، كما نجحت في إخراج محمد علي من بلاد الشام عام١٨٤٠، وانتصرت في أفغانستان عام ١٨٤٢. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٧٥.

[٣] **الملكة فكتوريا (١٨١٩-١٩٠١):** ملكة انكلترا منذ عام ١٨٣٨، عملت على التقارب بين بريطانيا وفرنسا، نودي بها إمبراطورة بريطانيا والهند عام ١٨٧٦، خلفها على العرش ابنها إدوارد السابع. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٢٩.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٧٥-٧٦. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 247.

[٥] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٢٧.

[٦] Tayler، مرجع سابق، ص٨٠.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٧٧.

[8] Marriott, op. cit, p. 255

استلم عرش فرنسا، وكانت تجمعه مع القيصر علاقة سيئة للغاية[٢]، فضلاً عن التنافس الشديد بينهما حول مسألة الأماكن المقدسة وحمايتها[٣].

٢-أزمة الأماكن المقدسة:

تعود مسألة أزمة الأماكن المقدسة إلى جملة من القضايا القديمة والجديدة معاً[٤]، ومنها الامتيازات الأولى التي منحها السلاطين العثمانيون لملوك فرنسا في القرن السادس عشر ثم في القرن الثامن عشر وتم فيها منح الرهبان الكاثوليك في القدس والناصرة[٥] وبيت لحم[٦] حقّ إنشاء الكنائس والأديرة[٧]، في حين أن روسيا كانت تزعم أن معاهدة كوجوك قينارجة لعام ١٧٧٤ منحتها حق حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية بشكل يوازي الحقوق الممنوحة سابقاً للكاثوليك[٨]، ومع أن المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية لم تنص صراحة على حماية أيٍّ من فرنسا وروسيا للرعايا المسيحيين في الدولة، إلا أنهما حاولتا بعناد تأكيد نفوذهما في الأراضي المقدسة، في وقت كانت فيه المنافسة على أشدها بين مختلف الديانات والمذاهب المسيحية لكسب النفوذ في هذه البقعة من الإمبراطورية العثمانية[٩]، ولذلك كانت الكنيسة الأرثوذكسية متفوقة في بلاد الشام بنفوذها بين السكان في ثلاثينيات القرن التاسع عشر بعد الدعم الذي قدمته روسيا لها، في حين أن فرنسا حاولت تثبيت الدعم والحماية للكاثوليك واللاتين، ولاسيما بعد تعيين أول قنصل لها في القدس عام ١٨٤٣، ومن جهة أخرى أعلن البابا بيوس التاسع[١٠] عدم اعترافه بالكنيسة الشرقية بعد تعيينه لبطريك كاثوليكي في القدس، وهذا الأمر أثار نزاعاً حاداً بين

---

[١] **نابليون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٣):** وُلد في باريس، وأصبح إمبراطوراً لفرنسا عام ١٨٥٠ وتم خلعه بعد فشله في الحرب ضد ألمانيا عام ١٨٧٠، فاعتزل في انكلترا وتوفي فيها. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٧٠٣.

[٢] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٢٧.

[3] Tibawi, op. cit, p.

[4] Anderson, op. cit, p. 114.

[٥] **الناصرة:** مدينة في شمال فلسطين (الجليل)، وهي بلدة مريم العذراء، قضى السيد المسيح (عليه السلام) حياته فيها فدُعي ناصرياً وسُمّي أتباعه النصارى. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٧٠٤.

[٦] **بيت لحم:** بلدة في فلسطين تقع إلى الجنوب من القدس، وُلد فيها النبيين داوود وعيسى (عليهما السلام)، بنى فيها الإمبراطور قسطنطين الأول عام ٣٣٠م كنيسة في الموضع الذي وُلد فيه السيد المسيح وسُمّيت كنيسة المهد. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٧] عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٣٩-١٤٠.

[٨] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٤٢٠-٤٢١.

[٩] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٠٨.

[١٠] **البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨):** تمت في عهده الوحدة الإيطالية ففقد الكرسي الرسولي ممتلكاته، فانعزل هذا البابا وخلفائه من بعده في الفاتيكان منذ ذلك الوقت. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٧٩.

الرهبان الكاثوليك والأرثوذكس فيها، في الوقت الذي نال فيه الأرثوذكس الإشراف على الكثير من الأماكن المقدسة، لأنهم كانوا الأكثر تنظيماً لصفوفهم[١].

إضافة إلى ما سبق تأزمت العلاقات بين الكاثوليك والأرثوذكس عام ١٨٤٨ عندما اختفت نجمة من الفضة تحمل عبارات لاتينية من هيكل في المغارة التي ولد فيها السيد المسيح[٢]، وكان الأرثوذكس يقومون برعايتها، فاتهمهم الكاثوليك بسعيهم في إتلاف آخر أثر يؤكد أن الهيكل كان بيدهم سابقاً، في حين نشر الأرثوذكس فكرة أن الكاثوليك أخفوها لإثارة الخلافات بين الطائفتين في سبيل استعادة نفوذهم القديم على الهيكل. وقد أثارت هذه المسألة قضية أخرى تتعلق بكتابات لاتينية كانت محفورة في كنيسة القيامة[٣]، وكان الأرثوذكس قد ألغوها بعد ترميمهم لهذه الكنيسة بعد حريق نشب فيها عام١٨٠٨[٤]؛ فقد طالبت فرنسا بإعادة كتابتها، وطالبت أيضاً بتفعيل بنود معاهدة ١٧٤٠ بين السلطان محمود الأول[٥] ولويس الخامس عشر[٦]، بينما طالبت روسيا بتطبيق بنود معاهدة كوجوك قينارجة ١٧٧٤[٧]. فأحدثت هذه

---

[١] صفوت، مرجع سابق، ص٢٩. وكان الباب العالي قد قضى بإعطاء اللاتين مفاتيح ثلاثة من الأبواب والممرات الهامة لكنيسة القيامة، وأبقى مفتاح الباب الرئيسي لدى الأرثوذكس. انظر: العطار، مرجع سابق، ص٢٠٤. وانظر أيضاً:

- Marriott, op. cit, p. 252

[٢] العطار، مرجع سابق، ص٢٠٤.

[٣] كنيسة القيامة: من أهم مزارات المسيحيين في القدس، بناها قسطنطين الأول على قبر المسيح (عيه السلام) حوالي عام ٣٢٦، جدد بناءها الصليبيون ١١٣١-١١٤٤.

[4] Tibawi, op. cit, p. 107.

[٥] **السلطان محمود الأول (١٦٩٦-١٧٥٤):** استلم حكم السلطنة منذ عام ١٧٣٠، حارب الفرس والروس واعتنى بجمال العاصمة وهو صاحب الامتيازات الأجنبية للفرنسيين عام ١٧٤٠. لنظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٤٠.

[٦] لويس الخامس عشر (١٧١٠-١٧٧٤): استلم الملك عام ١٧١٥ بعد وفاة جدّه لويس الرابع عشر تحت وصاية فيليب دورليان، تقرب من النمسا ليقاوم مطامع بروسيا وانكلترا، دخل في حرب السبع سنوات مع انكلترا التي فقدت فيها فرنسا كندا والهند، لم ينل حب الشعب فتوفي دون أن يأسف عليه أحد من الفرنسيين. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦١٨.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٨٢ . عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص ١٤٠.

الخلافات تساؤلاً كان من الصعب على الدولة العثمانية أن تجيب عليه؛ وهو: من هي الدولة "المسؤولة" عن حماية الأماكن المقدسة ؟ فرنسا أم روسيا[١]؟.

٣- انعكاس الأزمة في الأستانة:

قدمت الحكومة الفرنسية طلباً للباب العالي تتمسك فيه بامتيازاتها السابقة وفق معاهدة عام ١٧٤٠، بينما حاولت روسيا التصدي للأمر؛ لأنها لم تكن لتتنازل عن مكتسبات الكنيسة الأرثوذكسية[٢]. ولإيجاد مخرجٍ لهذه الأزمة شكّل السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) لجنة لدراسة الامتيازات الممنوحة للطرفين[٣]، وصادف ذلك تنصيب لويس بونابرت إمبراطوراً لفرنسا تحت اسم نابليون الثالث (١٨٥٢-١٨٧٠)، وهذا أسهم في زيادة تأزم القضية؛ لأن نابليون الثالث استفاد من قضية الخلاف في الأماكن المقدسة ليوظفها للانتقام من المعارضين له في الداخل والخارج، وليكسب عواطف الأوساط الكاثوليكية[٤].

طرحت اللجنة العثمانية حلاً توافقياً أرضى الروس قليلاً، ولكنه لم يعجب الفرنسيين مطلقاً، كما طالب القيصر الروسي الباب العالي بإلغاء معاهدة ١٧٤٠ بين فرنسا والدولة العثمانية، فرفض الباب العالي هذا الطلب؛ لأنه عدَّ ذلك تدخلاً روسيّاً في شؤون السيادة العثمانية[٥].

أما القيصر- ورداً على هذا الرفض- فقد بادر إلى خلق الاضطرابات في البلقان؛ حيث ثار سكان الجبل الأسود، وكان الرد العثماني سريعاً وعنيفاً، وتدخلت النمسا بشكل مفاجئ؛ لقرب الاضطرابات من حدودها، وطالبت الدولة العثمانية بمنح سكان الجبل الاستقلال الداخلي، فوافق الباب العالي على مضض لأنه لا يستطيع أن يستعدي روسيا والنمسا في الوقت نفسه[٦].

ودفع الرفض الروسي- الفرنسي للمقترحات التوافقية الباب العالي إلى التقلب في مواقفه من الطرفين ومن منحهم حق الإشراف على الأماكن المقدسة، فقد استقر في النهاية على منح اللاتين حق الإشراف الفعلي عليها[٧] بعد أن نجح نابليون الثالث بالضغط على الدولة العثمانية

---

[١] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، مرجع سابق، ص٢٩. وانظر:

- Anderson, op. cit, p. 116

[٢] صفوت، مرجع سابق، ص٣٠.

[3] Tibawi, op. cit, p. 108.

[٤] عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٠-١٤١. انظر:

- Kirk, op. cit, p. 87.

[٥] عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٢.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٩٢.

[٧] Tayler، مرجع سابق، ص٧٩.

لتعلن عن أحقية الكاثوليك بتسلم مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم[١]. وقد أفضى ذلك إلى إعادة روسيا لحساباتها السياسية بالنسبة للدولة العثمانية بعد تقويضها "لسمعة" القيصر الدينية[٢]، فأرسل القيصر وفداً كبيراً من الدبلوماسيين والعسكريين تحت قيادة منتشيكوف[٣] على متن سفينة حربية؛ لاعتقاده أن ذلك سيحدث تأثيراً في العثمانيين ليحصل الوفد على اعتراف السلطان للقيصر بحمايته للأرثوذكس في جميع بلدان الإمبراطورية العثمانية[٤]، فأدرك الساسة الفرنسيون والبريطانيون خطورة الموقف، وأن روسيا تسعى إلى تحويل قضية الأماكن المقدسة إلى أزمة سياسية كي تستفيد منها للإجهاز على الدولة العثمانية[٥].

وكادت البعثة الروسية أن تحقق أهدافاً تفوق مكاسب معاهدة هنكار اسكله سي لعام١٨٣٣[٦]، بعد أن حقق المبعوث الروسي تقدماً ملحوظاً في مباحثاته السياسية، فقد أسهم في تنحية فؤاد أفندي عن وزارة الخارجية، إضافة إلى مطالبته باستمرار حقوق الأرثوذكس، ووضع حد لتعديات الكاثوليك[٧]. فتدخلت فرنسا وبريطانيا لإحباط المفاوضات الجارية بين الطرفين، ونصحت- في خطة محكمة- المسؤولين العثمانيين بالتساهل في قبول المطالب الروسية، لمعرفة مداها والكشف عن خفايا التوجهات السياسية الروسية للإمبراطورية العثمانية. فبعد أن وافق الباب العالي على المطالب الخاصة بقضية الأماكن المقدسة، طالب المبعوث الروسي باستقلال الجبل الأسود، فرفض الباب العالي ذلك وعدّه تدخلاً في شؤون بلاده الداخلية؛ لأن مشاكل البلقان تتقاطع مع قضية توازن القوى الأوروبية، وتحتاج إلى معرفة مواقف وموافقة الدول الأوروبية حيالها[٨]، ورداً على ذلك عرض منتشيكوف مشروعاً يحمل صيغة الإنذار طلب فيه الاعتراف لروسيا بحماية كافة الطائفة الأرثوذكسية في الدولة العثمانية حماية تامة مطلقة[٩]، وأعطى الباب

---

[١] أبو جابر، مرجع سابق، ص١٠٧. وانظر:

- Anderson, op. cit, p. 117

[٢] Tayler، مرجع سابق، ص٧٩.

[3] Marriott, op. cit, p. 256.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٠٣. لقد كان منتشيكوف هذا عسكرياً بالدرجة الأولى، وملتزماً بالعقائد الأرثوذكسية إلى حد كبير، ولم يكن دبلوماسياً خبيراً. انظر:

- Anderson, op. cit, p. 121.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٠٥.

[٦] عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٥.

[٧] المرجع نفسه، ص١٤٥. صفوت، مرجع سابق، ص٣٢-٣٣.

[٨] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١١٢. عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٦.

[٩] ماركس، مصدر سابق، ص٨٧-٨٨. وانظر:

العالي مهلة لعدة أيام[١]، وكان هذا الأمر يترك خللاً كبيراً في مبدأ توازن القوى الأوروبي[٢]، ولم يصغ منتشيكوف إلى نصيحة سفير النمسا في تغيير لهجة الإنذار ليستبدلها بمذكرة دبلوماسية، وأصرّ على مقابلة السلطان على الرغم من وفاة والدته، فاستاء السلطان من ذلك كثيراً، وأقال الحكومـة، ثم أسند الصدارة العظمى إلى رشيد باشا، وأدخل في الوزارة أشد الساسة العثمانية عداءً لروسيا[٣]، ورفض مطالب المبعوث الروسي كلها الذي غادر الأستانة مع الوفد المرافق له إضافة إلى السفير الروسي في ٢٢ أيار ١٨٥٣، فكانت مغادرته نصراً دبلوماسياً للسياسة الأوروبية، وضربة موجعة لكبرياء القيصر الروسي الذي نادى إلى حرب صليبية ضد الإمبراطورية العثمانية، وبدأ فعلاً في حزيران ١٨٥٣ بتحريك جيوشه نحو أراضي الدولة العثمانية[٤].

٤- الموقف الدولي من الأزمة.

لم يتوقع القيصر الروسي قبول الباب العالي الإنذار النمساوي بمنح سكان الجبل الأسود الاستقلال الداخلي؛ لأنه- وحسب خطته- كان سينتصر لأرثوذكس البلقان بإرسال جيوشه لإنهاء الوجود العثماني، وكان القيصر يدرك أنه يحتاج إلى موافقة بريطانيا على ذلك[٥]، ففي حفلة ساهرة أقامها في قصره الشتوي في كانون الثاني ١٨٥٣، دعا إليها سفراء الدول، وعلى رأسهم سفير بريطانيا اللورد سيمور ليخبره القيصر بأنه يهتم بعلاقته مع بريطانيا دون سائر الدول الأخرى، وفي هذه المحادثة أيضاً أطلق القيصر عبارته المشهورة واصفاً الدولة العثمانية بالرجل المريض، حيث قال:

(Turkey is in a cirtical state… the country itself seems to be falling to pieces … we have on our hands a sick man- a very sick man: It will be, I tell you frankly, a great misfortune if, one of these days, he should slip away from us before all necessary arrangements were made..) [6].

- Anderson, op. cit, p. 122.

[١] المحامي، مصدر سابق، ص٤٩٤-٤٩٥. عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٧.

[2] Kirk, op. cit, p. 87.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١١٤-١١٥.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١١٥. عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٨-١٤٩.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٩٤.

[6] Marriott, op. cit, p. 257-258.

وبأنه مهتم بالأمر لدرجة أنه سيضطر لاحتلال الأستانة إذا لم يصل مع بريطانيا إلى اتفاق بهذا الشأن[١]. هذا بعد أن كان القيصر واثقاً من موقفي كل من النمسا وبروسيا اللتين تربطه بأُسرها الحاكمة صلات قربى ومصاهرة، ولكن رغائب القيصر الروسي تلاشت عند تسلم اللورد كلارندون الوزارة، فقد أوصى السفير البريطاني في بطرسبورغ أن يخبر القيصر أن "الرجل المريض" سيعيش لسنوات أخرى، وأن الحكومة البريطانية لا ترغب في توسيع ممتلكاتها الآن، ولا ترغب في إحداث أي تغيير في سياستها تجاه حلفائها في الشرق، ولا في الغرب[٢].

وكان انسحاب منتشيكوف من المفاوضات في أيار ١٨٥٣، بداية لمرحلة جديدة من هذه الأزمة، فقد احتل الجيش الروسي ولايتي الدانوب (الأفلاق والبغدان)[٣]، واحتجت الدول الأوروبية على هذا التصرف الروسي؛ لأنها عدّت ذلك خرقاً لاتفاقية المضايق[٤]، فأرسلت فرنسا وبريطانيا أساطيلها إلى مدخل مضيق الدردنيل[٥]، وبدأت العلاقات البريطانية الروسية يسودها التوتر والقلق، حتى أن حكومة أبردين Aberdeen نفسه (صديق القيصر)، رأت ضرورة مقاومة المطالب الروسية[٦].

وحاولت فرنسا وبريطانيا إيقاف روسيا وعمدتا إلى إيجاد تحالف أوروبي ضدها، ولم يكن الأمر سهلاً، فالنمسا وقعت أسيرة رأيين متناقضين، الأول: لوزير خارجيتها بول Buol الذي أيد التحالف مع بريطانيا وفرنسا. بينما خالفه القادة الآخرون في ذلك؛ لأن هذا سيوقع الحرب بشكل حتمي، وستكون النمسا في المواجهة المباشرة، وهذا لن يكون ممكناً ما لم تضمن، على الأقل، عدم قيام بروسيا بأي عدوان ضدها ولاسيما في ممتلكاتها البولونية، فتم تأجيل فكرة التحالف مع الدول الغربية حتى يتم التوصل إلى اتفاق مع بروسيا[٧].

أما بروسيا فكانت ترغب بالاتفاق مع النمسا، ولكن بشرط اتباع سياسة الحياد في هذه الأزمة؛ لأنها لا ترى أيَّ فائدة حقيقية لها في هذا النزاع، مع وجوب الإشارة إلى وجود تيار آخر كان يؤيد فكرة التحالف مع الدول الغربية، غير أن صوته لم يكن مسموعاً[٨].

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٩٤.

[٢] المحامي، مصدر سابق، ص٤٩٣. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٩٥

[٣] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٤٢٣.

[٤] صفوت، مرجع سابق، ص٣٤.

[٥] ماركس، مصدر سابق، ص٨٧.

[٦] المصدر نفسه، ص٩٧، ١٠٠. صفوت، مرجع سابق، ص٣٤-٣٥.

[٧] المرجع نفسه، ص٣٦-٣٧

[٨] المرجع نفسه، ص٣٧.

حاولت النمسا تهدئة الأجواء المتوترة عن طريق البحث عن مخرج للأزمة يرضي جميع الأطراف، فقدم وزير خارجيتها بول Buol مقترحات ذات حلول وسطية أرسلها إلى الأستانة وبطرسبورغ، فقبلها الروس "بتحفظ"، ورفضها الباب العالي في ٣٠ آب ١٨٥٣ الذي اقترح مذكرة بديلة[١]، رفضها الروس، فتدهورت الأوضاع، وانتشر شبح الحرب في أوروبا، وبدأت الدول بالاستعدادات العسكرية، وفي ٢٠ أيلول ١٨٥٣ أرسل الباب العالي إنذاراً إلى الروس لسحب قواتهم من الإمارات الدانوبية، إلا أن روسيا رفضت الإنذار، فطلب السلطان العثماني من الأسطولين الفرنسي والبريطاني الموجودين في المياه العثمانية التقدم نحو الأستانة[٢]، ولاسيما بعد أن حاول القيصر الروسي استمالة النمسا لكسر التضامن الأوروبي، لكن الإمبراطور النمساوي فرانسيس جوزيف[٣] رفض أي تحالف لا تشارك فيه بروسيا، وعندما اجتمع فريدريك وليم الرابع[٤] معهما التزم الحذر والحياد، وكان هذا الاجتماع للملوك الثلاث كافياً لتحرك كل من فرنسا وبريطانيا نحو الأستانة مما شجع السلطان العثماني على إعلان الحرب على روسيا في ٤ تشرين الأول ١٨٥٣[٥]، وعلى ما يبدو أنه كان يدرك أن فرنسا وبريطانيا لن تتركاه يواجه مصيره وحده، لأنه أمر يتوقف عليه مصير الشرق كله، إذا ما سيطر الروس على الموقف[٦].

٥- حرب القرم:

لم تكن- في الحقيقة- المجازفة العثمانية تلقائية، بل كانت بفعل السفير البريطاني في الأستانة اللورد ستراتفورد دي ردكليف Lord Stratford de Redcliffe الذي أسهم بشكل كبير في توجيه السياسة البريطانية في هذه الأزمة، كما أنه أحبط الكثير من الاقتراحات لتسوية الأزمة بشكل سلمي، وشجع العثمانيين على متابعة رفض المطالب الروسية[٧].

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٧-١٢٨.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٩.

[٣] **فرانسيس جوزيف الأول (١٨٣٠-١٩١٦):** وُلد في فيينا عام ١٨٣٠، وتولى الملك عام ١٨٤٨ بعد استقالة عمه الإمبراطور فرديناند الأول، جرت في عهده الحرب البروسية-النمساوية عام ١٨٦٦، وفي عهده افصلت هنغاريا عن النمسا وذلك على مرحلتين: الأولى عام ١٨٦٧ والثانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨). انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٢٥. والمحامي، مصدر سابق، هامش ص٤٩٦.

[٤] **فريدريك وليم الرابع:** ولد عام ١٧٩٥، وتولى الملك عام ١٨٤٠، ضعفت قواه العقلية عام ١٨٦٠ فعُيّن غليوم الأول قيماً عليه حتى توفي في السنة التالية، فخلفه غليوم الأول الذي أسهم في توحيد ألمانيا وتوفي هو أيضاً عام ١٨٨٨. انظر: المحامي، مصدر سابق، هامش ص٤٩٩.

[٥] Tayler، مرجع سابق، ٨٧.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٠.

[٧] فِشر . هـ . أ، تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠)، ترجمة أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٧٢، ص٢٢٠-٢٢١. وانظر:

أ – أسباب الحرب والتحرك الأوروبي:

كان القيصر الروسي مقتنعاً ببلوغ أهدافه سريعاً ودون ردة فعل دولي؛ لأنه اقتنع بضعف الجيش العثماني، واستحالة ظهور اتفاق فرنسي– بريطاني ضد روسيا، وفي النهاية كان متأكداً من عدم تخلي النمسا وبروسيا عن روسيا بحكم روابط القربى بينه وبين الأُسر الحاكمة فيهما[١]، ولاسيما أنهم شركاء في العديد من الاتجاهات منذ مؤتمر فيينا ١٨١٥، كما أن صفة الحرب الصليبية كانت كافية لمنع أوروبا من مناصرة الدولة العثمانية– حسب رأيه– لأن غايتها "تحرير" الشعوب المسيحية من حكم غير مسيحي، وتبيّن فيما بعد خطأ كل هذه التقديرات، فالاتفاق الفرنسي والبريطاني قد تحقق، كما خذلته كل من النمسا وبروسيا اللتين التزمتا الحياد[٢].

أثار احتلال الروس لولايتي الأفلاق والبغدان[٣] قلق جميع الدول الأوروبية، فكان نابليون الثالث يميل إلى القيام بتحرك سريع أمام التقدم الروسي، أما حكومة أبردين Lord Aberdeen فلم تحسم أمرها إلا بعد الرفض الروسي للمذكرة العثمانية الآنفة الذكر، والضغط الذي أحدثته الصحافة والرأي العام البريطاني، في الوقت الذي كان القيصر يحاول فيه أن يبدد مخاوف النمسا؛ فقد تعهد للإمبراطور النمساوي بالانسحاب من هاتين الولايتين في محاولة منه لكسبه إلى صفه[٤]، ولكن مواقف النمسا كانت بخلاف ما يشتهي القيصر، فهي ترفض عبور القوات الروسية نهر الدانوب تحت أي ذريعة كانت، كما أن بروسيا بدأت تتقرب من بريطانيا كي تقف في وجه أي تحرك فرنسي في ألمانيا أو بولونيا، فانتهى بذلك "الحلف المقدس" تماماً مع هذه المواقف النمساوية– البروسية[٥].

بعد أن أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا بدأت القوات العثمانية بهجوم مزدوج على الجيش الروسي، حققت القوات البرية خلاله نجاحاً ملحوظاً إلا أن الأسطول العثماني مُني بهزيمة كبيرة في البحر الأسود[٦]، الأمر الذي أثار ذلك حفيظة الرأي العام البريطاني، واستقال بالمرستون Palmerston على إثرها من وزارة الخارجية احتجاجاً على موقف أبردين Lord Aberdeen المتردد والمتخوف، فاضطرت الحكومة البريطانية إلى إرسال إنذار إلى الروس

Marriott, op. cit, p. 262-263.

[١] عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص١٤٩.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٧.

[٣] الأفلاق والبغدان: اسم أطلقه العثمانيون على منطقتي فلافيا ومولدافيا اللتين استقلتا عن الدولة العثمانية وكونتا دولة رومانيا عام ١٨٥٨. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٦.

[٤] صفوت، مرجع سابق، ص٣٨

[٥] Tayler، مرجع سابق، ص٨٩-٩٠.

[٦] فِشر، مرجع سابق، ص٢٢١.

بوجوب عدم عبور الجيش الروسي نهر الدانوب وإلا فإنها ستدخل الحرب ضد روسيا، هذا إلى جانب تخوفها من التدخل الفرنسي المنفرد في هذه المهمة، وبذلك عاد بالمرستون إلى وزارته بصلاحيات جديدة وواسعة، ثم قررت كل من بريطانيا وفرنسا إعلان الحرب على روسيا في آذار ١٨٥٤، وعقدتا حلفاً رسمياً بينهما في نيسان من العام نفسه(١). وقد دخل نابليون الثالث الحلف مع بريطانيا انطلاقاً من رغبته في تعديل بنود معاهدات ١٨١٥ في فيينا، سعياً لكسر عزلة فرنسا بعد الاستفادة من الأخطاء السابقة للسياسة الفرنسية(٢)، وكي تتخلى روسيا عن أطماعها في الدولة العثمانية، وهو أمرٌ لم يكن من الممكن تحقيقه إلا بعد هزيمة روسيا، فكان لا بد من خوض حرب القرم(٣)، ولا سيما أن كلّ الأطراف لم يعد من السهل الآن تراجعها عن معركة السمعة- وفق رأي أحد الباحثين الذي يشير إلى حتمية الحرب- ويضيف أن روسيا أرادت إذعان الدولة العثمانية، وأن نابليون الثالث يحتاج إلى نصر لتعزيز موقفه الداخلي في أوروبا، وبريطانيا تحتاج إلى دولة عثمانية مستقلة تحفظ الأمن في بلاد الشام والمنطقة الواقعة "شرقي المتوسط"، ويضيف أيضاً أن سبب الحرب هو الخوف المتبادل، وليس العدوان المتبادل(٤).

ب- الحرب بين القتال والمفاوضات الدبلوماسية:

جاء إعلان الحلفاء الحرب على روسيا ليخفف الضغط على النمسا ويجنّبها القيام بأي تحرك ضد روسيا، وهذا الأمر سمح لها بالتحرك في مساحات أكبر على الصعيد الدبلوماسي، فعقدت مع بروسيا في ٢٠ نيسان ١٨٥٤ حلفاً للوقوف على الحياد التام(٥)، وأمام هذه المواقف من الدول الأوروبية لاقى الروس صعوبة في البقاء في ولايات الدانوب ولاسيما أن النمسا طلبت منها الانسحاب؛ لأنها ستواجه العثمانيين والحلفاء بدون ضمان حياد النمسا، فانسحب الروس بعد نصيحة من بروسيا(٦).

في هذه الأجواء طلبت النمسا من الحلفاء معرفة أهداف الحرب(٧)، وهي تدرك أن فرنسا لن تخوض حرباً مصيرية، وأن بريطانيا تهدف إلى تقليص التفوق الروسي، كل هذا أدى ظهور إلى

---

(١) صفوت، مرجع سابق، ص٣٩-٤٠.

(٢) فِشر، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(3) Anderson, op. cit, p. 125.

(٤) Tayler، مرجع سابق، ص٩٠-٩١.

(٥) صفوت، مرجع سابق، ص٤٠.

(٦) Tayler، مرجع سابق، ص٩٥-٩٦.

(٧) صفوت، مرجع سابق، ص٤٢.

النقاط الأربعة التي اتفقت عليها هذه الأطراف جميعاً، وشكلت دبلوماسية الحرب الأساسية وهذه النقاط هي:

١- إنهاء الحماية الروسية على الإمارات الدانوبية، واستبدالها بحماية أوروبية.

٢- تقرير حرية الملاحة في نهر الدانوب.

٣- إعادة صياغة معاهدة المضايق لعام ١٨٤١ مع مراعاة مبدأ توازن القوى في أوروبا.

٤- أن يتخلى الروس عن دعوى حماية المسيحيين من مواطني الدولة العثمانية على أن تحصل الدول الكبرى الخمس على ضمان من السلطان العثماني لتحسين حالة الرعايا المسيحيين[١]. وتم تسليم هذه الشروط للسفير الروسي في فيينا فرفضها بشدة[٢].

ومع أن النقطة الرابعة كانت هي السبب الأساسي لكل هذا التوتر، فإن النقطة الثالثة كانت من أهم النقاط بالنسبة للأطراف جميعاً، فبقيت عالقة وشكلت سبباً جديداً للتوتر، ولاسيما أن القوة البحرية الروسية في البحر الأسود كان لها أهمية كبيرة في مسألة توازن القوى في أوروبا، لذا لم يغير انسحاب الروس من ولايتي الدانوب من مواقف هذه القوى بعد أن أصبحت النقطة الثالثة أساساً لتحركات الحلفاء الذين سعوا إلى خوض عملية عسكرية في البحر الأسود لتحقيق هذه الغاية[٣].

وتقدمت قوات الحلفاء فرنسا وبريطانيا والدولة العثمانية نحو شبه جزيرة القرم[٤]، فنزلت جيوشها هناك في ١٤ أيلول ١٨٥٤، وانتصروا على الروس في موقعة ألما[٥] ثم بدأت بمحاصرة مدينة سيباسيتول[٦]، غير أنه لم يكن حصاراً محكماً[٧]، فقد تعرضت خلاله قوات الحلفاء لعواصف الشتاء وبردها القارس كما حصدت الكوليرا والصقيع أرواح إعداد كبيرة من الجنود[٨]، وهذا دفع الحلفاء إلى محاولة جر النمسا إلى الحرب مقابل مركز ممتاز لها في البلقان، إلا أن

---

[١] صفوت، مرجع سابق، ص٤١-٤٢ . Tayler، مرجع سابق، ص٩٧-٩٨. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 271

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٥.

[٣] Tayler، مرجع سابق، ص٩٨-٩٩.

[٤] **شبه جزيرة القرم:** شبه جزيرة تفصل البحر الأسود عن بحر آزوف، وهي جزء من جمهورية أوكرانيا اليوم. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٤٨.

[٥] **ألما:** نهر في شبه جزيرة القرة جرت عنده معركة من معارك حرب القرم عام ١٨٥٤، وانتصر فيها الحلفاء. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦١.

[٦] المحامي، مصدر سابق، ص٥٠٣.

[٧] صفوت، مرجع سابق، ص٤٣.

[٨] فِشر، مرجع سابق، ص٢٢٤. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 270.

موافقتها اصطدمت برفض بروسيا القاطع؛ لأن ذلك يناقض الاتفاقية الثنائية بين الطرفين والملزمة بوقوفهما على الحياد[١]، ولكن هذا لم يمنع النمسا من عقد الحلف مع فرنسا وبريطانيا بشرط عدم إعلان الحرب ضد روسيا، وكان ذلك في ٢ كانون الأول ١٨٥٥، وكان الدافع لها في ذلك وضعها في إيطاليا، فشكل هذا التوجه النمساوي ضغطاً كبيراً على روسيا[٢].

كانت سردينيا تراقب الأوضاع عن كثب في ذلك الوقت، وكان رئيس وزرائها الكونت كافور Cavour[٣] يدرك إمكانية استفادة بلده الصغير من التضامن الأوروبي، لتكون هذه الحركة خطوة نحو طرد النمسا من شمال إيطاليا، ولتحقيق الوحدة الإيطالية، فأبلغ فرنسا وبريطانيا استعداد بلاده للمشاركة معها في الحرب ضد روسيا، وتم ذلك في اتفاقية في ٢٦ كانون الثاني ١٨٥٥ وتعهدت سردينيا بإرسال (١٥) ألف جندي إلى الجبهة مقابل حماية فرنسا وبريطانيا لممتلكاتها طيلة مدة الحرب[٤].

أدت هذه التطورات إلى إصابة القيصر بأزمة نفسية حادة، إذ بقي وحيداً في مواجهة القوى الأوروبية، حتى تلك الدول التي كان يتوقع منها مناصرته (النمسا وبروسيا)، فتدهورت صحته وأصيب بانهيار عصبي في شباط ١٨٥٥[٥]، وما لبث أن توفي في ٢ آذار ١٨٥٥، واستلم ابنه ألكسندر الثاني[٦](١٨٥٥-١٨٨١) العرش، غير أنه فضّل إنهاء الحرب بالطرق الدبلوماسية، وكان أكثر ميلاً للسلام؛ لأنه كان يهتم بالتفكير بمصالح روسيا بعيداً عن مشاكل أوروبا[٧]، وكان هذا عاملاً مهماً لظهور مباحثات للصلح في فيينا في ١٥ آذار ١٨٥٥، تمسكت خلالها الأطراف جميعاً بآرائها، ولا سيما أن الروس رفضوا تحديد قوتهم في البحر الأسود، فانفرط عقد المؤتمر، ولكن ذلك لم يدفع النمسا إلى دخول الحرب كما كان متوقعاً، وكان فشل المؤتمر سبباً للعودة إلى ميادين القتال، فهاجم الحلفاء سيباسيتول بقوة وسقطت في أيلول ١٨٥٥، وشكلت مفترقاً جديداً للطرق، ففرنسا لم تعد ترى سبباً لاستمرار الحرب، بينما رأت بريطانيا فيه فرصة

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٦.

[٢] صفوت، مرجع سابق، ص٤٤-٤٥.

[٣] **كافور Cavour** (١٨١٠-١٨٦١): وُلد في تورينو، وهو من كبار رجال السياسة الإيطاليين وأحد المناضلين في سبيل وحد إيطاليا. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥٨١.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٧-١٤٨.

[٥] المرجع نفسه، ص١٤٨.

[٦] **ألكسندر الثاني** (١٨١٨-١٨٨١): استلم الحكم عام ١٨٥٥ أثناء حرب القرم، تبنى الحركة الإصلاحية في بلاده وعمل على تحرير الأقنان، وقضى بقسوة على ثورة البولونيين عام ١٨٦٣. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٤٣.

[٧] Tayler، مرجع سابق، ص١٠٩.

مناسبة لتخفيف الضغط الروسي على ممتلكاتها في شرق آسيا وأواسطها[١]، كما أن النمسا أعادت التفكير في وجهات النظر لديها بعد ظهور فكرة المصالحة بين فرنسا وروسيا[٢]، لما له من خطر على مصالحها في أوروبا ولاسيما في إيطاليا وبولندا[٣]، لذا اقترحت النمسا صياغة تفسيرٍ جديد أكثر صرامة للنقاط الأربع ليتم فرضها على روسيا، فقبلت فرنسا وبريطانيا بذلك، وعادت الدبلوماسية إلى الواجهة من جديد، وأبرز ما جاء في هذه الاتفاقية هو مشروع حياد البحر الأسود[٤]. ويستغرب أحد الباحثين من مسألة جنوح الحلفاء إلى الصلح مع روسيا بدلاً من أن ينتهزوا فرصة الانتصار عليها لإزاحتها إلى حدودها القديمة، ويبعثوا مملكة بولونيا لتكون حاجزاً بين روسيا وأوروبا[٥].

ودفعت هزيمة الروس إضافة إلى المتغير النمساوي في المعادلة المجلس الأعلى الروسي إلى عقد اجتماع حاسم في ١٥ كانون الثاني ١٨٥٦ بعد تسلمهم إنذاراً حازماً من النمسا، ورسالة ملحة من فريدريك وليم الرابع يحث الروس فيها على التنازل؛ لأن بروسيا- وإن لم تؤيد الإنذار النمساوي- قد لا تستطيع البقاء على الحياد إذا هددتها فرنسا بحرب في الراين، وتوصل هذا المجلس إلى قبول الروس للإنذار النمساوي دون قيد أو شرط، وانتهت بذلك حرب القرم[٦]، وبدأ مندوبو الدول في فيينا بحث مقدمات الصلح في ١ شباط ١٨٥٦ واتفقوا على بروتوكول يضع حداً للحرب، ويدعو لمؤتمر في باريس لبحث قضايا النقاط الأربع، ونص البروتوكول على ألا يحضر المؤتمر إلا الذين شاركوا في الحرب ودولة النمسا لدورها المهم فيها، وتمت دعوة بروسيا إلى المؤتمر مع معارضة بالمرستون Palmerston للفكرة[٧].

---

(1) Marriott, op. cit, p. 275.

(٢) اتصل نابليون الثالث بالروس سراً، بعد إدراكه لسياسة بالمرستون الرامية إلى تدمير روسيا، فقط لتأمين سلامة ممتلكات بريطانيا ومصالحها في الإمبراطورية العثمانية، وكادت هذه المفاوضات أن تنجح لولا الخطأ الذي ارتكبه نيسلرود عندما طلب من سفيره في فيينا بالتلويح بهذه المفاوضات، كي تجزع النمسا وتبتعد عن الحلفاء، إلا أن النتائج كانت عكسية تماماً؛ لأن النمسا أصبحت تفكر أن تخرج عن حيادها وأن تنضم إلى الحلفاء في حربهم ضد الروس، وقد غضب نابليون من التصرف الذي قام به نيسلرود، فوافق على الطلب النمساوي وأوقف المفاوضات مع الروس، واستقال نيسلرود (سيد الدبلوماسية الروسية) من منصبه متحملاً تبعة خطأه الفادح. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٦-١٥٧.

(٣) صفوت، مرجع سابق، ص٤٧-٤٨.

(٤) Tayler، مرجع سابق، ص١١٢. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 272.

(٥) لبيب، حسين، تاريخ المسئلة الشرقية، مطبعة الهلال- مصر، د.ط، ١٩٢١، ص٧٧.

(٦) Tayler، مرجع سابق، ص١١٤-١١٦.

(٧) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٨.

٦- مؤتمر باريس ١٨٥٦.

حظي مؤتمر باريس بأهمية تاريخية في العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر لا تقل شأناً عن أهمية مؤتمر فيينا ١٨١٥، ومعاهدة لندن١٨٤٠. أما الدول الأوروبية فقد نسيت أوضاع الأماكن المقدسة وحقوق الكاثوليك والأرثوذكس فيها، واكتفت في المادة السابعة بالتركيز على قضية الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية، وقبول الدولة العثمانية كعضوٍ معنوي في التضامن الأوروبي[١]، لذا طالبت الدولة العثمانية بإلغاء الامتيازات الأجنبية فقوبل هذا الطلب بالرفض[٢].

وفي الحقيقة لم يكن هناك صراع جوهري على شروط الصلح؛ لأن الروس قبلوا بكل شروط الحلفاء، ومع ذلك فقد تحركت النمسا وبريطانيا وفق حسابات دقيقة لمعالجة التسوية، وذلك لحساسية مصالحها، أما فرنسا فلم تكترث كثيراً؛ لأنها ركزت على مصالحة روسيا، ولكن ليس على حساب تحالفها مع بريطانيا[٣].

وحقق الحلفاء في هذه المعاهدة[٤] النقاط الأربع التي تم تحديدها، فقد منحت مقاطعتا الأفلاق والبغدان استقلالهما تحت سيادة السلطان، مع اقتطاع أجزاء من بسارابيا وضمها إليهما، كما أصبحت الملاحة حرة في كل نهر الدانوب[٥]، وأُعلن حياد البحر الأسود، ولكن هذا الحياد افتقر إلى آلية تنفيذ، واعتمد فقط على حسن نية الروس، وعندما كان البريطانيون والفرنسيون يعدَّون روسيا دولة شبه آسيوية لذلك زاد هذا الأمر من كراهية الروس؛ لهذا المؤتمر، وتركزت دبلوماسيتهم فيما بعد على إلغاء الفقرات التي تخص البحر الأسود[٦].

وأعطت الدول العظمى لصربيا حقوقها الممنوحة لها مع بقائها تحت سيادة الدولة العثمانية، وأعادت روسيا قارص إلى الدولة العثمانية[٧]، وتخلت عن مسألة حمايتها للرعايا المسيحيين في الدول العثمانية، بعد أن أصدر السلطان فرماناً يقضي بالعمل على المساواة التامة بين رعاياه من

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٩. وللاطلاع على هذه المادة وبقية المواد. انظر: المحامي، مصدر سابق، ص٥١٤-٥٢١.

[٢] حجر، مرجع سابق، ص٨٤.

[٣] Tayler، مرجع سابق، ص١١٧.

[٤] انظر نص المعاهدة: حجر، مرجع سابق، ص٨٨-٩٠.

[٥] صفوت، مرجع سابق، ص٤٩.

[٦] Tayler، مرجع سابق، ص١١٨.

[٧] فِشر، مرجع سابق، ص٢٢٥. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 276.

المسلمين والمسيحيين[١]، ومن جهة أخرى استطاع الكونت كافور أن يرفع مطالب إيطاليا أمام ممثلي الدول الأوروبية بعد أن استطاع إرسال فرقة عسكرية سردينية إلى حرب القرم[٢].

غير أن هذه المعاهدة لم تسجل انتصاراً سياسياً لدولة على أخرى، ولم تضع حلولاً جذرية للمشكلات الدولية، ومع ذلك أصبحت أحكام هذه المعاهدة دستوراً للعلاقات الدولية حتى عام ١٨٧٨[٣].

٧- خط همايون ونتائجه.

فيما كان يتم البدء بالتحضير لمؤتمر باريس وبحث مقدمات الصلح منذ أوائل شباط ١٨٥٦، أصدر السلطان عبد المجيد فرماناً جديداً في ١٨ شباط ١٨٥٦، تحت ضغط الدول الأوروبية، يعرف بـ(خط همايون)[٤] ليكون بمثابة التزام دولي بعد أن بلغ أوروبا في مؤتمر باريس[٥]، وهو ما جاء في المادة التاسعة من معاهدة باريس في ٣٠ آذار ١٨٥٦[٦]، إذ لم يكن بإمكان السلطان العثماني إلغاء أو تغيير هذا بدون موافقة الدول العظمى[٧]، كما جاء هذا البيان (الفرمان) بمثابة ذريعة لتدخل الدول الأوروبية في شؤون الإمبراطورية العثمانية؛ لأنه ركز على المشاريع الاقتصادية التي جاءت داعمة للدول الأوروبية الساعية لتوسيع الحقوق والامتيازات لرعاياها ولوُكلائها[٨].

وأكد خط همايون ما ورد في خط كلخانة من تثبيت الحرية الدينية لغير المسلمين، والمساواة مع المسلمين أمام القانون، وفي الضرائب والوظائف العامة، والانتساب إلى المدارس والخدمة العسكرية[٩]، فقد جاء في "الخط": **(وبما أن جميع تبعة دولتي العلية من أية ملة كانوا سوف يقبلون في خدامة الدولة ومأمورياتها فيستخدمون في المأموريات امتثالاً إلى النظامات المرعية... بدون فرق ولا تمييز في مكاتب دولتي العلية العسكرية والملكية..)**[١٠]. كما توجه

---

[١] صفوت، مرجع سابق، ص٤٩.

[٢] فِشر، مرجع سابق، ٢٢٦.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٠.

[٤] للاطلاع على نص خط همايون، انظر: الملاحق، الوثيقة رقم ١٨، ص٣٤٩-٣٥١.

[٥] أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٥. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٩.

[٦] المحامي، مصدر سابق، ص٥١٥. حجر، مرجع سابق، ص٨٨-٨٩.

[٧] المرجع نفسه، ص٩٠.

[٨] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٩-١٦٠.

[٩] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٢٥٥-٢٥٦. وانظر:

- Ma’oz, op. cit, p. 26.

[١٠] نوفل، الدستور، مصدر سابق، المجلد الأول، ص٧.

المنشور للتركيز على الطوائف وإعطائها حريات عامة تتعلق بالتعليم وإنشاء المعاهد التعليمية والمدارس على أن تتفق في المنهج مع مدارس الدولة، (.. **تكون كل جماعة مأذونة بعمل مكاتب ملية للمعارف والصنائع لكن تكون أصول تدريس مثل هذه المكاتب العامة وانتخاب معلميها تحت نظارة وتفتيش مجلس معارف مختلط..)**[1]، وتم الإبقاء على السلطات الممنوحة لرؤساء الملل وفق قوانين جديدة تؤمن لكل طائفة مجلساً هيكلياً مدنياً، وآخر روحياً، وتركت قضايا الأحوال الشخصية لأبناء الطائفة إلى هؤلاء الرؤساء، وتلك المجالس، إضافة إلى إدارة أوقاف الأديرة والكنائس، وشؤون المدارس والمؤسسات الخيرية التابعة للطائفة[2]. وتجدر الإشارة إلى أن الظروف الصعبة التي رافقت تنفيذ هذه الإصلاحات؛ وهي صعوبات داخلية عثمانية كغلبة الجهل، وسيطرة الرجعية الإدارية، والأزمة المالية[3]، وصعوبات خارجية تمثلت بالتدخل المتناقض للدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية[4]، كطلبها المساواة بين الطوائف من جهة، ثم حمايتها لطائفة ضد أخرى من جهة أخرى.

وفي مثال آخر فقد أقرت معاهدة باريس ضمان سلامة الدولة العثمانية، ووحدة أراضيها، وعدم التدخل في شؤونها، إلا أنه وفي الوقت نفسه، كانت الدول الأوروبية تدعم الثورات البلقانية ضد الدولة العثمانية، وهذا ما دفع الدولة العثمانية للتركيز على الدفاع عن ولاياتها بدلاً من التفكير في مشاريع الإصلاح[5].

وكانت نتائج حرب القرم وبالاً على بلاد الشام، فبعد النصر الذي حققه الحلفاء على الروس، عمدوا إلى فرض النفوذ والهيبة الأوروبية على بلاد الشام، وقد كانت القنصلية الفرنسية أكثر القنصليات الأوروبية نشاطاً في هذا الاتجاه، وكان الموارنة أكثر المستفيدين من ذلك بحكم العلاقات القديمة بين الطرفين، فأثار ذلك حفيظة السلطات العثمانية والمسلمين عموماً، وكان هذا الأمر ينبئ بالفوضى والقلاقل، ولاسيما بعد تدهور العلاقة بين الموارنة والدروز[6].

وبصورة عامة أضعفت حرب القرم مناعة الدولة العثمانية الاقتصادية، وساعد تغلغل الرأسمال الأجنبي بعد أن حصل الرأسماليون الأوروبيون على امتيازات في البنوك والاستثمارات الأخرى، من خلال تمريرها في بنود خط همايون ١٨٥٦ والقوانين التالية له، وأدى إلى تحويل

---

[1] نوفل، الدستور، مصدر سابق، المجلد الأول، ص٧.

[2] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٢٥٦-٢٥٧.

[3] المرجع نفسه، ص٢٥٧.

[4] شيشلر، مرجع سابق، ص٦٧.

[5] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ٢٥٨ص-٢٥٩.

[6] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص١٢٨-١٢٩.

الإمبراطورية العثمانية إلى شبه مستعمرة أوروبية، الأمر الذي فتح بذلك مرحلة نهب واستعباد الإمبراطورية العثمانية وولاياتها[١].

ثانياً– السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٥٦–١٨٦٤).

خلقت أحداث السنوات السابقة (١٨٤١–١٨٤٥) نظام القائم مقاميتين على أنه نظام إداري جديد في جبل لبنان، وهذا ما كرس مفهومي التقسيم والطائفية[٢]، دون أن ننسى الدور الذي قام به الموظفون العثمانيون وقناصل الدول الأوروبية في تأجيج التوتر وزرع الأحقاد[٣]. فما أن غادر شكيب أفندي لبنان حتى عاد القناصل الأوروبيون في بيروت إلى أنشطتهم الواسعة والمتعارضة، التي أدت إلى انقسامات جديدة في صفوف المسيحيين والدروز بعد عام ١٨٤٥[٤]، وسرعان ما لاحت في الأفق أزمة جديدة هددت بلاد الشام بعد صدور خط همايون ١٨٥٦ الذي تم تفسيره من قبل قسم من الفلاحين اللبنانيين على أنه وثيقة نادت بمساواتهم المدنية، وبداية لتحررهم من المظالم الإقطاعية[٥].

١–الانتفاضة الفلاحية في جبل لبنان ١٨٥٨.

عادت القلاقل إلى جبل لبنان بوفاة الأمير حيدر أبي اللمع قائمقام المسيحيين في كسروان عام ١٨٥٤[٦]، فاختلف المسيحيون في اختيار القائمقام الجديد، بين الأمير بشير عساف الذي كان يحظى بدعم القنصل البريطاني، وبين الأمير بشير أحمد الذي كان يحظى بتأييد العثمانيين وقنصل فرنسا، وعندما تم تعيين هذا الأخير رفض خصومه من آل حبيش والخازن الاعتراف بولايته[٧] بحجة أنه حديث العهد بالنصرانية، وأنه اعتنقها لأسباب سياسية ومطامع شخصية، وبعد فشل بشير أحمد في إقناعهم عمد إلى إثارة الفلاحين ضد هؤلاء الإقطاعيين الموارنة[٨].

---

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦١.

[٢] مخزوم، مرجع سابق، ص١٢٨.

[٣] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٦٤. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٣ .

[٤] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص١٢٤–١٢٥. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٠ .

[٥] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦١.

[٦] أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٣. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢)، مرجع سابق، ص ٣٧٠.

[٧] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٦٦–٦٧.

[٨] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٤. فقد أشار القنصل العام البريطاني مور في إحدى الرسائل إلى استفحال أمر الحركة ضد الأمير بشير أحمد وأن الوضع أصبح ينذر بالخطر فيما لو انتشرت الفوضى. انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٦–٢٩٧.

ومن جهة أخرى كان لنمو التجارة الخارجية، وازدياد حاجة السوق للمنتجات الزراعية في العقدين الخامس والسادس من القرن التاسع عشر دور أدى إلى زيادة الضغط على الفلاحين وتشديد استغلالهم[١]، فعم الاستياء في أوساطهم بعد أن ارتقى مستوى وعيهم الاجتماعي والفكري، بفضل مدارس الإرساليات التبشيرية[٢]، فقاموا برفض مظالم الإقطاع كنظام جباية الضرائب وأعمال السخرة والاستغلال، وطالبوا بالمساواة بينهم وبين الأسر الإقطاعية، وكان يشجعهم على ذلك الإكليروس الماروني[٣]، ولاسيما بعد أن وصل بولس مسعد لسدة البطريركية المارونية وكان- بعكس سابقيه- ينتمي إلى أسرة من عامة الناس، وشديد التعصب لدينه ويبغض رجال الإقطاع[٤].

بدأ الفلاحون بجمع شكاويهم في عريضة حملها وفد منهم إلى خورشيد باشا والي بيروت، يطالبون فيها بإلغاء جميع الفروض الإقطاعية، فرفضها الوالي[٥]، كما رفض الإقطاعيون الموارنة التخلي عن التقاليد الموروثة وعن حقوقهم الإقطاعية، فالتف الفلاحون بدعم من البطريرك الجديد حول شخصية طنوس شاهين[٦]، بعد أن عرضوا عليه أن وكيلاً عليهم، فأظهر قدرة على الإدارة والقيادة[٧]، وانتفضوا جميعاً في وجه الإقطاع في ثورة عام ١٨٥٨ التي عرفت

---

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦١.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٥.

[٣] انطونيوس، مصدر سابق، ص١٢٣. ويذكر العقيقي بأن الفلاحين أصبحوا يناقشون أوضاعهم السيئة في الوقت الذي كان فيه الصراع مستمراً بين آل الخازن والأمير بشير أحمد، فيقول: **(واما الرعايا فاخذوا يلهجون فيما بينهم عن هذا الصنيع معتدين ذواتهم انهم صارو كالعبيد بيد المقاطعجية وما عاد لهم قول ولا مشورة...وبالاخص اهابة بيت الخازن على اهالي كسروان لانهم ما عادوا احتسبو رعاياهم ولا اكابرهم ولا روسائهم في شي وكانو يتكلمون أن الفلاح وما بيده هو لهم ولم يعباؤا بنوع من الانواع واقل واحد من بيت الخازن كان يهين اكبر واحد من الاهالي..)**. انظر: العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٧٢.

[٤] خليفة، عصام كمال، أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص٤٠ . عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٠ . كان آل الخازن يرون أنفسهم أحق من اللمعيين في حكم القائمقامية المسيحية، ويدعمهم في ذلك البطريرك الماروني يوسف الخازن، ولكن البطريرك توفي ٣ تشرين الثاني ١٨٥٤، وخلفه البطريرك بولس مسعد وهو من الفلاحين، فانقلب الوضع رأساً على عقب. انظر: ضو، مرجع سابق، ص١٦.

[٥] لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٢ .

[٦]خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٥. وتجدر الإشارة إلى أن العقيقي ينفي مساندة البطريرك بولس مسعد أعمال هذه الحركة. انظر: العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٨٥.

[٧] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٨٣.

بالعامية، وفتكت بالإقطاع والإقطاعية في كسروان[١]، واتسمت هذه الانتفاضة بطابع طبقي صرف، وتم طرد الإقطاعيين الموارنة من كسروان، واستولى الثوار على أراضيهم وممتلكاتهم[٢]، وشكلوا سلطة خاصة اعترف بها الباب العالي وتزعمها طنوس شاهين، وكانت على شكل منظومة أشبه بالجمهورية[٣].

٢- حوادث عام ١٨٦٠.

أ – حوادث جبل لبنان ١٨٦٠.

تشير بعض تقارير القناصل البريطانيين ومراسلاتهم مع رؤوسائهم في نيسان وأيار عام ١٨٦٠ إلى اضطرب حبل الأمن في جبل لبنان، وأن حوادث القتل والاعتداء قد كثرت بسبب الحوادث الفردية، وأن القضاء الدرزي قد شهد حالات قتل وثأر بين المسيحيين والدروز مع عدم اكتراث خورشيد باشا الذي كان يشتكي من عدم اهتمام حكومة الأستانة بمراسلاته بهذا الخصوص[٤].

في الوقت الذي امتدت فيه الثورة الفلاحية من الشمال إلى جنوب لبنان؛ إذ يعمل عدد كبير من الفلاحين المسيحيين لدى بعض الدروز الإقطاعيين إلى جانب الفلاحين الدروز الأكثر عدداً، وقد تردد الفلاحين الدروز بالمشاركة في الثورة ضد زعمائهم[٥]، وقد استغل هؤلاء الإقطاعيون الخلافات المذهبية، وأثاروا النعرات الطائفية لتدعيم مركزهم الإقطاعي وزعامتهم الفردية[٦]، وكان هذا سبباً في تحول الصراع من مظهره الثوري والطبقي إلى صراع طائفي مؤسف أججه الوالي العثماني والتنافس البريطاني– الفرنسي في جبل لبنان[٧]. فالوالي العثماني خورشيد باشا أدرك أن

---

[١] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٨٥-٨٦. حنا، عبدالله، حركات العامة الدمشقية في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر "نموذج لحياة المدن في ظل الاقطاعية الشرقية"، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص٢٤٧. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٥.

[٢] لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٢.

[٣] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٨٧. مخزوم، مرجع سابق، ص ١٢٨.

[٤] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص٢، ٧.

[5] Kirk, op. cit, p. 84.

[٦] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص حنا، مرجع سابق، ص٢٤٧. رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٢-٤٢٣.

[٧] انطونيوس، مصدر سابق، ص١٢٤. يشير أسعد الأسطواني في تحقيقه لكتاب مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر إلى التناقض الواضح في التقارير والوثائق فيما بينها، والاختلاف في وجهات النظر

الثورة التي انتصرت في كسروان ستمتد إلى الشوف، الأمر الذي يؤدي إلى انهيار السلطة العثمانية في جبل لبنان حتماً، فقرر الالتجاء للفوضى كي يطلب الفريقان تدخل الدولة العثمانية، ثم ليقنع الدول الأوروبية بعدم قدرة اللبنانيين على تيسير أمور الحكم الذاتي الذي أُعطِي لهم[١]، فقد دفع هذا- إضافة إلى التصرفات الاستفزازية التي قام بها القنصل الفرنسي لإثارة النعرات الطائفية[٢]- إلى تحول الانتفاضة الشعبية إلى فتنة طائفية بعد أن تغلبت الشهوات المذهبية في نفوس الفريقين[٣]، فعندما قُتل درزي وجرح اثنين في حادثة عند بوابة بيروت عادت القلاقل والحوادث إلى جميع أنحاء جبل لبنان[٤]، وراح ضحيتها الكثير من الأبرياء، وأكثرهم من المسيحيين[٥].

بين المصادر المختلفة (من الكتب والمخطوطات) التي عاصر مؤلفيها الأحداث عام ١٨٦٠، فالوثائق الأجنبية التي هي غالباً تقارير القناصل الفرنسيين والبريطانيين، تختلف في إلقاء اللوم على هذا الطرف أو ذاك، فالممثلون البريطانيون يلقون بالمسؤولية، في جزء كبير من انفجار الأحداث في جبل لبنان، إلى الأكليروس الماروني (كالمطران طوبيا عون)، بينما ألقى الفرنسيون المسؤولية الكاملة على الدروز، بينما الوثائق العثمانية لازالت تحتاج إلى المزيد من الدراسة. أما المخطوطات العربية التي سجل مؤلفوها أحداث تلك المرحلة التي بلغ عددها، حسب فريتز شتيبات، أربعة عشر مخطوطاً عاينها، ومخطوطين آخرين لم يتمكن من دراستها، فقد جاءت وجهات نظرهم متباينة وغير متجانسة في تناولها تلك الأحداث، وتجدر الإشارة إلى أن أغلبية المؤلفين هم من المسيحيين ما عدا واحد من الدروز؛ هو حسين (يوسف خطار) أبو شقرا، واثنين دمشقيين من المسلمين هما عبد الرزاق البيطار وأبو السعود الحسيبي. وقد ظهر التباين في وجهات النظر حتى في البيانات المسيحية فيما بينها. انظر: الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص٥٥-٦٠.

[١] أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٥. كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٨٣ . خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٧-٢٥٨. لقد أشار مور القنصل البريطاني العام في بيروت في رسالة منه إلى السير بولفر في ٩ أيار عام ١٨٦٠ بأن خورشيد باشا يستطيع السيطرة على الأوضاع الأمنية إن رغب في ذلك حقاً. انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص٥-٦.

[٢] أبو شقرا، مصدر سابق، ص٩٩. لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٢.

[٣] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص١٣٠. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٨.

[٤] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص١٢. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٣. كان مقتل كاهن مسيحي (ماروني) مع بعض الأشخاص الآخرين، بالإضافة إلى الأمير قاسم الشهابي، حاكم جبل لبنان الأسبق، أولى ملامح بداية هذه الأحداث، دون التأكيد على هوية الجناة، ومع اتهام الدروز بذلك. انظر: الخازن، المحررات السياسية، ج٢، ص٧، ١٣، ١٥١، ١٥٤.

[٥] الأسطواني، محمد سعيد، مصدر سابق، ص١٧٢.

هذه الأحداث وقف الوالي منها موقف المتفرج، على أن الدولة العثمانية كانت تساند الدروز وتدعمهم سراً كما ما ورد في إحدى المصادر[١]، بينما دعم القنصل البريطاني الموقف الدرزي، وساند القنصل الفرنسي المواقف المارونية، فأسهمت هذه المواقف المتعارضة في تأجيج التوتر بدلاً من محاولة احتواء الأزمة، ولم يكن موقف القنصل الروسي واضحاً إلا عندما سعى لخلق الصعوبات في وجه الوالي العثماني[٢]. كما حاول الوالي العثماني توظيف هذه الأزمة لطرح فكرة إعادة جبل لبنان إلى الحكم العثماني المباشر[٣]؛ لأن ما وقع بين الفريقين- حسب رأيه- سببه تقسيم البلاد إلى قائمقاميتين، وكان قد استمال عدداً من الإقطاعيين للعمل على هذا الحل[٤]. إلا أن أحداثاً دامية وقعت في دمشق أدت إلى تغيير جذري في مجرى الأحداث، وأدت إلى التدخل الأوروبي إلى جانب التدخل الفرنسي العسكري[٥].

ب – حوادث دمشق ١٨٦٠.

مع أن حوادث دمشق عام ١٨٦٠ انبثقت جزئياً عن حوادث جبل لبنان، إلا أنه يمكن تتبع جذورها في المراحل السابقة، ولاسيما إبان الحكم المصري في بلاد الشام[٦]؛ لإن أحداث دمشق كانت مثيرة للجدل؛ إذ يذكر بعض المؤرخين أن الأسباب التي أدت إلى أحداث دمشق تختلف عن تلك التي كانت وراء حوادث جبل لبنان[٧]. فقد ذهب بعضهم إلى أن إعطاء الحكم المصري امتيازات كثيرة للمسيحيين أثار استياء المتعصبين من المسلمين[٨]، كما أن خط همايون ١٨٥٦م، الذي أقر بالمساواة بين الرعايا العثمانيين في الكثير من النواحي أجج فيهم ذلك

---

[١] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص١٠٧.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٨-٢٥٩.

[٣] التونسي، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، مرجع سابق، ص١٩.

[٤] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص ٣٧٣-٣٧٤ .

[٥] ياب، مرجع سابق، ص ١٥٦. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٩.

[٦] خوري، فيليب شكري، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠-١٩٠٨، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام٩٢٢-١٣٥٨هـ / ١٥١٦-١٩٣٩م، جامعة دمشق-كلية الآداب، دمشق، د.ط، ١٩٧٨، ج١، ص٤٥٠.

[٧] مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٦٩.

[٨] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٦٧-٦٨. حنا، مرجع سابق، ص٢٥١-٢٥٢. رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٣. ومن جهة أخرى فقد جاء في مذكرات مؤلف مجهول، أن الأهالي في دمشق قد اغتاظوا من الفرحة "المبالغ فيها" التي أظهرها المسيحيون عقب توقيع اتفاقية كوتاهية عام ١٨٣٣. انظر: مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، مصدر سابق، ص٦٣.

الاستياء[1]، فمسلمو بلاد الشام لم يستسيغوا التنظيمات الخيرية، فقد رأوها إكراهاً روسياً للدولة العثمانية لصالح المسيحيين، كما أن المسيحيين أوغلوا في تفسيرهم لخط همايون وعبثوا بمضمونه، مما أثار حفيظة المسلمين وتعصبهم[2]. ويشير باحث آخر إلى الدور الذي لعبه تدخل الدول الأجنبية بعد أن تمتعت بامتيازات خاصة شكّلت نوعاً من الصراع بين هذه الدول على بسط النفوذ على عناصر مختلفة من السكان مما نقلت إليها خلافاتها واختلافاتها، فقد كانت الدول الأوروبية تستقطب الأتباع من السكان المحليين بحجة أنهم تراجمتهم أو عملاء لهم وكان المسيحيون أكثر المستفيدين من ذلك[3]. ولما وصلت الأنباء عن أحداث جبل لبنان إلى دمشق تحرك الغوغاء[4] لإثارة القلاقل التي أدت إلى أحداث مؤسفة، بعد التأييد الضمني من العثمانيين الذي اتضح في عدم اتخاذهم أي تدابير تمنع الفوضى[5].

راحت بعض الأطراف (المسيحية والمسلمة) المحلية، والمعاصرة لتلك الأحداث، تتبادل التهم بإلقاء التبعة واللوم على الطرف الآخر[6]، وهذا ما فعله الباحثون الأوروبيون في محاولة منهم لإبعاد الشبهات عن الحكومات الأوروبية وقناصلها والإرساليات التبشيرية التابعة لها، لا بل ذهبوا أكثر من ذلك عندما رغب بعضهم بإثارة العالم المسيحي ضد المسلمين والدولة العثمانية، وهذا ما مضى إليه صاحب كتاب "بين الدروز والموارنة"[7].

---

[1] مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٦٩. كرد علي، مرجع سابق، ص٨٥. أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٩. حنا، مرجع سابق، ص٢٥٣.

[2] كرد علي، مرجع سابق، ص٨٥.

[3] الزواهرة، تيسير خليل محمد، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠-١٨٦٤م/١٢٥٥-١٢٨٢هـ، جامعة مؤتة، مؤتة، ط١، ١٩٩٥، ص١٧٩-١٨٠.

[4] **الغوغاء:** تجمهر عابر لمجموعة من الناس للاشتراك في نشاط جماعي، تحت انفعال عاطفي فوضوي وغير منظم، يجنح إلى التطرف والعنف والهيجان، وكثيراً ما تقوم القيادات المجتمعية والسياسية في التأثير في الغوغاء لتوجيهها وفق أهدافها مستفيدة من من حالة الهيجان والفوران العاطفي. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج٤، ص٣٨٠

[5] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٣.

[6] ألقى بعض المسيحيين الذين أرّخوا للأحداث اللوم على زعماء المجتمع الإسلامي لتقصيرهم بالقيام بواجبهم بحماية الأقلية المسيحية وفقاً لمقتضيات الشريعة، كما رفض أحد شهود العيان المسلمين، وهو أبو السعود الحسيبي، أحد أفراد العائلات الإسلامية الوجيهة، أن يكون لوجهاء دمشق أي مسؤولية عن تلك الحوادث؛ لأنهم لم يحرضوا عليها ولم يكن لديهم أي علم بها. انظر: خوري، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠-١٩٠٨، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٨.

[7] تشرشل، مرجع سابق، ص١٤٩-١٥١.

ويربط بعض الباحثين حادثة دمشق وحوادث جبل لبنان عام١٨٦٠ بعناصر ودوافع اقتصادية، لا سيما بعد تنامي النفوذ الأوروبي المنبثق عن التوافق بين نظام الامتيازات الأجنبية والإصلاحات العثمانية، وكان متمثلاً بظهور طبقة جديدة من البرجوازية التجارية في بلاد الشام، معظمهم من المسيحيين الذين عملوا في الوساطة بين التاجر الأوروبي والمستهلك المحلي، الذين تثقفوا في المدارس التي افتتحها إبراهيم باشا والبعثات التبشيرية، وأتقنوا اللغات الأجنبية، واستفادوا من العمليات التجارية بين الطرفين وجنوا أرباحاً طائلة[١]. إضافة إلى تضارب المصالح داخل المدينة نفسها بعد ازدياد النفوذ التجاري لوكلاء التجارة الأوروبية على حساب المتضررين في الصناعات الحرفية التي كان غالبية العاملين فيها من التجار والحرفيين المسلمين، ناهيك عن الحكم المركزي الذي حاول العثمانيون فرضه على الأعيان في جميع مدن بلاد الشام، ولا سيما أعيان دمشق، عبر سلسلة من الإصلاحات (التنظيمات الخيرية)، بعد أن اعتادوا نوعاً من الاستقلالية في تصرفاتهم منذ بداية الحكم العثماني، لذا فقد كان لبعض الأعيان الذين عارضوا الإصلاحات دورٌ في إثارة هذه الفتنة؛ لأنها حدّت من نفوذهم المتوارث، والمرتبط نوعاً ما بالحرف الصناعية التي أسهمت في استمرارية نفوذهم ضمن العلاقات الاجتماعية السائدة، تلك الحرف المرتبطة أيضاً– بشكلٍ أو بآخر– برعاية السلطة الدينية القديمة[٢].

ففي أحداث دمشق١٨٦٠ خرجت بعض المجاميع من المناطق الفقيرة لتهاجم هؤلاء الأغنياء الجدد، وهذا كان تكراراً لحوادث مماثلة[٣] حدثت في حلب عام ١٨٥٠[٤]، ونابلس عام

---

[١] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٥. حوراني، ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة أسعد صقر، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩٧م، ص٣٤٣–٣٤٥.

[٢] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٥.

[٣] كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٧٨–٧٩. رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٥.

[٤] ارتبطت حوادث حلب باتفاق اثنين من متسلّمي الضرائب على إثارة فوضى تُجبر الوالي على تناسي الأموال الأميرية المتأخرة، وتدفعه إلى الاستنجاد بهما وبأعوانهما، فأشاعوا عبر عملائهما أن الدولة العثمانية عازمة على جباية بعض الرسوم وتجنيد الشبان، فثار الناس على الدولة وهاجموا مقراتها، وبعد تطور الأزمة، قصد الناس الحي المسيحي لحملهم على دفع الأموال لشراء الأسلحة، بحجة أن المسيحيين هم أكثر المستفيدين من إلغاء الضريبة والجندية، وعندما رفض المسيحيون دفع المال تكاثرت الجموع وانضم إليهم الفلاحون والبدو، وانتشرت الفوضى وتم نهب الحي المسيحي وتخريبه، ثم تدخل العسكر العثماني بعد وصول الإمدادات، وتمت السيطرة على الموقف، وبعد التحقيق تم نفي (٨٠٠) من المتهمين من بينهم متسلمَيْ الضرائب الاثنين، كما شُكلت لجنة لجمع منهوبات المسيحيين والتعويض لهم. انظر: غرايبة، مرجع سابق، ص٨٢–٨٤.

١٨٥٦[1]، لكنها لم تصل إلى حدّ عنف ودموية أحداث دمشق. وقد دفع قادة الغوغاء من الأعيان والموظفين العثمانيين المتواطئين الثمن غالياً بعد استغلالهم للمشاعر الدينية، ولتعصب هؤلاء، وحاجاتهم المادية، وذلك بإعدام العشرات منهم عندما "اضطرت" الدولة العثمانية لمعاقبة المسؤولين عن هذه الأحداث[2]. فقد نظم المتعصبون من المسلمين مذبحة مسيحية بتواطؤ مع السلطات العثمانية في ٩ تموز ١٨٦٠[3] تم فيها قتل المسيحيين، وإحراق الكنائس، والمدارس التبشيرية[4]، وكل القنصليات الأوروبية، عدا القنصلية البريطانية التي يعتقد أنها حظيت بحماية عثمانية، أو لأنها كانت خارج الحي المسيحي الذي كان مركزاً للأحداث[5]، وتسربت إشاعات حول مقتل قنصل بروسيا، وجرح قنصل أمريكا[6].

تدخل الأمير عبد القادر الجزائري[7] بقوة مستخدماً شعبيته وسمعته لحماية المسيحيين[8]، وكان قد لجأ إليه معظم القناصل الأوروبيين وأُسرهم مع العديد من المسيحيين المحليين، واجتمع بالأعيان ووجوه المسلمين في حضرة الوالي أحمد باشا، ووضح أن ما يحدث للمسيحيين ظلم

---

[1] دخلت علاقات الأهالي مع الأوروبيين في جنوب بلاد الشام (فلسطين) مرحلة جديدة بعد انتصار الحلفاء في حرب القرم، إلا أن حادثاً قد وقع وكان قد أفضى إلى عودة انعدام الثقة بين الطرفين، وهو مقتل شخص من أهالي نابلس على يد مبشر بروتستانتي بريطاني، فتحولت القضية إلى فتنة استثمرها المتطفلين لأهداف شتى، وامتدت الأحداث حتى أدت إلى مقتل والد وكيل القنصل البروسي وهو بروتستانتي محلي، كما امتدت أعمال العنف والهدم لتطال كل ما هو أوروبي من الأفراد والقنصليات والمؤسسات التبشيرية، إلا أن الهدوء سرعان ما حلّ بعد أن وقف الناس على حقيقة أن ما وقع كان مجرد حادث، وقد استثمر القناصل الأوروبيون هذه الحوادث فرفعوا تقاريراً إلى حكوماتهم في محاولة لرسم معالم مبالغ فيها، كالحديث عن جناة نابلس، والاعتداءات المزعومة ضد المسيحيين. انظر: شولش، مرجع سابق، ص٣١٠-٣١٤.

[2] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٥.

[3] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٣١. أبو النصر، مرجع سابق، ص٦٩-٧٠.

[4] كرد علي، مرجع سابق، ص٨٥-٨٦. لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٣ .

[5] شيشلر، مرجع سابق، ص١١١، ١١٦. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٨.

[6] المصدر نفسه، ص١٤١.

[7] **عبد القادر الجزائري (١٨٠٧- ١٨٨٣)**: قائد ثورة الجزائر الأولى ضد الاحتلال الفرنسي، كان قد تأثر بالتيار الإسلامي الإصلاحي وأصبح من أنصار السلفية، تمت مبايعته من قبل زعماء القبائل كأمير لمحاربة الاستعمار الفرنسي، فنجح في محاربتهم وانتصر في عدة جولات ومواقع، حتى اعترفت فرنسا بالدولة الجزائرية الداخلية مقابل اعترافه بنفوذ فرنسا على الشاطئ الجزائري، واستمر الحال هكذا حتى عام ١٨٤٦ حين حشدت فرنسا قوات عسكرية ضخمة، وانتهى الأمر عندما عزلته فرنسا عن المغرب الأقصى بالضغط على سلطان المغرب لوقف دعمه العسكري والمادي لقوات الأمير، فاستسلمت قواته، توفي في دمشق عام ١٨٨٣، ونُقل رفاته إلى الجزائر عام ١٩٦٨. انظر: موسوعة مشاهير العالم، مرجع سابق، ج٣، ص٣٨-٤٠.

[8] كرد علي، مرجع سابق، ص٩١. بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٧٣. تشرشل، مرجع سابق، ص١١٣-١١٤.

وقهر وأنه أمر ينافي الشريعة ولا يجوز في أي دين من الأديان،[1] يضاف إلى ذلك تدخل العديد من أعيان دمشق ووجهائها للسيطرة على الأوضاع ودرء الفتنة[2]. بينما لم يلجأ الوالي العثماني أحمد باشا إلى التدخل لإيقاف تلك المجازر[3]. وهنا يذهب بعض باحثين إلى أن حوادث دمشق لم تكن نزاعاً طائفياً لسببين اثنين، أولهما: أن جماعة مسيحية معينة هي التي تعرضت للهجوم في دمشق (في الحي المسيحي[4])، بينما لم يتعرض المسيحيون في بقية المناطق الأخرى لأي أذى، والثاني أن بعض المتعصبين من المسلمين هم من قاموا بالهجوم[5]، بينما قام المسلمون الآخرون بحماية المسيحيين وتقديم العون لهم[6]، وهذا ما أشار إليه عبد الرزاق البيطار في كتابه "حلية البشر"؛ لذلك خطب خطبة في إحدى جوامع الميدان أشار فيها إلى وجوب عدم إيذاء أهل الذمة وسفك دمائهم، وضرورة حمايتهم من الأشقياء والرعاع، لذلك فقد عدل أهل الميدان عن المشاركة في هذا الجرم، وقدّموا للنصارى ما استطاعوا من الحماية[7].

ومن الجدير بالذكر أن شرارة النار والفتنة في جبل لبنان ودمشق- خلافاً للمتوقع حدوثه- لم تتطاير إلى أي مكان آخر في بلاد الشام، لاسيما جنوبي بلاد الشام (فلسطين)، رغم انتشار الشائعات عن الأحداث ومخاوف توسعها وانتشارها[8].

---

[1] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٣١.

[2] هؤلاء الأعيان أمثال: (الشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي ومحمود أفندي حمزة وأسعد أفندي حمزة والشيخ سليم العطار وسعيد آغا العابد وصالح آغا المهايني وعمر بيهم، إضافة إلى العشرات غيرهم). انظر: كرد علي، مرجع سابق، ص٩١-٩٢. مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٧٦-١٧٧.

[3] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٤. في الحقيقة إن ما قامت به السلطات العثمانية في قضية أولاد المسلمين (رسم الصلبان وتكنيس شوارع المسيحيين)، في ذلك التوقيت، وهي تعلم أن النفوس كانت هائجة والبلد (شعلة نار)، كما يقال، إضافة إلى تدخل أحد الضباط مع عساكره وفتحهم الطريق أمام الغوغاء وتهجمهم جميعاً على الحي المسيحي، يثير العديد من التساؤلات. انظر: الأسطواني، محمد سعيد، مصدر سابق، ص١٧٤-١٧٥. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٠.

[4] وهو حي باب توما. انظر: مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٢٧. فقد جاء في إحدى مراسلات القنصل البريطاني في دمشق بأنه نجا لأن بيته كان خارج الحي المسيحي (مركز الأحداث). انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٨.

[5] شيشلر، مرجع سابق، ص١٢٥.

[6] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٣٤. شيشلر، مرجع سابق، ص١٢٥.

[7] البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط٢، ج١، ١٩٩٣، ص٢٦٣.

[8] شولش، مرجع سابق، ص٣١٧.

وبالنتيجة أدت حوادث دمشق إلى قلب الموازين لصالح التدخل الأوروبي الذي تمثل بعمل عسكري جسدته الحملة الفرنسية، وبتدخل دبلوماسي تمثل في اللجنة الدولية التي جاءت للتحقيق في حوادث جبل لبنان ودمشق[١]، كما قدمت هذه الحوادث الذريعة للسلطات العثمانية لفرض سيطرة الدولة على نطاق واسع، والقضاء نهائياً على أي مبادرة لمقاومة نهج التنظيمات والمصالح الأوروبية المرتبطة بها[٢]، عدا الخسارة العظيمة في الأنفس والأموال وبروز تفرق الطوائف مع عودة الاستبداد العثماني بأوسع أشكاله[٣].

٣- أوجه التدخل الأوروبي في بلاد الشام ودوافعه إثر حوادث ١٨٦٠.

تحدث نائب إنكليزي في مجلس العموم البريطاني في ١٧ آب ١٨٦٠ عن الأسباب التي أدت إلى تلك الأحداث في بلاد الشام خلال السنين العشرين التي تلت انسحاب محمد علي باشا منها، مشيراً إلى الدور السلبي الذي قامت به الحكومة البريطانية في تأجيج تلك الصرعات، إذ قال: (.. **فقد سعينا إلى إبدال هيئة الحكم في لبنان نكاية بفرنسا ومعارضة لبعض دول أوروبا... وعملنا على التفريق بين الدروز والموارنة وجعلنا على كل فريق زعيماً وسلّطنا على الزعيمين باشا تركيا..**)[٤]، وأنكر بالمرستون Palmerston، رئيس الحكومة، في الجلسة نفسها، أن يكون "لحكومة جلالتها" أي دور في تلك الأحداث (إشارة إلى حوادث عام ١٨٦٠)، وبأن ما حدث هو ليس نتيجة استبداد العثمانيين، بل بسبب عدم وجود سلطة عثمانية مباشرة، كما أشار إلى أن المسؤولية تقع على البادئ بالشر (إشارة إلى الموارنة)، فضلاً عن اتهامه فرنسا ضمناً، إذ قال: (**منذ بضعة أشهر راجت بين المسيحيين إشاعات عن وقوع حوادث من هذا النوع في سورية في فصل الربيع ووزعت كمية من الأسلحة الأوربية على الموارنة..**)[٥]، كما أنكر أن

---

[١] ياب، مرجع سابق، ص١٥٦. وانظر:

- Kirk, op. cit, p. 84-85.

[٢] شيشلر، مرجع سابق، ص٧٧. الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص٩٣. حوراني، تاريخ الشعوب العربية، مرجع سابق، ص٣٤٥. أو كما يقول مشاقة: (**كانت الخسارة على الرعية مسلمين ونصارى على السواء، ولم تخسر الدولة شيئاً من خزينتها، بل ربحت إذلال الشعب وخضوعه التام بعدما أضعفت الحوادث عصبيته فاسترسل إلى السكون والطاعة**). انظر: مشاقة، مشهد العيان، مصدر سابق، ص١٩٢-١٩٣.

[٣] أبو النصر، مرجع سابق، ص٧٦.

[٤] العقيقي، انطوان ضاهر، مصدر سابق، ص٩٦.

[٥] العطار، مرجع سابق، ص٣١٦.

يكون هناك أية علاقة بين بريطانيا والدروز قائلاً: **(أن الحكومة الانكليزية لم يسبق أن كان لها أقل علاقة بالدروز بينما ثبت أن لحكومة غيرها علاقة وثيقة بالموارنة)**[١].

وفي الواقع، بعد فشل المشروع الفرنسي بتقسيم شمال أفريقيا بينها وبين بريطانيا، مدت بصرها نحو بلاد الشام بحجة حماية المسيحيين في بلاد الشام، وكانت قد باشرت العمل في هذا الاتجاه منذ عام ١٨٤١، عندما بدأت بالتصدي لنفوذ بريطانيا لدى الدروز، فأسهمت- مع بريطانيا- بزرع الشقاق بين الدروز والموارنة، وهذا كان سبباً مباشراً للفتن والحروب الأهلية في جبل لبنان التي تطورت في جزء منها إلى حوادث عام ١٨٦٠[٢].

وفي سياق آخر، أشارت بعض الأبحاث إلى وجود مشروع سياسي فرنسي واسع كان يدعو إلى سلخ بلاد الشام عن الدولة العثمانية في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر؛ لإقامة دولة عربية مستقلة، وكان الفرنسيون يتطلعون إلى ترشيح الأمير عبد القادر الجزائري كي يستلم قيادتها[٣]. مع أن أبحاثاً أخرى تشير إلى اعتزال الأمير للسياسة؛ وانسحابه من المسرح السياسي بعد التزامه المطلق بكلمة الشرف التي قطعها على نفسه أمام نابليون الثالث بعدم محاربة فرنسا، إضافة إلى الضغط الذي مارسته عليه القنصلية الفرنسية بمراقبة جميع تحركاته في دمشق منذ إقامته فيها عام ١٨٥٥، وبدليل عدم وجود أي وثيقة صادرة عن الأمير في الشأن السياسي، كما أن مؤلفات تلك المرحلة اكتفت بالحديث عن مطالعاته واجتماعاته ذات الطابع الديني الصرف، وتأثيره في الشبان المغاربة والدمشقيين الذين حضروا حلقاته الدينية[٤]. وبغض النظر عن مسألة ترشيح الفرنسيين للأمير فإن فرنسا كان تدفعها إلى هذا المشروع- على الأغلب- أسباب اقتصادية مستجدة، واستراتيجية قديمة تتعلق بمناطق انتشار نفوذها في الشرق؛ إذ يعتقد أن الحاجات الاقتصادية هي التي خلقت هذه الفكرة السياسية لدى مسؤوليها، ولاسيما أن فرنسا مرَّت بأزمات اقتصادية حادة بسبب نقص المواد الخام التي تسيطر بريطانيا على معظم مصادرها في وسط وشرق آسيا، وكانت بلاد الشام أهم المصادر المتبقية لهذه المواد وأقربها للموانئ الفرنسية[٥]، إضافة إلى حرص نابليون الثالث على ضمان استمرار وصول الخيول السورية إلى

---

[١] العطار، مرجع سابق، ص٣١٧.

[٢] الحداد، البلاغ المبين، مرجع سابق، ص٥٠.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٧. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٥.

[٤] التميمي، عبدالجليل، الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق (١٨٥٥-١٨٦٠)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢-١٣٥٨هـ ١٥١٦-١٩٣٩م، جامعة دمشق- كلية الآداب، د.ط، ١٩٧٨، ج٢،٤٢٧-٤٢٩.

[٥] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٦.

فرنسا، لأن الخيالة يحتاجونها في الجيش الفرنسي[1]. وقد بذلت فرنسا جهداً إعلامياً واسعاً في هذا الاتجاه، كما أنها أدخلت بعض صحفها إلى بلاد الشام التي كانت تنادي إلى إثارة العرب ضد الترك، ولم يفلح الولاة العثمانيون في إيقاف تسرب هذه الصحف؛ لأنها كانت ترسل من باريس إلى القناصل عبر البريد الدبلوماسي[2].

أ- التحرك الأوروبي والعثماني.

كانت الدول الأوروبية تراقب عن كثب تطور الأزمة[3]، فقد عمد سفراء الدول في الأستانة- بعد انتشار تفاصيل الحرب الأهلية- إلى عقد اجتماع قرروا فيه الاتصال بالباب العالي لاتخاذ التدابير التي يمكن أن "تضع حداً لهذه الفتنة"[4]. وكان السلطان العثماني- بعد تلقيه الأنباء- قد بدأ بالتحضير لإرسال فؤاد باشا وزير الخارجية العثمانية على رأس قوة عسكرية إلى بلاد الشام لضبط الأوضاع وإعادة الأمن[5]. ومن جهة أخرى أعطت المذابح والمجازر لنابليون الثالث الذريعة للتدخل في شؤون بلاد الشام مجدداً، لتوسيع دائرة النفوذ الفرنسي فيها، بحجة حماية المسيحية والمسيحيين[6]، إلى جانب مقتضيات السياسة الداخلية والخارجية لفرنسا[7]، فأراد نابليون التحرك بسرعة بحجة "تلكؤ السلطان وتردده" بعد أن تلمس له وزير خارجيته توفنيل مدخلاً قانونياً استخلصه من خط همايون ومعاهدة باريس لتدويل هذه الأزمة[8].

وأمام هذا التأويل دعا توفنيل Tofnell بريطانيا والقوى العظمى الأخرى بالإضافة إلى سردينيا، إلى إرسال لجنة تحقيق دولية ووحدات من الأسطول الفرنسي- البريطاني إلى الساحل اللبناني، إلا أن بريطانيا تحفظت بحجة البند التاسع من معاهدة باريس الذي يقضي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية[9]، ولما توافدت أخبار حوادث دمشق إلى الحكومة الفرنسية

---

[1] شيشلر، مرجع سابق، ص١١٦.

[2] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٩.

[3] مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٠.

[4] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٤-٣٧٥.

[5] مطر، مصدر سابق، ص١٤٨. العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام- تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق نجدة فتحي صفوة، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢، ص٣٢١. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٨، ص١٧٣-١٧٥.

[6] العظمة، مرجع سابق، ص٣٢٢.

[7] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٣.

[8] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٩.

[9] المرجع نفسه، ص٢٦٦.

تجاوز نابليون الثالث الاعتبارات القانونية، وقرر وضع أوروبا أمام الأمر الواقع فأعلن في تموز ١٨٦٠ عن نيته بإرسال حملة عسكرية إلى بلاد الشام[١].

في البداية رفض جون راسل Jhon Russel وزير خارجية بريطانيا التوجه الفرنسي، ولكن الحملة الإعلامية التي شنتها فرنسا عبر صحافتها في أوساط الرأي العام الأوروبي بما يقع على عاتق المسؤولين من مذابح دمشق، كل هذه الأشياء أضعفت حجة راسل في رفض المقترح الفرنسي[٢]، ومع وصول معلومات تفيد بأن حكومات بقية القوى العظمى توافق على قرار فرنسا، فضل راسل الموافقة، ولكنه اشترط- بتأييد روسي- عقد مؤتمر دولي لربط حركة نابليون الثالث بالإرادة الدولية، وفي ٥ أيلول ١٨٦٠ عقدت القوى العظمى إضافة إلى تركيا هذا المؤتمر الذي انتهى بتوقيع ممثلي الدول على بروتوكول أكد على خطة نابليون الثالث بشرط ألَّا يتجاوز عدد الجنود اثني عشر ألفا، وأن تقدم فرنسا نصف الجيش، وألَّا تبقى الحملة في بلاد الشام أكثر من ستة أشهر[٣]، مع ضرورة التنسيق مع مندوب الباب العالي لسير عمل الحملة[٤]. كما اضطرت فرنسا إلى إقصاء سردينيا عن شؤون الإمبراطورية العثمانية إرضاء للنمسا كي لا تعارض هذا المشروع الفرنسي[٥]، وهكذا وبعد الكثير من التداول استطاعت بريطانيا أن توجه ممثلي الدول إلى منح صفة "الدولية" للحملة ليعد ذلك نصراً جديداً لدبلوماسيتها[٦].

كما اتفقت الدول الموقعة على هذه الاتفاقية على إرسال مندوبين عن هذه الدول على شكل لجنة لتقصي الحقائق، ومتابعة الأحداث عن قرب، وبحث القضايا العالقة، كالكشف عن المذنبين، وإيجاد نظام جديد للحكم في لبنان، وكانت هذه اللجنة رافداً دبلوماسياً للحملة الفرنسية، إلا أنها في الحقيقة جعلت الحملة العسكرية أمراً لا طائل منه[٧]، ولاسيما أن الطرف العثماني أوفد أكبر موظفي الدولة فؤاد باشا[٨]، وبصلاحيات استثنائية واسعة، ومزوداً بتأييد بريطاني إلى

---

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤. الحداد، البلاغ المبين، مرجع سابق، ص٥٢-٥٤.

[٢] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٤٢. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦١. العطار، مرجع سابق ص٢١٧.

[٣] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤.

[٤] التونسي، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، مرجع سابق، ص١٩-٢٠.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٣.

[٦] الحداد، البلاغ المبين، مرجع سابق، ص٥٤-٥٥. خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص-٢٦٤.

[٧] لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

[٨] **فؤاد باشا:** وُلد في الأستانة عام ١٨١٤، عمل طبيباً في شبابه وأدرك فيه مصطفى رشيد باشا مستقبلاً واعداً في السياسة، وفي المجال السياسي، عمل بداية مترجماً لدى الباب العالي، ثم سافر مع رشيد باشا إلى لندن عام ١٨٣٨ ومكث فيها ثلاث سنوات، ويعود الفضل في خطوات نجاحه الأولى لرشيد باشا، ولكنه خالف مسلكه السياسي، وكان مندوباً في مؤتمر باريس ١٨٥٦، ثم عضواً في اللجنة الدولية للتحقيق في أسباب اضطرابات

بلاد الشام لوضع حد للفتن والاضطرابات هناك، ولإحباط عمل الحملة العسكرية وقطع الطريق على مطامع نابليون الثالث ومطامعه في الشرق[١]. فقد أعلن فؤاد باشا أنه سيتكفل بإعادة الأمن والنظام بالقوة العثمانية دون الحاجة إلى التدخل الأوروبي العسكري، محذراً من عواقب هذا التدخل في إثارة العواطف وردود الأفعال لدى الطوائف والمذاهب[٢].

ب- المندوب العثماني والحملة الفرنسية في بلاد الشام (١٨٦٠-١٨٦١).

بينما كانت فرنسا تستعد لإرسال الحملة العسكرية، كان فؤاد باشا في طريقه إلى لبنان وقبيل وصوله إلى بيروت جاءته الأنباء عن أحداث دمشق، فما أن وصل بيروت حتى أسرع إلى دمشق؛ لأنه وجد فيها فرصة لنجاح مهمته؛ لاعتقاده أن قضاءه على الفتنة هناك سيترك أثراً في السياسة الأوروبية[٣]، ولاسيما أن فرنسا استغلت حوادث دمشق إعلامياً وبشكل واسع في أوساط الرأي العام الأوروبي[٤]، وهو ما قد يدفع الأوروبيين إعادة حساباتهم، بعد أن يفرض العثمانيون الأمن والهدوء "بوسائلهم الخاصة"[٥]. وعندما وصل إلى دمشق، شكل فؤاد باشا محكمة خاصة لمحاكمة المسؤولين عن حوادث ٩-١١ تموز ١٨٦٠، فنظم في دمشق حملة إعدامات "نموذجية"[٦]، إذ أعدم بأمر محكمته (١١١) شخصاً رمياً بالرصاص، و(٥٦) شخصاً شنقاً، وحكم بالمؤبد على (١٨٦) شخصاً، وتم نفي (١٤٥) آخرين، إضافة إلى أحكاماً غيابية بالإعدام على(١٨٣) شخصاً[٧]، والحجز على أموال المحكوم عليهم بالإعدام[٨]. وعلى ما يبدو فأن هذه

عام ١٨٦٠، رافق السلطان عبد العزيز في جولته في أوروبا، أُصيب بمرض القلب وسافر إلى فرنسا للعلاج وتوفي في نيس عام ١٨٦٩. انظر، زيدان، مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج١، ص٣٠٤-٣٠٩.

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٦٣.

[٣] المرجع نفسه، ص ٢٧٥.

[٤] المرجع نفسه، ص٢٦١.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٧٦.

[٦] العظمة، مرجع سابق، ص٣٢٢.

[٧] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٤. الأسطواني، محمد سعيد، مصدر سابق، ص١٨٢-١٨٤. كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٩٠. مع بعض الاختلاف في هذه الأرقام في المصادر والمراجع، فيوردها نعمان قساطلي، على سبيل المثال، كما يلي: سبعون رجلاً أُعدموا شنقاً، وأحد عشر رجلاً رمياً بالرصاص، ونفي بعض الأعيان والعلماء والوجوه، ونحو أربعة آلاف نفس من العوام، ومن كان شاباً أُدخل بالسلك العسكري. انظر: قساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص٩٢.

[٨] وقد صدر عفو سلطاني عن مصادرة هذه الأملاك وقُضي بإعادتها إلى ورثة المحكوم. انظر: دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد السادس، الوثيقة رقم ٢٧.

الأرقام لم تُرضِ اللورد دوفرين، المندوب البريطاني في اللجنة الدولية، الذي كان في زيارة غير رسمية لدمشق، قبل البدء بجلسات اللجنة الدولية[١]، ولم ترض الصحافة الفرنسية أيضاً، فقد طالبت بمضاعفة أعداد المحكومين عليهم بالإعدام[٢]، ولا بعض الباحثين الإنكليز الذين قالوا أن هذه العقوبات هي **(كل ما حصلت عليه أوروبا المسيحية)**[٣]. وكان في عداد المحكومين بالشنق والرمي بالرصاص (١٨) شخصاً من الأسر العريقة في دمشق[٤] بالإضافة إلى الوالي العثماني أحمد عزت باشا وكثير من الضباط العثمانيين الذين ثبت تهاونهم في أداء مهامهم وواجباتهم[٥]، وبعد أن سُئل فؤاد باشا عن أسباب استعجاله في تنفيذ أحكام المحكمة، صرح بأنه أراد **(أن يقطع على الحملة طريقها إلى دمشق ويفقدها كل مبرر للتقدم إلى الداخل...)**[٦]. وهو ما سيذهب إليه المندوب البريطاني في اللجنة الدولية فيما بعد، عندما قال: إن **(فؤاد باشا نهج لنكد الطالع فور وصوله طريقة مجازاة قصد بها إرضاء الرأي العام في أوربا أكثر من إقناع المنكوبين)**[٧].

وصلت الحملة الفرنسية إلى بيروت ٦ أب ١٨٦٠[٨]، وقدم جنرالاتها "مآثر حربية" على حد قول أحد الباحثين، بصب جام غضبها على الفلاحين المتمردين في شمال لبنان (كسروان)[٩]، بعد أن نزلت إلى البر؛ وهي "تنشد الأناشيد الحربية ضد الدروز"[١٠]، إذ اضطر طنوس شاهين إلى الفرار إلى الجبال، فأصبح يوسف كرم قائمقاماً، وبذلك قامت فرنسا بالقضاء على الانتفاضة الفلاحية في كسروان، وأعادت الأراضي إلى إقطاعيي الموارنة[١١].

مع أن حوادث حبل لبنان ودمشق كانت السبب المباشر للحملة الفرنسية، فإن الباحثين يشيرون إلى أسباب أخرى بعيدة اختلفت آراؤهم فيها، وفي مقاصد نابليون الثالث منها، فقد رأى

---

[١] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٢-٣٣٣.

[٢] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤.

[٣] تشرشل، مرجع سابق، ص١٢٥. ففي الوقت الذي يشير فيه هذا الباحث بالتخطيط التركي لهذه الأحداث، يعترف فيه أيضاً، أنهم؛ أي المسؤولين الأتراك، لم يتمكنوا من تنفيذ المخطط إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية على تحركهم، وذلك إما لعدم معرفتها وإما تظاهراً بالجهل التام لدواعي هذا التحرك! انظر: المرجع نفسه، ص١٢٢.

[٤] كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٩٠ .

[٥] البيطار، مصدر سابق، ص٢٦٩. أبو شقرا، مصدر سابق، ص١٣٥. كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٩٠.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧٧.

[٧] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٤.

[٨] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٤٣.

[٩] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤.

[١٠] تشرشل، مرجع سابق، ص١٣١.

[١١] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤-١٦٥.

صاحب كتاب "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية" أن فرنسا طالما ترقبت هذه الفرصة ولاسيما بعد بثها أسباب الشقاق بين سكان الجبل، ثم تلك المساعي السياسية التي بذلتها لانتهاز هذه الفرصة[١]. وعزا فريق من المؤرخين ذلك إلى رغبة نابليون الثالث في وضع حد لنقمة الأحزاب والأوساط الكاثوليكية بسبب مواقفه من الوحدة الإيطالية، وتحريضه الإيطاليين ضد البابا ودولته. وذهب فريق آخر إلى رغبة نابليون الثالث باستعادة نفوذ فرنسا في الشرق[٢]، وآخرون رأوا هذه الحملة حركة استعراضية للقوة الفرنسية لتمرير مشروع قناة السويس الذي كان لا يزال على طاولة المفاوضات، وأخيراً رأى بعض الباحثين أن الحملة الفرنسية كانت البداية لتنفيذ المشروع الفرنسي السابق الذكر، الذي هدف إلى فصل بلاد الشام عن الدولة العثمانية[٣].

وانتقل فؤاد باشا إلى بيروت في ١٧ أيلول، واجتمع مع قائد الحملة الفرنسية دي بوفور De Beaufort، وطلب منه هذا الأخير التقدم نحو بلاد الشام الداخلية فرفض فؤاد باشا ذلك، موضحاً له بأن لا شيء يدعو لهذا التقدم بعد أن استتب الأمن وتحققت "العدالة السلطانية" هناك، وقد حاول فؤاد باشا أن يوجه الحملة نحو الدروز، للإيقاع بين فرنسا وبريطانيا لتخفيف الضغط عن الدولة العثمانية[٤]، وعندما اتجهت القوات الفرنسية نحو مناطق الدروز، اكتشفوا مغادرة الدروز لها إلى حوران عملاً بنصيحة العثمانيين، فأمر دي بوفور بالاستعداد لملاحقتهم، لكن القنصل الفرنسي في بيروت الكونت بنتيفوليو Bentivolio أقنعه بعدم جدوى ذلك، وبأنه ضرب من الجنون؛ لأن إبراهيم باشا والعثمانيين من قبلهم حاولوا مراراً إخضاع الدروز في تلك المنطقة، وبجيوش تفوق أعدادها أضعاف عدد جنود حملته، إلا أن محاولاتهم جميعاً باءت بالفشل[٥].

وبوصول فؤاد باشا إلى بيروت أصدر قراراً بإلغاء نظام القائمقامية وعزل خورشيد باشا ومساعديه المدنيين والعسكريين، وجعل من لبنان منطقة عسكرية، وفي هذه الأثناء وصلت اللجنة الدولية التي كُلفت بمتابعة تطورات الأزمة في جبل لبنان[٦].

---

[١] أبو شقرا، مصدر سابق، ص٩٩، ١٣٢.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٦-٢٦٧.

[٣] المرجع نفسه، ص ٢٦٧. شيشلر، مرجع سابق، ص١١٦.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧٧.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٧٨-٢٧٩.

[٦] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٧.

٤- **اللجنة الدولية – أعمالها ونتائجها.**

تم تشكيل اللجنة الدولية على خلفية الاتفاقية التي وقعت عليها القوى العظمى إضافة إلى الدولة العثمانية في ٥ أيلول ١٨٦٠[١]، فقد اتفقت هذه الدول على إرسال لجنة إلى بلاد الشام لكي تتحرى عن أسباب الأحداث الدامية فيها، وتحدد الجهات المسؤولة عنها، والكشف عن مرتكبيها[٢]، والتعويض لأسر الضحايا، إضافة إلى بحث المشكلات الاقتصادية، وتقديم اقتراحات لتعديل نظام الإدارة والقضاء في جبل لبنان، وقد حاول فؤاد باشا الاستفادة من التعارض بين مواقف أعضاء اللجنة، بعد أن تحولت هذه اللجنة إلى فريقين متعارضين في كل الأمور تقريباً، فقد ظهرت خلافات كثيرة حول العديد من القضايا[٣].

أ- **قضايا الخلاف بين أعضاء اللجنة.**

كان **الخلاف الأول** متعلقاً بمسألة صفة "الإلزامية" لقرارات هذه اللجنة التي أيدتها فرنسا، بينما أرادها ممثلو بريطانيا والنمسا أن تقتصر على صفة الاستشارية، كما أن فرنسا رفضت تدخل اللجنة في شؤون الإرساليات التبشيرية- الفرنسية بمعظمها- التي تحوم حولها الشكوك بضلوعها في إثارة الاضطرابات، وتسببها بوقوع الأحداث الدامية[٤].

وتركز **الخلاف الثاني** حول تحديد الجهة المسؤولة بشكل مباشر عن تلك الأحداث وكيفية تطبيق العقوبات بحق الجناة[٥]، فقد رفض المندوب النمساوي عقوبة الإعدام؛ لأن الذي يقتل خصمه في الحرب لا يستحق الإعدام، وكان رأي المندوب الروسي غير ذلك، أما المندوب الفرنسي فكان يطالب بإعدام وجهاء الدروز وأكابرهم بما فيهم سعيد جنبلاط، أما وكيل بريطانيا فقد رفض ذلك[٦]. ففي تقرير للورد دوفرين إلى جون راسل وزير خارجية بريطانيا، يشير فيه إلى

---

[١] كان أعضاء هذه اللجنة يمثلون ست دول وهم: فؤاد باشا عن الدولة العثمانية، واللورد دوفرين Lord Dufferin عن بريطانيا، بيكلار Beclard عن فرنسا، ودي نوفيكو De Novikow عن روسيا، وويكبكر Weckbecker عن النمسا، ودي رهفوس De Rehfues عن بروسيا. انظر: مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٥٥. الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٢، ص٣٧٦. ضو، مرجع سابق، ص١٩-٢٠. مخزوم، مرجع سابق، ص١٢٩.

[٢] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٤.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠. تشرشل، مرجع سابق، ص١٣٨. وكان عدد جلسات المؤتمر (٢٥) جلسة. انظر: مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٥٦.

[٤] المرجع نفسه، ص٢٨١.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨١.

[٦] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٥٩.

استدراج الموارنة للدروز إلى الحرب، وعليه فإنه لا يرى في القتال بين الطائفتين اعتداء درزياً على المسيحيين، بل حرباً أُرتكبت فيها الفظائع من جهة المنتصر[١].

أما **الخلاف الثالث** فكان يدور حول تحديد صيغة للفتنة، فيما إذا كانت حرباً أهلية أم هي فتنة نتيجة لاعتداء الدروز على المسيحيين، فقد كان المندوب الفرنسي يرفض هذا المقترح بشدة؛ لأنه يرى أن ما حدث هو جريمة لا تقبل الاجتهاد أو التأويل[٢].

واتبع فؤاد باشا موقفاً وسطياً بين الفرقاء في اللجنة؛ إذ وضع القضية بكاملها بيد المحاكم الخاصة بالأزمة التي أصدرت أحكامها على ضوء الشهادات وحسب الأصول، فقضت بأحكام إعدام غيابية بحق خمسة عشر درزياً، وأحكاماً بنفي (٢٤٥) آخرين إلى طرابلس الغرب، فقد أوصى المندوب البريطاني دوفرين بهم لدى القنصل البريطاني العام هناك[٣].

وفي هذه الأثناء أدركت الحكومة الفرنسية قرب انتهاء المدة المحددة للحملة الفرنسية، وحاول نابليون الثالث تجاهل اتفاقية ٥ أيلول ١٨٦٠، وإبقاء قواته في جبل لبنان إلى أجل غير مسمى، إلا إن بريطانيا والنمسا طلبتا منه الانسحاب الفوري[٤]، وبعد مداولات ومباحثات شاقة، تحدد يوم الخامس من حزيران ١٨٦١ كآخر موعد للانسحاب، وبالفعل تم نقل الجنود الفرنسيين قبيل هذا الموعد إلى فرنسا، وهكذا انتهت محاولة جديدة فاشلة للفرنسيين للسيطرة على بلاد الشام[٥].

كما ظهر توافق بريطاني- فرنسي لتوسيع صلاحيات اللجنة والاعواعطائها الحقفي "تقرير مصير" بلاد الشام، وتم الاتفاق في البداية على منح بلاد الشام وجوداً شبيه بالكيان المصري، غير أنهما اختلفا في صيغته النهائية، ففرنسا تعمل على سلخ بلاد الشام عن الدولة العثمانية منذ مدة، أما بريطانيا فقد كانت تريد استقلالاً داخلياً لبلاد الشام مع منح جبل لبنان امتيازات إدارية

(١) الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٧-١٣٨.

(٢) خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٨٤.

(4) Kirk, op. cit, p. 85.

(٥) لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٥. وجاء في وثائق المحررات السياسية استطلاع المندوب الفرنسي آراء المندوبين الأوروبيين في جلسة غير رسمية في تمديد مهمة الحملة الفرنسية عن عدمها، فقد حاول المندوبان الروسي والبروسي إطالة مدة الاحتلال، أما المندوبين البريطاني والنمساوي فقد أعربا عن قناعتهما بعدم جدوى بقاء الجيش الفرنسي في جبل لبنان. انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٢-١٤٣.

محددة[١]، وتقترح أن يُعين فؤاد باشا والياً على بلاد الشام مع منحه المزيد من السلطة بشرط أن تكون ولايته مدى الحياة أو لمدة عشر سنوات على الأقل[٢].

ولكن الباب العالي رفض هذه الاقتراحات جملةً وتفصيلاً؛ لأنه يدرك أن توحيد بلاد الشام يعني استقلالها وانفصالها آجلاً أم عاجلاً عن الإمبراطورية العثمانية[٣]، كما أنه رفض تدخل هذه الدول في شأن "عثماني" بهذا الشكل[٤]، فطوت بريطانيا مشروعها حرصاً على علاقاتها مع الدول العثمانية، وكذلك أسدلت فرنسا الستار على مشروعها في بلاد الشام عقب انسحاب حملتها العسكرية[٥].

ب- النظام الإداري الجديد (نظام المتصرفية).

بعد أن تنازلت فرنسا وبريطانيا عن مشاريعهما في بلاد الشام، أو تم تأجيلها، وبعد فشل فؤاد باشا في مطلبه بإعادة الحكم العثماني المباشر إلى لبنان، استغل المندوب الروسي هذه الثغرة وطرح مشروع خلق قائمقامية ثالثة أرثوذكسية؛ إذ اتجه أعضاء اللجنة إلى إقرار المشروع، باستثناء المندوب الفرنسي الذي عارض ذلك بشدة[٦]، فظهرت خلافات جديدة استمرت في مدة طويلة، وكانت الدبلوماسية الفرنسية الأوفر حظاً فيها. فبعد عدول الحكومة الروسية عن فكرة القائمقامية الأرثوذكسية، قررت الدول الخمس العودة إلى الحكم الموحد في جبل لبنان[٧]، فقد أعدت اللجنة الدولية نظاماً إدارياً خاصاً على شكل اتفاقية تم التوقيع عليها في الأستانة[٨] من قبل الدول الخمس والدولة العثمانية في ٩ حزيران ١٨٦١[٩]؛ إذ أصبح جبل لبنان- ما عدا

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٩١.

[٢] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٩.

[٣] المصدر نفسه، ص٢٤٨-٢٥١.

[٤] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٩٣.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٩٦.

[٦] المرجع نفسه، ص٢٩٦. يشير المندوب البريطاني اللورد دوفرين، في رسالة منه إلى السير بولفر في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٠، إلى أن الروم الأرثوذكس يرفضون الخضوع لسيطرة الموارنة، ولا سيما أنهم أكبر الطوائف المسيحية عدداً في بلاد الشام من جهة، وأن العلاقات بين الطرفين ليست على ما يرام من جهة أخرى، وأنهم يبحثون عن طريقة تكفل لهم تأليف حكومة مستقلة، ويضيف قائلاً: **(فالمصاعب التي يلقونها في سبيل تحقيق مشروعهم ستكون عظيمة فإن أفضل طريقة إنتهجها مشيريهم هي إنشاء حكومة مستقلة في شرقي لبنان).** انظر: الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠-٥١.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٢٩٧-٢٩٨.

[٨] مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٠.

[٩] أبو النصر، مرجع سابق، ص٧٢. لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٥.

الساحل- متصرفية ذات حكم ذاتي يترأسها حاكم مسيحي من رعايا السلطان، ومن غير اللبنانيين، ويخضع للباب العالي مباشرة حتى في اختياره وتعيينه[١]، وتم تأسيس مجلس إداري برئاسة المتصرف مؤلف من اثني عشر شخصاً[٢] يتم اختيارهم بشكل متساو من كل الطوائف الدينية الكبيرة الست في جبل لبنان؛ الموارنة، والدروز، والسنة، والشيعة، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، كما تم تقسيم جبل لبنان؛ إلى ست مديريات يترأس كل واحدة منها مدير على أن يكون ثلاثة منهم موارنة، وواحد درزي[٣]، واحد من الروم الأرثوذكس، وآخر من الروم الكاثوليك، ثم تم تشكيل مجالس منطقية تحت إدارة كل مدير، وأصبح دير القمر مركزاً للمتصرفية، مع تعهد جبل لبنان بدفع جزية سنوية إلى الباب العالي[٤]. ولم يكن هذا حلاً نهائياً للأزمة، فقد بقيت فرنسا والنمسا تؤيدان الحكم الوطني، ولكن بعد أن رشح الباب العالي داوود أفندي الأرمني- الكاثوليكي[٥]، خفت حماسة فرنسا، وأيدت سراً تعيينه، وجاء المقترح الروسي ليضع حداً لقضية الحكم المحلي والحكم الأجنبي، على أن تعلن الدول الخمس في المادة الأولى من النظام اللبناني الجديد أن جبل لبنان يقوم بالأمر فيه حاكم مسيحي يعينه الباب العالي، وهذا الأمر أدى إلى إقصاء فكرة الحكم الوطني الذي لا يضمن في الوقت نفسه استمرار الحكم الأجنبي، وفي ٩ حزيران ١٨٦١ صدر نظام لبنان الأساسي[٦]، بعد أن أقرته الدول الخمس، وفي ٢٢ حزيران عين داوود باشا أول متصرف على لبنان لمدة ثلاث سنوات على سبيل التجربة[٧]، وبعد نجاح هذه التجربة وقَّعَتْ الدول الكبرى- إضافة إلى الدولة العثمانية- على المعاهدة التي أقرت دستوراً دائماً مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة[٨]، وتم تمديد مهمة داوود باشا لخمس سنوات إضافية[٩]، استطاع خلالها داوود باشا (١٨٦١-١٨٦٨) التغلب على معارضة الزعماء الإقطاعيين ونفوذ يوسف كرم القائم مقام المسيحي في منطقة جبل لبنان

---

[١] مطر، مصدر سابق، ص١٤٨.

[٢] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٧٨.

[٣] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٥.

[٤] المرجع نفسه، ص١٦٦.

[٥] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠٠.

[٦] للاطلاع على مواد النظام الأساسي، انظر: الأسود، إبراهيم، دليل لبنان، المطبعة العثمانية، بعبدا، ط٣، ١٩٠٦، ص١٢ وما بعدها.

[٧] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠١. للاطلاع على نص المادة الأولى، انظر: مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٢٦١.

[٨] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٩] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠١.

الشمالية، الذي أطاح بحكومة طنوس شاهين الفلاحية في كسروان، ونفاه داوود باشا من جبل لبنان[١].

وبقي هذا النظام قائماً دون أن يتأثر بالانقلابات والتعديلات الإدارية في الإمبراطورية العثمانية، حتى دخلت هذه الإمبراطورية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، فدخلت القوات العثمانية خلالها جبل لبنان، وعصفت بالبروتوكول والعهود، وألغت الامتيازات المنبثقة عن الاتفاق الدولي السابق، وفرضت الأحكام العرفية، وتعلق الأحرار على أعواد المشانق، وأفرطت في ارتكاب المظالم[٢].

وهكذا نرى كيف تحولت الحركة التحررية الفلاحية لتصفية النظام الإقطاعي إلى حركة دينية وفوضى طائفية، بعد التدخلات الأجنبية، وتواطؤ السلطات العثمانية. ومع نتائجها المهمة في القضاء على نفوذ النظام الإقطاعي وتنبيهها لمخاطر الطائفية وعوامل تأجيجها، وفي مقدمتها الجهل والتخلف، إلا أنها أدت إلى تدخل أوروبي خطير في شؤون المشرق العربي[٣].

٥- الاهتمام الأوروبي بجنوب بلاد الشام (فلسطين) بين عامي ١٨٥٦و١٨٧٨.

أ- المصالح الاستراتيجية والتغلغل والديني الأوروبي في فلسطين منذ عام ١٨٥٦:

إن تنوع المطامع الأوروبية في فلسطين جعل من "الأرض المقدسة" موضع اهتمام دولي، كما جعلها حالة خاصة في الشرق، وهذا ما دفع إلى عدم إمكانية استئثار أي دولة أوروبية بمفردها بالسيطرة عليها، وإنما كانت تتطلب إشرافاً دولياً في أواسط القرن التاسع عشر[٤].

كما ارتبطت المصالح الأوروبية بمستويين أوروبيين: الأول هو سياسة الحكومات الأوروبية، وفكرة الحروب الصليبية السلمية التي انتشرت بشكل رئيسي في القارة الأوروبية[٥]. والثاني هو مستوى مطامح التيارات والحركات الاجتماعية، مثل فكرة إعادة اليهود Restoration of the Jews المرتبطة بفكرة الألفية الإنجليكانية[٦]. ومع ارتباط السياسة الأوروبية في "الشرق الأدنى"، وبلاد الشام بالمصالح الاقتصادية، إلا أن التغلغل الديني والثقافي بعد عام ١٨٥٦ ظل يحتفظ بتقدمه على التغلغل الاقتصادي[٧].

---

[١] مطر، مصدر سابق، ص١٤٨. رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٦.

[٢] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠٢.

[٣] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٦.

[٤] الوعري، مرجع سابق، ص٩٧. شولش، مرجع سابق، ص٥٩.

[٥] شولش، مرجع سابق، ص٦٠.

[٦] انظر: البحث، ص١٥٩.

[٧] شولش، مرجع سابق، ص٧٤.

فقد كانت حماية الأقليات الدينية ركيزة أساسية لتحرك الدول الأوروبية، ولاسيما فرنسا، ولم يبدأ هذا التوجه بالتراجع إلا في نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر؛ إذ تحولت الأنظار الفرنسية إلى الحركة التجارية، فعملت على توظيف الرأسمال الفرنسي في فلسطين بعد أن وُلِدتْ فكرة "الطرق السلمية" لتوطيد مركز فرنسا في منطقة البحر المتوسط من الناحيتين التجارية والاستراتيجية[١]، كما ركزت فرنسا على هجرة اليهود وقدمت لهم التسهيلات اللازمة إلى جانب تسهيل عملية شراء الأراضي بعد أن توزعت قنصلياتهم في معظم المدن الفلسطينية[٢]. وفي الحقيقة انتهجت كل الدول الأوروبية مبدأ الاحتلال السلمي لتثبيت أقدامها في فلسطين، وكل هذا حصل بالتنسيق بين هذه الدول على مبدأ سياسة حماية الأقليات، بعد أن أثبتت فلسطين فعاليتها لسياسة الحماية الأوروبية للأقلية المسيحية. وإذا كانت سياسة الحماية مجرد وسيلة مختارة من وسائل الدول الأوروبية غير أنها بالنسبة لروسيا كانت الأداة الأهم في بلاد الشام، وربما هي الوحيدة في فلسطين، وكل ذلك لخلق التوازن مع أنشطة الدول الأوروبية الأخرى[٣]، فقد رأت روسيا ضرورة التخطيط للعمل السياسي والدبلوماسي من خلال المدخل الديني الذي عبَرَت من خلاله بقية القوى العظمى إلى الولايات الشامية وفلسطين، ولاسيما بعد الظروف التي أحاطت بسياستها الخارجية بعد هزيمتها في حرب القرم[٤]؛ إذ أصبحت دبلوماسيتها الشرقية في وضع حرج للغاية، لأنه كان عليها الاحتفاظ بممتلكاتها ومكاسبها في "الأرض المقدسة" بأي وسيلة كانت، والعمل على إحياء العلاقات الروسية مع العرب؛ لذا فقد شكل التبشير الروسي في بلاد الشام المرحلة الأولى من الدبلوماسية الروسية لاستعادة دورها الدبلوماسي في المنطقة، وذلك عن طريق الاهتمام بما أطلقت عليه رعاية وحماية الحجاج الروس الأرثوذكس في فلسطين[٥]، وهكذا كان تأسيس المرتكز الروسي في فلسطين– بعد حرب القرم– يشكل أمراً ملحاً أكثر من أي وقت مضى، لذلك بادرت بتأسيس شركة الملاحة البخارية الروسية عام ١٨٥٦ التي زاحمت الخطوط البحرية الفرنسية والنمساوية في المتوسط، وقد شجع نجاح هذه التجربة الروس على إرسال قنصل جديد الى القدس يكون مهمته– إضافة الى مهام القنصل– الإشراف على شركة الملاحة هذه، فأعادت روسيا فتح قنصليتها، وأرسلت القنصل والأسقف الروسي إلى القدس عام ١٨٥٨ في

---

[١] شولش، مرجع سابق، ص٨٦–٨٩.

[٢] الوعري، مرجع سابق، ص١٥٢.

[٣] شولش، مرجع سابق، ص٧١.

[٤] الوعري، مرجع سابق، ص١٢٢

[٥] صالح، مرجع سابق، ص١٥٨. مناع، مرجع سابق، ص١٨٨.

وقت واحد[١]، كما نقل بطريرك القدس الأرثوذكسي كرسيه إلى "المدينة المقدسة" في العام نفسه فقد كان يقيم حتى ذلك الوقت في القسطنطينية[٢].

ويضاف إلى هذه المشاريع الاستيطانية (المسيحية) ظهور مشاريع يهودية من النوع نفسه، كتلك التي دعت إليها جمعية استعمار فلسطين ١٨٦٠، وكانت تحظى بدعم من القنصل النمساوي في القدس، هدفت إلى تأسيس مستعمرة زراعية يهودية كبيرة في فلسطين[٣].

لم تكن للنمسا أي أطماع في بلاد الشام، وهذا ما جعل جميع البعثات التبشيرية النمساوية مجرد مؤسسات اجتماعية وخيرية[٤]. بينما تحدد الاهتمام البريطاني والبروسي بفلسطين بفكرة الألفية الانجليكانية حول إعادة اليهود، نحو ما سبق، وقد أتاحت حرب القرم الفرصة أمام هذه التوجهات، إذ شكل إفلاس الدولة العثمانية علامة من "علامات الساعة"[٥]، وفي أواخر السبعينيات نحت فكرة "الإعادة" منحىً جديداً، وأصبحت كل الأفكار "المتطرفة" واردة للنقاش والتطبيق، فقد طالب أحد الرجال الصناعيين البريطانيين؛ وهو إدوارد كازاليت E. Cazalet بإقامة محمية بريطانية في فلسطين يكون هدفها إعادة اليهود، وربط البلاد بصورة دائمة ببريطانيا. واقترح آخر أن تسلَّمَ "الأرض المقدسة" إلى دائني الدولة العثمانية؛ لإفلاس الدولة العثمانية، على أن تكون المهمة الأساسية من وراء ذلك توطين اليهود في البلاد بشكل تدريجي، حتى تؤول البلاد إليهم وتصبح ملكاً لهم[٦]. أما القنصلية البريطانية فقد اهتمت بالبعد الاقتصادي التجاري والزراعي في المدن الفلسطينية، إلى جانب الإشراف على معاملات شراء وبيع الأراضي، فقد نشطت جميع القنصليات في استهلاك الأراضي والعقارات في المدن الفلسطينية[٧].

---

[١] صالح، مرجع سابق، ص١٥٩.

[٢] مناع، مرجع سابق، ص١٨٨. شولش، مرجع سابق، ص٧٣.

[٣] شولش، مرجع سابق، ص٩٢.

[٤] الوعري، مرجع سابق، ص١٢٦.

[٥] شولش، مرجع سابق، ص٧٧.

[٦] المرجع نفسه، ص٧٩.

[٧] الوعري، مرجع سابق، ص١٤١-١٤٣.

ب- مشاريع الاستيطان الأوروبية والحملة الصليبية السلمية:

انتشرت بين كاثوليك القارة الأوروبية فكرة الحملة الصليبية السلمية التي ارتبطت بمفهوم سياسي يدعو إلى "إعادة سيطرة" المسيحية على "الأرض المقدسة" عن طريق التغلغل الديني والثقافي والخيري بعيداً عن الحروب والسلاح[١]. فمع بداية حرب القرم انتظمت رحلات الحجيج من غرب أوروبا إلى فلسطين تزامناً مع تنشيط "تراث" الحروب الصليبية ودعمها عبر دعايات أدبية وثقافية[٢]، إذ انتشرت دعاية مكشوفة تدعو إلى الحملة الصليبية السلمية، والامتلاك الفعلي "للأرض المقدسة" قبل أي أرض خارج أوروبا، فامتزجت- والحال هكذا- "حق الامتلاك" مع ادعاءات، ومطالب سياسية خاصة "بالاسترداد"، ومن ورائها الاستعمار[٣]. وطُرح- وفقاً لذلك- مشاريع بناء المستعمرات، كما تسللت فكرة استعمار "الأرض المقدسة" إلى المخيلة الأوروبية حتى أصبحت عنصراً سياسياً ملزماً لدى الأوروبيين لفهم مشكلات "الأرض المقدسة"، وتردد ذلك في الكثير في الأدبيات، مثل الصحف، كصحيفة "الأرض المقدسة" Das Heilige Land الألمانية التي كانت "متأكدة" من أن مستعمرات أوروبية سوف تنشأ في فلسطين، وأن **(الفلاحون سيبيعون أرضهم عن طيب خاطر إلى الأوروبيين ولا يتوقعون منهم لقاء ذلك سوى الخبز والحماية)** ويكون في وسع المستعمرين حينئذ أن **(يستعملوا السكان الأصليين عمالاً في الأرض)**[٤].

وظهرت في ستينيات القرن التاسع عشر بعض الدعوات إلى إنشاء المستعمرات الأوروبية، كتلك التي دعا إليها عام ١٨٦٠ ايرنست لاهران E. Laharanne، السكرتير الخاص لنابليون الثالث، وطلب فيها إيجاد السبل الكفيلة لتثبيت دعائم الوجود الفرنسي في منطقة المشرق العربي، ومن هذه السبل اقتراحه أن تقوم فرنسا بتوطين اليهود في فلسطين[٥]. وكتلك التي دعا فيها هنري دونان H. Dunant- مؤسس الصليب الأحمر- لتأسيس جمعية دولية لتجديد الشرق عام ١٨٦٦، إلا أن هذا المشروع قد فشل بسبب طابعه الدولي[٦].

وظهر مشروع كاثوليكي عام ١٨٧٦ دعا فيه أحد المهندسين؛ وهو بيروتي Pierotti ، إلى تأسيس مستعمرات كاثوليكية في "الأرض المقدسة". ومن جهته دعا الجغرافي النمساوي كولمان Kuhlmann ، قبيل تأسيس مستعمرات الهيكليين الألمان إلى استعمار جرماني لفلسطين. أما

---

[١] شولش، مرجع سابق، ص٨١.

[٢] المرجع نفسه، ص٨١-٨٢

[٣] المرجع نفسه، ص٧٤.

[٤] المرجع نفسه، ص٨٧.

[٥] محمود، أمين عبدالله، مرجع سابق، ص٣٠.

[٦] محافظة، العلاقات الفلسطينية- الألمانية، مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٦.

لورانس أوليفانت[١] L. Oliphant الناشط السياسي والمتصوف المسيحي الذي وُصف بأنه الصهيوني الأول من حيث الزمان، فقد دعا عشية موجة الهجرة اليهودية الأولى ١٨٨٢، إلى إقامة مستعمرة يهودية في البلقاء[٢] (الجانب الآخر من نهر الأردن) إلا أن جميع تلك المشاريع كان مصيرها الفشل لأسباب مختلفة، ولعل تصدي الدولة العثمانية لها إحدى أهم تلك الأسباب[٣].

في ظل هذه المشاريع والخطط الاستعمارية التي وُضعت استطاع اثنان منها تحقيق النجاح، وهما أولاً مستوطنات الهيكليين الألمان منذ عام ١٨٦٨، ومستوطنات المهاجرين اليهود منذ عام١٨٨٢[٤]، وهذه الأخيرة لا تندرج في إطار المدة الزمنية المحددة للبحث.

ج- مستعمرة جمعية الهيكليين الألمان في فلسطين.

استطاع اثنان من مؤسسي جمعية الهيكل الألمانية[٥] الوصول إلى حيفا، والبدء بالمشروع الاستيطاني في فلسطين، وقدمت لهم القنصلية البروسية الدعم والتسهيلات اللازمة، وقوبل طلبهما في السماح لهما بشراء الأراضي في حيفا بالرفض من قبل الباب العالي[٦].

---

[١] **لورانس أوليفانت (١٨٢٩-١٨٨٨):** وُلد في جنوب أفريقيا من أبوين إنجيليين، وخدم مدة من الزمن في السلك الدبلوماسي البريطاني، وعمل مراسلاً صحفياً لصحيفة التايمز اللندنية خلال حرب القرم، ثم أصبح عضواً في البرلمان البريطاني. انظر: محمود، أمين عبدالله، مرجع سابق، ص٣٣.

[٢] **البلقاء:** مقاطعة إلى الشرق من نهر الأردن قاعدتها السلط، تشتهر بزراعة القمح ويضرب في قمحها المثل. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٤١.

[٣] شولش، مرجع سابق، ص٨٨-٨٩.

[٤] المرجع نفسه، ص٩٠.

[٥] تعود هذه الجمعية في أصولها إلى حركة الاتقياء التي ظهرت في ألمانيا في القرن السابع عشر كحركة دينية إصلاحية في الكنيسة الإنجليزية، حيث أكدت هذه الحركة على دراسة الكتاب المقدس، وعلى الخبرة الدينية الشخصية، واستمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر، وقد بشر القائمين عليها بقيام مملكة الرب، وعودة المسيح، وبعد خلافات حادة بين مناصريها والقائمين على الكنيسة الإنجيلية الوطنية عام١٨٥٩، تم طرد هؤلاء فأنشأوا طائفة دينية خاصة كانت هي جمعية الهيكل، ولا صلة لهذه الجمعية بمنظمة فرسان الهيكل التي تشكلت في مطلع القرن الثاني عشر. محافظة، العلاقات الفلسطينية- الألمانية، مرجع سابق، ص١٠٤.

[٦] محافظة، العلاقات الفلسطينية- الألمانية، مرجع سابق، ص١٠٧.

وهذان الشخصان هما كريستوف هوفمان[١] K. Hoffmann، وجورج هارديج[٢] G. Hardegg، وكان قانون عام ١٨٦٧ قد أقرّ للأجانب بحق امتلاك الأراضي في الدولة العثمانية، شريطة حصولهم على الجنسية العثمانية[٣]، إلا أن هذا الرد لم يمنعهما من الحصول على قطعة أرض للبدء بمشروعهما، بعد الاحتيال على القانون العثماني عبر الشراء عن طريق وسيط يحمل الجنسية العثمانية[٤].

إن الهيكليين طائفة دعت الى جمع "شعب الله" في القدس، وهم يقصدون بذلك أنفسهم، ولا صلة بين هذا المصطلح والمصطلح التوراتي "شعب الله المختار". فقد آمن هؤلاء بحق لا يتزعزع بامتلاك "الأرض المقدسة" وكانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف هي الهجرة إلى فلسطين[٥]. بدء الرجلان ببناء أول مستعمرة ألمانية في فلسطين في ربيع عام ١٨٦٩، وقد شملت هذه المستعمرة اثنا عشر منزلاً على سفح جبل الكرمل إضافة إلى مدرسة ودار للعبادة، وكتب على مدخل المستعمرة (**لتنسني يميني إن نسيتك يا قدس**)[٦].

وكبرت هذه المستعمرة ونمت، ثم توالت عمليات شراء الأراضي في حيفا ويافا بهدف بناء المزيد من المستعمرات الألمانية[٧]. فقد اشترى هوفمان المستعمرة الأمريكية في يافا، والمعروفة باسم (قرية آدم Adam's city)، على مراحل بين عامي ١٨٦٩و ١٨٧١، ثم توسع الهيكليون في يافا واشتروا عام ١٨٧١ قطعة من الأرض على طريق يافا وتل أبيب. وبعد صعوبات كثيرة

---

[١] **كريستوف هوفمان:** وُلد في بلدة ليونبرغ في مملكة فورتمبرغ –إحدى الممالك الألمانية–عام ١٨١٥، كان والده مؤسس أول جمعية دينية في مملكة فورتمبرغ، وخلف أباه في رئاستها، درس الفلسفة والتاريخ في جامعة توبنجن، وتولى مهمة الدفاع عن الاتجاه الديني في وجه الحركة العلمانية المناهضة للمسيحية في ألمانيا في أربعينيات القرن التاسع عشر، رشح نفسه في الانتخابات العامة للبرلمان الاتحادي الألماني (البندستاغ) وكان مقره مدينة فرانكفورت، وبعد هذه التجربة البرلمانية واعتقاده بفشل الكنيسة الإنجيلية في القيام برسالتها، بدأ الدعوة إنشاء كنيسة حرة مستقلة عن الكنيسة الإنجيلية الرسمية، وكان ساعده الأيمن في دعوته جورج دافيد هارديج الذي تعرف عليه عام ١٨٤٨. انظر: المرجع نفسه، ص١٠٠–١٠٢.

[٢] **جورج هارديج:** ولد في قرية قرب لود فيجزبورغ في مملكة فورتمبرغ عام ١٨١٢، اتم الدراسة الثانوية ثم عمل في التجارة، ونشط في المجال السياسي حتى دخل السجن، وأثناء وجوده في السجن درس الكتاب المقدس، وأثّر ذلك في سلوكه وفكره. انظر: المرجع نفسه، هامش ص١٠٢.

[٣] شولش، مرجع سابق، ص٩١. للاطلاع على نص القانون، انظر: نوفل، الدستور، مصدر سابق، المجلد الأول، ص٦٨–٦٩. وانظر: الملاحق، الوثيقة رقم ١٧، ص٣٣٩.

[٤] محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص١٠٧.

[٥] شولش، مرجع سابق، ص٩٠.

[٦] محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص١٠٧.

[٧] الوعري، مرجع سابق، ص١٦٦.

استطاع "شعب الله" تأسيس أربع مستوطنات بين عامي ١٨٦٨و١٨٧٣[١]، ثم أُلحق بها ثلاث مستوطنات بين عامي ١٩٠٢و١٩٠٧[٢].

عملت حكومة الرايخ[٣] على ألَّا تلزم النشاطات الاستيطانية في فلسطين بصفة سياسية، ومع ذلك فقد كانت المنازعات المستمرة بين الهيكليين "شعب الله"، والسلطات المحلية، بسبب الضرائب ونظام الالتزام تشكل عنصراً مزعجاً للعلاقات الألمانية– العثمانية[٤].

واجه المستعمرون الهيكليون صعوبات ومتاعب كثيرة، فمن الناحية العددية كان مجموع من استقر منهم في فلسطين بين عامي ١٨٦٠و١٨٧٥ نحو (٧٥٠) عنصراً؛ إذ فقدت الجمعية منذ عام ١٨٧٥ أتباعها في ألمانيا بالتدريج، وتوقفت هجرتهم منها منذ ذلك الوقت[٥]. ولم تحظ هذه المستعمرات بحماية ورعاية الحكومة القيصرية الألمانية[٦]، لحرص الحكومة على العلاقات الألمانية– العثمانية، بينما كان الرأي العام الألماني حاضراً بقوة، واستطاع أن يثير بعض الضغوطات على حكومة القيصر؛ لتقديم بعض الدعم لهذه المستعمرات، ومع ذلك يمكن القول أن الحكومة الألمانية لم تستغل عنصر المستعمرين لأي غرض سياسي في البلاد[٧]. كما أن زعيمي الجمعية قد دخلا في نزاع حاد بينهما، وما لبث أن استقل كل واحد منهما في مستعمرة مستقلة عن الأخرى واستطاعت الكنيسة الإنجيلية الاستفادة من هذه الثغرة[٨].

أما علاقاتهم مع العرب فقد كانت تتسم بالحذر، فقد أدرك العرب أن هؤلاء ليسوا كبقية المقيمين في فلسطين، وأن مشروعهم لا يشبه مشاريع الإرساليات التبشيرية، فقد تركوا أوطانهم وجاؤوا لهدف واحد– أياً كانت معتقداتهم– وهو الاستيلاء على أراضيهم، فنالوا بذلك كراهية العرب[٩].

أما بالنسبة لليهود، فقد كانت مواقفهم عدائية منهم قبل استيطانهم فلسطين، وذلك لاعتبارات دينية محضة، إلا أن هذه المواقف تغيرت بعد الاستيطان، فقد بدأوا بالتعاون معهم لمواجهة

---

[١] مناع، مرجع سابق، ص١٨٩.

[٢] محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص٩٠.

[٣] **الرايخ:** كلمة ألمانية تعني مملكة، وقد أطلق هتلر على حكومته اسم الرايخ الثالث، على أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت الرايخ الأول، والإمبراطورية الألمانية (١٨٧١–١٩١٨) هي الرايخ الثاني. انظر: الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج١١، ص٩٧.

[٤] شولش، مرجع سابق، ص٩١.

[٥] محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص١١٣.

[٦] مناع، مرجع سابق، ص١٩٠.

[٧] محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص١١٧.

[٨] المرجع نفسه، ص١١٤.

[٩] المرجع نفسه، ص١٢٨.

المجتمع العربي الرافض لتلك المستعمرات، ولكن هذه العلاقات دخلت مرحلة جديدة مع قدوم آلاف اليهود من شرق أوروبا في منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر[١].

ومن جهة أخرى فقد كان استيطان هؤلاء الهيكليّين، مع عدم اعتراف الممثل الألماني في الأستانة بوكيل القنصل الألماني في حيفا يشكل "تجربة ناجحة" برهنت على أن الاستعمار الأوروبي في فلسطين قد يكلل بالنجاح، بطريقة أو بأخرى، كما أنها أفادت اليهود في الحصول على تجربة، كادت أن تنجح لو حظيت ببعض الدعم والمساعدة[٢].

ثالثاً – السياسة الأوروبية في بلاد الشام (١٨٦٤–١٨٧٨).

١– تطور الهيمنة الاقتصادية الأوروبية في الدولة العثمانية وبلاد الشام مع التحول نحو عصر الامبريالية.

لم يكن تحرك الشعوب المنضوية تحت حكم الإمبراطورية العثمانية نحو تحررها، على أسس من الأفكار القومية الذريعة الوحيدة للتدخل الخارجي الأوروبي[٣]، فقد شكلت الامتيازات الأجنبية منطلقاً وأساساً للسياسة الأوروبية تجاه الدولة العثمانية ومسائل الشرق حتى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين[٤]. وغالباً ما كانت الاضطرابات والفتن التي عانت منها الدولة العثمانية (الثورات والحروب الأهلية)، وهي التي أسهمت الدول الأوروبية بدور كبير في تأجيجها، تنتهي بامتيازات سياسية واقتصادية أوروبية، وقد مهدت هذه الامتيازات المستجدة والقديمة السبيل أمام تغلغل الرساميل الاستعمارية التي استطاعت أن تحكم الطوق على الاقتصاد العثماني بعد أن بدأت بالقليل، ثم انتهت بتحويل الإمبراطورية العثمانية وولاياتها إلى مناطق للنفوذ الاستعماري، والقيام بوضع موارد البلاد في خدمة الرساميل والمؤسسات المالية الأجنبية[٥].

وعلى خلفية هذه الامتيازات استطاعت الدول الأوروبية عقد اتفاقيات مهمة مع الدولة العثمانية فأسهمت هذه الاتفاقيات في عملية التغلغل الرأسمالي الأوروبي، ففي عام ١٨٣٨ عقدت بريطانيا اتفاقية بلطة ليمان مع الدولة العثمانية، ثم لحقتها فرنسا، وبين عامي ١٨٣٩ و١٨٤١ جرى عقد اتفاقيات مماثلة مع سردينيا، والسويد، والنرويج، واسبانيا، وهولندا، وبروسيا،

---

[١] محمود، أمين عبدالله، مرجع سابق، ص٤٣. محافظة، العلاقات الفلسطينية– الألمانية، مرجع سابق، ص١٣٠.

[٢] شولش، مرجع سابق، ص٩٢.

[٣] توبي، جاك، الإمبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية ١٨٤٠–١٩١٤، ترجمة فارس غصوب، الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٢٧–٢٨.

[٤] انظر: البحث، ص٤٣–٤٦.

[٥] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٨–٩.

والدانمارك، ودوقية توسكانيا الكبرى، وبلجيكا، وهذه الاتفاقيات بمجملها تنصُّ على تخفيض مفرط للرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من هذه الدول، مع محاولات إرساء أسس جديدة للعلاقات التجارية في الإمبراطورية العثمانية[١].

وكانت التغييرات القانونية والإدارية والتربوية في مرحلة التنظيمات العثمانية التي بدأت منذ عام ١٨٣٩ قد شجعت النمو الاقتصادي عبر التبادل التجاري، ولكنها أسهمت في الوقت نفسه بوضع الاقتصاد العثماني تحت سلطة القوى الأوروبية[٢]، بعد أن وجهت السياسة الجمركية ضربة قاصمة للصناعة الوطنية، والتجارة القائمة على تصريف منتجات تلك الصناعة[٣].

وحدث ذلك في الوقت الذي أخذت الرأسمالية[٤] تنمو نمواً متصاعداً نحو عصر الإمبريالية[٥] الذي تزامن مع تحول نظام المنافسة المفتوحة إلى نظام الاحتكارات الكبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واقتضى هذا التحول إعادة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ بشكلٍ غير مباشر، لتضمن القوى العظمى الصناعية أسواقاً جديدة لتصريف منتجاتها، وبذات الأهمية تؤمن حاجاتها من المواد الأولية لصناعتها، وهذا الأمر أدى بشكل تلقائي إلى توظيف رؤوس أموالها في مناطق نفوذها[٦].

---

[١] مانتران، مرجع سابق، ج ٢، ص١١٤.

[٢] خضر، مرجع سابق، ص٤٤.

[٣] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص ١٠. أمين، جلال، المشرق العربي والغرب (بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٨١، ص٢٨.

[٤] **الرأسمالية:** يرجع أصل الكلمة capital إلى اللفظة اللاتينية caput ومعناها الرأس، وأُستعملت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للدلالة على الأموال ومخازن البضائع، ثم تطورت هذه الكلمة لتعني بشكلٍ أكثر تحديداً ثروة أو مؤسسة أو ثروة تاجر، واتخذت في القرن الثامن عشر دلالة خاصة لتشير إلى "المال المُنْتِج"، وجاءت كلمة رأسمالية كمصطلح نسبة إلى الرأسمالي مالك الثروة. وتُعرّف الرأسمالية capital اليوم بأنها: نظام اقتصادي–اجتماعي تكون فيه معظم وسائل الإنتاج ملكية خاصة، ويكون دافع الربح والمنفعة فيه هو المحرك الأساسي للنشاط الاقتصادي. انظر: الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج ٢٤، ص٦٠٢ .

[٥] **الإمبريالية:** هي ظاهرة اقتصادية سياسية عسكرية، تتجسد في إقدام الدول القوية في العصر الحديث– أي الرأسمالية الصناعية– على التوسع وفرض سيطرتها على شعوب وأراضي أجنبية بدون رضى تلك الشعوب، بهدف استغلالها وإخضاعها ونهب ثرواتها، وكثيراً ما تتضمن عملية فرض السيطرة هذه استخدام العنف والاحتلال العسكري بعد التمهيد والاستفادة– في بعض الأحيان– من الرحلات، والتجارة، والإرساليات التبشيرية أو موجات سكانية تقصد الاستيطان، وذلك لتمكين الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية للدولة الإمبريالية. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٠.

[٦] الحيدري، مرجع سابق، ص٦٣.

فإذا كان تصدير الرساميل- كما يشير لينين[١] Lenine- هو إحدى سمات الإمبريالية المعاصرة، فستكون الدولة العثمانية- التي انفتحت على الرساميل الأوروبية بقصد أو بدون قصد- إحدى أهم المناطق التي تعرضت لاستغلال الإمبريالية[٢] .

ومن جهة أخرى أدركت القوى الأوروبية أهمية المشرق العربي من الناحية السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، وهذا الأمر يفسر ذلك الصراع بين بريطانيا وفرنسا في هذه الجزء من الإمبراطورية العثمانية بهدف الانفراد والسيطرة على هذه المنطقة الحيوية من العالم[٣].

وإذا كانت الدولة العثمانية لا تزال تحتفظ بشيء من السيادة والاستقلالية السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلا أنها واجهت قبيل مرحلة التحول نحو عصر الإمبريالية صعوبات كبيرة في المجالات الاقتصادية والسياسية التي حالت دون تطور البنى الاقتصادية لديها، فقد بقيت دولة زراعية ذات صناعات حرفية حافظت على درجة معينة من التطور، وبقيت مقسمة إلى مناطق إنتاجية صغيرة تقوم على نوع من العلاقات البسيطة[٤]. في وقت بلغت فيه الرأسمالية أوج تطورها في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، وأصبحت في مرحلة متقدمة من الإنتاج الصناعي والإدارة المصرفية، واقتسمت العالم اقتصادياً وسياسياً، ولم تبقَ بلادُ الشام- كجزء من الإمبراطورية العثمانية- بعيدة عن تأثير هذا التطور الرأسمالي للبلدان المتطورة، فقد أصبحت ميداناً واسعاً لتصريف السلع الأجنبية وسوقاً مهمة لتوظيف الرساميل الأجنبية، ومورداً غنياً للمواد الأولية، لتتحول شيئاً فشيئاً- مع نمو وتغلغل الرأسمال الأجنبي- إلى بلد نصف مستعمَر يكون كل شيء فيه مسخراً لخدمة المشاريع والمصالح الاستعمارية[٥]، وهذا ما أدى في مراحل لاحقة إلى الاستعباد الاستعماري، والتبعية الاقتصادية، في مرحلة تبلور عهد سيطرة الرأسمال الاحتكاري[٦]، وتحول الرأسمالية ونموها نحو عصر الإمبريالية[٧].

---

[١] لينين Lenine (١٨٧٠-١٩٢٤): زعيم الثورة الروسية ومؤسس الحزب الشيوعي في روسيا السوفياتية، أعاد تنظيم الحزب البلشفي- عند نشوب الثورة- بمساعدة ستالين عام ١٩١٧. انظر، المنجد، مرجع سابق، ص٦٢٢.

[٢] توبي، مرجع سابق، ص٢٨

[٣] الحيدري، مرجع سابق، ص٦٤.

[٤] توبي، مرجع سابق، ص٧.

[٥] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٠.

[٦] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٧.

[٧] الحيدري، مرجع سابق، ص٦٣.

٢- تغلغل الرأسمال الأجنبي والمشاريع الأوروبية الافتراضية في بلاد الشام .

أ- تغلغل الرأسمال الأجنبي في الدولة العثمانية وبلاد الشام .

- سياسة الاقتراض في الدولة العثمانية.

كان الحكم الثيوقراطي[١] والعلاقات الإقطاعية في الإمبراطورية العثمانية قد أضعف الدولة ومؤسساتها، وأفقر البلاد، ونشر الجهل والتخلف والبؤس بين شعوب الإمبراطورية[٢]، في الوقت الذي تصاعدت فيه المشاكل المالية في الدولة العثمانية، بسبب النفقات الكبيرة على الحروب التي فُرضت عليها، والنفقات المرتفعة لبلاط السلطان، وغياب خط فاصل بين نفقاته والميزانية العامة للدولة[٣]، إضافة إلى التضخم النقدي الناتج عن انخفاض قيمة العملة العثمانية الذهبية والفضية نتيجة خلطها مع معادن رخيصة لسد عجز الخزانة المالية، كل هذا دفع الدولة العثمانية إلى سياسة الاقتراض[٤].

وتزامن أول قروضها الكبيرة عام ١٨٥٤ مع متطلبات الإنفاق على حرب القرم[٥]، فدشّنت هذه القروض، مع امتيازات اتفاقية بلطة ليمان ١٨٣٨، والتدخل الأوروبي في بلاد الشام عام١٨٤٠، عهد تغلغل الرأسمال الأجنبي في الدولة العثمانية وولاياتها[٦]. فقد كانت القروض الأجنبية إحدى أهم الوسائل للمدِّ الاستعماري الأوروبي في الإمبراطورية العثمانية[٧]، لتبدأ بذلك بواكير مراحل السيطرة الرأسمالية الغربية على هذا الجزء من المشرق العربي[٨].

فلقد وقَّعَتْ الدولة العثمانية بين عامي ١٨٥٤-١٨٧٤ أربعة عشر قرضاً مع كبرى الشركات الاحتكارية الأجنبية ولاسيما الفرنسية والبريطانية، ولم تكن هذه الشركات تمنح قروضها إلا لقاء وضع اليد على أهم موارد الدولة المالية كضمان لتسديد الفوائد والحصص السنوية من القروض، وهذا يعني وضع الاقتصاد تحت إشراف الرأسمال الأجنبي، وإطلاق يد هذا الرأسمال في نهب

---

[١] **الثيوقراطية:** هو نظام الحكم المستند إلى فكرة دينية، والمستند إلى نظرية الحق الإلهي التي تعد الله مصدراً للسلطة، والحاكم بمثابة ظل الله على الأرض، كما تستمد السلطة الزمنية فيه مقوماتها من المشيئة الإلهية. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج١، ص٩٢٨.

[٢] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢٧ .

[٣] هرشلاغ، مرجع سابق، ص٧٢.

(4) Pamuk, Sevket, the Ottoman and European Capitalism, 1820-1913, Trade, investment and production, Cambridge University Press, London, 1987, p. 56.

[٥] هرشلاغ، مرجع سابق، ص٨٣. طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٢٥٣.

[٦] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٦-١٤٧.

[٧] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢٧.

[٨] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٧.

شعوب الإمبراطورية، وكنتيجة حتمية أعلنت الدولة العثمانية إفلاسها بين عامي١٨٧٥-١٩٧٩، مما أدى إلى خلق سلطةٍ رأسماليةٍ أجنبية في قلب الإمبراطورية[١].

في الحقيقة أدت باريس ولندن الدور الأساسي في إعطاء القروض للدولة العثمانية، فالقروض التي منحت للدولة العثمانية ما بين ١٨٥٤ و١٨٨١ من تاريخ إصدار أول قرض في الأسواق المالية للندن وباريس حتى تسوية الإفلاس العثماني بمرسوم "محرم"، كانت من نصيب بريطانيا وفرنسا بشكل أساسي، وقد شكلت هجمة حقيقية على اقتصادها، وأرست قواعد صلبة للسيطرة الاقتصادية البريطانية والفرنسية[٢].

وبالنتيجة فقد كان لإفلاس الإمبراطورية عام ١٨٧٥، بسبب الاقتراض المتكرر، أمر أدى إلى فرض رقابة مالية أجنبية أوروبية خاصة، ولاسيما أن مرسوم محرم (كانون الأول ١٨٨١) قد دعا إلى إقامة مجلس لإدارة الدَّين العام، وكان معظم أعضاء هذا المجلس من مندوبي الدول الأوروبية الدائنة، وكُلِّف المجلس بمراقبة مداخيل المواد والبضائع التي احتكرتها الدولة العثمانية، مع تقديم ضمانة مالية للدائنين، وهكذا أصبح الاقتصاد العثماني تحت السيطرة والمراقبة الصارمة للدول الأوروبية[٣].

- البنوك الأوروبية وبداية السيطرة الفعلية على الاقتصاد العثماني.

لم يكن في بلاد الشام في القرن التاسع عشر أيُّ بنك وطني عثماني، عدا البنك الزراعي الحكومي الضعيف والبدائي التنظيم، لأن توظيف الأموال في البنوك مقابل الحصول على فوائدها هو الربا بعينه في نظر المسلمين؛ لذا استمروا في استثمار أموالهم في المجالات الاقتصادية المباشرة الزراعة، والصناعة، والتجارة. في الوقت الذي شكل ضعف الاستقرار السياسي والاجتماعي إلى جانب سوء الإدارة العثمانية المزمن سبباً رئيسياً لضعف الأحوال الاقتصادية لدى السكان، مما أدى إلى ضعف الدخل والادخار، وهذا ما جعل صاحب المال يدخر نقوده على شكل حليٍّ أو نقود ذهبية، وتزامن ذلك مع دخول الرساميل الأجنبية التي ملأت هذه الثغرة، لذلك أدت في أواخر القرن التاسع عشر إلى ارتباط الحياة الاقتصادية والمالية في بلاد الشام بعجلة المؤسسات الأجنبية من بنوك وغيرها بشكل شبه كامل[٤].

---

[١] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢٨-٢٩ .

[٢] توبي، مرجع سابق، ص٢٨-٢٩.

[٣] هرشلاغ، مرجع سابق، ص٨٤-٨٦. خضر، مرجع سابق، ص٤٤-٤٥.

[٤] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢١.

كان بنك القسطنطينية Bank of Constantinople أول بنك عثماني، وتأسس عام ١٨٤٤[١]، تلاه ظهور البنك العثماني الذي تأسس عام ١٨٥٣، ثم تحول فيما بعد إلى البنك الإمبريالي العثماني عام ١٨٦٣، عندما انضمت مجموعة فرنسية إلى المجموعة الإنكليزية بتقديم٥٠% من رأسمال هذا البنك، وأدى ذلك إلى ظهور لجنتين للإدارة مقرهما لندن وباريس[٢]. كانت الأستانة المركز الرئيسي لهذا البنك، ثم تم افتتاح أحد عشر فرعاً له في مدن بلاد الشام بيروت، ودمشق، وحلب، ولواء الإسكندرون، وحمص، وحماة، وطرابلس، وصور، وصيدا، ويافا، وعنتاب)، إلا أنها لم تعمل على الأسس المصرفية الحقيقية مثل تمويل المشاريع الوطنية، بل كانت أشبه بكوة لتصريف العملات الأجنبية[٣].

ومُنح هذا البنك حق احتكار إصدار الأوراق النقدية العثمانية، ثم تطور ليصبح الأمين العام لصندوق الإمبراطورية وخازن جميع مداخيل الدولة، كما أصبح المفاوض الوحيد لسندات الدين على الحكومة، وأصبح الوسيط الرسمي والوحيد للحكومة العثمانية من أجل عقد القروض الأجنبية. وفي نهاية القرن التاسع عشر أخذ البنك يهتم كثيراً بالإعمال التجارية والأشغال العامة، لظهور منافسين أقوياء تزعموا عدداً من المؤسسات المصرفية في الإمبراطورية العثمانية[٤]، فقد نشأت بنوك عديدة بعد الدمج بين رساميل أوروبية وأخرى محلية، وأسست بعضها مجموعات مصرفية خاصة كتلك التي أطلقت على نفسها اسم (غالاتا)[٥] نسبة إلى إقامتهم في الأستانة، وتم إنشاء بنك التسليف العثماني العام في عام ١٨٦٩، والبنك النمساوي العثماني عام ١٨٧٢[٦]. وكانت آلية عمل هذه البنوك مثيرة للجدل، فهي لم تكن تحتفظ إلا بالقليل من الأوراق المالية، ولا تهتم لتطوير الصناعة، فكل همها إصدار القروض التي ذهبت في معظمها لمشاريع غير منتجة بشكل عام كإعادة ترميم الوضع العسكري بعد حرب القرم على سبيل المثال وإذا استثنينا قرض عام ١٨٧٠ لأعمال خط سكة الحديد في القسم الأوروبي من الدولة العثمانية فإن ما تبقى من القروض لم يستخدم أبداً لتطوير الاقتصاد العثماني، وهذا الأمر جعل إفلاس الدولة العثمانية مصيراً حتمياً، وهو ما أعلنت عنه الدولة العثمانية بين عامي ١٨٧٥ و١٨٧٦، وكان السرُّ في حفاظ أوروبا على استقرار السلطنة العثمانية في جسدها المتهالك، هو خشية هذه الدول

---

(1) Ma'oz, op. cit, p. 171.

(٢) توبي، مرجع سابق، ص٢٩.

(3) Ma'oz, op. cit, p. 171-172.

(٤) السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢٢-٢٣.

(5) Pamuk, op. cit, p. 56.

(٦) توبي، مرجع سابق، ص٢٩.

أن تخسر مبالغها الضخمة المقدمة كقروض للدولة العثمانية؛ لذا وجب عليها العمل على إيجاد آلية لحل مسألة الديون، بعد أن التزمت الأستانة بتعهداتها في معاهدة برلين ١٨٧٨[١].

- **الاستثمارات الاقتصادية الأولى في بلاد الشام.**

تكاد الاستثمارات الأجنبية في البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر، عدا القروض والبنوك، تتركز في مجال حيوي واحد؛ وهو "النقل" بالدرجة الأولى، الذي جاء لتأمين المواصلات والطرق التجارية لخدمة تجارة الاستيراد والتصدير كمد خطوط السكك الحديدية، وإنشاء الطرق البرية، وتوسيع الموانئ المهمة، وإنشاء القنوات الاستراتيجية، إضافة إلى بعض مشروعات النفع العام، عندما كانت تشتد المنافسة الرأسمالية عليها. وأمام ضعف الباب العالي والولاة في البلاد العربية تم منح حقوق الامتيازات لإقامة جميع هذه المشروعات بشروط مجحفة جداً[٢]، فعلى سبيل المثال فإن سعيد باشا، حاكم مصر، وقَّع اتفاقية منح الامتياز لشركة قناة السويس لصديقه فرديناند دوليسبس **(دون أن يقرأها، بل ودون أن يعرضها على مستشاريه القانونيين أو الماليين)**[٣].

كانت الطرق والمرافئ ووسائل النقل بدائية في بلاد الشام، وكانت تشكل تحدياً حقيقياً أمام تغلغل الرساميل الأجنبية، وأمام تنقل السلع الأوروبية بين مختلف مدن بلاد الشام، فاهتم الرأسمال الأجنبي ولاسيما الفرنسي بهذه المسألة[٤]، ففي عام ١٨٥٨ حصلت شركة فرنسية على امتياز استثمار حركة النقل بين دمشق وبيروت[٥]، وبدأت بشق الطريق عام ١٨٥٩ الذي تم وضعه قيد العمل عام ١٨٦٣ وبدأت رحلات المسافرين النظامية، ونقل البضائع والسلع بين المدينتين، وكان السير عليه يتم من الجهتين صباحاً ومساءً بواسطة الحافلات (الديلجانس) التي كانت تقطع المسافة في ثلاث عشرة ساعة، وكان بعض الأهالي قد امتنع عن السير عليه لارتفاع الأسعار، وكان هذا المشروع ناجحاً وربحت الشركة ربحاً وفيراً، واستمرت في عملها مدة ثلاثين عاماً حتى حُلَّت سنة ١٨٩٢ بعد اشتراكها مع شركة فرنسية أخرى في امتيازات خط سكة حديد بيروت – دمشق– حوران[٦].

---

[١] توبي، مرجع سابق، ص ٣٠-٣١.

[٢] أمين، مرجع سابق، ص٢٩.

[٣] المرجع نفسه، ص٢٩.

[٤] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص ٤٧.

[٥] توبي، مرجع سابق، ص ٣٢.

[٦] كرد علي، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩٩.

ولم تكن المرافئ السورية أحسن حالاً من الطرق، فالإهمال العثماني جعلها في حالة متردية، ولذلك فإن الاهتمام بالمرافئ والخطوط الحديدية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان عنواناً جديداً للسيطرة الاستعمارية، وتغلغل الرأسمال الأجنبي وسيطرته على مفاصل الحياة الاقتصادية في بلاد الشام[١].

ب- المشاريع الاستراتيجية الأوروبية الافتراضية في بلاد الشام.

- مشروع ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر.

تزامنت المباحثات الجارية بشأن شق قناة السويس في العقد السادس من القرن التاسع عشر مع المشاريع الأوروبية الرامية للسيطرة على البلاد، فقد فكر البريطانيون في مشروع مثير للدهشة؛ وهو فتح طريق بحري بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق فلسطين، لإضعاف نفوذ الفرنسيين في بلاد الشام ومصر، والنفوذ الروسي في فلسطين[٢]. وقامت الفكرة على أن يتم شق قناة تبدأ من مدينة حيفا على البحر الأبيض المتوسط إلى وادي الغور الذي ينخفض ٣٩٣م عن سطح البحر ليمتلئ هذا الوادي بمياه البحر، ثم إكمال القناة منه باتجاه العقبة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر[٣]، وذلك لمنافسة العمل الذي يقوم به دوليسبس[٤].

وقدَّر بعض العلماء وقتها أن المدة التي سيستغرقها امتلاء الوادي ستكون خمس سنوات، في حين قدَّرها آخرون بعشرة أضعاف ذلك، وكان الطول المفترض للقناة يبلغ ٤٠٠ كم، وعمليات الحفر اليدوي كانت تقدر بأقل من نصف المسافة، بسبب الحفر والوديان الطبيعية، وكان الإنكليز يبدون حماسة شديدة للمشروع منذ أربعين عاماً؛ لأنه سيكون ملجأ للسفن الكبيرة[٥]، وسيختصر الطريق إلى الهند مع إضعاف شأن مشروع قناة السويس الذي يسعى الفرنسيون للحصول عليه، ولكن التكاليف المفترضة والباهظة جداً حالت دون تنفيذه وانتهى الأمر إلى التخلي عن الفكرة نهائياً[٦].

---

[١] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص ٤٨-٤٩.

[٢] كرد علي، مرجع سابق، ج ٥، ص١٦٣.

[٣] بيشون ، مرجع سابق، ص٧٠.

[٤] كرد علي، مرجع سابق، ج٥، ص١٦٣.

[٥] المرجع نفسه، ص١٦٣.

[٦] المرجع نفسه، ص١٦٤.

- **مشروع ربط البحر المتوسط بالخليج العربي.**

كان هذا المشروع قديماً بدأ منذ عام ١٨٢٨-١٨٣٢، وترافق مع مشروع دراسة الملاحة النهرية في الفرات[١]، ثم تمت إعادة إحياء الفكرة بالتزامن مع مباحثات شق قناة السويس، وكان المشروع يهدف إلى وصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج العربي عبر قناة تبتدئ من السويدية على البحر الأبيض المتوسط لتمر بأنطاكية وحلب[٢] وصولاً إلى بالس[٣] على نهر الفرات، ثم العمل على إصلاح نهر الفرات حتى يصبح صالحاً لسير السفن حتى البصرة عند شط العرب[٤]، لكن الكلفة كانت مرتفعة، ثم أن المسافة التي سيتم اختزالها لن تنقص كثيراً عن طريق البحر الأحمر، فضلاً عن ارتفاع الأراضي حول حلب إلى نحو ٤٠٠م، لذا فقد كانت الفكرة صعبة التنفيذ، وتم التخلي عنها[٥].

وشهد منتصف القرن التاسع عشر عروضاً عديدة لمشاريع مد سكة حديد بين نهر الفرات والبحر المتوسط والخليج العربي لدعم طريق الهند، فقد طُرحت بين عامي ١٨٤٣ و١٨٤٩ عدة مشاريع من هذا النوع[٦]. وكان المشروع الذي تقدمت به رابطة تعزيز وادي الفرات عام ١٨٥٦ أول مشروع تخطّى الصيغ الافتراضية، لكنه مني بالفشل لتطلبه ضمانات مالية باهظة من الحكومتين البريطانية والعثمانية، أضف إلى ذلك عرقلة فرنسا للمشروع، وبُعث المشروع مرة أخرى عام ١٨٦٢، ثم عام ١٨٧١ عندما اقترحت لجنة خاصة في مجلس العموم البريطاني إنشاء سكة حديد بين الفرات وإحدى موانئ البحر المتوسط والخليج العربي، إلا أن الحكومة البريطانية لم تدعم المشروع بسبب افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، ولاسيما بعد أن أثبتت القناة كفاءتها[٧].

---

[١] بيشون، مرجع سابق، ص٦٢.

[٢] كرد علي، مرجع سابق، ج٥، ص١٦٣.

[٣] **بالس:** هي مدينة مسكنة شرقي حلب تقع على نهر الفرات، عندما يتحول مجراه من الجنوب إلى الشرق وعرفت قديماً بهذا الاسم (بالس). انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٤٤.

[٤] بيشون، مرجع سابق، ص ٦٣.

[٥] كرد علي، مرجع سابق، ج٥، ص١٦٤.

[٦] لونكريك، مرجع سابق، ص٣٥٥.

[٧] المفصل في تاريخ العراق المعاصر، مرجع سابق، ص١٢-١٣.

رابعاً – السياسة الأوروبية تجاه تطورات المسألة الشرقية (١٨٧٥-١٨٧٨).

١ – المتغيرات الدولية– الأوروبية ودورها في السياسة الأوروبية المشرقية.

كانت النمسا تحارب من أجل وحدتها الوطنية وزعامتها للولايات الألمانية المتفرقة، إلى جانب انشغالها بالوحدة الإيطالية بعد أن استطاع كافور استمالة فرنسا لصالح القضية الإيطالية، لكنها منيت بهزيمة ساحقة على يد بسمارك Bismarek [١] عام ١٨٦٦[٢]، ولم تكن هزيمتها هذه أسوأ ما يمكن، فانفصال الجزء الألماني عن جسم الإمبراطورية وعودته إلى الوحدة الألمانية، سيعني زوال النمسا؛ لأنها تعتمد في ثروتها ونفوذها على هذا الجزء من أراضيها، لكن بسمارك كان يدرك أن زوالها لن يكون لصالح بروسيا فعمل على استرضائها[٣]. في الوقت الذي كان لدى فرنسا ما يكفيها من المشاكل، فقد فشلت حملتها على المكسيك، وكانت تراقب بقلق بالغ الحربين البروسية – الدنماركية عام١٨٦٤، والبروسية– النمساوية ١٨٦٦[٤]، وعبثاً حاولت فرنسا استعادة نفوذها وهيبتها أمام التفوق البروسي عندما حاولت– من مبدأ الحفاظ على توازن القوى– أن تمد نفوذها إلى الراين وبلجيكا ولوكسمبورغ، وجاءت مشكلة العرش الإسباني لتفضي العلاقات البروسية– الفرنسية إلى حرب عام ١٨٧٠ التي انتهت بهزيمة مؤلمة للفرنسيين، مما أبعدها عن مسرح الأحداث لمدة لا بأس فيها[٥]، وكانت هذه الحرب قد دفعت فرنسا إلى سحب قواتها من الأراضي البابوية، فدخلت قوة إيطالية ضخمة إلى روما وأعلنت عن ضمها إلى الوحدة الإيطالية في ٣ تشرين الأول ١٨٧٠[٦].

أما روسيا وبعد هزيمتها في حرب القرم، ومع رغبتها الشديدة بتعديل بند حياد البحر الأسود في مؤتمر باريس١٨٥٦، فقد انشغلت عن الدولة العثمانية بمد سيطرتها ونفوذها باتجاه وسط آسيا[٧]. بينما ركزت بريطانيا على التهدئة وتشبثت بعزلة شبه تامة عن الساحة الدولية وتجنبت الدخول في أي مشاكل في القارة الأوروبية وخارجها في هذه المـرحلة، وهي السياسة التي اتبعها

---

[١] **بسمارك Bismarek (١٨١٥-١٨٩٨)**: من مشاهير السياسيين الألمان، تولى عدة مناصب إدارية حتى وصل إلى منصب المستشار، وكان أبرز المساهمين في تحقيق الوحد الألمانية وجعل من ألمانيا في مقدمة الدول الإستعمارية في القرن التاسع عشر. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٣٢.

[٢] الدسوقي، مرجع سابق، ص١٢.

[٣] عمر، أوروبا (١٨١٥-١٩١٩)، مرجع سابق، ص٢٨٣.

[٤] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٣.

[٥] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٥١٥-٥١٦، ٥٢٥.

[٦] المرجع نفسه، ص٥٤٣.

[٧] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٣ .

جلادستون Gladeston حتى عام ١٨٧٤ حتى تولي دزرائيلي[١] Disraeli– زعيم المحافــظين– رئاسة الوزراء الذي سعى إلى تفعيل سياسة بريطانيا الخارجية بشكلٍ أكثر نشاطٍ[٢].

وتحقق لبسمارك Bismarek أثناء الحرب مع فرنسا نصراً مادياً، عده أكبر من الانتصار العسكري في هذه الحرب، وهو اتحاد معظم الأراضي الألمانية في إمبراطوريةٍ تحتل فيها بروسيا مركز الصدارة[٣]. وبعد هذا الانتصار على فرنسا بدأ بسياسة عزلها وإبعادها عن روسيا والنمسا، ومن المنطلق نفسه دعا بسمارك Bismarek إمبراطور النمسا والقيصر الروسي عام ١٨٧٢ للاتفاق شفوياً للمحافظة على الوضع الراهن، لكن روسيا وبريطانيا وقفتا إلى جانب فرنسا، لحفظ مبدأ توازن القوى، فأدرك بسمارك أن سياسة عزل فرنسا سياسة غير ناجعة، وفي توجه جديد قام باصلاح العلاقات مع بريطانيا وروسيا وبقية الدول الأوروبية ضمن سياسة جديدة عرفت بسياسة "التعويض"، فقد وجد في الممتلكات العثمانية ما يحقق سياسته هذه، وذلك لعدم وجود أي مطامع لألمانيا في الدولة العثمانية؛ وهي "لا تساوي عنده" دم جندي بروسي– على حد قولــه– لذا وجّهَ جهود الدول الأوروبية نحو تقسيم البلقان، حتى تأخذ روسيا شرقي البلقان، والنمسا المناطق الغربية منها؛ ولأنه يدرك أهمية مصر بالنسبة لبريطانيا فقد اقترح أن تأخذها بريطانيا، لينشغل الجميع عن مناصبة العداء لألمانيا، وليدفع فرنسا نحو المزيد من العزلة، وإذا ما أحسنت فرنسا "السلوك" نحو ألمانيا وتنازلت عن الألزاس واللورين فإنه يمكن تعويضها بتونس أو ببلاد الشام[٤]، وجاءت ثورات البلقان (١٨٧٥–١٨٧٨) ضد الحكم العثماني لتساعد بسمارك في سياسته هذه، فقد شكّلت سياسة "التعويض" الأساس الدبلوماسي لإدارته لمؤتمر برلين عام ١٨٧٨[٥].

٢– السياسة الأوروبية تجاه المسألة الشرقية (١٨٧٥–١٨٧٨).

سيطرت حالة من الهدوء النسبي في حقل التنافس الدولي على الإمبراطورية العثمانية لمدة تزيد عن العقد من الزمن، وبدأ هذا عندما انتهى عمل اللجنة الدولية التي وضعت في ختام أعمالها نظاماً إدارياً جديداً لجبل لبنان عام ١٨٦٤[٦]، حيث لم يظهر أي تدخل أوروبي سياسي

---

[١] **دزرائيلي Disraeli** (١٨٠٤–١٨٨١): وُلد في لندن، سياسي إنكليزي ورئيس حزب المحافظين، أصبح رئيساً للوزراء بين عامي ١٨٧٤ و١٨٨٠، أخضع قبرص للتاج البريطاني ونادى بالملكة فكتوريا إمبراطورة الهند. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٢٨٦.

[٢] عمر، أوروبا (١٨١٥–١٩١٩)، مرجع سابق، ص٢٨١–٢٨٢.

[٣] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٥٣٧.

[٤] عمر، أوروبا (١٨١٥–١٩١٩)، مرجع سابق، ص٢٨٥–٢٨٨.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٨٩.

[٦] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٢. زين، مرجع سابق، ص٣٠–٣١.

في الشؤون السياسية للدولة العثمانية طيلة تلك المدة؛ لانشغال أوروبا بمسائل أوروبية داخلية، ذكرت قبل قليل، فهي التي أدت إلى ظهور كيانات سياسية جديدة، أدت أدواراً مهمة في الساحة الدولية في المراحل اللاحقة[١].

ومن جهة أخرى فإن إثارة المسألة الشرقية بعد كل هذا الوقت من الهدوء كان متوقعاً، ولاسيما بعد ازدياد نمو حركة القوميات في شبه جزيرة البلقان، والاستقرار النسبي للأوضاع الأوروبية الداخلية الذي ساعد دولها على التحرك خارج أوروبا، والعودة مجدداً للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، مع تزايد مصالح هذه الدول في الكثير من ولايات هذه الإمبراطورية[٢].

٣- الثورات البلقانية ودور السياسة الأوروبية فيها.

لم تنتظر الشعوب البلقانية انتهاء أوروبا من مشاكلها الداخلية، فبدأت تعمل لنيل استقلالها عن الدولة العثمانية، وبعضها الآخر عن الدولة النمساوية، بعد أن ألهبت انتصارات الإيطاليين مشاعرهم وأثارت حماستهم، فضلاً عن الدعم الذي قدمته روسيا- تلبية لبعض مصالحها- عبر إطلاقها شعار توحيد الشعوب السلافية[٣]، ولا سيما الصرب واليوغسلاف، ومعروف أن صربيا حصلت على الحكم الذاتي في ظل السيادة العثمانية في مؤتمر باريس ١٨٥٦، ولذا كانت مصممة على كسب المزيد من الحريات[٤]، فتطلعت إلى تمثيل الدور الذي قامت به مملكة البيدمونت في الوحدة الإيطالية، بجمع الشعوب البلقانية حول هدف واحد؛ وهو الخلاص من السيطرة العثمانية[٥]، وتولى الأمير ميخائيل أوبرونوفيتش الثالث Michael Obrenovic III هذه المهمة بعد توليه الحكم في بلاد الصرب عام ١٨٦٠، فقد عمل على عقد سلسلة من معاهدات التحالف مع كل من رومانيا والجبل الأسود إضافة إلى اليونانيين والبلغاريين، واتفقوا جميعاً على إشعال نار الثورة ضد الدولة العثمانية في مارس ١٨٦٧[٦]. ولكن الوقت كان متأخراً فقد أضاع البلقانيون وقتاً ثميناً في توحيد صفوفهم، وكانت الحروب البروسية- النمساوية قد انتهت عام ١٨٦٦، كما استطاعت الدولة العثمانية القضاء على ثورة كريت[٧]، وجاء مقتل الأمير ميخائيل أوبرونوفيش Michael Obrenovic عام ١٨٦٨ ضربة قاضية لتلك المشاريع

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٢.

[٢] يحيى، جلال، ومهنا، محمد نضير، مشكلة قبرص، دار المعارف، د.ن، د.ط، ١٩٨١، ص١١١.

[٣] الحسين، مرجع سابق، ص٥٩-٦٠.

[٤] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٤٣٦.

[٥] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٥-٢١٦.

[6] Marriott, op. cit, p. 317.

[٧] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٧-٢١٨ .

الطامحة[1]، كما استحكم العداء بين اليونان والبلقان بعد أن بنى البلغار كنيسة منفصلة وخاصة بهم بدعم من روسيا، فتقرب اليونانيون من العثمانيين؛ لأنهم أقل خطراً على الروح الإغريقية من السلاف[2].

بقي حلم البلقان- بعد فشل محاولات الوصول إلى الاتحاد البلقاني- قائماً[3]. فقد ظهرت ثورة البوسنة والهرسك عام١٨٧٥، التي كانت ثورة من أبنائها ضد نبلاء بلادهم المسلمين، في محاولة منهم للتصدي لنظام إقطاعي من بقايا العصور الوسطى، بعد أن عاش الفلاحون كل مظالم الإقطاع[4].

ومن جهة أخرى ظهرت في الإمبراطورية النمساوية حركة سياسة بين رعاياها من السلاف راح تدعو إلى ضمّ جميع السلاف، بما فيهم الخاضعون للدولة العثمانية، حتى ينضموا إلى الإمبراطورية النمساوية- المجرية، لتصبح الإمبراطورية النمساوية- المجرية- السلافية، وكانت هذه الفكرة تروق للنمسا ولاسيما بعد خسارتها لولاياتها الألمانية أمام بسمارك إضافة إلى ممتلكاتها الإيطالية[5]، وكانت زيارة الإمبراطور فرانسيس جوزيف لإقليم دالماشيا وقعاً كبيراً في نفوس سكان البوسنة والهرسك، الأمر الذي أسهم في إثارة الاضطرابات في هاتين الولايتين كما ترك قناعات لدى الإمبراطور بضرورة ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا؛ لذا فقد حظيت ثورة البوسنة والهرسك بدعم من النمسا وروسيا[6]، كما أثارت زيادة المعونات الروسية لهذه الثورة مخاوف النمسا وقلقها من زيادة النفوذ الروسي في البلقان، هذا الأمر دفع إلى خلق بعض التوتر بين الطرفين. وبعد عقد هدنة بينهما، وجَّه الطرفان مذكرة للدولة العثمانية لتهديد السلطان بتدخل القوى العظمى إذا لم يصل إلى اتفاق مع ثوار البوسنة والهرسك، وحظيت المذكرة بدعم الدول الأوروبية[7]، عدا بريطانيا التي تولى فيها بينيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli رئاسة الوزراء منذ عام ١٨٧٤، فقد ساءه تهديد الدول الأوروبية للسلطان العثماني، كما ساءه عدم إشراك بريطانيا في

---

[1] جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص٤٣٨.

[2] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢١٨. يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١١٢.

[3] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣٠.

[4] يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١١١-١١٢٠ بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٨٢.

[5] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣٠.

[6] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٢٥.

[7] المرجع نفسه، ص٢٢٧-٢٢٨.

المباحثات التي أدت إلى إصدار تلك المذكرة[١]، ولاسيما أنه قد انتهى لتوه من شراء أسهم مصر في شركة قناة السويس عام ١٨٧٥[٢].

وامتدت ثورة البوسنة والهرسك إلى بلغاريا وكانت هذه الثورة دموية للغاية، فقد سقط آلاف الأتراك قتلى على يد الثوار البلغار، وبعد أحداث وقعت في سالونيك راح ضحيتها القنصلين الألماني والفرنسي، وظهرت بسببها الأساطيل الأوروبية هناك، ثار طلاب الفقه والشريعة في الأستانة وخلعوا الصدر الأعظم محمود نديم باشا، واستغل مدحت باشا[٣] الأوضاع وعمل على إصدار فتوى بخلع السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦)، وتولى العرش في الليلة نفسها ابن أخيه مراد الخامس في ٣٠ أيار ١٨٧٦، وانتحر السلطان عبد العزيز بعد خمسة أيام بقطع أوردة معصميه، ثم أُصيب السلطان مراد الخامس بمرض عقلي[٤]، فأعلن شيخ الإسلام خلعه في فتوى أصدرها يوم ٣١ آب ١٨٧٦، وتولى الحكم من بعده أخوه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٨)[٥].

كان على السلطان عبد الحميد الثاني أن يواجه تحديات كثيرة بعد استلامه العرش العثماني، وأهم هذه التحديات ثورات البلقان التي أصبحت تحظى بدعم أوروبي، اشتركت فيه بريطانيا أيضاً منها بعد أن بدأت تسودها روح معادية للدولة العثمانية ولاسيما بعد تواتر الأنباء عن مجازر ترتكب بحق الثوار البلغار، وعن أعداد القتلى التي تراوحت ما بين ١٢-١٥ ألف قتيل[٦]. كما استغل زعيم المعارضة جلادستون الغضب البريطاني؛ حيث لامس مشاعر الرأي العام

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٢٩.

[٢] يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١٣٠.

[٣] **مدحت باشا (١٨٢٢-١٨٨٤):** من كبار رجالات الإدارة العثمانيين، أصبح صدراً أعظم عام ١٨٧٧ لعدة شهور فقط، وكان قد نشر الروح الدستورية، ثم اصطدم برغبة السلطان عبدالحميد الثاني في الاستبداد في الحكم، نُفي بداية، ثم مات مخنوقاً في السجن. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٤٥.

[٤] **السلطان مراد الخامس (١٨٤٠-١٩٠٤):** تولى العرش عام ١٨٧٥، وكان قد قضى معظم سنوات شبابه في السجن، وكان أكبر أبناء السلطان عبد المجيد وأكثرهم قرباً منه، تولى الحكم لمدة ثلاثة وتسعين يوماً ثم أُبعِد عن العرش بتهمة الاختلال العقلي، عُرف عنه تعلقه بالموسيقا وقرض الشعر وحب المطالعة، وكان يكره الظلم والاستبداد. انظر: عامر، مرجع سابق، ص٣١٧-٣١٨.

[٥] سركيس، سليم، غرائب المكتوبجي، تحقيق يوسف قزما خوري، دار الحمراء، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ويضم كتاب سر مملكة، تأليف: سليم سركيس، طبع في مصر، ١٨٩٥، ص١٣٩ ، ١٤٤-١٤٦. يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص٢٣٢-٢٣٣. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص١١٥.

[٦] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٣٠.

البريطاني في كتاب باسم "أبطال بلغاريا ومشكلة الشرق" وقد تم بيع ٢٠٠ ألف نسخة منه، وهو أكبر عدد تم بيعه من كتاب في تلك المرحلة[١].

أثارت أحداث ثورة البوسنة والهرسك، وثورة البلغار حماسة جماهير هذين البلدين، فأعلنتا الحرب على الدولة العثمانية عام ١٨٧٦، ولكنهما فشلتا في محاولة كسب اليونان ورومانيا إلى حلف بلقاني ضد الدولة العثمانية. وكانت النتيجة أن منيت صربيا بهزيمة ساحقة[٢]، بعد أن رفضت قوات الجبل الأسود القتال خارج الهرسك، وفي أواخر تشرين الأول ١٨٧٦ كانت القوات العثمانية تتقدم نحو بلغراد عاصمة الصرب لاحتلالها، فتدخلت روسيا بقوة وأجبرت طرفي النزاع على وقف القتال، ونجحت بذلك روسيا في منع العثمانيين من احتلال بلغراد، ولكنها تخلت عن جزء من مخططاتها في بلاد الصرب، فقد بدأت بالتفكير في بلغاريا كمجال لنفوذها بدلاً من صربيا، وكانت تدرك أنها قد تدخل في حرب واسعة مع العثمانيين لحماية السلاف في شبه جزيرة البلقان، وإن اصطدمت برفض النمسا، لذلك كان عليها أن توطد علاقاتها مع ألمانيا لكسب تأييدها في مواجهة النمسا، إذا ما استدعى الأمر ذلك[٣].

وفي الوقت نفسه كان بسمارك يسعى جاهداً للحفاظ على مكتسبات الوحدة الألمانية، وكان يعتقـد بـ **(أن تركيا بأسرها، وما تشمله من أعراق بشرية مختلفة، ليست بتلك المؤسسة السياسية الهامة التي تبرر نشوب حرب طاحنة بين الدول الأوروبية المتمدنة إكراماً لها)**[٤]، كما كان يدرك أن حرباً بين روسيا والنمسا ستؤدي إلى تحطيم الجبهة التي أعدها لعزل فرنسا[٥]، لذا فحل مشاكل أوروبا لديه يكمن في التضحية بالدولة العثمانية، وذلك بتوزيع أملاكها على الدول الأوروبية، لذلك رأى أن تأخذ النمسا البوسنة والهرسك، وتسيطر روسيا على بلغاريا، وتحتفظ رومانيا ببسارابيا، وأن تحتل بريطانيا مصر وبعض الجزر المهمة في بحر إيجة، كما يمكن إرضاء فرنسا بإعطائها بلاد الشام[٦]. ولكن ماذا عن مواقف الدول الأوروبية في هذا الشأن؟.

---

[١] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٣٨. الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٣٠-٢٣١ .

[٢] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣١. ياب، مرجع سابق، ص٨١.

[٣] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٣١-٢٣٢.

[٤] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٣٩.

[٥] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

[٦] المرجع نفسه، ص٢٣٦. زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٣٩.

رفض دزرائيلي هذه المقترحات فهو لا يزال متمسكاً بالسياسة البريطانية التقليدية في المحافظة على بقاء الدولة العثمانية، مع المعارضة الشديدة في بعض الأوساط البريطانية لهذا التوجه. وكذلك رفضت هذه النمسا؛ التي آثرت الضغط على السلطان العثماني لقبول الصلح مع الصرب والجبل الأسود، وهذا الموقف النمساوي دفع بالروس للتصرف مرة أخرى بمفردهم وحسب مصالحهم فقررت التعبئة الجزئية لجيوشها[١]، فتدخلت بريطانيا لتهدئة الموقف واقترحت عقد مؤتمر في القسطنطينية للنظر في كل تلك المشاكل، بعد تحذيرها من أن رفض السلطان سيعني قيام حرب روسية– عثمانية[٢].

أ- مؤتمر القسطنطينية.

توصل مندوبو الدول الأوروبية في المباحثات التمهيدية- بعد مناقشة مسألة تمديد الهدنة في الساحة البلقانية- إلى الاتفاق على عدة نقاط منها، توحيد البوسنة والهرسك في ولاية واحدة على أن يحكمها حاكم يتم تعيينه من قبل السلطان العثماني بغض النظر عن ديانته، وإعطاء إمارتي الصرب والجبل الأسود بعض المكاسب البسيطة[٣]، كما اقترحت روسيا تكوين دولة بلغارية مستقلة ويكون لها ساحل على بحر إيجة، ولكن مقترحها اصطدم بالرفض النمساوي والبريطاني[٤].

وتزامن المؤتمر مع تعيين مدحت باشا صدراً أعظم في تشرين الثاني ١٨٧٦، فعمل على إصدار أول دستور للدولة العثمانية، وكان من أهم أهداف الدستور- عدا عن القضايا الإصلاحية الملحة، على الأقل من وجهة نظر بعض رجال الدولة- قطع الطريق أمام تدخل الدول الأوروبية في الشؤون العثمانية[٥]، فعندما اجتمع مندوبو الدول صباح يوم ٢٣كانون الأول ١٨٧٦ في أول جلسة لمؤتمر القسطنطينية، سُمع أصوات طلقات المدافع التي أعلنت إصدار الدستور العثماني الجديد، على أساس ضمانه لحقوق جميع رعايا الدولة العثمانية دون استثناء[٦].

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٤٠.

[٢] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣١. يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١١٦.

[٣] التونسي، مردخاي شملة، هذه مفاوضات المؤتمر المنعقد بالأستانة في المسألة الشرقية سنة ١٢٩٣ و١٢٩٤، مطبعة الدولة التونسية، د.ن، ط١، ١٢٩٥هـ، ص١٤-١٦.

[٤] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٤١.

[٥] بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٨٥.

[٦] زين، مرجع سابق، ص٤٠. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣٣.

أما محتوى الدستور فقد جاء تحت اسم "قانون أساسي" ونصّ على عدة إصلاحات منها إلغاء امتيازات العاصمة- إسطنبول- وإطلاق لفظة "العثمانيين" على جميع رعايا الدولة دون استثناء على أن يكون دين الدولة الرسمي هو الإسلام، كما وضع الدستور السلطة التشريعية في البلاد في يد مجلسين: أحدهما مجلس المبعوثان وهو للنواب، والآخر: مجلس الأعيان للشيوخ[١]، وأقر الدستور بحماية الدولة لجميع المذاهب الدينية المعترف بها، إلى جانب حرية الصحافة، وإنشاء محكمة عليا لمحاكمة الوزراء ورؤساء وأعضاء محكمة الاستئناف، وأن تكون إدارة الولايات العثمانية على أساس اللامركزية، والتعليم الابتدائي إلزامي لجميع رعايا الدولة العثمانية[٢].

وفي حقيقة أن هذا الدستور الذي بذل مدحت باشا جهداً ضخماً في إعداده قد قطع الطريق على الدولة الأوروبية للتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية المسيحيين، ولكن الدستور منح السلطان عبد الحميد حق تعيين الوزراء ورئيسهم، وحق دعوة البرلمان للانعقاد، وحق حلِّه، وحقَّ نفي أي شخص يرى فيه السلطان خطورة على الدولة العثمانية، مع حق عدم التوقيع على مشروعات القوانين ما لم يرغب بذلك[٣].

ب- تشدد الدول وفشل مؤتمر القسطنطينية.

يبدو أن مندوبي الدول لم يقتنعوا تماماً بما جاء في الدستور، وكان يساورهم الشك في إخلاص السلطان وحسن نواياه[٤]، ولاسيما أنه ينسبه لنفسه، مع أنه عملٌ قام به المصلح المميز مدحت باشا[٥]، أو أنهم لم يرغبوا أن يضيعوا فرصة التدخل في شؤون العثمانيين الداخلية مجدداً[٦]، بعد انقطاع دام أكثر من عقد من الزمن، فطالبوا بما سموه "الحد الأدنى" من المطالب التي تتمثل في تقسيم بلغاريا إلى ولايتين شرقية وغربية، وأن يتم توحيد البوسنة والهرسك في ولاية واحدة، على أن تنال الولايات المقترحة نوعاً من الاستقلال الداخلي[٧]، غير أن الباب العالي أعلن عن عدم قدرته على قبول ذلك من غير موافقة المجلسين الجديدين (الأعيان والمبعوثان) الذين لم يكن قد أُنتخب أعضاؤهما بعد، وفي اجتماع لمجلس استثنائي في ١٨ شباط ١٨٧٧،

---

[١] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٣-٢٤٥. بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٨٥-٥٨٦. الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٤٢-٢٤٣.

[٢] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٤٣-٢٤٤. بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٨٦.

[٣] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣٣-٢٣٤.

[٤] التونسي، مردخاي شملة، مصدر سابق، ص٦٢.

[٥] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٤٠-٤١ .

[٦] يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١١٧.

[٧] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٣٦.

ضم عدداً من كبار رجال الدولة (الحاليين والسابقين)، رفضوا بالإجماع مطالب الدول الأوروبية، وبذلك رفض الباب العالي تلك المطالب، مما أدى إلى فشل مؤتمر القسطنطينية[١]. فبعد أن تلمس المندوب الروسي تعنت المندوبين العثمانيين ورفضهما قبول مطالب الدول العظمى، أعلن عن انتهاء المفاوضات في الجلسة التاسعة والأخيرة من جلسات المؤتمر[٢].

ج- روسيا تعلن الحرب على الدولة العثمانية نيسان ١٨٧٧.

أدركت روسيا بعد فشل مؤتمر القسطنطينية أنها لن تحصل على ما تريد إلا بالقوة، ومع رفض دزرائيلي أي إجراءات ضد الدولة العثمانية، فبدأت بإجراء محادثات سرية خاصة مع النمسا لضمان حيادها في حال قيام حرب بين روسيا والدولة العثمانية[٣]، مقابل أن تضم النمسا كل من البوسنة والهرسك مع التأكيد على عدم قيام دولة بلغاريّة، كبرى وهو ما كان مضمون اتفاقية بوخارست ٥ كانون الثاني ١٨٧٧[٤].

ومع أن الدولة العثمانية وصربيا توصلتا إلى معاهدة صلح بينهما، إلا أن روسيا سعت للحصول على توقيع القوى العظمى- إضافة إلى إيطاليا، في ٣١ آذار ١٨٧٧- على بروتوكول لندن لمطالبة الدولة العثمانية- على شكل نصيحة، وربما تهديد- على تنفيذ الإصلاحات التي وعدت بها بمقتضى الدستور العثماني[٥]، وإلا فإن الدول ستحتفظ لنفسها بحق التصرف الذي تراه مناسباً ما لم تستجب الدولة العثمانية[٦].

أعلنت روسيا أن الاضطرابات في أوروبا الشرقية تعيق "تطورها السلمي"[٧]، كما قامت بالسعي إلى استمالة الرأي العام الأوروبي، كي لا تقع بفخ شبيه بفخ حرب القرم، وبعد تأكدها من نجاح الخطوة، إضافة إلى رفض السلطان العثماني لبروتوكول لندن، أعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ٢٤ نيسان ١٨٧٧. ولم تبد أي دولة أوروبية رفضها، سوى بريطانيا التي كانت لا تزال تتبع سياسة الحفاظ على الدولة العثمانية من مبدأ الحفاظ على توازن القوى الأوروبية،

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٤٥.

[٢] التونسي، مردخاي شملة، مصدر سابق، ص٦٢.

[٣] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

[٤] الدسوقي، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

[٥] زين، مرجع سابق، ص ٤١.

[٦] الدسوقي، مرجع سابق، ص ٢٤٧. يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص ١١٨.

[٧] بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٨٧.

فأرسلت إنذاراً لروسيا على شكل مذكرة تحذرها فيه من مغبة احتلال القسطنطينية، أو المضايق أو قناة السويس ومصر[١].

أحرزت القوات الروسية تقدماً ملحوظاً واحتلت مناطق عثمانية عديدة، كما أن التقارير التي وصلت إلى لندن أفادت بضعف مقاومة أدرنه، وأن سقوطها سيجعل الطريق مفتوحاً إلى القسطنطينية، دفعت هذه الأمور بدزرائيلي إلى التحرك بسرعة نحو تعبئة الجيوش للوقوف ضد التقدم الروسي، كما أمر الأسطول البريطاني بالتقدم نحو الأستانة ليرسو على الشاطئ الأسيوي من بحر مرمره[٢]، في الوقت الذي وصلت فيه الجيوش الروسية إلى سان استيفانو[٣] San Stefano على بعد عشرة أميال من القسطنطينية، وأمام هذا التحرك للأسطول البريطاني اضطرت روسيا إلى توقيع معاهدة سان استيفانو مع العثمانيين في ٣ آذار ١٨٧٨[٤].

د- الحركة الاستقلالية في بلاد الشام (١٨٧٧-١٨٧٨).

اضطربت أوضاع الدولة العثمانية إثر حربها مع روسيا عام ١٨٧٧ ووصلت إلى حافة الانهيار، وهذا ما دفع بعض من وجهاء المسلمين العرب في بلاد الشام للبحث عما يجب فعله في هذه الحالة، ليجنّبوا بلادهم الاحتلال الأجنبي، فيما إذا سقطت الدولة العثمانية، وكان محركها الرئيسي أحمد الصلح المقيم في بيروت، فقام بعدة جولات طاف فيها معظم مناطق بلاد الشام فيما بهذا الشأن، وعرض خلالها آراءه هذه، واستطاع أن يقنع البعض ويجمع المناصرين له[٥]، ثم تقرر عقد مؤتمر لهذه الحركة، وكان مقره دمشق[٦]، واقترح فيه الصلح ترشيح الأمير

---

[١] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٤١. الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٤٨-٢٥٠. وانظر:

- Marriott, op. cit, p. 337-338.

[٢] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٥٤.

[٣] سان استيفانو San Stefano: قرية في تركيا الأوروبية قريبة متن اسطنبول تعرف اليوم ب(يزيلكوي) حط فيها الصليبيون قبل فتح القسطنطينية عام ١٣٠٣، وفيها تمت المعاهدة التي أمْلت فيها روسيا شروطها على االدولة العثمانية وسادت بموجبها على البلقان ١٨٧٨، وهناك اتفق حزب الاتحاد والترقي على خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٣٤٨.

[٤] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٤١. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٤. بروكلمان، مرجع سابق، ص٥٨٨.

[٥] الصلح، عادل، تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق سنة ١٨٧٧، لايوجد دار النشر، بيروت، ط١، ١٩٦٦، ص ٩٦-٩٨.

[٦] المرجع نفسه، ص٩٢.

عبد القادر الجزائري ليتولى الملك في هذه البلاد[١]، لكن الأمير عبد القادر كان يرى أن يظل الارتباط الروحي قائماً مع الدولة العثمانية، وأن يبقى السلطان العثماني خليفة للمسلمين بشرط أن تتم البيعة من أهل البلاد جميعاً، بعد أن يتم انتظار ما ستؤول إليه الأمور في تلك الحرب، إلا أنهم اتفقوا مبدئياً على إقرار مبدأ السعي لتحقيق استقلال بلاد الشام[٢].

ومع هزيمة الدولة العثمانية في الحرب ألا أن بريطانيا تدخلت مجدداً، ولم تسمح بانهيارها النهائي، وتم عقد مؤتمر برلين الذي نالت فيه معظم شعوب البلقان استقلالها كالصرب، والجبل الأسود، ورومانيا، وبعضها نال الاستقلال الداخلي مثل بلغاريا[٣]، كما سنرى.

وتجدر الاشارة إلى أن هذه الحركة لا علاقة بها بالمشروع الفرنسي أواخر الخمسينات، الذي سبق ذكره، وهذ يتضح من الرسائل التي بعثها قنصل فرنسا العام في بيروت ديلابورت Delaporte في ١٩ تشرن الأول ١٨٧٩ إلى وزير الخارجية الفرنسي وجاء فيها: **(يشاع هنا أن ثمة مؤامرة عربية تدبر في سوريا يرأسها حاكم عربي.... وقد ذكر اسم عبد القادر الزعيم الجزائري الشهير الذي يقيم اليوم في دمشق، ليكون السلطان المقبل لهذه المملكة)**[٤]. أما مصير هذه الحركة فسنأتي على ذكره عند دراسة نتائج مؤتمر برلين أدناه.

هـ- معاهدة سان استيفانو

أكدت بنود هذه المعاهدة مطالب مؤتمر القسطنطينية مع تعديلات طفيفة، فقد قضت معاهدة سان استيفانو بمنح البوسنة والهرسك الإصلاحات اللازمة، ومنح إمارتي الصرب والجبل الأسود استقلالهما، كما ضمنت الاتفاقية الاستقلال الكامل لرومانيا على أن يتم ضم بسارابيا إلى روسيا، وقضت كذلك بتنازل الباب العالي عن قارص وميناء باطوم في أرمينيا للروس، كما تمت الموافقة على إنشاء إمارة بلغاريا الكبيرة على أن تمتد حدودها حتى بحر إيجة وتبقى هذه الأمارة تحت السيادة العثمانية[٥].

عارضت النمسا بشدة قيام إمارة بلغاريا؛ لأن ذلك يتعارض مع اتفاقية بوخارست، واحتجت بريطانيا على قيام هذه الدولة؛ لأنها ستضر بمصالحها، أما اليونان والصرب فعارضا المعاهدة؛ لأنهما لم يحصلا على أي مكسب[٦].

---

[١] الصلح، مرجع سابق، ص٩٨

[٢] المرجع نفسه، ص١٠٠.

[٣] المرجع نفسه، ص١٢٥-١٢٦.

[٤] المرجع نفسه، ص١٢٤-١٢٥.

[٥] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٤. الحسين، مرجع سابق، ص٦٧-٦٨.

[٦] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٥٥. يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١٢٦.

شعرت روسيا بعزلتها بعد الرفض الأوروبي، وأحست بخطر التصدي لغضب الدول العظمى، ولاسيما أن الحكومة البريطانية اقترحت إعلان الحرب على روسيا ما لم يقبل القيصر عرض معاهدة سان استيفانو على الدول العظمى لتعديل شروطها[١]. كما أن بريطانيا استغلت هذه الأوضاع للحصول على قاعدة بحرية في البحر المتوسط من الدولة العثمانية، وكانت قبرص من أهم الجزر المرشحة كي تكون مركزاً للبحرية البريطانية لما لقبرص من أهمية كبرى لدعم مصالح بريطانيا في بلاد الشام[٢]، ولم يكن أمام السلطان العثماني إلا أن يوافق على احتلال بريطانيا لها، خشية أن تتركه بريطانيا يواجه مصيره لوحده، وعندما وصلت أنباء احتلال قبرص إلى مسامع الروس- واتقاءً لغضب القوى الأوروبية- قبلت روسيا عرض معاهدة سان استيفانو عليها[٣]. وكان بسمارك قد أدى دوراً كبيراً في إقناعها، منبِّهاً إياها ازدياد شعور العداء لدى الأوروبيين تجاه روسيا، وأن مخاوف نشوب حرب بين روسيا والنمسا صارت جدية أكثر من أي وقت مضى، وبذلك استطاع بسمارك إقناع روسيا وبقية الدول بإيجاد حلول دبلوماسية للأوضاع الراهنة، فقام بدعوة الدول الأوروبية إلى مؤتمر يعقد في برلين[٤]، وكان من أهم المؤتمرات الدولية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولاسيما بعد ظهور ألمانيا كقوة عظمى فاعلة على الساحة الدولية.

و- مؤتمر برلين ١٨٧٨.

افتتح المؤتمر في برلين برئاسة بسمارك في ١٣ حزيران ١٨٧٨، ولم يحضر البلغار المؤتمر بعد إصرار روسيا على أن تتحدث باسمهم، مع أن المسألة البلغارية كانت من أهم المسائل المطروحة، وكذلك لم يحضر مندوبو البوسنة والهرسك الذين كانوا وراء إشعال فتيل أزمات البلقان بعد ثورتهم على الحكم العثماني عام ١٨٧٥، كما ولم يسمح للصرب والجبل الأسود وحتى رومانيا بالحضور مع أنها كانت طرفاً في القتال، فتقدمت بمطالبها كتابياً إلى المؤتمر[٥]، ولم يحضر من البلقان سوى اليونان التي أفهمت مسبقاً أن مطالبها ثانويّة[٦] .

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٥٦.

[٢] عتمان، أحمد، تاريخ قبرص- جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، مكتبة الآداب- جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٧٤. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٤. يحيى، مهنا، مرجع سابق، ص١٣١.

[3] Marriott, op. cit, p. 335, 342.

[٤] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٥. الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٥٨.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٥٨-٢٥٩.

[٦] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٥.

أتاح بسمارك- بإمكانياته الإدارية- الوصول إلى حلول سريعة أثناء المباحثات، فقد صدرت قرارات المؤتمر يوم ٢٢ حزيران ١٨٧٨، وأقرت بمنح الصرب ورومانيا والجبل الأسود استقلالاً تاماً، وبمنح بلغاريا استقلالاً ذاتياً على أن تدفع جزية سنوية للسلطان بعد إعادة مقدونيا التي منحت لبلغاريا في معاهدة سان استيفانو إلى الدولة العثمانية[١]، كما قضى المؤتمر بسلخ بسارابيا عن رومانيا ومنحها لروسيا على أن يتم ضم إقليم دبروجه إليها بدلاً عن بسارابيا، وحصلت روسيا على منطقة شرق البحر الأسود التي تقع فيها مدينتا باطوم وقارص، وكان من أهم قرارات المؤتمر منح النمسا حق احتلال البوسنة والهرسك وسنجق يني بازار[٢].

وحاربت روسيا وتحملت أعباء القتال، ولكن القوى العظمى الأخرى هي التي خرجت بالمكاسب المهمة، فقد فازت بريطانيا بقبرص[٣]، وخرجت النمسا بضم البوسنة والهرسك، فشعرت روسيا بالمرارة تجاه النمسا وألمانيا وتصدع الاتفاق الثلاثي بين القياصرة[٤]. وأيضاً شعرت دول البلقان بالغبن من نتائج المؤتمر، فقد تجددت العداوة القائمة بين بلغاريا واليونان منذ إنشاء الكنيسة البلغارية[٥] بسبب مقدونيا، إلى جانب ظهور الكثير من المشاكل بين كياناتها السياسية التي ستبقى حتى تنتج عنها الحرب البلغارية- الصربية عام ١٨٨٥. إضافة إلى أزمات البوسنة عام ١٩٠٨، وحربي البلقان عـام ١٩١٢ و١٩١٣، وصولاً إلى مقتل الأرشيدوق فرانسيس فرديناند[٦] ولي عهد الإمبراطورية النمساوية، وكان هذا الحادث شرارة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤[٧].

ز- نتائج مؤتمر برلين.

مع أن الإمبراطورية العثمانية فقدت أجزاء كبيرة من ممتلكاتها الأوروبية، إلا أنه في الحقيقة قد تم إنقاذها من الانهيار النهائي مرة أخرى، وقد دفع هذا إلى عودة التركيز الأوروبي على المنطقة الآسيوية غير التركية من ممتلكات الدولة العثمانية مرة أخرى بعد مؤتمر برلين ١٨٧٨، ولاسيما فرنسا وبريطانيا. ولم يكن أمام الدولة العثمانية إلا أن تحافظ على رضا الدولة الوحيدة

---

[١] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٥٩. الحسين، مرجع سابق، ص٧٢.

[٢] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٦٠. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٦.

[٣] عثمان، مرجع سابق، ص١٨١.

[٤] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٦١.

[٥] ياب، مرجع سابق، ص٨٢.

[٦] فرانسيس فرديناند (١٨٦٣-١٩١٤): الأرشيدوق وولي عهد الإمبراطورية النمساوية، كان مقتله في سراييفو يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ سبباً لنشوب الحرب العالمية الأولى. انظر، المنجد، مرجع سابق، ص٥٢٥.

[٧] الدسوقي، مرجع سابق، ص٢٦١-٢٦٢.

التي ساندتها لمدة قرن كامل؛ وهي بريطانيا، ولو كان الثمن جزيرة قبرص[١]، لذا فقد تم عقد اتفاق سري تنازلت فيه الدولة العثمانية عنها مقابل الحماية التي تقدمها بريطانيا لها في ممتلكاتها الآسيوية[٢]، وهو ما تعده بريطانيا تدبيراً مباشراً للتخلص من مخاوفها بالنسبة إلى الهند، وتحاشياً لاحتلال مصر وبلاد الشام اللتين تثيران حساسية فرنسا، وهو ما تقتضيه المصالح الحيوية البريطانية، وعلاقاتها بالشرق التي تتعدى قضية العواطف، على حد قول أحد الساسة البريطانيين[٣].

لم تدخل- في الواقع- العناصر البشرية في الممتلكات العثمانية الآسيوية، ولاسيما بلاد الشام، في حساب السياسيين الأوروبيين؛ لأنهم - والكلام لبعض هؤلاء الساسة- شعوب لا تمتلك القدرة على الحكم الذاتي المستقل؛ لأنها لا تطمح للاستقلال أصلاً، فكل ما يرغبون فيه هو العيش الهادئ، والحياة السياسية المستقرة تحت حكم السلطان. على أن تبدلاً بسيطاً طرأ على هذه الأفكار، ولاسيما بعد تزايد الخطر الروسي، عندما قيل: أن القوميات الفتية المناضلة ستتمكن من نيل الحكم الذاتي وأن تحكم نفسها بنفسها. ومن أوجه التغيّر في السياسة الأوروبية التبدل في السياسة البريطانية التي أقدمت على احتلال مصر في أيلول ١٨٨٢ في خطوة كانت الأولى نحو التخلي عن سياستها التقليدية القديمة التي قامت على حفظ على كيان الدولة العثمانية[٤].

أظهر مؤتمر برلين حقيقة تدهور أوضاع الدولة العثمانية بعد تخليها عن مساحات شاسعة من أملاكها التي احتفظت بها لعدة قرون[٥]، ومن نتائج مؤتمر برلين أن السلطان عبد الحميد أصبح أكثر يقظة في قضية نشوب الثورات من جانب بعض الأقليات، خوفاً من أن تساندها الدول الأوروبية المتربصة بالدولة وبما تبقى من ممتلكاتها، لاسيما في القسم الآسيوي منها[٦]، وقد كان من نتائج ذلك أن الحركة الاستقلالية التي نادت بها جماعة من وجهاء العرب في بلاد الشام بزعامة أحمد الصلح (١٨٧٧-١٨٧٨) كان مصيرها الاندثار؛ لأن السلطات العثمانية اتخذت تدابير احترازية كثيرة، إذ فرضت الإقامة الجبرية على زعماء الحركة، ونفت بعضهم الآخر خارج البلاد، وراقبت بقية الشخصيات الأخرى التي ناصرت هذه الحركة، ومنعت الاختلاط بين زعيمها، والأمير عبد القادر الجزائري[٧].

---

[١] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٤٢.

[٢] عثمان، مرجع سابق، ص١٨١.

[٣] الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٤٢-٤٣.

[٤] زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، مرجع سابق، ص٤٣.

[٥] الحسين، مرجع سابق، ص٧٤.

[٦] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢٤٧.

[٧] الصلح، مرجع سابق، ص١٢٦.

تركت الثورات والحروب في البلقان (١٨٧٥-١٨٧٦)، والحرب الروسية- العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)، ومؤتمر برلين عام ١٨٧٨، صدىً قوياً في بلاد الشام، وتحديداً في جنوبها (فلسطين)[١]، فقد أرسلت الحكومة الألمانية بوارج حربية إلى الموانئ الفلسطينية في مظاهرة عسكرية لتطمين المستعمرين الهيكليين الألمان[٢]. كما جاء في تقارير بعض القناصل الأوروبيون بداية عام ١٨٧٦، بأن المسلمين في القدس ينتابهم القلق بسبب أوضاع البلقان، وبسبب الضغوط الأوروبية المتزايدة على الدولة العثمانية. وكانت أحداث مقتل القنصلين الفرنسي والألماني في سالونيك في أيار ١٨٧٦، إضافة إلى إحياء ذكرى أحداث عام ١٨٦٠، قد أدت إلى انتشار الذعر بين مسيحيي بلاد الشام، ففي القدس، سرت شائعات بتدبير مذبحة لهم، لذا سارع وجهاء المدينة إلى نفي أي عداء أو نية اعتداء ضد سكان المدينة المسيحيين، وتكرر الموقف ذاته في عكا وحيفا ويافا، وبقية مدن بلاد الشام[٣].

---

[١] شولش، مرجع سابق، ص٣١٧-٣١٨.

[٢] محافظة، العلاقات الفلسطينية- الألمانية، مرجع سابق، ص١٢٠.

[٣] شولش، مرجع سابق، ص٣١٨.

الفصل الرابع

أثر السياسة الأوروبية على تطور الحياة السياسية والاقتصلدية والاجتماعية في بلاد الشام (١٨٤٠-١٨٧٨).

أولاً- في المجال السياسي.

ثانياً- في المجال الاقتصادي.

ثالثاً- في المجال الاجتماعي.

رابعاً- في المجال الفكري والثقافي والتعليمي.

- الفصل الرابع: أثر السياسة الأوروبية في تطور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام (١٨٤٠-١٨٧٨).

أولاً- في المجال السياسي.

١- التدخل الأوروبي في بلاد الشام بعد عام ١٨٤٠.

لم تُجْدِ محاولات محمد علي الهادفة إلى إرضاء الدول الأوروبية بفتح المجال أمام أنشطة البعثات التبشيرية، والقنصليات الأوروبية في القدس ودمشق وبيروت؛ إذ وقفت هذه الدول في صف السلطان العثماني، وأسهمت بشكل فعَّال في إخراجه من بلاد الشام؛ لتعزيز أنشطتها الاستعمارية التي سيقف محمد علي باشا حجر عثرة أمامها[١].

وكانت بلاد الشام المجال الأساسي الذي مارست فيه القوى الأوروبية فرنسا، وبريطانيا، وروسيا وبقية الدول) امتيازاتها الدينية والتجارية في الدولة العثمانية بحكم موقعها الاستراتيجي المميز، وتكوينها المتعدد، إضافة إلى وجود الأماكن المقدسة فيها[٢]، فحشدت الدول الأوروبية كل إمكاناتها لملء الفراغ السياسي الذي تركه محمد علي بعد انسحابه من هذه البلاد، ولم تَدّخر هذه القوى جهداً لاستخدام كل الوسائل السياسية والاقتصادية والدينية[٣]، ولاسيما بعد أن ازداد حجم تدخلها في شؤون الدولة العثمانية لما قامت به من إنهاء للحكم المصري في بلاد الشام، وإعادة الحكم العثماني إليها[٤]، كل هذا جعل الدول الأوروبية تمنح نفسها حق الرعاية وبسط النفوذ غير المحدود على هذه البلاد، التي جعلتها ميداناً لحرب سياسية لا تنتهي[٥]. كما أثبتت أحداث عام ١٨٤٠ أهمية جبل لبنان الاستراتيجية لبلاد الشام، والمنطقة برمتها، فقد شكَّل جبل لبنان مفتاحها السياسي بالنسبة للدول الأوروبية[٦]، ولاسيما من الناحية الطائفية بعد أن كَّرس

---

[١] حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، بيروت، د.ط، د.ت، ص٨١-٨٢. الوعري ، مرجع سابق، ص١٠٤.

[٢] مصطفى، نادية محمود، مرجع سابق، ص٢٩٤.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص٩. ياب، مرجع سابق، ص١٥١.

[٤] الوعري، نائلة، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ١٨٤٠-١٩١٤، دار الشروق، عمان ط١، ٢٠٠٧، ص٥٠.

[٥] سورية (في رحلات روسية خلال القرن التاسع عشر)، ترجمة نوفل نيوف وعادل إسماعيل، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط ، ٢٠٠٩، ص٦٤.

[٦] فرح ، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٧.

"نظام الملل العثماني" السكان إلى مسلمين ورعايا[١]، وبعد توغل هذه الدول في الساحة اللبنانية عن طريق تأييد كل منها لطائفة من الطوائف الموجودة في جبل لبنان[٢].

لم يشر أحد من المؤرخين والباحثين إلى مرحلة زمنية محددة لنشوء النظام القنصلي في بلاد الشام، كما تمت الإشارة إليه سابقاً[٣]، غير أنه يبدو بأنه قد تفاعل مع ظهور نظام الامتيازات الأجنبية في القرن السادس عشر، وما قبله، لضرورة متابعة متطلبات ومقتضيات تلك الامتيازات. وانطلاقاً من طبيعة العلاقة بين الامتيازات والنظام القنصلي كان ضرورياً إعادة تأهيل النظام القنصلي على أساس النشاط السياسي في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بعد أن كانت مهامها تجارية بالدرجة الأولى في المراحل السابقة[٤]، عن طريق زيادة عدد قناصل الدول الأوروبية في بلاد الشام[٥]؛ لذا قامت الحكومات الأوروبية بإرسال قناصل وممثلين جدد إلى بلاد الشام، ولاسيما بعد خروج قوات محمد علي، وأمدتهم بالتعليمات اللازمة للتدخل في شؤون البلاد، فقد عينت بريطانيا الكولونيل روز Roze عام ١٨٤٠ قنصلاً عاماً لها في بلاد الشام، تركت له حرية الاختيار في تعيين المدينة التي سيباشر مهامه فيها، فاختار بيروت لقربها من دمشق والبحر، ولاعتقاده بأنها المدينة الأمثل لتطبيق سياست دولته[٦]، بينما ريتشارد وود R. Wood عُيِّن من قبل بريطانيا ليكون قنصلاً لها في دمشق، وكان فيما مضى مفوض عن الدولة العثمانية لمراقبة موظفيها، لذا فكلامه مسموع لدى العثمانيين[٧].

وكان بازيلي قنصلاً عاماً لروسيا في بيروت، فقد أسهم في التغلغل الروسي بين الأوساط الأرثوذوكسية يدعمه في ذلك القيصر والكنيسة الروسية، وحقق نجاحاً ملحوظاً في مهامه؛ إذ أصبح للنفوذ الروسي في الإمبراطورية العثمانية قاعدتان متينتان للطائفة الأرثوذوكسية: إحداها

---

[١] ضاهر، مسعود، الدولة والمجتمع في المشرق العربي ١٨٤٠-١٩٩٠، دار الآداب، د.ن، د.ط، ١٩٩١، ص٣٦-٣٧.

[٢] فرح ، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٧.

[٣] انظر: البحث، ص٤٦.

[٤] ياب، مرجع سابق، ص١٥٢.

[٥] الوعري، مرجع سابق، ص٤٩-٥٠.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٠. عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٧.

[٧] مشاقة، مصدر سابق، ص١٣٧. فقد تدخل وود لدى الدولة العثمانية لعزل علو باشا والي دمشق عام ١٨٤١ بحجة سوء إدارته. انظر: مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي، مصدر سابق، ص٨٥. وانظر:

- Tibawi, op. cit, p. 110-111.

في البلقان، والأخرى في بلاد الشام[١]، ويرى بعض الباحثين والرحالة الروس ممن عمل في لبنان أو قام بزيارتها في ذلك الوقت أن روسيا كانت حيادية في سياستها المتبعة في بلاد الشام، وأن "أبناء" عقيدتها الأرثوذكس في بلاد الشام يخلصون لها؛ لأنها تحميهم من "الأعداء"[٢]، ويرى باحث آخر أن روسيا قد قطعت شوطاً كبيراً في إثارة النعرات المذهبية بين الأرثوذكس والموارنة عبر قنصلها بازيلي، وهذا ما غذَّى التوتر القديم بين الروس والفرنسيين؛ لأن الموارنة يحظون بمساندة وحماية فرنسا[٣].

أما وكبيكر Weckbecker القنصل النمساوي فقد آمن تماماً بفكرة أن حق حماية الكاثوليك أصبح حقاً نمساوياً؛ لأن بلاده أسهمت في العملية العسكرية ضد محمد علي الذي كانت تدعمه فرنسا "لإنقاذ" المسيحيين من "مظالم حكمه"[٤]، في الوقت الذي فقدت فرنسا ذلك "الحق" بوقوفها مع محمد علي ضد المصالح المارونية، حسب وجهة نظر القنصل النمساوي[٥]. أما في فرنسا فقد شعر رجال الدولة بصعوبة موقفها في بلاد الشام بعد الهزيمة الدبلوماسية التي منيت بها أمام التحالف الرباعي للقوى العظمى ضد محمد علي، ومن ثم ضدها، فعزم غيزو Guizhou على تدارك الأمر بالبحث عن رجل تكون له سعة اطلاع على شؤون الشرق والسياسة الدولية، ويستطيع العودة بفرنسا إلى نفوذها القديم، فلم يجد أفضل من القنصل بوريه، القنصل الفرنسي السابق في بيروت أيام حكومة تيير Thiers، وصاحب مشروع الإمارة المسيحية في لبنان الذي رفضه الموارنة[٦]. ليكتمل بذلك الفريق القنصلي للقوى الأوروبية العظمى في بلاد الشام- وفي بيروت بالتحديد- الذي كان يتكون من هؤلاء الدبلوماسيين الأوروبيين، ولكل منهم مخططات، وأهداف، ووسائل كثيرة لدعم نفوذ بلاده، إضافة إلى قناصل الدول الأوروبية الأخرى الأقل تأثيراً[٧]. كما استمر تعيين البعض من أبناء البلاد كقناصل للدول الأوروبية، فقد كان عبده بك قدسي قنصلاً لكلٍ من هولندا واليونان، وأصبح ابنه إلياس القدسي

---

[١] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١١.

[٢] سورية في رحلات روسية، مرجع سابق، ص٦٥.

[٣] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١١.

[٤] المرجع نفسه، ص١٢.

[٥] عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، مرجع سابق، ص٣٥٧.

[٦] خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج٣، ص١٢.

[٧] المرجع نفسه، ص١٣.

قنصلاً لهولندا، وكانت أسرة الخازن من قبلهم قد شغلت منصب قنصل فرنسا نحو مئة عام، وبقيت على ولائها لفرنسا[١].

وكان على القناصل الأوروبيين في بلاد الشام تنسيق نشاطاتهم مع المسؤولين العثمانيين لتولي مسؤولياتهم، لكن العمل المشترك لم يكن ممكناً في كل وقت، إذ كان على القناصل حماية مصالح دولهم أولاً؛ لذا فقد بقي التنسيق بين هؤلاء والولاة العثمانيين ظاهرياً وسطحياً[٢].

وإذا كان الحصول على الامتيازات- وتنافس الدول الأوروبية للحصول عليها- يشكل القاعدة الأولى لتدخل هذه الدول في بلاد الشام[٣]، فإن هذه الدول تجاوزت حدود التجارة إلى بسط رعايتها وحمايتها على رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين[٤]، وذلك عن طريق الامتيازات نفسها إضافة إلى النظام القنصلي والإرساليات الدينية؛ لأن القنصليات الأوروبية المنتشرة في أراضي الدولة العثمانية تمتعت بنفوذ كبير اكتسبته من تلك الاتفاقيات التي أُبرمت فيما يتعلق بآلية عملها، بينا سمحت بنود ومواد الامتيازات سمحت أيضاً بتدفق الإرساليات الدينية إلى معظم ولايات الدولة العثمانية، ولاسيما ولايات بلاد الشام[٥]. كما ازدادت حدة التدخل الأوروبي في بلاد الشام، بعد تحولها إلى دول صناعية كبرى، فأصبحت تبحث عن أسواق جديدة ومصادر للمواد الخام، وكانت بلاد الشام- بعد انسحاب قوات محمد علي- تعدُّ مركزاً خصباً ومغرياً لتوجهات الدول الأوروبية وتطلعاتها الاستعمارية، ولاسيما أنها وجدت في النزاعات الأهلية مجالاً واسعاً للتدخل في شؤون البلاد[٦].

كما نشطت حركة التجارة الأوروبية في بلاد الشام، وأصبح الأوروبيون يرونها المحطة الرئيسية لطموحاتهم وأطماعهم، والمكان المتميز الذي يحقق لأوروبا مصالحها الحيوية[٧]، ففي رسالة محفوظة في الأرشيف الصهيوني السري لعام١٨٤٧ بعث بها القنصل البريطاني إلى وزير

---

[١] وفي أثناء الحرب العالمية الأولى أعدم جمال باشا السفاح كل من الشيخين فيليب وفريد الخازن، وكان الأول مترجماً في القنصلية العامة الفرنسية، وخدم الثاني فرنسا على صفحات الجرائد. انظر: السكيف، مرجع سابق، ص٣٤٥-٣٤٦.

[٢] فرح، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٤.

[٣] الوعري، مرجع سابق، ص٦١.

[٤] سورية (في رحلات روسية خلال القرن التاسع عشر)، مرجع سابق، ص٦٤.

[٥] الوعري، مرجع سابق، ص٦٣.

[٦] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٠-٤٢١.

[٧] الوعري، مرجع سابق، ص٨٤-٨٥.

الخارجية يقول فيها: إن **(نشاطاً اقتصادياً واسعاً ينتظر البريطانيين في الديار الشامية وفلسطين، وأن على بريطانيا أن تنشط للاستفادة من هذه الميزة)**[١].

وكان نشاط الإرساليات الدينية طريقاً آخر للتغلغل الأجنبي في بلاد الشام، ولاسيما في أربعينيات القرن التاسع عشر[٢]. فقد استفاد الأوروبيون من الوضع العام للمسيحيين في الدولة العثمانية التي عاملت رعاياها المسيحيين معاملة تختلف عن معاملة المسلمين. وهذا الأمر نفسه حدث في الولايات الشامية فقد كانت الدولة تعامل العرب المسيحيين بشكل مختلف عن معاملتها للعرب المسلمين، فقد أسهمت معاملتها للمسلمين في اندماج العرب المسلمين في الدولة العثمانية، بينما عاشت العناصر المسيحية من العرب على هامش الدولة، وهذا ما جعلهم يشعرون بالاغتراب عنها، وهو الأمر الذي دفعهم إلى أن يكونوا أكثر اتصالاً بالغرب والدول الأوروبية[٣]. ففتح هذا الأمر الباب واسعاً أمام نشاط الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية التي عملت منذ القرن السادس عشر لجذب أنصار المذاهب المسيحية الأخرى، ونجحوا في تنظيم الموارنة وربطهم بروما منذ عام ١٧٣٦[٤]، وقام القناصل الأوروبيون بأدوار تبشيرية لا تقل عن أدوارهم السياسية والعسكرية والاقتصادية، حسب ما أملته عليهم سياسات بلدانهم[٥].

وبذلك فقد أسهم كل من نظام الامتيازات والإرساليات التبشيرية- تحت إشراف النظام القنصلي- في ضبط التوجهات العامة للدول الأوروبية في الدولة العثمانية، ولاسيما في بلاد الشام. وكانت بريطانيا الأكثرَ نشاطاً، فقد سعت إلى دعم مواقعها في الهند وجنوب إفريقيا، وهو ما يتوافق- حسب سياساتها- مع الحفاظ على الدولة العثمانية من جهة، وحماية اليهود كمرتكز لنفوذهم في بلاد الشام من جهة أخرى[٦]، كما أبدت حرصها على التبشيري بشكل واضح بعد تردد طويل، لذلك أسهموا في إنشاء الكنيسة البروتستانتية ودعم أنشطتها في بلاد الشام، ولاسيما المدن الفلسطينية (نابلس، ويافا، وحيفا وغيرها)[٧]، واستطاعت أن تشكل نفوذاً سياسياً واقتصادياً

---

[١] الوعري، مرجع سابق، ص٨٤.

[٢] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٣] الحصري، ساطع، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٥٦، ص١٧٧-١٧٨.

[٤] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٨٩-١٩٣٩، مرجع سابق، ص٧٦.

[٥] الوعري، مرجع سابق، ص١٤٤.

[٦] المرجع نفسه، ص١٠١-١٠٢.

[٧] المرجع نفسه، ص١٤٤.

واجتماعياً ودينياً حتى فاقت مثيلاتها من الدول الأوروبية، وكان حقُّ حماية اليهود من أكثر العوامل تأثيراً في النشاط القنصلي البريطاني بعد أن فشلوا في نشر المسيحية بينهم[1].

ومن جهتها راقبت القنصليات الفرنسية أنشطة الأسقفية البروتستانتية، والقنصليات البريطانية في بلاد الشام، لأن فرنسا حرصت على إحياء البطريركية اللاتينية التي أُوقفت أعمالها في القدس بعيد الحروب الصليبية[2]، واهتم القناصل الفرنسيون بإقامة المدارس التابعة للإرساليات التبشيرية الفرنسية[3]، وتم تعيين أول بطريرك لاتيني لها عام ١٨٤٨، وكانت تحظى بمساعدات كبيرة من الخارج مما جعلها تنتشر بشكل سريع ، فعملت بقية الكنائس للحد من انتشارها[4]، وفي عام ١٨٤١ تم إنشاء أسقفية إنكليزية- بروسية، لتشكل إحدى معالم الوجود البروسي في شراكة مع بريطانيا لم تدم طويلاً لقوة النفوذ البريطاني، فعمدت بروسيا إلى دعم وجودها في فلسطين من خلال إقامة أول قنصلية لها في القدس عام ١٨٤٢[5]. وكانت لهذه الشراكة البريطانية- البروسية أدواراً مهمة في تشجيع الخطط الاستعمارية اليهودية التي الهمت المشاريع المستقبلية للصهيونية[6]، وقد رأينا كيف أن الألمان البروس كانوا أول من بدأ بالتوجه نحو إقامة المستعمرات الدينية- الاقتصادية في فلسطين ولاسيما في حيفا منذ عام ١٨٦٨[7]. بيمنا ركزت النمسا جهودها في الجزء الأوروبي من أملاك الدولة العثمانية، ولم تكن البعثات النمساوية في بلاد الشام إلا مؤسسات اجتماعية خيرية[8]، ويبدو أن محاولاتها لكسب بعض النفوذ عند الكاثوليك في بلاد الشام عندما قامت بالتبرع بمبالغ خيالية لصالح المسيحيين اللبنانيين لم تحصد النتائج المرجوة[9]، فبدأت تهتم بالبعد التجاري، ومراقبة أنشطة قناصل الدول الأوروبية الأخرى بشكل غير مباشر فأقامت أول قنصلية لها في القدس عام ١٨٤٩[10].

---

[1] الوعري، مرجع سابق، ص١٤٧.

[2] فقد دخل البطريرك اللاتيني جوزيف فاليريا Joseph Valerga إلى القدس عام ١٨٤٨ كأول بطريرك لاتيني منذ الحروب الصليبية. انظر: شولش، مرجع سابق، ص٦٧.

[3] الوعري، مرجع سابق، ص١٥١.

[4] الحصري، مرجع سابق، ص١٩١.

[5] الوعري، مرجع سابق، ص١٦٢

[6] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٨

[7] الوعري، مرجع سابق، ص١٦٥.

[8] المرجع السابق، ص١٢٦.

[9] بازيلي، مصدر سابق، ص٣١٣.

[10] الوعري، مرجع سابق، ص١٧٧.

أما المصالح الروسية في الدولة العثمانية وولاياتها العربية فقد ارتبطت بعوامل جغرافية وسياسية ودينية، عندما عدَّ قياصرة روسيا أنفسهم حماةً للأرثوذكس وكنائسهم[١]، فلم تبتعد روسيا بنفسها عن التنافس الدائر بين الدول الأوروبية، وأمام ازدياد قوة المذاهب الدينية المسيحية وتقهقر الكنيسة الأرثوذكسية بدأت روسيا تندفع نحو بلاد الشام وإقامة قواعد أساسية فيها[٢]، ففي عام ١٨٤٩ أسست روسيا في القدس إرسالية دينية لتعزيز نفوذها لدى السكان[٣]، إضافة إلى إنشاء وتأسيس العديد من الكنائس والمستشفيات والفنادق للرعايا والحجاج الأرثوذكس، وركزت على إنشاء المدارس للرعايا الروس المقيمين في فلسطين، في حين تقاعست القنصلية الروسية عن حماية رعاياها اليهود الروس، ففضل هؤلاء الدخول في الحماية البريطانية[٤].

وعكست الخلافات بين عمل الإرساليات الدينية حدة التنافس بين مصالح الدول الأوروبية، وتفاوتت أسباب الخلافات بين امتلاك هذا الموضع، أو ذاك من الأماكن المقدسة أو بسبب تقاسم الأرباح الواردة منها، وكانت إحدى هذه الخلافات التي تتعلق بترميم سقف كنيسة القيامة، وامتلاك مفاتيح كنيسة المغارة في بيت لحم، لذلك تحولت هذه الخلافات إلى أزمة دولية خطيرة أدت إلى نشوب حرب القرم بين عامي ١٨٥٣-١٨٥٦[٥]، فقد شكلت هذه الحرب إحدى المداخل الجديدة للتغلغل الأوروبي، وكان عبر وسيلة جديدة وخطيرة جداً؛ وهي تغلغل الرأسمال الأجنبي، ولأجل سد نفقات هذه الحرب عقد الباب العالي عام ١٨٥٤ أوَّل قرض أجنبي مع الدولة العثمانية، وكانت البداية الفعلية لاستعبادها من الناحية المالية- الاقتصادية، بعد أن أمْلت الدول الأوروبية على السلطان وحكومته مشروع برنامج إصلاحي جديد عام ١٨٥٦ (خط همايون)، وهذا الأمر أسهم إلى حدٍّ بعيد فتح الطريق واسعاً أمام تغلغل الرأسمال الأجنبي إلى الدولة العثمانية، في المركز والولايات[٦].

٢-الإدارة العثمانية في بلاد الشام وأثر الضغوط الأوروبية فيها (١٨٤٠-١٨٧٨).

بعد سيطرة القوات المصرية على بلاد الشام عام ١٨٣٢، قام إبراهيم باشا بإلغاء التقسيمات الإدارية العثمانية التي كانت على شكل ثلاث ولايات هي (إيالة حلب، وإيالة الشام، وإيالة طرابلس)، وعُينِّ محمد شريف باشا حاكماً على بلاد الشام منذ عام ١٨٣٢ وحقق بذلك وحدة

---

[١] الوعري، مرجع سابق، ص١١٩.

[٢] المرجع نفسه، ص١٥٥.

[٣] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٨.

[٤] الوعري، مرجع سابق، ص١٥٨-١٥٩.

[٥] انظر: البحث، ص١٦٦-١٦٧.

[٦] لوتسكي، مرجع سابق، ص١٥٩.

إدارية فريدة من نوعها لهذه البلاد منذ بداية العهد العثماني، مع الاحتفاظ بالوضع الخاص لجبل لبنان تحت إدارة بشير الشهابي. ولكن التشيكلات الإدارية السابقة ما لبثت أن عادت تحت ضغط الثورات المستمرة ضد الحكم المصري منذ عام ١٨٣٤، فأعيد تشكيل إيالة صيدا من جديد بعد سلخ عكا عنها، كما تم فصل حلب عن بر الشام، وظهرت إيالة طرابلس الشام، وإيالة يافا، وإيالة أدنه[١].

وعند عودة العثمانيين إلى بلاد الشام عام ١٨٤٠، أعادوا معهم التشكيلات الإدارية السابقة[٢] التي ألغاها إبراهيم باشا بعد اجراء تعديلات بسيطة في البداية، مثل نقل مركز إيالة صيدا من عكا الى بيروت، ثم ما لبثوا أن أحدثوا تغييرات سنوية ضمن الإيالة الواحدة كخلق تشكيلات إضافية فيها، أو نقل أجزاءٍ منها الى إيالة أخرى[٣]، حتى تم تشكيل ولاية ساحلية باسم مركزها بيروت بعد أن ضموا ألوية طرابلس واللاذقية وعكا ونابلس إليها، إضافة إلى ألوية كانت في الأصل جزءاً من ولاية دمشق ثم ولاية سورية بين عامي١٨٦٤ و١٨٧٦[٤]. غير أن وطأة الحكم العثماني المركزية خفت عما مضى بشكلٍ ملحوظ؛ لعدم امتلاكهم الإمكانيات المادية والعسكرية السابقة[٥]، إضافة إلى الطلائع الأولى للقوى الأوروبية التي أصبحت أكثر قوة وتصميماً على التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، ولاسيما بلاد الشام، بسبب مساهمتها الفعالة لإعادتها إلى الحكم العثماني، ومهما يكن من أمر، فقد أدت الضغوط التي مارستها كلٌّ من بريطانيا وفرنسا إلى قيام نظام إدارة شبه محلي في جبل لبنان، وكان هذا النظام موزعاً بين طائفتي الدروز والموارنة.

أما بقية الولايات الشامية فقد عجز حكامها عن إدارة شؤونها على الوجه القديم المتعسف، للأسباب التي سبق ذكرها، إضافة إلى عدم توفر خبرات عثمانية تضاهي مستوى المؤسسات المالية الجديدة التي أقامها إبراهيم باشا، مما أجبرهم على العودة إلى الأساليب القديمة المتمثلة في بيع الالتزامات إلى الأثرياء والزعماء المحليين[٦].

---

[١] عوض، مرجع سابق، ص٦٢-٦٤.

[٢] فعلى سبيل المثال طلب والي حلب من القاضي والمتسلم والأعيان في ٢٠ شوال ١٢٥٦/ ١٨٤١، إلغاء نظام البكوية، والأفندية، والأغاوية التي هي من الأصول المصرية. انظر: دار الوثائق التاريخية، دمشق، الأوامر السلطانية (حلب)، المجلد ٥٠، الوثيقة رقم ٧٦.

[٣] عوض، مرجع سابق، ص٦٤.

[٤] غرايبة، مرجع سابق، ص٨٦.

[5] Ma’oz, op. cit, p. 77.

[٦] أوين، مرجع سابق، ص١١٣.

ولم تكن سلطة الحكومات المحلية بالقدر المطلوب من القوة كي تضبط حالات الفوضى وسلسلة الاضطرابات في بلاد الشام، لاسيما في المناطق الجبلية[١] التي بلغت ذروتها في الاقتتال الطائفي بجبل لبنان، وكان لأعمال الشغب التي اجتاحت دمشق عام ١٨٦٠ هذه الأحداث مجتمعة نتج عنها تزايد النفوذ الأوروبي، وما ارتبط به من تغييرات في موازين السلطة بين مختلف الفئات الاجتماعية، ولاسيما بعد استمالة كل دولة من الدول الأوروبية لفئة من الفئات الاجتماعية المختلفة[٢]. وشكلت الوثيقة الدستورية المعروفة بـ (النظام الأساسي) الخاص بإعادة تنظيم جبل لبنان لعام ١٨٦١، التي أعقبت حوادث عام ١٨٦٠، في جبل لبنان منفذاً واسعاً للقوى الأوروبية التي كان من مصلحتها إنهاء حكم (المقاطعجية) في لبنان وتحويلها إلى متصرفية، إذ تم فتح جبل لبنان أمام المصالح التجارية الأجنبية[٣].

وكانت بيروت تقع خارج الحدود الرسمية للمتصرفية، إلا أن منشآتها المهمة وتمتع محكمتها التجارية بسلطات واسعة جعلتها العاصمة الاقتصادية لجبل لبنان، كما شكلت ممراً للأموال القادمة من أوروبا[٤].بينما شهدت فلسطين (جنوبي بلاد الشام) في مرحلة الخمسينات من القرن التاسع عشر قدراً كبيراً من انعدام الأمن في المناطق الريفية. وحاولت الحملات العثمانية تحسين الوضع الأمني في حوران في العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر، فعقدت اتفاقات أمنيّة مع الزعماء المحليين هناك، ثم توغلت جنوباً في المنطقة التي تشكل الأردن اليوم.

وفي حلب بدأت القوات العثمانية بتنظيم مواقع جديدة على طول حدود الصحراء، واصطدمت بالقبائل المحلية هناك، وأقامت حامية دائمة في دير الزور على امتداد نهر الفرات باتجاه الشمال والجنوب[٥].

وظهرت بموجب قانون تشكيل الولايات الصادر عام ١٨٦٤ تقسيمات إدارية جديدة لولايات الامبراطورية العثمانية، فقد أصبح عدد الولايات العثمانية ثلاثين ولاية بعد أن كانت سبعاً وعشرين[٦]. ثم صدر نظام إدارة الولايات العمومية عام ١٨٧١، وتم التأكيد فيه على التشكيلات الأساسية للولايات منذ عام ١٨٦٤، وكان هذا النظام قد ربط الولايات العثمانية بالحكومة المركزية في الأستانة الأمر الذي جعله نظاماً شديد المركزية لذا أدى الى بطء سير المعاملات الإدارية، ولم يخفف من شدة وطأته إلا انتظام شبكة المواصلات البريدية، وأهمها (التليغراف) في

---

[1] Ma'oz, op. cit, p. 81

[٢] أوين، مرجع سابق، ص٢١٩.

[٣] المرجع نفسه، ص٢٢٩.

[٤] المرجع نفسه، ص٢٣٢.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٣٩-٢٤٠.

[٦] عوض، مرجع سابق، ص٦٦-٦٧.

أواخر القرن التاسع عشر. وبذلك حافظت الدولة العثمانية على حكمها المركزي في الولايات بشكل يكفل لها الهيمنة الإدارية على كل فروع العمل الحكومي[١]، فأثارت هذه المحاولات العثمانية سخط السكان في بلاد الشام، وزاد من هذا السخط معاناة فئاتها الاجتماعية المختلفة من المصاعب الاقتصادية، نتيجة ازدياد التجارة الأوروبية فيها ضمن منظومة الامتيازات التي منحها العثمانيون للأوروبيين، فهي التي كان لها أسوأ الآثار في الصناعة والتجارة المحلية[٢].

ولم يأت هذا القانون (قانون عام ١٨٦٤) بأي شيء جديد فيما يخص أمور التقسيم الإداري للولايات، إلا أن جديده يتعلق بالحدود الجغرافية لكل ولاية، التي أدت إلى ظهور ولايات جديدة، وما يهمنا في هذا الأمر هو ما أحدثه هذا القانون من تقسيمات جديدة لبلاد الشام، وفي الحقيقة فقد طرأت على بلاد الشام تغييرات كبيرة وتاريخية، فقد اختفت إيالة صيدا كلياً، وقسمت بلاد الشام الى ولايتين[٣] هما: ولاية سورية ومركزها دمشق[٤] بعد أن ضُمَّ إليها أجزاءٌ من إيالتي طرابلس (القديمة)، وصيدا (الملغاة)، وولاية حلب وضمت إليها أجزاء من الجزيرة والأناضول[٥]. وهكذا بدأ اسم سورية بالظهور في وثائق الدولة العثمانية بالشكل الرسمي اعتباراً من عام ١٨٦٤[٦]، وهو الاسم الذي كان شائعاً في العهد البيزنطي، وحافظ الأوروبيون على استعماله، وتداولوه في وثائقهم وآدابهم ومراسلاتهم ورحلاتهم[٧]، فقد كان مغيباً طيلة العهود الإسلامية[٨]. واستمرت هذه الولاية حتى نهاية العهد العثماني، ولكن دون أن تستقر حدودها الجغرافية؛ إذ منيت بانفصالات إدارية متلاحقة أولها استقلال لواء القدس عام ١٨٧٤ التي شكلت متصرفية تتصل إدارياً بالباب العالي في الأستانة بشكل مباشر[٩].

---

[١] عوض، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩.

[٢] قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٩. أوين، مرجع سابق، ص٢١٩.

[٣] عوض، مرجع سابق، ص٦٩.

[٤] مطر، مصدر سابق، ص١١٥.

[٥] عوض، مرجع سابق، ص٦٩.

[٦] ياب، مرجع سابق، ص١٤٧-١٤٨.

[٧] الصباغ، ليلى، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢، ص٨.

[٨] مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص٤.

[٩] ياب، مرجع سابق، ص٧٠.

٣- بوادر التحول في الفكر السياسي لدى السكان في بلاد الشام بين عامي١٨٤٠ و١٨٧٨ .

أ- النهضة العربية- الفكرية:

خضعت أنماط التفكير التقليدية في بلاد الشام منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين- كسائر المشرق العربي- لملامح تغيير أولية في التصور والأساليب، وتزامنت هذه التغيرات مع الاهتمام المتزايد باللغة العربية والتاريخ العربي، وظهر منذ ذلك الوقت الحديث عن العلاقات الاجتماعية على أسس جديدة، كمسائل العلاقة بين الدين والعلم، والتحولات الاجتماعية في المجتمع ودوافعها، وبناء الدولة والمجتمع، وأهمية الفكر والأدب في تحرير المجتمعات، وذلك بمبادرة من النخبة العربية التي أثارت التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية في أوروبا بالغ اهتمامها[١]. ومع ذلك، فقد كان المستوى الفكري منخفضاً جداً، وشبه شامل في بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد كان الاهتمام بالعلوم العقلية ضعيفاً، وهناك شحٌ في الكتابات التاريخية في هذه الفترة، على الرغم من الأحداث المهمة التي جرت فيها[٢]، وكانت المدارس الموجودة فيها النوع الابتدائي، وكان التعليم فيها- سواء أكان إسلامياً أم مسيحياً- محصوراً على النواحي الضيقة للعلوم الدينية[٣]، كما أن ندرة الكتب كانت من العوامل التي أسهمت في تأخر التطور الثقافي، وكانت آلات الطباعة العربية شبه مفقودة، وكثيراً ما كانت تستعمل الآلات اليدوية منذ القرن الثامن عشر في طباعة الكتب الدينية. وأشار أحد الباحثين إلى ندرة الإقبال على شراء الكتب، وعدم وجود أي صحيفة أو مجلة في ذلك الوقت، وتجلى له ذلك من خلال التقرير الذي قدمه الدكتور جون باورنج، موفد الحكومة البريطانية لدراسة أحوال بلاد الشام عام ١٨٣٨[٤].

غير أن هذه الحال أخذت بالتغيّر بتأثير عدة عوامل؛ ولو بشكل بطيء نسبياً، ومنها أن الحكم المصري قام- منذ عام ١٨٣٤- بإنشاء المدارس الابتدائية، وبعض المدارس الثانوية في المدن الرئيسية في بلاد الشام، وقد بقي أثرها واضحاً حتى بعد انهيار النظام المصري، وانسحاب

---

(١) كوتلوف، مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٢.

(٢) الزواهرة، مرجع سابق، ص١٦٢-١٦٣.

(٣) الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص٢٣-٢٤. أنطونيوس، جورج، يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٧، ص١٠٠.

(٤) أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٠٠-١٠١. الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية- الصحافة السورية في العهد العثماني، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ج١، ص٣٠-٣١.

جيش محمد علي باشا عام ١٨٤٠[١]، ومع إشارة أحد الباحثين إلى المبالغة في هذا الطرح، لعدم اقترانه بالوثائق اللازمة والكافية إلا أنه يفيد بإدخال عدد كبير من الكتب المطبوعة وبمختلف الاختصاصات إلى بلاد الشام التي طبعت في مطبعة بولاق[٢]، ومن جهة أخرى فقد ساعد التنافس بين البعثات الكاثوليكية والبروتستانتية على إحياء اللغة العربية، وما ارتبط بها من حركة فكرية لذلك لم تلبث أن تحولت من الأدب إلى السياسة، فالبروتستانت لعدم وجود قاعدة شعبية لهم في المشرق العربي شبيهة بقواعد الكاثوليك والأرثوذكس قاموا باستعمال اللغة العربية في الصلاة، وترجموا الإنجيل إلى العربية، فاكتسبوا بذلك نفوذاً كبيراً بين الجماهير، ولاحظ الكاثوليك والأرثوذكس ذلك فعمدوا إلى محاكاتهم بالأسلوب نفسه، باستخدام اللغة العربية، فهكذا تنافست جميع الطوائف على إحياء الثقافة واللغة العربية[٣]. ومع ذلك يبقى التساؤل قائماً عن البذرة التي أوجدت العامل الفكري الذي نبه الناس وأوقظهم[٤]، فقدأرجع بعض المؤرخين هذه البذرة إلى أثر الحضارة الغربية، والتلقي الإيجابي للفكر العربي لهذا التأثير، بعد أن تسللت الحضارة الأوروبية إلى الدولة العثمانية ومنها إلى المجتمع العربي عن طريق الدبلوماسيين الأوروبيين كالسفراء في استانبول، والقناصل والجاليات التجارية والسياح في المدن العربية التجارية، إضافة إلى البعثات التبشيرية[٥]، وأرجعها بعضهم الآخر إلى ولادة تحدٍّ بين الفكر العربي الأصيل والفكر العربي التقليدي، وهو ما يمكن تسميته بالعودة إلى الأصول في جميع الدراسات الفكرية، وهذا يذكّرنا بالحركة الإنسانية في أوروبا بعد أن أصبح الارتداد للأصول اليونانية والرومانية عماد نهضتها في العصور الحديثة[٦].

---

[١] منسى، مرجع سابق، ٦١-٢ .

[٢] الطيباوي، عبد اللطيف، نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سورية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً)، كانون الثاني ١٩٦٧، مج٤٢، ج١، ص٧٧٦-٧٧٧. يشير الطيباوي إلى المبالغة في انتشار المدارس الابتدائية في سائر البلاد وتأسيس المدارس الثانوية في المدن الرئيسية، ويرى- بعد الاطلاع على الوثائق المختلفة، على حد تعبيره- أن إبراهيم باشا أسس عدداً قليلاً من المدارس العسكرية في دمشق وأنطاكية وحلب، لإعداد ضباط يعرفون القراءة والكتابة. انظر: المرجع نفسه، ص٧٧٧.

[٣] منسى، مرجع سابق ، ص٦٢-٦٣.

[٤] الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص٢٣٢.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٢٤.

[٦] المرجع نفسه، ٢٣٢-٢٣٣.

ومع ضرورة التعامل بحذر عند استخدام مفهوم "التطور الرأسمالي"، بما أنه أثر أوروبي اقتحم الاقتصاد الشرقي وهو الذي أنتج أول ما أنتج البرجوازية الكومبرادورية[١]، فقد ارتبطت النهضة الفكرية بظهور وتطور ملامح التحول في العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية في الولايات العربية وغيرها من الإمبراطورية العثمانية التي تجسدت في الانفتاح الاقتصادي بين المناطق المختلفة، فهذا الانفتاح أدى إلى ارتباطها ضمن مصالح اقتصادية مشتركة، وكانت النتيجة المزيد من التلاحم والتقارب القومي، فشكلت هذه النهضة المنطلقات الحقيقية للأفكار القومية، وأسهمت بشكل فعَّال في بزوغ عهد اليقظة القومية للعرب وشعورهم بشخصيتهم القومية ضمن نسق إيديولوجي ارتبط بحاجات ومصالح البرجوازية العربية الناشئة وأفكارها، والعملية نفسها تكررت لبقية شعوب الإمبراطورية العثمانية[٢]. وهذا يعني أن النهضة الفكرية تأثرت بداية وبشكلٍ أساسي بالصراع البرجوازي- الإقطاعي، بعد أن واجهت البرجوازية العربية الناشئة النظام الإقطاعي في الدولة العثمانية الاستبدادية، وكل ذلك تزامن مع ظهور لاعب ثالث أصبح يشكل خطراً متزايداً يهدد البلدان العربية بالتبعية والاستعمار، وهو التوسع الاقتصادي- السياسي للدول الأوروبية. وإذا كانت البرجوازية العربية لم تجد الطريق إلى الجماهير حتى ذلك الوقت، لذلك كان عليها أن تختار إحدى القوتين الأوروبية أو العثمانية، مع وقوف كلتا القوتين أمام التقدم الاجتماعي والاقتصادي في البلدان العربية[٣]. وهذا ما أدى في القرن التاسع عشر إلى دخول الحركة التنويرية في صراع ثقافي إيديولوجي، خلق جيلاً مثقفاً، ألزمه هذا الصراع بعدة اتجاهات يحصرها أحد الباحثين في ثلاثة نزعات؛ وهي **النزعة التوفيقية** التي حاول دعاتها أن يبرهنوا عدم التعارض بين الإسلام، وبين النزعة البرلمانية التي تبناها الغرب الأوروبي، ولكنهم دعوا إلى التعامل بحذر مع الغرب الذي ظهرت أطماعه الاستعمارية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٤]، ومن دعاة هذه النزعة جمال الدين الأفغاني[١]، ومحمد عبده[٢]، ومحمد رشيد رضا[٣].

---

[١] **البرجوازية الكومبرادورية:** تعبير سياسي اقتصادي يشير الى التجار المحليين الذين يقومون بدور الوسطاء التجاريين بين الرأسمال الأجنبي والسوق المحلية، من خلال شراء المواد المحلية لصالح الصناعيين والتجار الأجانب. ويرى بعض السياسيين أن طبقة الكومبرادور تتألف من أعيان البرجوازية المحلية التي تحصل على امتيازاتها الاقتصادية وأوضاعها الاجتماعية بفضل الاحتكارات الأجنبية، وهي بالتالي ذات مصلحة في المحافظة على الوجود الاستعماري والنظام الاجتماعي المنحرف المرتبط به. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ج٥ ، ص٢٥٩.

[٢] كوتلوف، ل.ن، تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر- ١٩٠٨)، ترجمة سعيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، ١٩٨١، ص٣٨٥.

[٣] المرجع نفسه، ص٣٩٠-٣٩١.

[٤] مخزوم، محمد، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي، معهد الإنماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٨٣-٨٤ .

أما **النزعة الدستورية** فقد دعا أصحابها إلى تبني التنظيمات العثمانية وأشكال المؤسسات الأوروبية لحلِّ مشاكل المجتمعات الإسلامية بطرح صيغٍ جديدة لنظام الحكم ومؤسساته(٤)، ومن دعاتها رفاعة الطهطاوي(٥)، وخير الدين التونسي(٦)، وأحمد فارس الشدياق(٧)، وأديب إسحاق(٨)،

---

(١) **جمال الدين الأفغاني:** هو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية التي كانت امتداداً للحركات الوهابية والسنوسية، وكانت قد لاقت قبولاً مبدئياً من السلطان عبد الحميد الثاني، ورغم الغموض الذي يلف أصل الأفغاني ومذهبه، إلا أن أهميته تكمن في أنه أنشأ جيلاً كاملاً من المفكرين السياسيين أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعبد الله النديم وأديب اسحاق وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم. انظر: طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٨١-٣٨٢. منسى، مرجع سابق، ص٧٦.

(٢) **ومحمد عبده:** دعى إلى تحرير الفكر من عبودية التقليد وأسس مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى). انظر: طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٨٢.

(٣) **محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥):** من دعاة الانبعاث الإسلامي، وكان يخص العرب بمكانة مركزية في مصير الإسلام وقد تأثر بـ (محمد عبده) وجريدته (العروة الوثقى)، وهاجر من بلده طرابلس إلى القاهرة (١٨٩٧م) وفي العام التالي أصدر مجلة (المنار) التي عدت منبر الدعوة إلى الإصلاح الإسلامي، واستمر يصدرها حتى وفاته عام ١٩٣٥. انظر: طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٨٤-٣٨٥.

(٤) مخزوم، مرجع سابق، ص٩٥-١٠٥.

(٥) **رفاعة الطهطاوي (ت ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٤م):** وُلد في طهطا من صعيد مصر، حفظ القرآن وقرأ الكثير من المتون المتداولة، ذهب إلى القاهرة وانتسب إلى جامعة الأزهر وبرع في الفقه واللغة والحديث، أوفده محمد علي باشا إلى فرنسا إماماً مع البعثة المصرية، وهنك عكف على دراسة اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه، وأخذ يطالع العلوم الحديثة، ولدى عودته عينه محمد علي مترجماً في المدرسة الطبية، وأسهم في إنشاء أول جريدة عربية وهي جريدة الوقائع، وترك العديد من المؤلفات الجليلة، وتوفي عام ١٨٧٤. انظر: مردم بك، خليل، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧، ص٢٢٣-٢٢٦.

(٦) **خير الدين التونسي (١٨١٠-١٨٩٠):** من أعيان الدولة العثمانية، تدرج في المناصب في تونس، ثم أصبح صدراً أعظم لدى السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٧٩، وحاول توسيع سلطة الصدر الأعظم لوضع حدٍ لاستبداد السلطان فعُزل، توفي في إسطنبول، وله "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك". انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٩٧.

(٧) **أحمد فارق الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧):** من عائلة مارونية عريقة، تلقى العلم في مدرسة عين ورقة، التجأ إلى مصر ثم مالطة ولندن، وعمل في الترجمة والصحافة، وزار تونس حيث اعتنق فيها الإسلام وتسمى بأحمد، ثم استقر في الاستانة وأصدر صحيفة الجوائب عام ١٨٦٠ واستمر في تحريرها حتى اعتزل عام ١٨٨٣، فحررها ابنه سليم، وكانت أول صحيفة عربية ذات نفوذ كبير وانتشار واسع عالجت مختلف المواضيع السياسية والاجتماعية. انظر: برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٣٨٨.

(٨) **أديب اسحاق (١٨٥٦-١٨٩٥):** ولد بدمشق، وتلقى تعليمه في المدارس التبشيرية فيها وفي بيروت، وغادر بلاد الشام إلى مصر وانضم إلى دروس جمال الدين الأفغاني واشترك في الحركة الوطنية، وأصدر جريدة

ومع أن هذا الباحث لا ينفي تهمة التغريب عن **النزعة القومية** غير أنه يشير إلى تأكيد أصحابها على أصالة الحضارة العربية وإمكانية الخروج من دائرة التخلف باستعادة أمجاد العرب، ويشير إلى تعرضهم لانتقاد أصحاب "الفكر الديني" وتجريحهم، على أن القومية "نتاج أوروبي غريب" وتخدم مصالح الدول الأوروبية على حساب سلطة السلطان العثماني الذي "يمثل" الفكرة الدينية بـ "أوسع معانيها"، ويخص الباحث المسيحيين السوريين المتنورين بالدعوة بأنهم أول من تعلق بهذا الانتماء بعد تمسكهم بأهمية التراث العربي(١)، من أمثال ناصيف اليازجي(٢) وبطرس البستاني(٣)، وإبراهيم اليازجي(٤).

ب- من الأدب والفكر إلى العمل السياسي:

كانت الفكرة القومية في أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر- حسب رأي أحد الباحثين- قد دخلت مرحلة متقدمة من مراحل تطورها، فبينما كانت في المراحل السابقة مجرد

مصر (١٨٧٧) والتجارة (١٨٧٨م) ، وكتب مقالات في الحقوق والواجبات والحرية والوطنية. انظر: طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(١) مخزوم، مرجع سابق ، ص١٠٥-١٠٨.

(٢) **ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١)**: ولد في قرية لبنانية صغيرة من أسرة مسيحية، تلقى دروسه من قس القرية ثم انطلق يبحث عن المعرفة في مكان آخر، لجأ إلى المخطوطات المحفوظة في مكاتب الأديرة، وأخذ يفكر في إحياء تراث الماضي، وكانت هذه المسألة تحتل في تفكيره المقام الأول، استعان به المرسلون الأمريكان في إصدار الكتب التي تبحث في علوم اللغة العربية، كما ألّف كتباً في علوم القواعد والمنطق والخطابة لمدارس البعثة الأمريكية؛ و شارك مع بطرس البستاني في تأسيس جمعية الآداب والعلوم"عام ١٨٤٧. انظر: برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٣.

(٣) **بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٢)**: عربي مسيحي من قرية لبنانية، تلقى تعليماً حسناً وتعلم لغات مختلفة إلى جانب العربية، أسس المدرسة الوطنية عام ١٨٦٣، وألف ما يلزم من الكتب المدرسية، ونشر محيط المحيط وهو قاموس للفيروز أبادي، أصدر مجلة الجنان التي دعت إلى وحدة الوطن العثماني التي كان جو السبعينات عابقاً بأفكارها ، ومع ذلك فإنها تضمنت اعتزازاً بالوطن المحلي (فالإمبرطورية العثمانية هي وطننا، لكن بلادنا هي سوريا)، وكان مقتنعاً بعروبة جميع الناطقين بالضاد من مسيحيين ومسلمين. انظر: أنطونيوس، مرجع سابق، ص٤٠. منسى، مرجع سابق، ص٩٥.

(٤) **إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦)**: هو إبراهيم ناصيف اليازجي عالم بالأدب واللغة، أصله من حمص، وهاجر أجداده إلى لبنان، وُلد ونشأ في بيروت وقرأ الأدب على أبيه، وتولى تحرير جريدة النجاح سنة ١٨٧٢، وتعلم العبرية والسريانية والفرنسية، أصدر عام ١٨٨٤ مجلة الطبيب وألف كتاب "نجمة الرائد في المترادف والمتوارد" وله ديوان شعر ومعجم في اللغة، كما أصدر مجلة البيان في مصر ثم مجلة الضياء، وكان قد بدأ منذ عام ١٨٦٨ في نظم قصائده الوطنية والحماسية وراح ينشدها أمام رفاقه في الجمعية العلمية السورية. انظر: أنطونيوس، مرجع سابق، ص٤٩. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٨-١٣٩.

عاطفة بسيطة متمثلة بالدفاع الوطني ضد المحتل الأجنبي، تحولت في هذه المرحلة، ولاسيما بعد الثورة الفرنسية، إلى مذهب فكري وعقائدي ضمن المبادئ الأساسية في السياسة الأوروبية[١].

وفي دراسة أخرى يرى الباحث نفسه أن الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٩٨ والثورات التي اعقبتها وكانت تطالب بالحرية والوحدة القومية وبناء الدولة على أسس حديثة، كان لها الأثر البعيد في حياة الشعوب في أوروبا وخارجها، مثل شعوب الإمبراطورية العثمانية ولاسيما البلاد العربية. إذ كانت للحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (١٧٩٩-١٨٠٢)، وهي حادثة من حوادث وتداعيات الثورة الفرنسية الأثر العميق في يقظة مصر ومن بعدها البلاد العربية[٢].

وكان صدى أعوام ١٨٣٠، ١٨٤٨، ١٨٧٠ في أوروبا قد انتقل إلى الشرق، وبلاد الشام، فظهرت مفاهيم جديدة لدى المثقفين مثل القومية، والثورة وغيرها، فمثلاً تم تسمية انتفاضات الشعوب ضد الظلم والاستبداد بالثورة بدلاً من الفتنة كما كانت تسميها العرب، كما ظهرت النزعة الدستورية لدى الأحرار ممن تشربوا بثقافة الغرب، أمثال فرنسيس مراش[٣]، وأديب إسحاق، وعبدالله النديم، وشبلي شميل[٤]، ورزق الله حسون[٥]، في بلاد الشام، وغيرهم من أبناء المشرق العربي الذين دعوا إلى الأخذ بمبادئ الحرية وأساليب الحكم الدستورية لأن السيادة والسلطة هي حق للشعوب وليس للهيئات الحاكمة. وحاول بعض الأدباء والكتاب العرب أن يحذو حذو أدباء

---

[١] حاطوم، نور الدين، تاريخ الحركات القومية في أوربة – يقظة القومية في أوربة، دار الفكر، دمشق، ط١، ج٢، ١٩٩٦، ص٧-٨.

[٢] نور الدين حاطوم، يقظة القومية العربية، المطبعة الفنية الحديثة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، د.ط، ١٩٨٦، ص١٠٣.

[٣] **فرنسيس مراش (١٨٣٦-١٨٧٤)**: وُلد في حلب وسافر مع أبيه إلى أوروبا، ثم عاد إلى حلب وانتقل إلى بيروت واهتم بالأدب والعلوم، ودرس الطب، ثم سافر إلى باريس لنيل الإجازة فيه، لكنه لم يفلح بسبب بعض الظروف الخاصة، نظم الشعر دون مراعاة قواعد النحو والعروض، فظهرت على أشعاره الركاكة. انظر: مردم بك، مرجع سابق، ص٢٣٩-٢٤٠.

[٤] **شبلي شميل (١٨٦٠-١٩١٧)**: طبيب لبناني من كفر شيما له "الأهوية والمياه والبلدان لأبي الطب أبقراط الحكيم" و"رسالة الحقيقة" في محاولة "لإثبات" مذهب داروين، وهو أول من عرّف هذا المذهب إلى العالم العربي. المنجد، مرجع سابق، ص٣٩٢.

[٥] **رزق الله حسون (١٨٢٥-١٨٨٠)**: كان رزق الله حسون- الحلبي الأصل- رجلاً سياسياً، وكاتباً مثقفاً، أنشأ أول جريدة عربية في الاستانة أسماها مرآة الأحوال عام ١٨٥٥، وكانت لهجتها شديدة في انتقاد الحكومة العثمانية، حُكم عليه بالإعدام وفر إلى روسيا ثم إلى بريطانيا، حيث عاد للعمل في الصحافة وأصدر أول جريدة عربية في بريطانيا وهي آل سام، ثم أعاد إصدار جريدته مرآة الأحوال. انظر: برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٣.

فرنسا في القرن الثامن عشر، كجان جاك روسو[1]، وفولتير[2]، ومونتسكيو، لرسم معالم المبادئ الفلسفية للتطور الاجتماعي- السياسي لمجتمعاتهم، مثل أديب إسحاق، وفرنسيس مراش[3]. وكانت لطلائع النخبة التي احتضنت النهضة الفكرية في المشرق العربي، منذ أواخر القرن الثامن عشر وبشرت بها، الدور الأكبر في تلمس طريق النهضة العربية عبر ضباب كثيف من المعتقدات والتقاليد[4]. وحمل الرعيل الأول من مفكري البرجوازية الناشئة ملامح أفكار النهضة- الوطنية، وكانت أولى مظاهرها الاهتمام المتزايد باللغة والثقافة والتاريخ العربي، وكان ذلك في العقد السادس من القرن التاسع عشر، عندما بدأ المثقف العربي يدرك الخصوصية العربية، واختلافها عن عالم الأتراك[5]، وعليه فإن الظهور الأول للحركة القومية لم يكن فجائياً، بل سبقته ورافقته حركة فكرية اجتماعية مهدت لها، فقد شهد القرن التاسع عشر رواداً من المفكرين والأدباء الأوائل، مسيحيين ومسلمين، في سورية ولبنان ومصر، عملوا على التنظير الفكري للنهضة القومية [6].

ولم يكن ولاء العرب للعثمانيين كغيرهم من القوميات في المنطقة التي كانت ترزح تحت الحكم العثماني، إلا استجابة للعاطفة الدينية، غير أن كراهية الأتراك ما لبثت أن وجدت لها مكاناً في النفوس[7]، فقد ورد في رسالة لقنصل بريطانيا العام في حلب بتاريخ ٣١ تموز ١٨٥٨ أنباء عن حدوث بعض الغضب، بعد ورود الأنباء عن ثورة جزيرة كريت، ومذبحة جدة التي قتل فيها القنصلان الفرنسي والبريطاني، وأشار أيضاً إلى كره العنصر العربي للضباط الأتراك؛ لأنهم يعدونهم من خوارج المسلمين وأعداء لوطنهم، وأن المسلمين في هذه الجهة من البلاد السورية يعللون الآمال بالانفصال عن جسم السلطنة العثمانية وتأليف دولة عربية جديدة تحت سيادة شرفاء مكة[8]. وفي الحقيقة إن فكرة التمايز بين العرب والأتراك كانت قائمة في نفوس العرب منذ

---

[1] **جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨)**: كاتب فرنسي وُلد في جنيف، له تآليف فلسفية واجتماعية أهمها "العقد الاجتماعي"، وكان لمبادئه دور في نشأة الثورة الفرنسية. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٣١٢-٣١٣.

[2] **فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨)**: وُلد في باريس وأقام في بروسيا وسويسرا، تزعم حركة الفلسفة المادية، وقاوم رجال السلطة الدينية والزمنية، وانتقدهم بقلمه الرشيق وكلامه اللاذع، كتب في التاريخ، والشعر، والمسرح، والفلسفة، وأشهر مؤلفاته "المحاورات الفلسفية". المنجد، مرجع سابق، ص٥٣٣.

[3] برو، العرب والترك، مرجع سابق، ص٣٨-٣٩.

[4] الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص٢٢٢- ٢٢٣.

[5] كوتلوف، مرجع سابق، ص٣٨٨-٣٨٩.

[6] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق ، ص١٥٥ .

[7] منسى، مرجع سابق، ص٥٩.

[8] الخازن، المحررات السياسية، ج١، ص٣٢٥-٣٢٦.

أمد بعيد، وهوشيء واضح في كتابات بعض مؤرخي العصر العثماني الأول من أمثال نجم الدين الغزي، والبوريني[١]، والخفاجي[٢]، والمحبي[٣]، ولكنها لم تترجم إلى عمل ميداني- سياسي[٤].

ومع أن بعض الأسر العربية المسلمة أدت أدواراً مهمة في السياسة الداخلية- الإدارية إلا أنها لم تشترك مباشرة في حكم الإمبراطورية العثمانية، واقتصرت علاقاتها فقط على الهيئة الدينية المعادية لأفكار الإصلاح؛ لذا فإنها كانت بمنأى عن الهزات الفكرية والاجتماعية في أوروبا[٥].

وكان المسيحيون في بلاد الشام، ولاسيما في لبنان، أوائل من باشروا العمل في المجال السياسي والدعوة إلى القومية العربية في القرن التاسع عشر في بلاد الشام، فقد أبدوا اهتماماً أكثر من المسلمين بخلق مجتمع مبني على أسس دنيوية[٦]، وكان هذا لعدة عوامل منها: ارتباط أبناء العائلات المسيحية بالعمليات التجارية، ونشأتهم في جو من اللانتماء السياسي للمدن التجارية في بلاد الشام، وهوماعزره عدم شعورهم بالشراكة التقليدية مع الدولة العثمانية بفعل تسلط العثمانيين عليهم، فهذا الأمر سَّهل عليهم استيعاب فكرة التمايز القومي مع العثمانيين الأتراك[٧]. وكان التعليم في مدارس الإرساليات، التي انصرفت إلى إحياء اللغة العربية وآدابها منذ القرن الثامن عشر قد فعل فعله بدليل أن نسبة الأمية في بيروت وجبل لبنان كانت أقل من

---

[١] **الحسن بن محمد البوريني (١٥٥٦-١٦١٥):** مؤرخ وشاعر، قضى قسماً من حياته في التدريس، له "تراجم الأعيان من أبناء الزمان" و" شرح ديوان الفارض". انظر: المنجد، مرجع سابق، ص١٥٠.

[٢] **شهاب الدين أحمد الخفاجي (١٥٧١-١٦٥٩):** فقيه حنفي غلبت عليه العلوم اللسانية، ولدُ وتوفي في مصر، أخذ عن كثير من علماء الدين، ودرس الرياضيات في إسطنبول، ولي القضاء في الكثير من الأمصار، له "عناية القاضي" و"ريحانة الألباء". انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٢٧١.

[٣] **المحبي:** أسرة دمشقية أنجبت أدباء كبار منهم: **محب الدين الفضل (١٥٤٢-١٦٠٨):** وُلد في حماه وتعلم في حلب وحمص وسافر إلى الأستانة، له" الرحلة" و"هادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية". **وفضل الله بن محب الله (١٧٢١-١٦٧١):** وُلد في دمشق وتوفي فيها، سافر إلى الأستانة وتولى التعليم والقضاء، نشر" تراجم الأعيان من أبناء الزمان" للبوريني. **ومحمد الأمين بن فضل الله (١٦٥١-١٦٩٩):** مؤرخ وُلد في دمشق وتوفي فيها، له تاريخ شهير بعنوان: "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر". انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٦٣٦.

[٤] الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص٢٢٨- ٢٢٩.

[٥] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، مرجع سابق، ص٧٥.

[٦] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٥١. الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص٢٤. لقد كانت الصلات بين لبنان والغرب قديمة، مما جعلها ممراً تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الآسيوية في الإمبراطورية العثمانية، وجعلها، بطبيعة الحال، أولى المتأثرين بالحضارة الغربية، لاسيما المسيحيين منهم. انظر: زين، زين نور الدين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، دار النهار، بيروت، ط٤، ١٩٨٦، ص٤٧.

[٧] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٥١.

أي مكان آخر في الإمبراطورية العثمانية[١]. كما كان شعور المسيحيين بظلم الدولة العثمانية الذي حدث في وقت أبكر من شعور المسلمين به، سواء بفعل حركة التعليم وانتشارها وازدياد الوعي الثقافي والفكري أم بسبب وعيهم للتاريخ العربي واعتزازهم بالدور الذي لعبوه فيه، وفي بناء الحضارة العربية الإسلامية وما قبل الإسلامية[٢]. وهناك شيء تم ذكره فيما مضى؛ إذ كان لمعاملة الدولة العثمانية معاملة مختلفة عن معاملتها للمسلمين أثر سيء في نفوسهم، فهذا الأمر جعلهم ينفرون منها، ولا يشعرون بأي رابطة تربطهم بها، فهم لم يكونوا يعدون الدولة دولتهم كما يعدها المسلمون، وهذا ما طوّر اتصالهم بالغرب وبالإرساليات الدينية الأجنبية وتأثرهم بها[٣]، وهو ما أحدث شرخاً في العلاقات الاجتماعية– السياسية في بلاد الشام، وزاد من اتساع الهوة بين المسلمين والمسيحيين[٤]، ومهد الطريق أمام نزاعات طائفية مريرة التي انطلقت من جبل لبنان، ولاسيما بعد زوال إطار الوحدة السياسية، وتزايد حدة التدخل الأوروبي، ومحاولات فرض الحكم العثماني المباشر على لبنان، وعودة أعيان الدروز الذين أبعدهم بشير الثاني أثناء مدة حكمه[٥].

فمع أن حركة التنظيمات العثمانية قد أعلنت المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، إلا أن الحكومة العثمانية لم تطبق هذه المساواة تطبيقاً دقيقاً، ولا سيما في الولايات الشامية، مما أدى إلى توجه العناصر غير المسلمة إلى التأثر بالنشاط الأوروبي في مجال السياسة والثقافة والدين، بل وصل بها الأمر إلى طلب الحماية من الدول الأوروبية[٦] التي كانت تشجع عمل البعثات التبشيرية ضمن منظومة معقدة من المصالح، وعملية البحث عن مرتكزات للنفوذ، مما زاد في التدخل الأوروبي في البلاد العربية ولاسيما بعد تحول دولها إلى دول صناعية استعمارية تتنافس للحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ[٧]. وكانت اضطرابات عام ١٨٦٠ تستحق أن تعدَّ الحدث الحاسم في القرن التاسع عشر، فقد نبهت أفكار الناس إلى الشرور التي تنشأ عن التعصب الطائفي الذي يغذيه الجهل والدسائس العثمانية والأوروبية[٨]. فهذه الأمور هي التي جعلت المسحيين أكثر إلحاحاً على تحول الامبراطورية العثمانية، ولكنها بالوقت نفسه نبهت

---

[١] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨–١٩٣٩، مرجع سابق، ص١٢٢.

[٢] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٥١–١٥٢.

[٣] الحصري، مرجع سابق، ص١٧٧–١٧٨

[٤] منسى، مرجع سابق، ص٦٠.

[٥] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨–١٩٣٩، مرجع سابق، ص٨٤–٨٥.

[٦] منسى، مرجع سابق، ص٥٩–٦١. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢١٥.

[٧] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٢٠–٤٢١.

[٨] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٥١– ١٥٣.

المسيحيين إلى ضرورة الفصل بين الدين والسياسة[١]، ودفعتهم إلى الخروج عن السلطات الإكليركية لكي تبحث عن روابط أخرى تربطهم بالمسلمين[٢]، كما أنها دفعت جماعة من المفكرين الشباب بالشروع في الدعوة إلى تحرير وطنهم من الحكم التركي[٣]. بينما يرى أحد الباحثين أن المعنى السياسي للشخصية العربية أصبح أكثر نضجاً وواقعية، عندما بدأ المسلمون برفض العلاقة التي تربطهم بأبناء دينهم الأتراك، ورفض المسيحيون العلاقة نفسها مع الأوروبيين، وجمعتهم؛ أي المسلمون والمسيحيون، كراهيتهم للسلطة العثمانية[٤]، وذلك بفعل المؤثرات الغربية، وانتشار التعليم الغربي، وتسرب الأفكار السياسية الغربية التقدمية[٥]. فقد تمت الإشارة في تقرير القنصل البريطاني في حلب عام ١٨٥٨ – الذي سبق ذكره– إلى "حركة ما" بين سكان شمال بلاد الشام تتطلع إلى الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية وتشكيل دولة عربية بزعامة شريف مكة ما يعزز هذا الرأي، وكذلك كانت حركة أحمد الصلح السابقة الذكر خطوة في الاتجاه نفسه؛ إذ كانت تهدف إلى استقلال بلاد الشام إذا ما سقطت الدولة العثمانية أثناء الحرب العثمانية– الروسية (١٨٧٧–١٨٧٨)، لتجنّب وقوعها تحت احتلال وسيطرة القوى الأوروبية[٦]، إضافة إلى إلى تقارير أخرى للقنصل البريطاني في القدس بين عامي (١٨٥٤–١٨٥٨) ضمن الرسائل التي بعثها إلى سفير بلاده في الأستانة يؤكد فيها أن بعض العرب لا يحترمون الأتراك ويرونهم غزاة ومغتصبين للخلافة الإسلامية[٧].

وشهد القرن التاسع عشر عدداً من رواد الأدب والفكر الذين حملوا لواء النهضة الأدبية والفكرية، وبرز منهم ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني اللذين أسهما– بعد تأثرهما بالجمعيات الاستشراقية الأوروبية[٨]– في تأسيس أول جمعية فكرية وهي جمعية الفنون والعلوم[١] في عام

---

[١] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨–١٩٣٩، مرجع سابق، ص١٢٤.

[٢] شتيبات، فريتز، تغلغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن التاسع عشر– اسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد لشام، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦–١٩٣٩م، جامعة دمشق . كلية الآداب، دمشق، د.ط، ١٩٧٨، ج٢، ص٦٠٧.

[٣] أنطونيوس، مرجع سابق ، ص١٢٥–١٢٧.

[٤] كوتلوف، مرجع سابق، ص٣٨٨.

[٥] منسى، مرجع سابق، ص٥٩.

[٦] شتيبات، مرجع سابق، ج٢، ص٦١١. ويورد الطيباوي نص التقرير المترجم عن الوثيقة الأصلية من دار الوثائق في لندن. انظر: الطيباوي، مرجع سابق، ص٧٨٤.

[٧] محافظة، علي، التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة (١٨٥٠–١٩٢٥)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦–١٩٣٩م، جامعة دمشق . كلية الآداب، دمشق، د.ط، ١٩٧٨، ج٢، ٢٩٣.

[٨] انظر: البحث، ص٢٩٧.

١٨٤٧، فهي التي لم يدخلها أحد من المسلمين، ثم أنشئت جمعية أخرى على غرارها هي الجمعية العلمية السورية[٢] عام ١٨٥٧ التي ضمت عدداً من المسلمين، ولم يكن بينهم أجانب كما في الجمعية السابقة، ومع الحوادث المؤسفة عام ١٨٦٠ التي أدت إلى وقف نشاط هذه الجمعية لمدة من الزمن، فقد أعيد تكوينها مرة أخرى، وتم تفعيلها على نطاق أوسع وأصبحت مهداً للحركة السياسية[٣]، فقد شكل ظهور هذه الجمعيات عملية للانتقال من مرحلة النهضة الفكرية إلى المجال السياسي والعمل الميداني، وذلك عن طريق اللقاءات والاجتماعات السرية، والتواصل فيما بين المفكرين لتبادل الآراء، ومناقشة الوسائل والسبل لمناهضة الاستبداد التركي (العثماني)[٤]، ونتج عنها بعض النفوس الثائرة على الحكم التركي المتسلط على رقاب العرب، وعلى ظلم السلطان العثماني واستبداده[٥]، لذلك تعدُّ هذه الجمعية أول مظهر من مظاهر الوعي القومي عند العرب في العصر الحديث. وكان لظهور الصحافة المحلية–العربية في العقدين السادس والسابع دور حاسما في تعميم المبادئ الفكرية الوطنية الجديدة على شريحة أوسع من سكان بلاد الشام[٦]. ثم ليظهر العمل الأبرز في هذا المجال الذي شكل انتقالاً حقيقياً من النهضة الفكرية إلى العمل السياسي الميداني، عندما بدأ أول عمل منظم في حركة العرب القومية عام ١٨٧٥ ضمن برنامج ذي طابع قومي صرف، ودون أي لون طائفي[٧]، بقيام خمسة شباب من الذين تلقوا العلم في الكلية السورية البروتستانتية في بيـروت بتشكيل جمعية سرية، وكانوا جميعاً مسيحيين، إلا أنهم أدركوا ضرورة إشراك المسلمين معهم فقد دخل فيها اثنان وعشرون عضواً من طوائف مختلفة، وكانت بيروت مركز هذه المنظمة، ثم أصبح لها فروعاً في

---

[١] جمعية الفنون والعلوم: أُنشئت في بيروت عام ١٨٤٧ تحت اسم جمعية الآداب والعلوم أسسها ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، وشارك فيها أعضاء من البعثة التبشيرية البروتستانتية مثل إيلي سميث وكورنيليوس فانديك وآخرون، وانضم إليهم الكولونيل البريطاني الشهير تشرشل، بلغ عدد أعضائها خلال سنتين ما يقارب الخمسين عضواً، وكانوا جميعاً من المسيحيين. أنطونيوس، مرجع سابق، ص١١٧.

[٢] الجمعية العلمية السورية: أُنشئت عام ١٨٥٧، وبلغ عدد أعضائها (١٥٠) عضواً، اشترك فيها العرب من جميع المعتقدات، بعد أن تقدم المسلمون باقتراح للاشتراك في تأليف جمعية جديدة بعد أن كان جميع أعضاء جمعية الآداب والعلوم من المسيحيين، إلا أن الجمعية تعطلت مع حوادث عام ١٨٦٠، ثم أعيد تأليفها عام ١٨٦٨، ونالت اعتراف الحكومة العثمانية بها. أنطونيوس، مرجع سابق، ص١١٩.

[٣] منسى، مرجع سابق، ص٦٥-٦٦ .

[٤] برو، توفيق، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١٤، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩١، ص٣٨-٣٩.

[٥] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٦٥.

[٦] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، مرجع سابق، ص١٢٤.

[٧] كوتلوف، مرجع سابق، ص٣٩٨.

دمشق، وطرابلس الشام، وصيدا، وحصر أعضاؤها نشاطهم في البداية بالاجتماعات السريّة. ثم بدأت مرحلة لصق النشرات المجهولة المصدر في الشوارع في مدنٍ عدة، وكانت هذه النشرات تهاجم مساوئ الحكم التركي بشدة، وتحثّ الشعب العربي على الثورة لقلب نظام الحكم هذا[١].

لذا كان نداء جمعية بيروت السرية النداء الأول الذي بعثته حركة العرب، وهي ما تزال في طفولتها وهذا الأمر تزامن مع عدة أمور مستجدة بعضها خطير للغاية؛ إذ تزامن هذا مع ظهور دستور مدحت باشا ١٨٧٦ الذي كان يرمي إلى دمج عناصر متباينة قومياً في دولة مختلطة، بعد أن طُرح في عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) المذهب القائل إنَّ الحاكم العثماني هو خليفة المسلمين[٢]، ثم أخذت هذه الكلمة مداها بشكل كامل في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩) الذي تلقّف فكرة جمال الأفغاني حول الجامعة الإسلامية وأُعجِب بها، لاسيما أن روسيا والدول الأوروبية أخذت تهيمن على مصير الدولة العثمانية في أعقاب مؤتمر برلين عام ١٨٧٨[٣]، إلا أن الخلاف ما لبث أن ظهر بين الرجلين، فالأفغاني كان يبحث عن حاكم مسلم يجتمع حوله المسلمون في سبيل خدمة الإسلام، في حين أن السلطان كان يأمل أن يستخدم الأفغاني وأفكاره عن الجامعة الإسلامية لجمع شتات المسلمين حول عرشه[٤]. وكل هذا الأمر تزامن مع تطور جديد في الاتجاه الفكري للقومية العربية بعد تفاقم التناقضات بين الغرب الرأسمالي والشرق المُستعبَد، وهو الشيء الذي أدى إلى تزايد الميول المعادية للغرب في الفكر العربي الاجتماعي[٥]. وكان يدفع باتجاه ظاهرة فكرية جديدة؛ وهي الرغبة في قيام دولة مستقلة سياسياً، وعلى أساس قومي[٦].

---

[١] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٤٩-١٥٠. ومنها الملصقات التي يورد سليم سركيس ذكرها بأنها أُلصقت على جدران الجوامع والكنائس في دمشق. ويصرّ سركيس على دور مدحت باشا في قضية تلك الملصقات، بعد أن اكتشف سركيس عن طريق الصدفة أمر تلك الجمعيات في دمشق، في بعض الأوراق المحفوظة لدى أسرة شاب دمشقي كان من أعضاء الجمعية على ما يبدو، التي شارك فيها أصدقاء مدحت باشا المقربين. انظر: سركيس، مصدر سابق، ص١٥٥-١٥٦.

[٢] شتيبات، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠٣.

[٣] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٢٩٠.

[٤] منسى، مرجع سابق، ص٨٢-٨٣.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص٣٩٩.

[٦] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٥٦-١٥٨ .

ثانياً- في المجال الاقتصادي.

١- التجارة:

يرى أحد الباحثين أنه من الضروري ملاحظة أن انحطاط "الشرق الأوسط" ليس سببه تنامي قوة الاقتصاد الأوروبي وحده، لاسيما أن التفوق السياسي والعسكري والاقتصادي الأوروبي لم يظهر إلا أواخر القرن الثامن عشر، بل أن أسباباً داخلية ومتعددة أيضاً، مثل تسلط الحكومات الضعيفة التي تعاقبت لفترات طويلة من الزمن، والحروب الطويلة المدى كالحروب الصليبية وغزوات المغول والتتار، إضافة إلى الصراع العثماني الصفوي، وغيرها، قد أسهمت في استفحال هذا الانحطاط(١). وهذا الطرح ليس ببعيد عن آراء بعض الباحثين الآخرين الذين يرون أن عملية الاستعباد للولايات العثمانية، ومنها الولايات الشامية، بدأت مع التوسع التجاري لرؤوس الأموال الأوروبية، وكان ذلك منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر(٢). ومن جهة هناك طرح آخر يقول: إن نظام الملل الذي تحول إلى فكرة الأقليات في الفكر الأوروبي أفرز فئات مؤهلة للعمل في خدمة القنصليات الأوروبية، وعمليات التبادل التجاري الأوروبية الناشطة في الولايات العثمانية(٣). فقد أسهمت التنظيمات العثمانية والامتيازات الأجنبية، ولاسيما تلك التي وردت في اتفاقية بلطة ليمان عام ١٨٣٨ والاتفاقيات الأخرى الشبيهة بها(٤)، في تسهيل عمل هذه الفئات مع إتاحة المجال لتغلغل الرساميل الأجنبية من خلال زيادة نشاط التجارة الخارجية في كافة ولايات الدولة العثمانية، فقد دخلت بلاد الشام حيز التنفيذ بالنسبة لتلك الاتفاقيات بعد انسحاب قوات محمد علي باشا عام ١٨٤٠(٥). ساعد على ذلك موقع بلاد الشام الاستراتيجي

---

(1) Issawi, Charles, The Middle East in the World Economy: A Long Range Historical View, Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1985 p.9-10.

(٢) لوتسكي، مرجع سابق، ص١٤٦. كوتلوف، مرجع السابق، ص١٧. السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢٠.

(٣) كوثراني، وجيه، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي- من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، د.ط، ١٩٨٦، ص٤٣-٤٤.

(٤) مانتران، مرجع سابق، ج٢، ص١١٤.

(٥) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٤. كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٤٤-٤٥. السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٢٩. أمين، مرجع سابق، ص٢٧. وانظر أيضاً:

- Ma'oz, op. cit, p. 176.

والجغرافي كنقطة وصل بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، ولأنها ملتقى للطرق التجارية الرئيسية بين هذه القارات[١].

استمر عملية إقامة الاتفاقيات التجارية مع الدول الأجنبية (أوربا والعجم والهند) براً وبحراً، ومنح الامتيازات الخاصة لتجار هذه الرابطة الدولية وممثليهم ممن تتوفر فيه الشروط اللازمة، وتحديد الرسوم الجمركية بـ ٣% على البضائع الأجنبية الواردة، وحماية ورعاية مستخدمي التجار الأجانب من أجانب ومواطنين، في حين أن البضائع المصدرة من الدولة العثمانية، فعلاوة على ضريبة العشر، فقد فُرض عليها رسوماً تقدر بـ ٩% من قيمة البضائع[٢].

وكان محمد علي باشا فتح المجال واسعاً أمام المؤثرات الأوروبية وبضائعها[٣]، وذلك حسب التقارير التي قُدمت إلى الخارجية البريطانية، وتناولت إحصاءات وتفاصيل تجارية واجتماعية عن بلاد الشام، ولاسيما عن دمشق ودكاكينها التي تتعامل مع البضائع الأوروبية والمتاجرة فيها، وتشير إلى أن التجار المسلمين والمسيحيين واليهود قد شاركوا على حدٍ سواء، في المتاجرة مع أوروبا وتسويق بضائعها[٤].

وكانت الرأسمالية العالمية قد بلغت أوج تطورها في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، فقد انتقلت إلى مرحلة التمركز في الإنتاج والبنوك، وتصدير رؤوس الأموال، واقتسام العالم اقتصادياً وسياسياً، ولم تكن الولايات الشامية من الدولة العثمانية بمنأى عن نتائج التطور الرأسمالي؛ إذ أصبحت ميداناً مهماً لتصريف السلع الأجنبية، وسوقاً لتوظيف الرساميل الأجنبية، ومورداً غنياً لتصريف السلع الأجنبية[٥]. وظهرت في تلك المرحلة عددا من الشركات (البيوتات) التجارية وصل الحماس بها إلى شراء المحاصيل المحلية نقداً، وبيع السلع المصنعة بالتقسيط، واستطاعت التعرف على أذواق الزبائن لتصنيع البضائع وتصميمها حسب متطلبات أهل الشام، بالاحتكاك المباشر، أو عبر الوسطاء المحليين الذين كانت معرفتهم باللغات الأوروبية والممارسات التجارية تسهل التعامل التجاري بين التجار الأوروبيين والتجار المحليين، ولاسيما أنهم كانوا يستطيعون دخول أماكن وبلدات ومدن كان يصعب على التجار الأوروبيين الوصول اليها[٦].

---

[١] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١١.

[٢] دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥٠، الوثيقة رقم ٢٠٢، الوثيقة رقم ٣٠٦.

[٣] فقد كانت دمشق محرمة على التجار الأجانب، حتى سمح إبراهيم باشا لهم بدخولها عام ١٨٣٤، وذلك بسبب رغبة تجار دمشق بالحفاظ على تفوقهم التجاري. انظر: صياغة، مرجع سابق، ص١٥٤.

[٤] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٤-٢٤٥.

[٥] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع سابق، ص١٠. صياغة، مرجع سابق، ص١٦٩.

[٦] أوين، مرجع سابق، ص ١٢٩.

زاد من توسع التجارة الأوروبية في ولايات الدولة العثمانية اهتمام الحكومات الأوروبية بقضايا التجار والتجارة ودعمها لهم، وذلك من خلال دفع السلطات العثمانية باتجاه القيام "بإصلاحات إدارية شاملة"، أو ما يسمى بالتنظيمات العثمانية، للحصول على المزيد من الامتيازات التجارية[١]، للاستفادة من مرحلة ضعف وانحدار الدولة العثمانية، وباستغلال السياسية، مثل صراعها مع محمد علي باشا[٢]، ثم مع روسيا في حرب القرم، وأثناء ثورات البلقان في سبعينيات القرن التاسع عشر[٣].

توقفت التجارة البريطانية المباشرة مع سواحل بلاد الشام، منذ أواخر القرن الثامن عشر[٤]، ثم عادت هذه التجارة إلى الظهور في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وبدأت بالاتساع في معظم أرجاء بلاد الشام. أما التجارة الفرنسية فقد أُصيبت بنكسة كبيرة في بلاد الشام ومصر والأناضول بعد الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام[٥]، ولكنها عادت مع الحروب النابليونية فيما بعد، بشكل بطيء في البدايةً، ثم ما لبثت أن ازدادت حتى راحت بيروت والإسكندرية تنافسان التجارة الفرنسية في أزمير .أما التجارة النمساوية فيرى الباحثون صعوبة في كشفها؛ لأن السفن النمساوية كانت تحمل بضائع مشتركة لعدد من الدول الأوروبية، كما أن معظم تجارتها كانت مع سواحل الأناضول (أزمير واسطنبول)[٦].

ومع فشل الاتصال التجاري الأوروبي المباشر مبدئياً مع دمشق وحلب، فإن معظم الباحثين يرون أن المرابين والوسطاء التجاريين أصبحوا مفصلاً حقيقياً بين السوق العالمية والسوق المحلية من صناعيين وتجاريين في هذه المرحلة. وكان لهم دور مهم في إدارة العمليات التجارية بين الاقتصاد الرأسمالي في أوروبا، وما قبل الرأسمالي في الشرق مستخدمين في ذلك مواردهم الخاصة، أو ما كان يمولهم به التجار الأوروبيون[٧]. كما سعت الحكومات الأوروبية، عن طريق

---

[١] أوين، مرجع سابق، ص١٣١. صياغة، مرجع سابق، ص١٥٤-١٥٥.

[٢] أوين، مرجع سابق، ص١٣١-١٣٢.

[٣] انظر: البحث، ص١٧٩، ٢٢٣.

[٤] فقد كانت تجارة حلب والإسكندرونة ضحية المنافسة الشديدة بين شركتي الهند الشرقية الداعمة لطريق رأس الرجاء الصالح والشركة الشرقية التي تعتمد على الطرق البرية والداخلية في بلاد الشام، فبعد انهيار تجارة حلب بفعل تفوق طريق رأس الرجاء الصالح، ألغى التجار الإنكليز قنصليتهم هناك عام ١٧٩١. انظر عبدالكريم، مرجع سابق، ص٢١٠-٢١١.

[5] Tibawi, op. cit, p.103.

[٦] أوين، مرجع سابق، ص١٢٦-١٢٨.

[٧] المرجع نفسه، ص١٣٠.

الامتيازات التجارية عزل المحاكم التجارية[١] مع جزء كبير من التجار من رعايا السلطان العثماني عن السلطة المحلية، لضمان السيطرة على العلاقات التجارية بين الأوروبيين والرعايا العثمانيين[٢]. وهذا ما كان يظهر بشكل أكثر وضوحاً عن طريق الشكاوى المتكررة عبر التقارير التي أرسلها القناصل الأوروبيون إلى حكوماتهم من المحاكم التجارية المختلطة[٣].

وفي الحقيقة تفوقت حلب على دمشق من حيث الأهمية في التجارة الدولية، بعد أن تم تفضيلها كمركزٍ لتجارة الترانزيت بين إيران والشرق الأقصى من جهة، وأوروبا من جهة أخرى، عن طريق العراق والخليج العربي، أما تجارة دمشق الخارجية التي لطالما كانت مهددة بخطر القبائل البدوية[٤]، فقد انحصرت مع البلدان المجاورة مثل بغداد ومصر[٥] والحجاز والأناضول[٦]، وتميزت دمشق بتمركز وتجمع قافلة الحج الشامي التي خلقت نشاطاً تجارياً كبيراً في دمشق، حتى أن امتداد دمشق وتوسعها سار مع طريق هذه القافلة[٧]. ولم يكن هناك أيُّ وجود لقناصل أوروبيين أو ممثلين عنهم في دمشق، لمرحلة طويلة من الزمن، استمرت هذه الحالة حتى ظهور الحكم المصري في بلاد الشام (١٨٣٢-١٨٤٠)، فقد كانت التجارة الأوروبية مع دمشق وريفها تتم عن طريق وكلاء يحددهم القناصل ونواب القناصل الأوروبيين في المدن الساحلية[٨]. ويشير هنري غيز[٩] H. Guyz في منتصف القرن التاسع عشر إلى أن حلب كانت من أكبر المراكز

---

[١] وجدت محاكم تجارية في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر، على غرار محاكم محمد علي باشا التي أنشأها فيها، ولكنها تميزت عن محاكم محمد علي بأن نصف أعضائها كان يتم تعيينهم من قبل القناصل الأوروبيين، كدلالة على ازدياد نفوذ القناصل الأجانب وتدخلهم في القضايا الاقتصادية المحلية، كما أُنشئت محكمة مثيلة لها في حلب. انظر: رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٦. وانظر: السكيف، مرجع سابق، ص١٦٤-١٦٧. انظر أيضاً:

- Ma'oz, op. cit, p. 174.

[٢] أوين، مرجع سابق، ص١٣١.

[٣] الخازن، المحررات السياسية، مصدر سابق، ج١، ص٣٧٩، ٣٨٨، ٣٩٠.

[٤] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٢. الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص٣٤.

[٥] شيشلر، مرجع سابق، ص٨٢.

[٦] صياغة، مرجع سابق، ص١٣٩.

[٧] قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٤. صياغة، مرجع سابق، ص١٦٧. غرايبة، مرجع سابق، ص١٤٢.

[٨] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٢.

[٩] **هنري غيز H. Guys** : قنصل فرنسا في بيروت (١٨٢٥-١٨٣٩)، ثم حلب فطرابلس، نشر "مختصر الديانة الدرزية" متناً وترجمة عام ١٨٦٣، وألّف كتاباً في باشوية حلب، وله مذكّرات عن إقامته في لبنان. انظر: المنجد، مرجع سابق، ص٥١٢.

التجارية بلاد الشام في تلك المرحلة، وكانت بريطانيا وفرنسا وتوسكانيا تأخذ الحرير والصوف والقطن والحلي والشمع منها، وكانت تجلب إليها المنسوجات والخيطان القطنية والصباغ والأجواخ والورق والقهوة[١]. وأشار غيز إلى العدد الكبير للتجار في حلب بالنسبة لعدد سكانها، إلا أن رساميلهم كانت ضعيفة، بينما تولى الأوروبيون ووكلائهم الجانب الأكبر من التجارة الخارجية[٢].

ويشير فولني Volney في رحلته إلى بلاد الشام ومصر أواخر القرن الثامن عشر، إلى أن فرنسا كانت أكثر الدول الأوروبية في تعاملاً تجارياً مع بلاد الشام، فقد كانت تصدر إليها الأجواخ والأصباغ، والقهوة، والأواني المنزلية، والحديد، وتستورد القطن الخام أو المصنّع، وحرير جبل لبنان، والنحاس، والصوف[٣]. وفي هذا دلالة على أنه كان هناك نوع من التوازان التجاري حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم ما لبث أن ظهرت الفوارق بين بضائع أوروبا ما بعد الثورة الصناعية، وبضائع بلاد الشام الخام في أغلبيتها[٤]؛ إذ أورد القساطلي في حديثه عن تجارة دمشق، وهو ما ينطبق على تجارة بلاد الشام بأسرها، بأنها أصبحت تعاني العجز منذ منتصف القرن التاسع عشر و(**أخذت تنحط انحطاطاً سريعاً؛ لأن قوات خارجية ضادتها وتغلب على مركزها التجاري وسلبته، وأول نكبة دهمتها تسببت عن سير سفن البخار في البحار فخسرت تجارتها البرية مع الأستانة والروم إيلي وبر الأناضول..**)[٥]، كل هذا حدث بعد أن اكتفت التجارة والصناعة في بلاد الشام ذاتياً ولمدة طويلة، حتى أن الكونت دو باري Comte de Paris ، الذي زار دمشق ربيع ١٨٦٠، كان يرى أن التجارة والصناعة في بلاد الشام تعانيان من فقدان أهم عاملين في الإنتاج والعمليات التجارية وهما: رأس المال، والمنافسة، وأن رأس المال الوحيد الذي يقدمه الفلاح أو العامل في بلاد الشام عند حياكة الأقمشة الحريرية على سبيل المثال، هو الوقت الذي يُصرف دون أسف، وقد يمتد لسنوات، وهذا يعني أنها عملية إنتاجية لم تخضع لعمليات الإنتاج الحقيقية (رأس المال، والمنافسة) إضافة إلى عامل الوقت[٦]، ناهيك أن التجارة الداخلية في الدولة العثمانية- ومن ضمنها تجارة بلاد الشام- كانت تخضع لرسوم

---

[١] غرايبة، مرجع سابق، ص١٤٢. السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٧.

[٢] المرجع نفسه، ص١٤.

[٣] المرجع نفسه، ص١٧. وهو ما يشير إليه شارل العيساوي بأن تجارة الليفانت (بلاد الشام) في بدايات القرن السابع عشر كانت تشكل نصف مجموع التجارة الخارجية الفرنسية. انظر:

- Issawi, op. cit, p. 10

[٤] دو باري، دمشق ولبنان ربيع ١٨٦٠، ترجمة يوسف ضومط، مختارات- الزلقا، بيروت، د.ط، ١٩٩١، ص٦٢.

[٥] قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٤.

[٦] دو باري، مصدر سابق، ص٦٢-٦٣.

وضرائب جمركية مرتفعة، إذا ما قورنت بالتسهيلات التي حصلت عليها الدول الأوروبية في بنود ونصوص الامتيازات الأجنبية، مما أضرّ بالتجارة والبضائع المحلية وأضعف من قدرتها على منافسة البضائع الأوروبية المستوردة[١].

وهنا- بعد هذه الرؤية- يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: ما هي الآثار الجانبية على التجارة الداخلية والخارجية وعناصرها في بلاد الشام بعد توسع التجارة الأوروبية في هذه المرحلة؟.

كان الأثر الأساسي للتغلغل التجاري الأوروبي في الشرق الأوسط بشكل عام، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر متمثلاً في عدة اتجاهات، منها دخول بعض قطاعات اقتصاد المنطقة في نطاق النظام الاقتصادي العالمي، ثم ظهور تحول عام في العلاقات الاقتصادية الأساسية، مثل ظهور التعاملات النقدية، واتساع نطاق التراكم الرأسمالي، ودخول الفلاحين والحرفيين في مجال التبادل المباشر، ولو بشكل متفاوت بين منطقة وأخرى. وتمثل أيضاً في تنشيط إنتاج محاصيل نقدية بعينها على حساب التكامل الإنتاجي للمحاصيل الأخرى، مثل التركيز على القطن في مصر، والحرير والقطن في بلاد الشام، والفاكهة في الأناضول[٢].

وفي الواقع فعندما بدأت المدن الداخلية من بلاد الشام تعاني من التأثير الخانق للتجارة الأوروبية والرساميل الأجنبية، كانت مدن الساحل تحظى بمرحلة نمو وتطور ملحوظة[٣]، وكانت بيروت قد حظيت بالجانب الأعظم من التجارة الأوروبية[٤]، وسرقت الأضواء من صيدا التي كانت مركزاً للتجارة في العهود السابقة[٥]، واستطاعت أن تتخطى الموانئ القديمة من حيث أهميتها الاستراتيجية[٦]، وهذا يتضح لنا من خلال أعداد سكانها في خمسينيات وستينيات القرن

---

[١] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٤.

[٢] أوين، مرجع سابق، ص١٣٣.

[٣] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٩.

[4] Tibawi, op. cit, p.104

[٥] مطر، مصدر سابق، ص١٢٢. ويشير الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، الذي زار بلاد الشام أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى تقصير الأهالي في بيروت في بعض الواجبات الاجتماعية **(لانشغال أهل هذه المدينة بأشغالهم التجارية من الصباح إلى المساء ما بين كونه في دكان أو حاصل يبيع ويشتري، أو في المينا يستخرج بضاعته المجلوبة إليه من أوروبا أو بلاد أخرى، أو ينزلها إلى جهات ثانية لشركائه أو عملائه...)** وذلك على العكس من أهالي دمشق **(فإن كبارهم أصحاب عقارات وأملاك يتعيشون بسهولة منها، فلأجل ذلك تراهم متفرغين لملاقاة الغرباء ومؤانسة الأصدقاء...)**. انظر: القاياتي، محمد عبد الجواد، نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي، بيروت، د.ط، ١٩٨١، ص٣٣-٣٤.

[٦] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٩. أوين، مرجع سابق، ص١٤١. غرايبة، مرج سابق، ص١٤٤-١٤٥.

التاسع عشر مقارنة مع مراحل سابقة غير بعيدة[١]، كما وأصبحت بيروت مدينة مقاطعات تجارية للأوروبيين والكومبرادور والمرابين، وكان قد تأسس فيها أول فرع للبنك السلطاني (العثماني- الأوروبي) في بلاد الشام في خمسينيات القرن التاسع عشر[٢]. فمع اتساع السفن التجارية، وازدياد حمولتها كماً ونوعاً، إبان الثورة الصناعية الأوروبية، لذا ازدادت الحاجة إلى موانئ أكثر اتساعاً من الموانئ القديمة على سواحل بلاد الشام مثل الإسكندرية، وطرابلس وصيدا فتم إنشاء ميناء بيروت الذي تفوق على غيره من الموانئ في القرن التاسع عشر، ومع أن دمشق استفادت نوعاً ما من نمو هذا الميناء فقد تدفقت البضائع الأوروبية إليها، وعبرها إلى الداخل وما ورائه[٣]. وهكذا نلاحظ أن المراكز التجارية القديمة عانت من ازدهار الموانئ الكبرى وتدهورت أهميتها التجارية، فمع حلول منتصف القرن التاسع عشر، كان على تجار دمشق مثلاً أن يكملوا التعاملات التجارية من بيروت إلى جانب أن التجار الأوروبيين -ومن ارتبط معهم من التجار المحليين- تمتعوا بمزايا اقتصادية متزايدة، مثل دفع رسوم أقل على انتقال سلعهم، اضافة إلى وضعهم الممتاز في قضايا المحاكم التجارية، ولاسيما التجار المسيحيون في بيروت الذين تمتعوا بالحماية الأوروبية، في الوقت الذي تعذر على التجار المسلمين القيام بهذه الخطوة[٤].

وأدى ازدياد حجم التجارة بين أوروبا وبلاد الشام إلى كثرة الاهتمام بطرق المواصلات والطرق التجارية في بلاد الشام، ففي حين أن الدولة العثمانية كانت تتجاهل تطوير الموانئ وطرق المواصلات، فقد اهتم الأوروبيون بهذا الأمر، وذلك لنقل بضائعهم إلى الأسواق الداخلية، ثم لجلب المواد الأولية إلى الموانئ ليتم نقلها إلى أوروبا. فمثلاً كان طريق بيروت- دمشق قد تم التخطيط لإصلاحه وتوسعته، إلا أنه لم يتم البدء بالعمل فيه إلا بعد أن تبنته شركة فرنسية عام ١٨٥٧ وانتهت منه عام ١٨٦١، وقد تكرر الأمر بالنسبة لطريق حلب- إسكندرونة، وطريق القدس- يافا[٥].

كما ازداد الاهتمام بالطرق الى دمشق، ولا سيما تلك القادمة من بغداد التي كانت تخضع لسيطرة القبائل البدوية التي أَجبَرت القوافل التجارية أحياناً؛ لأن تسلك الطريق الأكثر أمنا، ومع

---

[١] زين، نشوء القومية العربية، مرجع سابق، ص٤٨. السكيف، مرجع سابق، ص٢٥٥.

[٢] شيشلر، مرجع سابق، ص٩٠. السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٩.

[٣] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٣.

[٤] شيشلر، مرجع سابق، ص٩٠-٩١. أوين، مرجع سابق، ص١٤١. للاطلاع على الإعفاءات الجمركية الممنوحة للقناصل العامون والقناصل ووكلاء القناصل، انظر: نوفل، الدستور، مصدر سابق، المجلد الثاني، ص٥٥١-٥٥٣.

[5] Ma'oz, op. cit, p.169.

طولها عبر الموصل وحلب[١]. بعد أن تم إنشاء طريق دمشق- بيروت ازداد حجم التجارة الخارجية الأوروبية، فاضطر التجار الأوروبيون، ولاسيما الفرنسيين وممثلي الشركات التي أسهمت في إنشاء هذا الطريق إلى شراء صداقة البدو- وبشكل مباشر- لتأمين سلامة البضائع ومرورها عبر البادية، وقد فشلت بريطانيا في إيجاد طريق تجاري بديل عن دمشق وبغداد بالاستفادة من الملاحة في نهري دجلة والفرات بسبب مصاعب جمة[٢]. وكان خط بيروت- دمشق الذي حقق نجاحاً ملحوظاً، قد دُشِّن في كانون الثاني ١٨٦٣[٣]، وكان ممثلو الشركة المسؤولة عن هذا الطريق قد شاركوا في الاتصال مع البدو في البادية الشامية؛ لتسهيل نقل البضائع بين بيروت وبغداد عبر دمشق، بعد أن كان لهذا الطريق دورا مهم في حياة بيروت الاقتصادية والمناطق المحيطة بها[٤].

ومن أهم الآثار الناجمة أيضاً عن تطور الرأسمال الأجنبي التجاري، اتجاه العلاقات التجارية الأساسية نحو إضعاف العلاقات التجارية الداخلية[٥]، وإضعاف تطور السوق الوطنية، وقد أسهم ذلك في إخضاع اقتصاد بلاد الشام للرأسمال الأجنبي، حسب الحاجة الأوروبية للسلع الزراعية والمواد الأولية. ومثال على ذلك فقد كان تصدير الحرير الخام بكميات متزايدة من جبل لبنان يضر- بشكلٍ أو بآخر- بالصناعة المحلية للحرير التي اضطرت في حالات كثيرة إلى استيراد الحرير الخام، من أزمير بأسعار عالية[٦]. وكان زيادة قيمة البضائع المستوردة واضحة مقابل انخفاض البضائع المصدرة في بعض مدن بلاد الشام، وهذا يدل على استمرار العجز في الميزان التجاري الذي أدى إلى استنزاف الاحتياطي المحلي والتحول إلى سيطرة الرأسمال الأوروبي[٧].

وأسهم فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ في تحويل جزء كبير من التجارة الدولية بين الشرق الأقصى وأوروبا عن بلاد الشام، ناهيك عن نقل الحجاج عن طريق القناة إلى الحجاز، ولاسيما

---

[١] شيشلر، مرجع سابق، ص٨٩-٩٠.

[٢] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٧.

[٣] انظر: البحث، ص٢١٤.

[٤] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٨.

[٥] ويضاف إلى ذلك معاناتها من الفوضى الجمركية الداخلية، كما حدث مع تجار القدس ونابلس على سبيل المثال، فقد طُلب منهم دفع رسوم جمركية في دمشق بعد دفعهم لها من أماكن إخراجها، حتى تدخل مجلس الولاية وقضى بعدم دفعها مرة أخرى. انظر: دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ٦٦، والوثيقة رقم ٩٢.

[٦] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٩.

[٧] شيشلر، مرجع سابق، ص٨١،٨٦-٨٧. صياغة، مرجع سابق، ص١٣٧.

حجاج الأناضول والبلقان، بعد أن أثقلت البضائع الأجنبية كاهل البضاعة الدمشقية، والشامية بشكل عام(١).

كل هذا أدى إلى تغييرات مهمة في الحياة الاقتصادية لبلاد الشام، إذ تحولت المدن من مراكز للإنتاج الحرفي، والتجارة الداخلية إلى مراكز لخدمة التجارة الخارجية مع أوروبا، فقد أصبحت سوقاً لتصريف البضائع الأوروبية، ولبيع المنتوجات الزراعية المحلية كمواد خام للأوروبيين(٢).

٢- الصناعة :

أفضت سياسة الإصلاحات إلى توطيد السلطة المركزية في الدولة العثمانية، فخلقت ظروفاً ملائمة لسريان أحكام الامتيازات والمعاهدات غير المتكافئة مع الدول الأوروبية، وكل ذلك أسهم في قوة التوسع الاقتصادي والسياسي للرأسمال الأجنبي في أراضيها(٣). وقبل ذلك، كانت بريطانيا قد توصلت مع الطرف العثماني إلى توقيع معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨، ولحقت بها بقية الدول الأوروبية بمعاهدات شبيهة(٤)، هذه المعاهدات سمحت بالحفاظ على التعرفة الجمركية المقدرة بـ (٥%) على البضائع الأوروبية مقابل (١٢%) كتعرفة مفروضة على المنتجات العثمانية التي يتم بيعها للتجار الأوروبيين(٥)، وذلك لقاء اتفاق- غير معلن- بقيام القوى العظمى الأوروبية بحملة دولية شرسة لإجبار محمد علي على الخروج من بلاد الشام؛ لأنه قد يعيق تطبيق الامتيازات الجديدة في الولايات الشامية(٦). وهكذا تكامل نشاط الغرب الرأسمالي مع بسط نفوذ السلطات العثمانية، لخلق الظروف الملائمة حتى تضيق الخناق على المشاريع المحلية في الولايات العثمانية(٧).

---

(١) قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٤. رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٠.

(٢) كوتلوف، مرجع سابق، ص١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٤) كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٤٤-٤٥.

(٥) شيشلر، مرجع سابق، ص٨١. يظهر بعض التباين في نسبة التعرفة الجمركية عند بعض الباحثين. انظر: السكيف، مرجع سابق، ص١٥٩-١٦٠. في حين أن يوسف بك آصاف يوردها في ترجمة معاهدة بلطه ليمان على أنها ٣%، و٢% على البضائع الأجنبية الواردة إلى الدولة العثمانية (المدفوعة الرسوم). انظر: آصاف، مصدر سابق، ص٩٨-٩٩. وانظر: الملاحق، الوثيقة رقم ١٤، ص٣٤٢-٣٤٣.

(٦) أوين، مرجع سابق، ص١٣٢.

(٧) كوتلوف، مرجع سابق، ص ٣٩.

واستفاد التجار الأجانب من الضرائب الجمركية المتدنية، فتدفقت البضائع الأوروبية إلى المنطقة، ولاسيما أن الثورة الصناعية الأوروبية كانت في أوجها، وكانت صناعة النسيج أضخم مجالات تلك الثورة[١]، فاكتسح النسيج الأوروبي العالم بأسعار رخيصة، وبجودة عالية، ولم تتمكن المنتجات الحرفية المحلية من منافسة أسعار وجودة البضائع الأوروبية[٢]، وهذا بدوره دفع بالمراقبين الاقتصاديين الأوروبيين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر بالتنبؤ "مبتهجين" بالاندثار الكامل لصناعة النسيج في "الشرق الأوسط"[٣].

وكانت بلاد الشام تعاني من ضعف جهازها الوطني في الصناعة. فالذين مارسوا الصناعة لم يشكلوا سوى ١٠-١٥% من السكان، وكان أغلبهم ممن عمل في التجارة، كما أن الصناعة التي قامت على أساس إنتاج حرفي اعتمدت على رساميل ضعيفة، وأدوات بسيطة، وتقسيم بدائي للعمل، وإنتاج ضعيف[٤]، وهذا ما يذهب إليه صاحب كتاب "نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية" عام ١٨٨٣ عند الإشارة إلى تأخر أغلب الصنائع والفنون عما هي عليها في أوروبا وأمريكا، بعد أن فقدت الشيء الكثير من رونقها بالنسبة لعهودها السابقة[٥]، إلى جانب تحملها أعباء قاسية من الرسوم والضرائب، فكان من الصعب جداً مقاومة تدفق البضائع الصناعية الأجنبية التي استطاعت أن تهزمها في أسواقها، وكادت تنهيها، لولا رخص اليد العاملة ورخص المواد الأولية[٦].

ويقدم كتاب "قاموس الصناعات الشامية" صورة عن المزايا التقليدية للإنتاج الحرفي[٧]، في خطوة لم يسبقه إليها أحد، ويدرس وضع الحرف الدمشقية في سنوات تأليفه. كما أنه يصحح

---

[١] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٣. وانظر أيضاً:
- Issawi, op. cit, p. 11.

[٢] غرايبة، مرجع سابق، ص١٤٦. يقول شاهين مكاريوس: **(كانت مصنوعات بلاد الشام كسائر صنائع المشرق تصنع باليد ولم تدخل المعامل الكبرى والآلات البخارية فيها... وكان أشهر تلك الصناعات، الصناعات النسيجية، فقد اشتهر لبنان بتربية دود الحرير وحصلت الكثير من العائلات على معاشها منها..).** انظر: مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص١٠-١١. وانظر:
- Ma'oz, op. cit, p. 179.

[٣] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، المرجع. السابق، ص٢٥٣. أوين، مرجع سابق، ص١٣٤.

[٤] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٦.

[٥] قدسي، الياس عبده، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية، دار الحمراء، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص٨-٩.

[٦] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٦.

[٧] أدرك بعض الادباء في بلاد الشام تقهقر الثروة الوطنية من خلال ما آلت إليه الحرف في بلاد الشام (دمشق- نموذجاً) تحت ضغط الصناعة الأوروبية، فقد قدم الأديب الدمشقي محمد سعيد القاسمي كتاب "قاموس

بعض الأخطاء التي وقعت عمداً أو من دون عمد على لسان بعض الباحثين من دبلوماسيين ورحالة وزوّار عن أعداد الحرف التي انقرضت من بلاد الشام، وما تبقى منها في القرن التاسع عشر[١]. فمع اعتماده أطراً فضفاضة لمفهوم الصناعة، وتجاهله للصناعات الشامية خارج دمشق[٢] مثل بناء السفن، وصناعة الملح، وصيد السمك، وتحضير نترات البوتاسيوم، ومسحوق البارود، وأحجار الطواحين، وسبك المعادن، والتعدين وغيرها من المهن المنتشرة في المدن والمناطق الأخرى من بلاد الشام، فإنه يحصي (١٨٧) مهنة في مجال الإنتاج وحده و(٧٩) مهنة في التجارة[٣]، فالكونت دو باري Comte de Paris ، ونقلاً عن بازيلي، يورد أن عدد الحرف المتداولة في بلاد الشام **(لم يبقى منها سوى خمسين حرفة)**[٤].

إذاً ماهي الآثار المحتملة الناجمة عن تغلغل البضائع الأوروبية والرأسمال الأجنبي الاحتكاري على الصناعة الشامية ؟

مع أن بعض الدراسات لا تعوّل على التقارير التي تشير إلى تراجع صناعة النسيج وغيرها من الصناعات في بلاد الشام أمام استيراد المنسوجات وبقية البضائع الأوروبية[٥]، وتصفها بـ "المبالغ فيها"[٦]، وتذهب إلى أن الصناعات الشامية أبدت مقاومة ملحوظة بالبحث عن بدائل

الصناعة الشامية" الذي بدأ به منذ عام ١٨٩٠ وأكمله ولده جمال الدين القاسمي وصهره خليل العظم حتى عام ١٩١٠، وهو عمل فريد من نوعه في المصادر العربية حتى ذلك الوقت، وهو مصدر غني لدراسة قضايا الإنتاج الحرفي. انظر: سميليا نسكايا، إيرينا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ترجمة يوسف عطاالله، الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص١٨٤. فقد جاء على لسان المؤلف: **(أما بعد فهذه نبذة عجيبة، ونخبة غريبة، ما سنح فكر بمثلها، ولا سمح عصر بشكلها، سميتها: "بدائع الغرف في الصناعات والحرف")**. انظر: القاسمي، محمد سعيد، والقاسمي، جمال الدين، والعظم، خليل، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٨، القسم الأول، ص٤.

[١] سميليا نسكايا، مرجع سابق، ص١٨٤

[٢] السباعي، بدر الدين، أضواء على قاموس الصناعات الشامية، دار الجماهير، د.ن، د.ط، د.ت، ص١٢. يرى السباعي ضرورة البحث واجراء بعض التحقيقات من حيث الشكل (ص٢٢-٢٨٩)، ومن حيث الموضوع (ص٢٩-٤٤) على عدد الصناعات التي اعتمدها مؤلفو كتاب قاموس الصناعات الشامية، لتحقيق الدراسة العلمية. انظر: المرجع نفسه، ص٢٢-٤٤.

[٣] سميليا نسكايا، مرجع سابق، ص١٨٤، ١٩٨.

[٤] دو باري، مصدر سابق، ص٦٤.

[٥] سميليا نسكايا، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[٦] لقد كشف الباحث الفرنسي دومينيك شيفالييه D. Chevalier عن حجم الإفراط والمبالغة في تقدير المراقبين الاقتصاديين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر عن اندثار كامل لصناعة النسيج في "الشرق الأوسط". انظر: أوين، مرجع سابق، ص١٣٤-١٣٥.

ووسائل تدافع بها عن نفسها ضد المنافسة الأوروبية[١]، إلا أن العديد من الباحثين الآخرين يرون أن السياسة الأوروبية بدءاً من اتفاقية بلطة ليمان التجارية ١٨٣٨، قطعت الطريق مسبقاً على أي محاولة محتملة لبناء صناعة محلية في بلاد الشام. فعلى سبيل المثال، تراجع في بلاد الشام إنتاج المنسوجات القطنية والحريرية في حلب من (١٠٠) مليون قرش إلى أقل من (٨) ملايين، كما حدث استنزاف كبير للنقد المعدني من الذهب والفضة نتيجة الخلل والعجز في الميزان التجاري لضعف قيمة الصادرات أمام قيمة الواردات بشكل كبير[٢]، فقد كانت الصادرات الشامية عبارة عن مواد أولية، بيما كانت الواردات من المواد الصناعية والبضائع الكمالية للأغنياء، والمرفقة بتسهيلات جمركية، مما أرهق التوازن النقدي، وأدى إلى أضرار كبيرة في منتجات بلاد الشام، وأبقى مستوى اقتصادها ضعيفاً، وكان ذلك سبب مهم في انخفاض مستوى المعيشة والتطور الاجتماعي في بلاد الشام[٣]. ويرى الكونت دو باري خلال وجوده في بلاد الشام عام ١٨٦٠ أن أوروبا زودت الشرق بسلع على حساب الصناعات المحلية التي "انهزمت" في أسواقها وأخذت بالانهيار، كما أنه يعيد الأسباب إلى السيطرة العثمانية على بلاد الشام، وانحطاط الدولة العثمانية سياسياً ومادياً ومعنوياً[٤]. وفي ذلك يرى القساطلي أن أشد نكبات صنائع دمشق هي انتشار البضائع "الإفرنجية"[٥].

وهكذا ظهرت آثار واضحة وكثيرة لهذا التغلغل، فمع تأثيره في البنية الاجتماعية التي قاومت المتغيرات الكبيرة لعدة قرون[٦]، التي ستتم مناقشتها لاحقاً، أسهم الرأسمال الاحتكاري الأوروبي في خنق مجالات الإنتاج الصناعي في الولايات العربية من الدولة العثمانية، كي لا تستطيع منافسة الصناعات الأوروبية، وذلك عبر تشجيع ودعم عمل المؤسسات التي تصنع الخامات الزراعية المعدة للتصدير، والمؤسسات التي تقوم بخدمة وصيانة وسائل المواصلات

---

[١] أوين، مرجع سابق، ص١٣٥.

[٢] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٤٥-٤٦. رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٥-٢٥٦.

[٣] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٨. وقد نشر هذه الجزئية من كتابه كمقالة في مجلة المقتطف، السنة الثالثة، ١٨٧٨، ص١٢٦-١٢٧.

[٤] دو باري، مصدر سابق، ص٦٤-٦٦.

[٥] قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٣.

[٦] وهو ما يقدّمه إلياس قدسي في كتاب "نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية" الذي رأى أن تخلف الصناعة المحلية عن الصناعة الأوروبية هو من حيث التقنية فقط، في حين أنها حافظت على مقوماتها الدينية والأخلاقية وتنظيمها الاجتماعي، لمدة أخرى من الزمن. انظر: قدسي، مصدر سابق، ص٨-٩،١١-٢٠. وانظر أيضاً: سميليا نسكايا، إيرينا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ترجمة يوسف عطاالله، الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص١٨٤.

والآلات الزراعية. في حين لم يوظف الرأسمال الأجنبي في الصناعات الحقيقة في الولايات الشامية، إلا بحجم ضئيل جداً وبشكل احتكاري، تركز بمجملة في صناعة الحرير (حل الشرانق، وإنتاج الخيوط الحريرية فقط)، إضافة إلى تجهيزات المطاحن والمعامل لصنع الدقيق واستخراج الزيوت، ثم توسع الرأسمال الأجنبي الاحتكاري حتى وصل إلى قطاعات مختلفة مثل الخدمات العامة كالنقل والمواصلات[١]. وكان لهذا التوسع تأثير حاسم في التطور الاقتصادي لبلاد الشام، فقد تحولت مناطقها إلى مصدرٍ للخامات الزراعية لأجل الصناعة الأوروبية، كما أنها تحولت إلى سوقٍ واسعة حلت خلالها المنتجات الصناعية الأوروبية محل الحرف المحلية[٢].

هكذا كثرت الروابط بين بلاد الشام وأوروبا، ولا سيما في جبل لبنان الذي شكل الحرير فيه عاملاً مهماً في ربطه بفرنسا والنظام الاقتصادي الدولي. فبعد أن كان الاهتمام الأوروبي يتركز على بيروت كميناء بحري مهم، أصبح الآن يمتد نحو كل جبل لبنان بسبب الأرباح التي حققتها تجارة الحرير[٣]، فقد أدى زيادة الطلب على الحرير، ولاسيما بعد تفشي المرض في ديدان القز في أوروبا والأناضول إلى الارتفاع السريع في الأسعار الدولية للحرير، وأسهمت إقامة مصانع غزل الحرير في جبل لبنان بتحسين النوعية وزيادة الإنتاج، ولكن ذلك لم يمر دون أن يخلق المصاعب لصانعي الحرير المحليين في المناطق الأخرى من بلاد الشام[٤]. ومن آثار ذلك أن هذه الصناعة ظلت بشكل عام خاضعة بصورة شديدة للرأسمال الفرنسي والمصالح التجارية الفرنسية، فقد وفرت الشركات الفرنسية رأس مال العمل، ولا سيما أن المصانع الصغيرة والكبيرة كانت تعتمد كثيراً على القروض التي قدمتها الشركات الفرنسية "بسخاء" كبير[٥].

ومن جهة أخرى أدت المنافسة بين البضائع الأجنبية نفسها إلى تدني أسعارها، وهذا كان يضر بالمنتجات المحلية بشكل كبير[٦]، ولاسيما أن البضائع الأوروبية بحثت عن الأذواق وتلبية حاجات السكان المحليين في بلاد الشام بعد تقليد الكثير من الصناعات الشامية، الأمر الذي أدى إلى إقبال الناس عليها، وقبولهم لها، ومن ثم اقتنائهم لها بشكل أسهم في رواج البضائع الأوروبية[٧]. وليس هذا فحسب، بل كان على الحكومة العثمانية تحمّل وزر إفلاس الصناعيين المحليين والتجار بسبب ذلك؛ إذ توضح تقارير ملتزمي الضرائب في دمشق هذا الأمر، فقد جاء

---

[١] كوتلوف، مرجع سابق، ص٣٢-٣٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٣٦-٣٧.

[٣] أوين، مرجع سابق، ص٢٢٠.

[٤] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٦٢.

[٥] أوين، مرجع سابق، ص٢٢٥.

[٦] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٣.

[٧] المرجع نفسه، ص٢٥٣-٢٥٤. كوتلوف، مرجع سابق، ص٦٥.

في خطاب أحد هذه التقارير الموجهة إلى السلطات المسؤولة في دمشق بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١ هـ/ ١٤ كانون الثاني ١٨٤٥م أُقترح فيه تخفيض قيمة الضرائب بعد أن لحق بمنتجي الأقمشة المحلية وتجارها خسائر كبيرة بسبب منافسة البضائع الأوروبية، وطالب بالحد من استيراد الأقمشة الأجنبية التي أثرت على الأقمشة الوطنية نظراً للرخص "المفتعل" للأقمشة الأجنبية، الذي أضر بالعمل والعمال والبلاد وأدى إلى تقهقر الصناعة الوطنية[١]؛ إذ أحدث التغلغل الاقتصادي الأوروبي الكثير من الخلل في الحياة الاقتصادية[٢] المحلية نتيجة حالات الإفلاس وقضايا الديون وأزمات الإنتاج التي عانتها الحرف المحلية[٣].

والسؤال الآن هل حاولت الصناعات المحلية ابداء مقاومة ما؟.

حافظت في الحقيقة- مع المنافسة الشديدة للصناعات الأوروبية- بعض الصناعات الشامية على أهميتها القديمة مثل صناعة النسيج لاسيما الحرير، والصابون، والفخار، والجلود، والأحذية، والسروج، والحدادة، وغيرها من المهن التقليدية اليدوية الأخرى[٤]. غير أن رؤوس الأموال الصناعية كانت ضعيفة للغاية[٥]، ناهيك عن ثورة الأسعار التي أحدثت تأثيراً سلبياً في الإنتاج الحرفي والتجاري، ويضاف إلى ذلك الضرائب الباهظة، والتدابير الحكومية المتخذة لتأمين المواد الخام للحرفيين، والضرائب المرتفعة التي دفعها الحرفيون والتجار إلى أبناء الطبقة الحاكمة، وتغلغل الرأسمال التجاري وخروقات قواعد العمل. شكلت جميعها علامات وعوامل تفكك البنية الصناعية في بلاد الشام[٦].

ومع ذلك أبدت بعض الصناعات المحلية مقاومة أمام تدفق المنتجات والبضائع الأوروبية، مثل تجاوز العمل الفردي والمشاكل الصغيرة بتأسيس شراكة في العمل، بهدف زيادة رأس المال الموظف للتمكن من تحسين نوعية الإنتاج وطرحها بأسعار مقبولة في السوق المحلية، والحصول

---

[١] دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ١٣٤. رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٤-٢٥٥. للاطلاع على نص الوثيقة انظر: الملاحق، الوثيقة رقم ٢، ص٣٢٧-٣٣٠.

[٢] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٨-٢٦٠.

[٣] تشير العديد من الوثائق في دار الوثائق التاريخية بدمشق إلى العديد من حالات الإفلاس والتجارة الخاسرة والديون المتراكمة، التي يمكن إحالة بعض أسبابها إلى التغلغل الاقتصادي الأوروبي، ناهيك عن العوامل الداخلية من الآفات وهجوم البدو وفوضى الضرائب الجمركية، فضلاً عن كون الخسارة من طبيعة التجارة. انظر: أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، والوثيقة رقم ٤٤، والوثيقة رقم ١١٦، والوثيقة رقم ١٣١، والوثيقة رقم ١٣٤، والوثيقة رقم ١٣٥.

[٤] كوتلوف، مرجع سابق، ص٦٥. وانظر أيضاً: - Issawi, op. cit, p.10.

[٥] سميليا نسكايا، مرجع سابق، ص٥١٠.

[٦] المرجع نفسه، ص٢١٥-٢١٦.

على أرباح أكبر[١]، وفي أسلوب آخر للمقاومة حاولت الصناعات المحلية التأقلم مع المؤثرات الأجنبية، وذلك بالدمج بين اللون المحلي والأثر الأوروبي بآن واحد، فقد نجحت بعض الصناعات بتقليد البضائع الأوروبية، ووصل بعضها إلى حد التفوق عليها[٢]. كما حاولت الصناعة المحلية تصدير منتجاتها الأرخص سعراً إلى أوروبا كطريق ثالثة للمقاومة[٣]. وفي الوقت نفسه فإن بعض الحرف والصناعات حققت نجاحات كبيرة، ففي دمشق مثلاً كانت النجارة وصناعة الدباغين، والسراجين، وصناعة الفواكه المجففة، قد ضارعت الأعمال والصناعات الأوروبية[٤]. كما أن مقاومة أدبية- إعلامية لاحت في الأفق، عندما نشرت مجلة المقتطف عام ١٨٧٨ مقالاً عن النسج "الإفرنجية" وطرق الغش في صناعتها وصباغتها، كدمج القطن والصوف والحرير مع مواد كيمياوية وغيرها لجعلها أكثر وزناً، وذلك لتنبيه الأهالي وتحذيرهم من عيوب البضائع الأوروبية وترغيبهم بالبضائع الوطنية التي حافظت على أصالتها، وإن لم يكن لها رونق البضائع الأجنبية نفسه[٥].

٣- الزراعة :

كان الإنتاج الزراعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر لا يزال قائماً على أساس العلاقات الإقطاعية[٦] بأشكالها الشرقية الخاصة، فالملكيات يعاد توزيعها على الإقطاعيين بين مدة وأخرى، ويعيد الإقطاعي نفسه توزيع الأراضي على الفلاحين كل سنة تقريباً[٧]، على أن الولايات الشامية- وكذلك العراقية- تميزت علاقاتها بشيء إضافي؛ وهو أن الإقطاعي كان تركياً في

---

[١] كما حدث مع السيد عبد المجيد الأصفر الذي انضم إلى السيد حسن الخانجي، لضيق ذات يده، في محاولة لتقليد البضائع الأوروبية. انظر: قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٣.

[٢] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٦٨-٢٦٩. فقد حاول عبد المجيد الأصفر، السابق الذكر، تقليد الآلاجه بالغزل، واقتدى به غيره، فأصبح نسيج الديما يعيل مئات العوائل، كما استنبط رجل آخر من بيت مرتضى شكلاً جديداً للنقوش في محاولة لمجاراة النقوش الآلية وتبعه آخرون، ورأى الخواجة يوسف الخوام اهتمام الأهالي بلبس "البنطال الإفرنجي" فبادر إلى نسج أقمشة خفيفة تتناسب مع أجواء الصيف، فغير وزاد في نول الديما وأنتج أقمشة أفضل من النسج الأوروبية، كما انها كانت أرخص كلفة. انظر: قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٣-١٢٤.

[٣] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٦٨-٢٦٩.

[٤] المرجع نفسه، ص٢٧٠.

[٥] النسج الافرنجية، المقتطف، السنة الثالثة، ج٥، ١٨٧٨، ص١٢٨-١٣٠.

[٦] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٣. كوتلوف، مرجع سابق، ص٨٩. دو باري، مصدر سابق، ص٦٠.

[٧] المصدر السابق، ص٦٠.

معظم الحالات، ولم يكن من السكان المحليين (الأعيان)[١]، إلا في مرحلة متأخرة نسبياً، وهذا ما ساعد على استثمار جهود الفلاحين في بلاد الشام واستغلالهم بوسائل مختلفة لمدة أطول، بعد أن كانت الزراعة القطاع الأساسي لاقتصاد بلاد الشام، فقد عمل فيها ما يقارب ٦٠-٧٠ % من سكانها، مقابل١٠-١٥% ممن عمل في التجارة والصناعة، وشكلت المحاصيل الزراعية، وما يتبعها النسبة العليا من صادرات البلاد مثل الحرير الخام، والقطن، وزيت الزيتون، والتبغ، والصوف والجلود[٢].

وشكّل قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨، نقطة تحول مهمة بالنسبة لعلاقات الإنتاج الزراعي في الولايات العربية. فقبل صدور هذا القانون كانت العلاقات الزراعية يغلب عليها النظام الديني لملكية الأراضي، وفق أوامر وقرارات معقدة[٣]، إضافة إلى نظام عثماني جديد كان يتسم بالنزعة العسكرية، ويقضي بتقسيم الأراضي المفتوحة إلى مقاطعات حسب إيراداتها (تيمار، وزعامت، وخاص)[٤] يتم منحها للأمراء والوزراء والقادة والجنود مقابل التعهد بالولاء للدولة وخدمتها، وتجهيز المحاربين أثناء الفتوحات والحروب، وقد تم إلغاء العمل بهذا النوع من الملكية عام ١٨٣٩ ضمن خطة إصلاحات كلخانه[٥]. أما حكومة ابراهيم باشا فقد قضت على النظام الإقطاعي في بلاد الشام، واستطاعت تنظيم العلاقات الزراعية بعد أن تم تحرير الفلاحين من سطوة الملتزمين، وأدخلت تحسينات مهمة على الزراعة[٦]. وبعد انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام أدركت السلطات العثمانية ضعف سيطرتها على بلاد الشام، فبدأت بسلسة إصلاحات كان من بينها قانون الأراضي لعام ١٨٥٨ الذي سعت من خلاله لضمان ولاء أفراد الشعب من الفلاحين والعمال الزراعيين، وأعلنت أن الهدف من هذا القانون هو منح الأراضي الزراعية للفلاحين دون وساطة بين الدولة وبينهم[٧]. وأنهى هذا القانون بصورة رسمية نظام الإقطاعات

---

[١] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٤.

[٣] كوتلوف، مرجع سابق، ص٤٨.

[٤] كان العثمانيون يقسمون الأقاليم التي يدخلونها إلى مقاطعات، بعضها صغيرة (تيمار) وبعضها متوسطة (زعامت) وأخرى كبيرة (خاص)، ويمنحون المقاطعات الصغيرة إلى الجنود، والمتوسطة والكبيرة إلى القادة والأمراء، وهو نظام كان يهدف إلى جمع الضرائب والرسوم، إضافة إلى إمداد الدولة بما يلزمها من قوات محاربة. انظر: عامر، مرجع سابق، ص٩٩.

[٥] صياغة، نايف، الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، ١٩٩٥، ص٩١.

[٦] المرجع نفسه، ص١٦.

[٧] صياغة، مرجع سابق، ص٩١-٩٢.

العسكرية (التيمار)[١]، وكان من المفترض أن ينظم هذا القانون علاقات الإنتاج الزراعي في الدولة العثمانية، فقد قسمت الأراضي إلى خمس فئات: (المملوكة، والميرية، والأوقاف، والمتروكة، والموات)[٢]، إلا أن التعديل الوحيد الذي يمكن ذكره هو إمكانية بيع وشراء الأراضي ماعدا أراضي الميري والأوقاف، مما فتح الطريق أمام تجمع الأراضي في يد فئة قليلة من الأعيان المحليين، وتجار المدن، والأقلية الحاكمة ضمن نمط جديد من أنماط النظام الإقطاعي[٣]، فقد سهل هذا القانون عملية التراكم وبطرق قانونية، بعد أن شكلت فرصة للأثرياء لامتلاك الأراضي الواسعة، وهذا ما جعل القانون يفشل فشلاً ذريعاً[٤]. كما رفض القانون كل أشكال الملكية الجماعية السائدة في الدولة العثمانية، وبناء على ذلك، تم تجريد الكثير من القبائل البدوية والتجمعات الزراعية من ممتلكاتها التقليدية للأراضي[٥]، فكثيراً ما تعارضت التقاليد القبلية مع السلطة العثمانية المركزية التي ترى ملكية الأراضي ملكيةً عليا للدولة وللسلطان العثماني، في حين ينفي القانون القبلي هذا المنطق، فالأرض التي تشغلها القبيلة هي مشاع لجميع أفراد القبيلة وبحقوق متساوية[٦].

وكان لانفتاح "الشرق الأوسط" على التجارة الأوروبية دور كبير في تنشيط إنتاج محاصيل زراعية نقدية معينة في مناطقها[٧]، كما اهتم الرأسمال الاجنبي بحقل الإنتاج الزراعي؛ لأنه كان المجال الوحيد من مجالات الاقتصاد الذي قدم لأوروبا المواد الخام اللازمة لصناعتها[٨]، فأدى الطلب المتزايد على الخامات الزراعية اللازمة لاحتياجات أوروبا الصناعية إلى تطور اقتصادي- بضائعي، وهذا أدى بدوره إلى ارتفاع وتيرة اهتمام الإقطاعيين والتجار والمرابين بالأراضي الزراعية، وما لبث هؤلاء أن شرعوا بعمليات اغتصاب واسعة لممتلكات صغار الفلاحين[٩]، مع أن انتزاع وسائل الإنتاج من صغار المنتجين كان أمراً طبيعياً في عصر بداية تراكم رؤوس الأموال، إلا أنه- بخلاف الدول الأوروبية- لم يترافق ذلك مع تفعيل وتنشيط

---

[١] لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٠.

[٢] نوفل، الدستور، مصدر سابق، المجلد الأول، ص١٤. السكيف، مرجع سابق، ص٨٣.

[٣] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢١٧. كوتلوف، مرجع سابق، ص٥١. صياغة، مرجع سابق، ص٩٧.

[٤] المرجع نفسه، ص٩٩-١٠٠.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص ٥١.

[٦] المرجع نفسه، ص٤٨-٤٩.

[٧] أوين، مرجع سابق، ص ١٣٣.

[٨] كوتلوف، مرجع سابق، ص٢٦.

[٩] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص ٤

الصناعات الوطنية؛ لأن القوى العاملة الفائضة لم تستخدم إلافي الزراعة، وفي ظروف من التبعية والاستغلال[1]. لذلك ظلت الولايات العربية مناطق زراعية متخلفة، إضافة إلى العائق الرئيسي أمام توسع المساحات المزروعة ورفع مستوى الإنتاجية الزراعية ألا وهو الري الذي كان يعتمد على الآلات البدائية لرفع المياه كالنواعير مثلاً، أو بقوة الحيوان أو الإنسان، كما أن التقنية والأدوات الزراعية كانت متشابهة في جميع الولايات العربية، فالأسمدة وحتى الطبيعية منها لم تستخدم في معظم المناطق. مع تميز قليل لبلاد الشام عن بقية الولايات العربية في هذا المجال، فقد ظهر في فلسطين داخل المستعمرات الألمانية (البروسية) والأوروبية أولى آلات ضخ المياه، إلى جانب الأساليب والآليات الزراعية الحديثة والمتطورة واستخدام الأسمدة[2]. كما ترسخت علاقات شبه ثابتة مع أوروبا الرأسمالية بعد أن ارتبطت بعض الصناعات الأوروبية بالاقتصاد الزراعي في بلاد الشام، وقد أدى ذلك إلى تحقيق شيء من التعاون بينهما، فانتظم إنتاج الخامات الأولية الموجهة لصالح الصناعة الأوروبية، والمواد الغذائية لأجل المدن الأوروبية، مما ساعد على ظهور الإنتاج الصناعي الفرعي المحلي، وانتشار بوادر تحديث الزراعة لأجل تلبية احتياجات الغرب الصناعي إلى الخامات الزراعية[3]. وكلٌّ ذلك كان على حساب زيادة استغلال الفلاحين من قبل إقطاعيهم، وعلى حساب توسيع مجال الزراعة الصناعية دون تطوير حقيقي في الأساليب الإنتاجية، كما ضعفت العلاقات الاقتصادية التقليدية وأشكال التعاون، بين مناطق وبلدان "الشرق الأدنى"[4].

ومن جهة أخرى فقد تغلغل رأس المال الأجنبي في الاقتصاد الزراعي عن طريق التجار الوسطاء والمرابين المحليين الذين شجعهم الأوروبيون وفق علاقات متبادلة وخاصة، فقد ارتبط مصير الإقطاعي والفلاح في الريف- على حد سواء- بالتاجر والمرابي في المدينة بعد منحهم قروضاً بفوائد كبيرة جداً[5]، فخضع بذلك إنتاجهم الزراعي للرأسمال الأجنبي الذي يمثله التاجر والمرابي[6]. فقد كانت سياسة القروض، التي أشرنا إليها في فصول سابقة، تقوم بدور مهم ومفصلي في تمكين الرأسمال الأجنبي من تكييف الإنتاج الزراعي حسب حاجات الصناعات

---

[1] كوتلوف، مرجع سابق، ص.٥٧

[2] المرجع نفسه، ص٦٢.

[3] المرجع نفسه، ص٧٧.

[4] المرجع نفسه، ص٧٧-٨٠.

[5] وصلت هذه الفوائد إلى ٣٠% أحياناً. أنظر: السكيف، مرجع سابق، ص٨٥.

[6] المرجع نفسه، ص٨٥. كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٤٨.

الأوروبية[١]، وذلك بتخصيص مساحات زراعية واسعة لمزروعات بعينها على حساب مزروعات أخرى. كما تم تنشيط محاصيل معينة في مناطق معينة إذ اتجهت الزراعة في جبل لبنان نحو إنتاج الحرير وزراعة التبغ، وفي فلسطين اتسعت زراعة الحمضيات المعدة للتصدير بكليتها، وتخصصت الولايات الشامية الأخرى في زراعة القطن بشكل كبير[٢]، وكانت الحبوب بمختلف أنواعها– ولا سيما القمح– من السلع الشامية الأساسية للتجارة مع أوروبا[٣]. وارتبط إنتاج هذه المزروعات بأسعار السوق الدولية وأحوالها، وعملت الاحتكارات الدولية للسيطرة على الاقتصاد الزراعي في تلك الولايات من أجل تحويلها إلى مصدرٍ لا ينضب لإنتاج الخامات الزراعية الرخيصة. ويمكن عدُّ هذه الأشياء باكورة التوجه الاستعماري لمناطق المشرق العربي، وهذا ما تجسد في طرح مشاريع فرنسية وأخرى ألمانية تميل نحو هذا الاتجاه، وكان المقترح البريطاني الأكثر جرأة، لأنه يشير إلى ضرورة دراسة مخططات استعمارية لبعض المناطق العربية، ولاسيما فلسطين والعراق، من أجل ربطها بمشاريع تطوير الزراعة وفق الاتجاه المناسب للاحتكارات الإمبريالية. فكانت التجربة الألمانية البروسية فريدة من نوعها في هذا المجال؛ إذ أسس بعض كهنة الأديرة الألمان في فلسطين عدداً من المستوطنات الزراعية[٤]، التي شكلت بدايات فكرة الاستعمار الاستيطاني، تسللت بدورها إلى أفكار الحركة الصهيونية فيما بعد[٥]

شهدت بلاد الشام أواخر خمسينات القرن التاسع عشر– بسبب الكساد الأوروبي– تقلصاً ملحوظاً للنشاط الاقتصادي الزراعي الذي أدى بدوره إلى إنهاء الازدهار الذي شهدته أسعار المنتجات الأولية[٦]، وترافق ذلك مع بعض العوامل الداخلية، كهجمات البدو الرحل التي كانت من أكثر العوامل فتكاً بالمحاصيل الزراعية[٧]. و توقع أحد الباحثين زيادة الإنتاج الزراعي في بلاد الشام في ستينيات القرن التاسع عشر مع زيادة الأسعار لبعض المحاصيل كالقطن والتبغ، ولكن الشك يظلُّ قائماً لقلة الأدلة على ذلك، أما سبعينيات القرن التاسع عشر فقد شهدت عقداً

---

[١] كوتلوف، مرجع سابق، ص٢٧.

[2] Issawi, op. cit, p. 11.

[٣] شيشلر، مرجع سابق، ص٩٧–٩٩.

[٤] انظر: البحث، ص٢٠٥–٢٠٨.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص٢٨–٣٠. انظر: البحث، ص١٥٧.

[٦] أوين، مرجع سابق، ص٢٣٦.

[٧] تشير العديد من الوثائق التاريخية إلى تعديات البدو (العربان) على المناطق الزراعية المختلفة في بلاد الشام، ومنها على سبيل المثال الوثيقة التي تشير إلى تعدي البدو على إربد وعجلون، ونهب الأموال وتدمير القرى، وأدى إلى بوار الزراعة ودمار المحصول، مما ألحق الضرر الكبير بالفلاحين الذين اضطروا إلى النزوح عن قراهم وترك أراضيهم. دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ٨١، ١٢٦٠هـ.

من المصاعب الاقتصادية؛ إذ شهدت مواسم عديدة كانت سيئة واستمرت زمناً طويلاً، ففي دمشق كانت المحاصيل سيئة تقريباً بين عامي ١٨٦٩و١٨٧٩ إلى جانب انخفاض نوعية المحاصيل، وارتفاع كلفة نقلها، إضافة إلى دور قناة السويس التي حولت جزءاً كبيرا من التجارة الخارجية- إن لم يكن كلها- بين الخليج العربي والسواحل الشرقية للمتوسط إلى طريق البحر الأحمر بعيداً عن الشام والعراق[١].

ثالثاً – في المجال الاجتماعي :

إن التغييرات التي طرأت على علاقات الإنتاج والشروط المادية للحياة، في بلاد الشام، وبقية الولايات، رافقتها تبدلات في معظم العلاقات الاجتماعية[٢]، وبما أن هذه التبدلات كانت حصيلة التغلغل الاقتصادي الأوروبي[٣]، وحصيلة السياسة الاقتصادية العثمانية التي منحت التجار الأجانب تسهيلات واسعة على حساب الاقتصاد المحلي[٤]، فإن الاستعباد الاقتصادي من قبل الرأسمال الأجنبي- مع ضغوط الدولة الإقطاعية العثمانية- جعلت تلك التبدلات بطيئة ومشوهة في الغالب[٥]؛ لأن سيطرة الرأسمال الاجنبي وما أنتجه من خلل في الميزان التجاري، وضعف الإنتاج الحرفي، وزيادة تصدير السلع الأولية الزراعية، إلى جانب ما قامت به الدولة العثمانية من إصلاحات وتدابير لصالح التطور الوهمي البرجوازي، كل هذه العوامل أسهمت في تفسخ الأنماط التقليدية للاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، ففي حين أن تفسخ الأنماط التقليدية الاقتصادية- الاجتماعية يبدو جيداً لمجتمع ما، وهو يتجه نحو التطور والنمو، إلا أنه في هذه البلاد لم يتجه في الغالب في الاتجاه الصحيح، فقد ازداد استغلال الطبقات المُسْتَغِلة للسكان، ضمن إطار المحافظة على العلاقات الاجتماعية المعتادة، فوقفت هذه الطبقات في وجه كل تغيير في طبيعة تلك العلاقات، طالما أنه لا يخدم مصالحها[٦].

---

[١] أوين، مرجع سابق ، ص٢٣٨-٢٣٩.

[٢] كوتلوف، مرجع سابق، ص٨٣.

[٣] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٥٣.

[٤] فقد كان التجار العثمانيون والمحليون يدفعون أضعاف ما يدفعه التجار الأوروبيون من الضرائب الجمركية، وهو ما دفع فولني إلى الاستغراب قائلاً: إنه (**يندر وجود دولة في العالم تعامل التجار الأجانب أفضل مما تعامل تجارها المحليين!**). انظر: ضاهر، الدولة والمجتمع في المشرق العربي ١٨٤٠-١٩٩٠، مرجع سابق، ص٣٧.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص٨٣.

[٦] المرجع نفسه، ص٨٥.

١- العلاقات الاجتماعية- الاقتصادية:

لم يكن تفكك علاقات الإنتاج الإقطاعية شرطاً لازدهار علاقات إنتاج برجوازية أو رأسمالية، في معظم الشرق؛ لأن النظام الإقطاعي ظلَّ مستمراً في جسد السلطات الحاكمة، ولا سيما في المشرق العربي الخاضع للسيطرة العثمانية، كما أن العلاقات الاجتماعية- الاقتصادية حافظت على حالها إلا بما سمحت به التبعية بالغرب الذي لم يسعَ لتحطيم البنى القبلية والعشائرية والطائفية إلا بمقدار إعاقة تلك البنى لعملية الارتباط التبعي بالأسواق الرأسمالية والعالمية[١].

ومن جهة أخرى فإن الأنماط الاقتصادية والتباين في علاقات الإنتاج هي التي حددت التمايز في البنى الاجتماعية، وهذه البنى كان لها في آسيا، ولاسيما بلاد الشام، أشكال حددتها أنماط اقتصادية من نوع خاص، فلقد كانت هناك مناطق ذات علاقات إقطاعية متطورة تجاور مناطق ذات علاقات إقطاعية تقليدية تسودها بقايا نظام قبلي بدائي، كما اندمجت في المدن علاقات اجتماعية قديمة شبه إقطاعية مع قوانين برجوازية حديثة[٢].

أ- في الريف والبادية:

ليس من الغريب القول إن الحالة الاقتصادية الجديدة قد ألقت بظلالها حتى على الحياة البدوية، فقد بدأت القبائل البدوية بالاستقرار منذ ذلك الوقت، عندما قامت الدولة العثمانية بدفعها نحو الزراعة كرديف اقتصادي أساسي إلى جانب تربية الماشية[٣]، ومن جهة أخرى فبعد زيادة حجم التجارة بين بلاد الشام والدول الأوروبية زادت معها الحاجة إلى تنظيم طرق المواصلات وتأمينها، وكان البدو يسيطرون على بادية الشام بين بغداد ودمشق، وبغداد وحلب، لذا اضطر التجار الأوروبيين وممثلو شركاتهم إلى التعامل مباشرة مع البدو لشراء صداقتهم، وكانت هذه بداية لتعامل الدول الأوروبية الصناعية مع البدو[٤]، وشكل هذا- بلا شك- البداية في توجههم نحو الاستقرار، مع أن هذا الأمر كان يعمل بشكل بطيء للغاية، ولاسيما أن البدو حافظوا على الأشكال القانونية- التقليدية الخاصة بهم التي تعدُّ الأراضي التي يسيطرون عليها ملكاً مشاعاً لجميع أفراد القبيلة[٥].

---

[١] سميليا نسكايا، مرجع سابق، ص١٢.

[٢] كوتلوف، مرجع سابق، ص ٨٧.

[٣] المرجع نفسه، ص١٠٣.

[٤] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٤٧.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص١٠٤-١٠٥.

أما الريف فقد كان من أهم نتائج تراجع العمل الصناعي والتجاري في المدن، إثر مزاحمة البضائع الأوروبية في بلاد الشام، أن انتقل بعض سكان المدن إلى الأرياف مما أدى إلى ظهور زيادة كبيرة للسكان في تلك الأرياف، وقد اضطر هؤلاء الناس للعمل في الزراعة؛ كونها الوسيلة الوحيدة للعمل، وعرف الإقطاعيون كيفية استغلال هذه الحالة لصالحهم، فاشتد الظلم والتعسف بحق الفلاحين[١] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المجتمع الريفي لم يكن بمعزل عن المؤثرات الأوروبية، ولاسيما بعد ارتباط الريف ببرجوازية المدن عن طريق التبعية المالية بعد اتباع سياسة القروض التي لجأ إليها السكان في الريف والمدن على حد سواء لمجابهة الأزمات الاقتصادية[٢]. كما أن القوى الفلاحية زاد عناؤها بعد زيادة الطلب الأوروبي على المنتجات الزراعية ولم تصل إليها زيادة الأرباح والمكاسب، بل على العكس من ذلك فقد رزحت تحت ضغط وجشع الإقطاعي والتاجر والمرابي[٣]. وهذا كان سبباً كافياً لظهور انتفاضات فلاحية ضد الإقطاعيين في القرن التاسع عشر، وبشكل لم يشهد له مثيل في القرون السابقة، فبعد أن تلقى الفلاح وعياً كافياً نوعاً ما، في المدارس والمؤسسات التعليمية، اكتشف أنه ينوء تحت أعباء الظلم الإقطاعي[٤]، وهذا ما سنتناوله فيما بعد.

ب- في المدينة:

القليل من المدن كانت قد استفادت من تطور التجارة الخارجية، وأكثرها المدن الساحلية مثل بيروت، وحيفا، واللاذقية، والإسكندرونة، ويافا التي استقبلت البضائع الأجنبية في موانئها، في حين تدهور حال بعضها الآخر وفقدت مكانتها القديمة مثل عكا وصيدا[٥].

كانت مدن بلاد الشام بشكل عام مركزاً للإقطاعيين المحليين، وكانت الحرف الصناعية مرتبطة بنظام تقليدي إقطاعي، عدا أنها كانت تتّبع أنظمة صارمة في تنظيمها وتقاليدها وعاداتها، وهذا الأمر شكّل عائقاً كبيراً أمام تطور الحرف والحرفيين[٦]، ناهيك عن تدفق البضائع

---

[١] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٨. صياغة، مرجع سابق، ص١٢٦.

[٢] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٧٨.

[٣] السكيف، مرجع سابق، ص٢٨٤.

[٤] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٥٥.

[5] Ma'oz, op. cit, p. 180-181.

[٦] موسى، منير مشابك، الفكر السياسي العربي في العصر الحديث، مكتبة السائح، طرابلس- لبنان، ط٢، ١٩٩٥، ص٨.

الأوروبية إلى الأسواق الشامية ومزاحمتها للمنتجات المحلية تلك البضائع التي ألحقت الضرر بالصناعات الشامية، فانتشرت البطالة، وكانت دمشق وحلب أكثر المدن المتضررة[١].

ومهما يكن من أمر فقد كانت حلب مركز البرجوازية التجارية في بلاد الشام؛ لأنها محوراً للتجارة الدولية، ولذلك ظهر فيها مظاهر التحرر والانعتاق قبل غيرها، وتمثل ذلك في ظهور شخصيات أدبية وفكرية أمثال رزق الله حسون، وفرنسيس مراش، أما دمشق فقد غلب عليها الطابع الديني[٢]، إضافة إلى مركزها التجاري والصناعي. وكان الوضع فيهما مغايراً لما هو سائد في بيروت التي استفادت من مينائها التجاري الدولي الذي أخذ بالنمو والتطور، وأصبح يعج بالبواخر والسفن المتنوعة، لذلك لاحظ زائروها مظاهر الغنى والثراء في بيروت وأهلها[٣].

وبشكل عام أدى نشاط التبادل التجاري بين أوروبا و"الشرق الأدنى" إلى دخول هذا الشرق، ولاسيما ولايات بلاد الشام العثمانية في عملية إعادة التركيب الاجتماعي لمناطقه، وليس بعيداً عن التمايز الطبقي[٤]، الذي أدى إلى ظهور الطبقات البرجوازية بفئاتها المختلفة. إذ كانت الطبقة **البرجوازية الوطنية** الناشئة في غاية الضعف طيلة القرن التاسع عشر في الولايات العثمانية، ولم تشكل قوة اجتماعية– اقتصادية فاعلة، سوى في بلاد الشام، وبشكل محدود نسبياً، وتشكلت هذه الطبقة من مالكي المعامل الصغيرة، والمؤسسات الصناعية القليلة، والمشاريع المنزلية[٥]، فقد كان الجهاز المحلي بدائي العمل، وضعيف الإنتاج مما جعل هذه البرجوازية الصناعية الناشئة ضعيفة وهزيلة، ولاسيما أنها تنوء تحت ضغط التسلط العثماني، والقطاع المحلي، والرساميل الأجنبية[٦].

وتألفت البرجوازية الوطنية بشكل رئيسي من بعض فئات التجار والحرفيين والموظفين والمحامين والأطباء والصحفيين وبعض الضباط، وأدت هذه الفئات دوراً مهماً في النهضة الفكرية التي مهدت السبيل أمام نمو الفكر الوطني والقومي[٧]، التي نمت على حساب التنظيم الاجتماعي الإقطاعي– العسكري، نوعاً ما، حيث بدأ أفراد هذه الطبقة يتسللون إلى المراتب العسكرية، والوظائف الإدارية، والمناصب العالية، وحاولت أن تعمل على تغيير بنية المجتمع

---

[١] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٦٧–٣٦٦.

[٢] موسى، مرجع سابق، ص ٧–٨.

[٣] طربين، ملامح التغيير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٤٨–٤٧.

[٤] كوتلوف، مرجع سابق، ص ١٠٣

[٥] المرجع نفسه، ص١٦٩.

[٦] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٦.

[٧] موسى، مرجع سابق، ص١٠.

الشامي وتنظيمه على أسس برجوازية[1]. لكنها لم تمتلك القدرة الكافية لمقاومة التحديات، أو لأن تطّورَ نفسها، لدرجة أنها لم تستطع استخلاص أي مراكز مهمة في إدارة البلاد والاقتصاد، وقد ترك ذلك آثاراً واضحة في سلوكها السياسي، كما أنها اعتمدت على الفئات العليا من المتنفذين، ولم تعتمد على قواعد جماهيرية[2].

ومن جهة أخرى لم تكن المشاريع الرأسمالية في مجال الإنتاج الصناعي تشكل حيزاً كافياً من نشاط الطبقة **البرجوازية الصناعية** الناشئة، وهذه دلالة واضحة على نشاط المؤسسات التجارية في إدارة المؤسسات الإنتاجية العاملة في مجال تصنيع الخامات الزراعية لأجل التصدير؛ أي أن التاجر والمرابي كانا الأكثر نشاطاً في إدارة المؤسسات الصناعية، وبالتالي فهم كانت تهمهم مصالحهم التجارية أكثر من التطور الصناعي، وقد أدى ذلك إلى نمو **البرجوازية التجارية** على حساب الفئات الإنتاجية، وأصحاب المهن الحرفية الحرة[3]. ووقعت المواقع القيادية في تجارة الولايات الشامية في أيدي الوسطاء التجاريين الذين خدموا التبادل التجاري فيما بينها وبين أوروبا الصناعية، بحكم سيطرة رأس المال الأجنبي وارتباط البرجوازية التجارية به، فقد قويت تلك الفئات من البرجوازية التجارية الكبرى، وقامت بدور مهم في الأسواق التجارية المحلية، وحددت الأسعار المناسبة لها على الخامات المحلية المطلوبة من قبل الأسواق الخارجية[4].

فهذه الفئة التي درج على تسميتها **بالبرجوازية الكومبرادورية**، التي نشأت عن التجارتين الداخلية والخارجية، كانت فئات غير منتجة، وبخلاف البرجوازية الأوروبية الصناعية التي كانت طفيلية تعيش على استغلال الحرفيين والفلاحين[5]. وساعدت الرساميل الأجنبية على ظهورها وتطورها في بلاد الشام، فقد كان التجار الأوروبيون المقيمون في بلاد الشام صلة وصل بين بلاد الشام وبين المؤسسات التجارية والصناعية الأوروبية، وكانوا بحاجة إلى بعض أبناء البلاد ليكونوا عوناً لهم في بسط السيطرة على التجارة الداخلية والخارجية ووضعها تحت النفوذ الرأسمالي الأوروبي، فاستطاعوا أن يشركوهم في امتيازاتهم، وجعلوهم خارج نطاق سلطة الحكم العثماني، وهكذا شكلت هذه الفئة ركيزة من ركائز مصالح الدول الأوروبية في بلاد الشام[6]. لم

---

[1] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٧١.

[2] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص٦.

[3] كوتلوف، مرجع سابق، ص١٦٩.

[4] المرجع نفسه، ص١٧٠-١٧٣.

[5] موسى، مرجع سابق، ص٩.

[6] السباعي، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية، مرجع السابق، ص١٥. فعلى سبيل المثال فقد صدر أمر سامي بتعيين أحد الأشخاص مساعداً لأحد التجار الأجانب الخاضعين للاتفاقية التجارية الدولية مع الدولة

تكن عناصر هذه الفئة من أرباب الزراعة والصناعة والتجارة، بل كانت فئة تعلمت اللغات الأجنبية، واتقنت أمور المعاملات التجارية، واستفادت من حركة الرساميل الأجنبية والأحوال الاقتصادية المستجدة، ولذا فمن الطبيعي– حسب ما سبق ذكره آنفاً– أن يكون معظم أفراد هذه الفئة من المسيحيين واليهود، إلى جانب بعض الأُسَر المسلمة أيضاً[1]. وهكذا سيطرت العناصر المسيحية واليهودية، بشكل عام، على التجارة الدولية في بلاد الشام (التجارة الخارجية وتجارة الترانزيت)، بعد أن قامت هذه العناصر بدور الوسيط بين أسواق بلاد الشام والتجار الأوروبيين، بينما بقيت التجارة الداخلية بيد المسلمين، ولكن مع بقائها تحت سيطرة التجار الأوروبيين، التي تحكمت فيها امتيازاتهم ورساميلهم[2].

ج– مجتمع المدينة وبعض ملامح التغيير الاجتماعي:

أحدثت تلك العلاقات الاجتماعية– الاقتصادية المستجدة بفعل المؤثرات الأوروبية الكثير من التغييرات في ملامح البنية الاجتماعية في بلاد الشام، ولا سيما تلك التغييرات التي طرأت على شكل الأسرة التي تحولت من نمط السلطة الأبوية الشاملة إلى شكل أسرة صغيرة، مع بروز ظاهرة النزعة الفردية التي زعزعت بعض أسس الصلات الأسرية وأدت إلى انقسام ولاءات أفرادها[3].

العثمانية، على أن يسري على هذا الشخص بنود الاتفاقية بما يخص العاملين لدى التجار الأجانب. انظر: دار الوثائق التاريخية، أوامر حلب، المجلد ٤٩، الوثيقة رقم ٢٢٥.

[1] ضاهر، الدولة والمجتمع في المشرق العربي١٨٤٠–١٩٩٠، مرجع سابق، ص٣٨. طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٦٨–٣٦٩. وانظر:

Ma'oz, op. cit, p. 182.

[2] موسى، مرجع سابق، ص٨–٩. وفي الواقع فإن الكثير من الوثائق الصادرة عن الأوامر السلطانية بدمشق في دار الوثائق التاريخية، التي تشير إلى عمليات الاستدانة وما يرافقها من المستندات والمشاكل القضائية التي يتم معالجتها في المحاكم الشرعية، في دمشق وحلب وضواحيهما، تدلّ على أن أكثر المدّعين هم من المسيحيين (ويستدل عليهم من خلال الأسماء)، والبعض منهم ممن يعمل كوكلاء للقنصليات الأوروبية أو يحظى بحمايتها، وقلما تجد أحداً منهم قد رُفع ضده دعوى لتحصيل الديون. انظر: دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الثامن، الوثيقة رقم ٢٢، الوثيقة رقم ٢٨، الوثيقة رقم ٣٦، الوثيقة رقم ٤٢. وكذلك أوامر حلب السلطانية، المجلد ٤٩، الوثيقة رقم٢٠٣، وفيها أن المدّعي هو من التبعية السويدية، الوثيقة رقم ٢١٦، ويطالب فيها وكيل قنصل السويد بدفع الديون المستحقة من أحد الأهالي في مدينة حلب، والمجلد ٥٠، الوثيقة رقم١٥٩، الوثيقة رقم ١٩٢، الوثيقة رقم ١٩٣، الوثيقة رقم ٢٢٣، الوثيقة رقم ٢٢٥، الوثيقة رقم ٢٤٣، وغيرها الكثير.

[3] طربين ، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٧٢.

أما المرأة، فقد بدأت بالظهور علناً في المجتمع ضمن الأسر البرجوازية في البداية، بعد أن خَفَّت وطأة الحجاب، بعد صراع طويل بين خصومه وأنصاره[١]، وكانت النساء أكثر فئات المجتمع تقليداً للأوروبيات في اللباس والتصرفات[٢]، ولاسيما النساء المسيحيات، الأمر نفسه بالنسبة لرجال المسيحيين[٣]، ثم انتقل هذا التغيير ليشمل مختلف وجوه الحياة الاجتماعية وعناصرها في البلاد، فمن تطور أشكال اللباس وأنواعه إلى المأكل والمنام وغير ذلك[٤].

ومن جهة أخرى فإن فئة المثقفين الحاصلين على ثقافة أوروبية، كانت من أهم العناصر في المجتمع البرجوازي الجديد الذي وقف في وجه البنية التقليدية للمدينة، إلا أن قلة عددهم ولأنهم كانوا في الأساس من أبناء كبار ملاكي الأراضي والتجار والأغنياء[٥]، وانعدام الطبقة الوسطى التي تكون عادة حلقة وصل بين فئات الشعب ومثقفيها، قد أدى إلى انعزال هذه الفئة وبطء ونقص فاعلية الدور المنوط بها[٦].

وبشكل عام كانت البرجوازية المحلية في بلاد الشام تدور في فضاء الرأسمالية الأوروبية، وقد ضمت هذه البرجوازية خليطاً من رجال المال، والملاكين، والصناعيين، والتجار، إلا أن "فرزاً ما" لاح في الأفق بتأثير المؤثرات الأوروبية السياسية والاقتصادية والدينية، ولاسيما بعد أن حاولت بعض الفئات البرجوازية أن تؤدى دوراً سياسياً، مثل بقية برجوازيات أوروبا، فظهرت بناءً على ذلك اتجاهات فكرية حددت أنماطاً جديدة للعلاقات الاجتماعية ضمن نطاق من العلاقات الاجتماعية– السياسية[٧].

٢ – العلاقات الاجتماعية– السياسية:

في الواقع، تمت دراسة معظم العلاقات الاجتماعية– السياسية التابعة لمؤثرات السياسية الأوروبية على هامش البحث، في فصول وفقرات سابقة، ويمكننا أن نضيف إليها ما يلي:

إن تلك التطورات التي طرأت على نمط الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام بفعل التغلغل الاقتصادي والثقافي والسياسي الأوروبي التي تمت دراستها فيما سبق، قد تركت

---

[١] طربين ، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٧٢.

[٢] قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٦. السكيف، مرجع سابق، ص٢٩٦. غرايبة، مرجع، سابق، ص١٣٩.

[٣] القاياتي، مصدر سابق، ص٥١. طربين، ملامح التغيير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٦٣.

[٤] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٧٢.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص١٧٧–١٧٨.

[٦] المرجع نفسه، ص٢٥٥.

[٧] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٧٩.

آثاراً مهمة في طبيعة العلاقات الاجتماعية– السياسية بين فئات المجتمع[١]؛ إذ أدت تلك العوامل السابقة إلى ضائقة مالية لدى عامة سكان بلاد الشام، وزاد من قوة هذه الضائقة ما فرضته الدولة العثمانية من ضرائب إضافية إلى جانب السيطرة الرأسمالية الأوروبية على السوق المحلية، مما أدى إلى زيادة حالة الإفلاس بين صغار التجار والحرفيين على حد سواء، وازدادت الهوة بين الفقراء والأغنياء، وهذا كان من أهم عوامل الاضطرابات الاجتماعية والطائفية التي حدثت في بلاد الشام في حلب ١٨٥٠، ونابلس ١٨٥٠، وفي جبل لبنان ١٨٤١–١٨٦٠ وفي دمشق ١٨٦٠[٢].

هكذا نلاحظ أن الأمر في بلاد الشام– بشكل عام– كان يشبه صراعاً طبقياً في مجتمعٍ بدأت الرأسمالية الغربية تشق طريقها فيه. فقد أسهمت هذه الرأسمالية في إيجاد الفوارق الطبقية بين أصحاب المهن فيما بينهم وبين صانعيهم العمال، وعندما أصبحت الصناعات المحلية مضطرة لمواجهة الصناعات الأوروبية، ضعفت إلى حد كبير وازداد معها التناقضات الاجتماعية، وقد ذُكر أنه في دمشق– وعلى سبيل المثال– أصبح **(الحرفيون الفقراء عنصر عدم استقرار سياسي واجتماعي)**[٣].

ومن جهته تعرض النظام الإقطاعي في لبنان لهزات عنيفة أدت إلى زواله منها قبل أي مكان آخر في بلاد الشام[٤]، وكان ذلك على عدة مراحل، الأولى: ما بين عامي١٨٤٢ و١٨٤٤، وكان من نتائجها إلغاء "عدم المساواة" في دفع الميري، والثانية: قبول ممثل للفئة الأخرى لدى إقطاعيي كل منطقة في كسروان والشوف عام ١٨٤٥، والثالثة: ثورة الفلاحين عام ١٨٥٨ التي كانت قد وضعت حداً نهائياً لامتيازات الأعيان والأشراف في لبنان الشمالي، والرابعة: كانت عام ١٨٦١–١٨٦٤، تحت مواد "النظام الأساسي" الذي أقرته اللجنة الدولية وجاء في المادة السادسة منها: **(مساواة الجميع أمام القانون وإلغاء كل الامتيازات الإقطاعية وخاصة امتيازات المقاطعجية)**[٥]. تزامن ذلك مع انتظام القوى الفلاحية في علاقات نقدية ضمن أسواق الرأسمالية الأوروبية، فقد ظهرت لديهم حجم السوء في أوضاع العلاقات الاجتماعية–الاقتصادية

---

[١] أوين، مرجع سابق، ص٢٧٧.

[٢] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢٥٧–٢٥٨.

[٣] المرجع نفسه، ص٢٦١.

[٤] أورد بولياك بأن لبنان كانت **(بلد المقاومة ضد النظام الإقطاعي فقد استمر السكان في نضالهم ضد الإقطاعية في عدة مراحل..)**. انظر: بولياك، أ. ن، الإقطاعية في مصر وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات المكشوف، بيروت، ط١، ١٩٤٨، ص٢١٤.

[٥] رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، مرجع سابق، ص٢١٥.

بين الفلاح والمقاطعجي ونظام الالتزام[١]. وكان أشهر تلك الحركات تحدي الفلاحين "للمقاطعجية"، ولا سيما في منطقة كسروان شمالي جبل لبنان، حيث ظهرت حركة فلاحية بدأت في ربيع عام ١٨٥٨ تحت قيادة طنوس شاهين، فقد هدف إلى رفض الالتزامات، وأعمال السخرة في المناطق التي سيطر عليها آل الخازن، وقد نجحت هذه الحركة في طرد هذه الأسرة وأعادت توزيع جانب كبير من ممتلكاتها على الفلاحين الموارنة[٢].

وتجدر الإشارة إلى اختلاف آراء الباحثين حول اشتراك الفئة البرجوازية في جبل لبنان في هذه الحركة[٣]، وحول فرضية أن تكون هذه الانتفاضة الفلاحية قد استلهمت مطالبها من "التنظيمات العثمانية" التي ماهي إلا نوع من الاستجابة لإرادة القوى العظمى ورغبتها في التمهيد لتغلغلها الاقتصادي والسياسي والثقافي في الدولة العثمانية وولاياتها[٤].

غير أن هذا الصراع ما لبث أن تحول في جنوب لبنان إلى صراع طائفي بين الموارنة والدروز[٥]، بعد أن قلق زعماء الجنوب الدروز من هذا التحرك الذي بات يهدد وضعهم الطبقي، فبدأوا بالترويج لمبدأ الحاجة إلى "التضامن الطائفي"، و"مواجهة الهجوم الخارجي"، ونتج عن ذلك ظهور صراع طائفي حاد عام ١٨٦٠، وراح ضحيته آلاف القتلى، أغلبهم كان من المسيحيين. ثم انتقل هذا الصراع إلى دمشق[٦]، ولكنه اتخذ شكلاً ثالثاً يدمج بين الصراع الطبقي والطائفي، فقد أخذ طابعاً اقتصادياً بين فقراء المسلمين وأغنياء المسيحيين[٧]؛ لأن التناقض بين التجارة الداخلية بجماهيرها المسلمة، والتجارة الخارجية التي يسيطر عليها رأس المال الأوروبي، ويمثله بعض المسيحيون المحليون، أنتج الكثير من التعارض، فكانت من أهم أسباب التصادم، بعد أن لعبت القوى الأوروبية دوراً فعالاً ومؤثراً في توجيه الأحداث نحو تلك النتائج، مستفيدة من نظام الامتيازات الأجنبية والتنظيمات العثمانية[٨].

---

[١] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٥٥.

[٢] أوين، مرجع سابق، ص٢٢٨. السكيف، مرجع سابق، ص٢٥٥، ٢٥٧.

[٣] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٥٦. أوين، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

[٤] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٥٦.

[٥] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٢٤.

[٦] أوين ، مرجع سابق، ص٢٢٩. ياب، مرجع سابق، ص١٥٦.

[٧] كرد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٧٨-٧٩.

[٨] الأسطواني، أسعد، مرجع سابق، ص٩٩-١٠٢، ١٠٨-١٠٩.

وهنا يمكن القول إنه، وبشكلٍ عام، قد تشابكت العوامل المحلية للانتفاضات وامتزجت، بشكل أو بآخر مع عوامل التغلغل الاقتصادي الأوروبي، وسياسات الدول المتضاربة فيما بينها، وسياسة التنظيمات العثمانية التي أسهمت مجتمعة في إيجاد كل تلك التناقضات الاجتماعية[١]. وبناء عليه فقد ترتب على أحداث عام ١٨٦٠، في جبل لبنان ودمشق، إرسال حملة عسكرية فرنسية، وأعقبها تشكيل لجنة من ممثلي القوى العظمى الأوروبية نتج عنها صدور وثيقة دستورية لعام ١٨٦١ شكلت مع تعديلات عام ١٨٦٤، أساساً لنظام سياسي واقتصادي جديد أنهى حكم المقاطعجية، والنظام الاقطاعي إلى حدٍ ما. وتم تشكيل نظام مستقل إلى حد كبير عن السلطة العثمانية، مع نقل السلطة إلى حاكم مسيحي يعرف باسم المتصرف[٢].

أما بالنسبة للبرجوازية المسيحية، وبحكم ارتباطها بالاقتصاد الأوروبي، وبحكم ثقافتها، وانفتاحها على السياسات الدولية، التي تجسدَّ في انتماء بعض عناصرها إلى المحافل الماسونية[٣]، فإنها دعت إلى الاقتداء بالنموذج الأوروبي، ودعت إلى "صداقة أوروبا" وطلبت تدخلها "الإصلاح" ما يمكن إصلاحه[٤]. في المقابل وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تم تنظيم اتجاه يدعو إلى مقاومة التحديات الغربية للمسلمين عن طريق إحياء روح الإسلام الفكرية والسياسية، بعد نبذ الجهل والتخلف والتزمت[٥]، وكان من دعاة هذا الاتجاه الشيخ جمال الدين الأفغاني ومناصريه وطلابه[٦].

---

[١] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٦١.

[٢] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٢٥. أوين، مرجع سابق، ص٢٣٠-٢٣١.

[٣] **الماسونية:** تطرح الماسونية نفسها على أنها مؤسسة إحسانية وجمعية فكرية تسعى إلى استقطاب الناس "ذوي النفوس الحرة والأخلاق الحسنة"، وتطمح الماسونية إلى تخطي الحدود السياسية والجغرافية والحواجز العقائدية والإيديولوجية، إلا أن نشاطها يلفه السرية والكتمان الشديدين. وتعيد الماسونية نفسها- من ناخية رمزية- إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد، إلى التاريخ الذي تعدّه التوراة بداية الخليقة، وهي تعد "بناء الهيكل المقدّس"، في عهد سليمان الحكيم، أول عمل عظيم نفّذته، في حين يصعب على الصعيد العلمي تحديد أصولها، نظراً لعدم وجود وثائق بهذا الصدد. انظر: الكيالي، مرجع سابق، ص٦٥٧-٦٥٨.

[٤] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص٩٨-٩٩.

[٥] طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٧٢.

[٦] المرجع نفسه، ص٣٧٢.

رابعاً – في المجال الفكري والثقافي والتعليمي:

تمت دراسة الحالة الفكرية والمؤثرات الأوروبية فيها فيما سبق، وستقوم هذه الدراسة بإلقاء الضوء على مؤسسات التعليم وأدواته ووسائل نشر الثقافة والتعليم الخاضعة للتأثير الأوروبي، أوتلك التي كانت تدار من قبل بعض المؤسسات الأوروبية.

١– المدارس ودور الإرساليات التبشيرية (١٨٤٠– ١٨٧٨):

ارتبط ظهور المدارس الحديثة في بلاد الشام بشكل كبير بعمل الإرساليات التبشيرية الأجنبية، إلى جانب نشاط بعض الهيئات المحلية[١]، فبعد أن اتّبعت هذه الإرساليات مختلف الطرق والأساليب التي من شأنها التأثير في السكان، وكسب تعاطفهم مذهبياً وسياسياً، عن طريق التركيز على حاجاتهم الصحية والتعليمية والحياتية[٢]، فقد شكّلت هذه الإرساليات التبشيرية أهم أدوات التوسع السياسي والثقافي للدول الأوروبية. وكان نشاطها قد دخل في مرحلة جديدة مع بدء نشاط الإرساليات التبشيرية البروتستانتية التي تأسست عام ١٨٢٠ في بيروت[٣]، التي قامت بفتح أول مدارسها (مدرسة عين طورا) عام ١٨٣٤[٤]، وأيضاً مع إعادة تفعيل نشاط الإرسالية اليسوعية ١٨٣١ للحد من توسع النفوذ البروتستانتي[٥]، بعد أن أُوقفت عن العمل منذ عام ١٧٧٣[٦]، ففتحت مدرسة غزير عام ١٨٤٣[٧]. وقد ترافق هذا النشاط التبشيري مع سيطرة إبراهيم باشا على بلاد الشام عام ١٨٣٢ الذي افتتح مدارس ابتدائية وثانوية على الطراز الحديث (كما في مصر)، كما أنه شجع الإرساليات الأجنبية وسمح لها بفتح المدارس، وقد تأثر النشاط المحلي بالمدارس التي افتتحها إبراهيم باشا، واستمر هذا التأثير حتى بعد خروج القوات المصرية من بلاد الشام[٨]. أما السلطات العثمانية فلم تعمد إلى تحسين النظام التعليمي بعد عودتها إلى

---

[١] برو، العرب والترك، مرجع سابق، ص٣٣. وهو ما يذهب إليه مكاريوس؛ لأنه حيث يكثر الأجانب والمرسلون تكثر المدارس والكتب، وحيث يقل عددهم تقل المعارف. انظر مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، مصدر سابق، ص١١.

[٢] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٣٨. عبد الرحمن، مرجع سابق، ص٣٩. انظر: البحث، ص٧٠.

[٣] كوتلوف، مرجع سابق، ص١٩٦.

[٤] شيخو، لويس، تاريخ الآداب العربية (١٨٠٠–١٩٢٥)، دار المشرق، بيروت، ط٣، ١٩٩١، ص٤٩.

[٥] الرفاعي، مرجع سابق، ص٢٨–٢٩.

[٦] منسى، مرجع سابق، ص٦٢.

[٧] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٤٩.

[٨] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٠٣–١٠٤. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١١٤–١١٥.

بلاد الشام، ولكن فيما بعد- واقتباساً من الغرب- أنشأت بين عامي ١٨٤٦و ١٨٦٩ لجاناً تابعة لوزارة المعارف للإشراف على وضع خططٍ لإقامة نظام تعليمي يشمل جميع مراحل التعليم في الولايات العثمانية[١]، إلا أن المناهج التعليمية في مدارس الدولة العثمانية لم تتعد في معظمها حدود تعليم القراءة والكتابة، وبعض أصول الحساب، والمبادئ الدينية[٢].

فلاقى البروتستانتيون صعوبة بالغة في البداية بسبب عدم وجود أقلية بروتستانتية في بلاد الشام[٣]، لأنها لم تلقَ الترحيب في المناطق المارونية في جبل لبنان، لذا بدأت بالتغلغل في الأوساط الدرزية[٤]، إذ حاولوا بناء مدرسة لهم في دير القمر لتعليم الدروز، إلا أن المحاولة باءت بالفشل، غير أنهم نجحوا في عام ١٨٤٣ في تأسيس مدرسة عبيه على يد كرنيليوس فانديك[٥] التي تحولت عام ١٨٤٧ إلى مدرسة داخلية بمساعدة بطرس البستاني، وأصبح التعليم فيها باللغة العربية بدلاً من اللغة الإنكليزية[٦]، وهي التي مهدت- فيما بعد- الطريق لظهور الكلية السورية الإنجيلية[٧].

---

[١] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، مرجع سابق، ص٢١٧.

[٢] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٣٣.

[٣] منسى، مرجع سابق، ص٦٢.

[٤] جبر، مرجع سابق،ص٣٨٦.

[٥] كرنيليوس فان ديك (١٨١٨-١٨٩٥): ولد في بلدة كندرهوك Kinderhook من أعمال ولاية نيويورك الأمريكية، لوالدين هولنديي الأصل، وتعددت اهتماماته العلمية واختص أخيراً في الطب، ثم عزم على الانضمام إلى الإرساليات التبشيرية في الخارج، فوصل إلى بيروت في نيسان عام ١٨٤٠ مع جماعة من المرسلين، فاستطلع في البداية مع جماعته بعض مدن بلاد الشام الشمالية. وعمل طبيباً في القدس لعدة أشهر ثم في بيروت، كما عمل في مجال التدريس وأسهم مع وليم طومسون في إنشاء مدرسة عبيه عام ١٨٤٣، ثم عمل في صيدا، وأكمل ترجمة الكتاب المقدس الذي كان بدأه إيلي سميث، وشارك في تأسيس القسم الطبي في الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٧، وأنشأ المرصد الفلكي فيها، ثم استقال من هذه الكلية احتجاجاً على سياسة بعض القائمين عليها دون أن يؤثر ذلك في نشاطه التبشيري، وتوفي في بيروت عام ١٨٩٥ بعد أن أمضى في الديار الشامية ٥٦ عاماً تقريباً. انظر: خوري ، يوسف قزما، مرجع سابق، ص٣٨-٥٢.

[٦] رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

[٧] خوري، يوسف قزما، مرجع سابق، ص٣٠. أدرك المرسلون الأمريكان حاجة الديار الشامية إلى مؤسسة علمية لتدريس العلوم العالية، وفي ٣ كانون الأول ١٨٦٦ فتحت الكلية السورية الإنجيلية أبوابها أمام الطلاب وكانوا في البداية ستة عشر طالباً، وكانت اللغة العربية لغة التعليم فيها، إلى جانب اللغات الأخرى الفرنسية، والتركية، والإنكليزية، وكانت الكلية على قسمين: الأول المدرسة الطبية، والثاني المدرسة العلمية، وعين لها مجلس أمناء في نيويورك. انظر: المرجع نفسه، ص٨٤-٨٧. وأيضاً مطر، مصدر سابق، ص١١٧. وأنطونيوس، مرجع سابق، ص١٠٦-١٠٧.

كما عمد البروتستانت في خطوة غير مسبوقة إلى ترجمة الإنجيل إلى العربية، وإيجاد رجال دين من أبناء العرب، إضافة إلى ممارسة الطقوس والصلوات والتراتيل باللغة العربية، وكل ذلك لكسب قاعدة جماهيرية في بلاد الشام، وقد حققوا نجاحاً ملموساً في هذا الاتجاه[١]، وتنبه المبشرون الكاثوليك والأرثوذكس لما حققه البروتستانت من تقدم، فبدأوا أيضاً باستخدام اللغة العربية، وبذلك دخلت الطوائف كلها في منافسة لإحياء اللغة العربية، وصار التعليم باللغة العربية متاحاً في جميع المدارس البروتستانتية والكاثوليكية[٢].

في الحقيقة أثار النشاط البروتستانتي حفيظة اليسوعيين والكرمليين والكبوشيين واللعازاريين، فنشط هؤلاء في مجال المدارس في عملية تنافسية مع البروتستانت[٣]، لذلك أسسوا مدارساً في بيروت عام ١٨٣٩، ومدرسة غزير عام ١٨٤٣، ومدرسة زحلة ١٨٤٤، ومدرسة دمشق عام ١٨٧٢، ومدرسة حلب ١٨٧٣[٤]. أما الروس تأخروا فقد حتى عام ١٨٤٩ لإرسال أول بعثة تبشيرية أرثوذكسية، وكانت قد أظهرت نشاطاً لافتاً في بلاد الشام[٥].

واهتم البروتستانت بالترجمة، وتميز منهم إيلي سميث بجهوده، وأثره في النهضة التعليمية، كما استعان البروتستانت بالشيخين: المعلم بطرس البستاني، وناصيف اليازجي لكتابة وطباعة الكتب المدرسية التي تزودت منها حتى بقية المدارس التابعة للطوائف الأخرى[٦]، اختص ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) بإعداد كتب مدرسية لقواعد اللغة العربية وآدابها[٧] أما المعلم بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) إلى جانب اهتمامه بالتدريس فقد اهتم بالموسوعات والمعاجم[٨]، وترجم الكتاب المقدس غير أن المنية وافته قبل أن ينجز مابدأ به، فأكمل عمله المبشر الدكتور كرنيليوس فان ديك وناصيف اليازجي[٩].

---

[١] شريف، محمد بديع، اليقظة الفكرية والساسية في القرن التاسع عشر، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، جامعة الدول العربية- الإدارة الثقافية، مطبعة الرسالة، د.ط د.ت، ص٧٧-٧٨.

[٢] منسى، مرجع سابق، ص٨٣.

[٣] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص١٣٠. خوري، يوسف قزما، مرجع سابق، ص٣٠.

[٤] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٠٨. رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٤٣٠. جبر، مرجع سابق، ص ٣٨١.

[٥] كوتلوف، مرجع سابق، ص١٩٧.

[٦] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١١٣.

[٧] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١١١.

[٨] المرجع نفسه، ص١١٣-١١٤.

[٩] منسى، مرجع سابق، ص ٧٨. الزواهرة، مرجع سابق، ص١٦٢.

ومن جهة أخرى قامت الكنيسة المحلية المارونية بدور مهم في بناء المدارس، وأسهمت هذه المدارس بنشر العلم والمعرفة بين الناس إلى جانب نشر الأفكار والمبادئ المعبرة عن تطلعات سياسية، وأخرى عقائدية عن طريق ربط السكان بالأرض والدين[١].

ودخلت الحركة التعليمية في بلاد الشام، ولاسيما في جبل لبنان، مرحلة جديدة بعد عام ١٨٦٠؛ أي عام الحوادث الدامية التي أدت إلى قدوم لجنة دولية التي ساعدت على نشر وتعميم "نوع" من الاستقرار السياسي[٢]. فقد ازداد نشاط الإرساليات بعد أن ازداد عدد المدارس الوطنية والأجنبية مع اتساع ملحوظ للمعاهدة الصغيرة[٣]، وقد تأسست أهم مؤسستي تعليم في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهما: الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية اليوم) التي تأسست على يد المرسلين الأمريكان في بيروت عام ١٨٦٦[٤]، ثم قلدهم اليسوعيون- في إطار التنافس المعتاد- بإنشاء جامعة القديس يوسف بعد نقل مدرسة غزير إلى بيروت عام ١٨٧٤-١٨٧٥[٥]، وأسهم ذلك بأخذ بلاد الشام، ولاسيما جبل لبنان وبيروت، دور ريادي في النهضة الأدبية[٦] والفكرية في أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين[٧].

أمام هذا النشاط الذي أبدته الإرساليات التبشيرية قام الوطنيون ورجال الدين المحليون في جبل لبنان- على اختلاف مذاهبهم- بمضاعفة نشاطهم التعليمي[٨]. ومن أهم المدارس الوطنية في هذه المرحلة (ما بعد عام ١٨٦٠) المدرسة الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٣، والمدرسة البطريركية عام ١٨٦٥ للروم الكاثوليك، ومدرسة الروم الأرثوذكس[٩]، ومدرسة الحكمة التي أنشأها المطران يوسف الدبس الماروني، وكذلك الكلية العثمانية الاسلامية التي

---

[١] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٢٨-٢٢٩.

[٢] المرجع نفسه ، ص٢٣٧. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١١٥.

[٣] جبر، مرجع سابق، ص٣٨٧. برو ، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١١٥-١١٦.

[٤] مكاريوس، المعارف في سورية، المقتطف، السنة السابع، الجزء السابع، شباط ١٨٨٣، ص٣٨٨.

[٥] أرملة، مرجع سابق، ص١٥٨-١٦٠.

[٦] سامي، عبد الرحمن، سفر السلام في بلاد الشام أو (القول الحق في بيروت ودمشق)، مطبعة المقتطف، د.ن، د.ط، ١٨٩٢، ص٧.

[٧] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١٠٨. غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٣٧. جبر، مرجع سابق، ص٣٨٧. النصولي، مرجع سابق، ص٨٥-٩٣. برو، العرب والترك، مرجع سابق، ص٣٤.

[٨] منسى، مرجع سابق، ص٦٤.

[٩] مطر، مصدر سابق، ص١١٧. جبر، مرجع سابق، ص٣٨٨.

أُنشئت بعد إعلان دستور عام ١٨٧٦، وكانت هذه المدارس من أهم عوامل النهضة[١]. ولم تكن بلاد الشام الداخلية أقل اهتماماً بالنهضة الفكرية والعلمية، فقد دخلت الإرساليات البروتستنتية والأرثوذكسية إلى دمشق بين عامي ١٨٦٣ و١٨٨٠[٢]، وأنشأ فيها اليسوعيون المدارس عام ١٨٧٢[٣]، وظهرت فيها مدارس عديدة للطوائف غير الإسلامية قاربت ال(٣٥) مدرسة للذكور والإناث عام ١٨٧٩، كما كان للمسلمين حوالي (٧٤) مدرسة للذكور، و(٢٨) مدرسة للإناث، فضلاً عن المدارس الحكومية (أربع مدارس رشدية، ومكتب حربي إعدادي، ومدرسة حربية)[٤]، وجاء في مجلة المقتطف لعام ١٨٨٣ أن عدد المدارس في دمشق (الأجنبية والوطنية) قد بلغ (١٣٥) للذكور و(٣٨) مدرسة للبنات، وفي ريف دمشق بلغت نحو (٤٠) مدرسة، وقد بلغت المدارس المسيحية في القلمون نحو (١٥) مدرسة[٥]. ونشطت الإرسالية البروتستانتية في حلب منذ منتصف القرن التاسع عشر وأنشأت مدارسا للذكور والإناث، فضلاً عن (١٥) مدرسة طائفية للذكور والإناث موزعة بين الأرثوذكس والكاثوليك، وأشهرها الرهبان الفرنسيسكان، بالإضافة إلى المدارس المحلية[٦]. وأنشأ الكاثوليك مدارس ابتدائية للجنسين في حوران، أما اللعازاريون فقد أنشأوا عدداً من المدارس في حمص عام ١٨٨٠. وقد كان للأرثوذكس في طرابلس مدرسة لتعليم اللغة العربية وآدابها وقواعدها قبل عام ١٨٥٠، ووصلتها البعثات التبشيرية بعد هذا العام حيث وُجد فيها مدارس بروتستانتية للذكور والإناث، وللكاثوليك (اللاتين واللعازاريون)[٧]. أماالجهات المجاورة لطرابلس مثل (عكّار وصافيتا والحصن..) فلم يكن فيها إلا مدارس الإرساليات وكان

---

[١] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١١٨. النصولي، مرجع سابق، ص١٠١-١٠٥، ١٠٨.

[٢] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٢١-١٢٢. يتحدث نعمان قساطلي عن مدارس المسيحيين عام ١٨٧٨ في كتابه الروضة الغناء دون أن يفصل بين المدارس الوطنية ومدارس الإرساليات التبشيرية التي يمكن فرزها حسب اسم الجهة أو الطائفة التي تدير هذه المدارس. فمدارس الإرساليات للذكور هي: المدرسة الإنجيلية، والمدرسة االبطريركية الكاثوليكية، والمدرسة اللعازرية، ومدرسة الفرنسيسكان، إضافة إلى المدرسة الكاثوليكية والمدرسة الانكليزية في الميدان. وللإناث المدرسة الإنكليزية، والمدرسة اليسوعية، والمدرسة اللعازرية، إضافة إلى المدرسة الكاثوليكية والمدرسة الإنكليزية في الميدان. انظر قساطلي، مصدر سابق، ص١١٨-١١٩.

[٣] الرفاعي، مرجع سابق، ص٣٨.

[٤] قساطلي، مصدر سابق، ص١١٩. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١١٩.

[٥] مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء الثامن، ص٤٦٨-٤٦٩. انظر: الملاحق، الوثيقة رقم ٢٠، ص٣٥٣-٣٥٥.

[٦] المصدر نفسه، ص٤٧٣. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٢١-١٢٢.

[٧] مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء الثامن، ص٤٧٥.

عددها يقارب العشرين مدرسة[١]. أما عن بقية المدن في بلادالشام مثل (حماه واللاذقية وبعلبك ونابلس والسلط وصفد وطبرية وصيد وصور..) فإن معظم مدارسها كانت مدارس وطنية (إسلامية ومسيحية) وقلما نجد مدارساً للإرساليات التبشيرية وإن وجدت فهي مدارس تابعة للإرساليات البروتستانتية[٢].

ويسجل لهذه الإرساليات التبشيرية اهتمامها بتعليم الإناث، فقد أسست السيدة سميث (زوجة إيلي سميث) أول مدرسة للإناث في بلاد الشام في ثلاثينيات القرن التاسع عشر[٣]، ثم تأسست مدارس أخرى مثل راهبات دير مار يوسف عام ١٨٤٧، ثم راهبات المحبة عام ١٨٤٧، وأخرى في دير القمر عام ١٨٤٨، والراهبات المريميات عام ١٨٥٣[٤]، إضافة إلى المدرسة الإنكليزية للبنات عام ١٨٦٠ والمدرسة الإنجيلية الأمريكية للبنات عام ١٨٦١، وغيرها من المدارس التي أسستها السيدة بوين طمسن[٥].

وكانت الإرساليات الدينية الأجنبية عاملاً مهماً من عوامل النهضة الفكرية؛ من خلال اهتمامها بالتعليم وفتح المدارس، مع أنها كانت وثيقة الارتباط بسياسات الدول الأوروبية[٦]. ومن جهة أخرى كانت المؤسسات التعليمية والمدارس المختلفة التي احتضنت ثقافات مختلفة أيضاً، وحظيت بحرية عمل بدعم من الامتيازات وحركة التبشير والتنظيمات العثمانية، إلا أنها غدت في الوقت نفسه مصنعاً لإنتاج السياسة والإيديولوجيات المختلفة في بلاد الشام في تلك المرحلة[٧]. فقد كانت كل إرسالية تحظى بحماية دولة أو أكثر من الدول الأوروبية، وتدور في فلك سياساتها، وكان النشاط التبشيري لزيادة عدد أتباع الكنيسة يصب مباشرة في زيادة أتباع الدولة الأوروبية الحامية لها، ناهيك عما خلّفته النزاعات بين الإرساليات من تدخلٍ للدول الأوروبية في العلاقات الاجتماعية- السياسية. كما كانت السياسة التعليمية للإرساليات التبشيرية توجه منتسبيها إلى قبول أفكار ومبادئ الدولة الحامية، والتعاطف معها سياسياً[٨]، وبذلك تم توظيف التعليم كوسيلة

---

[١] مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء الثامن، ص٤٧٦.

[٢] المصدر نفسه، الجزء التاسع، نيسان ١٨٨٣، ص٥٢٩-٥٣٧.

[٣] الرفاعي، مرجع سابق، ص٣٢. خوري، يوسف قزما، مرجع سابق، ص٢٩.

[٤] النصولي، مرجع سابق، ص١٠٠. رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص٢٣٠.

[٥] مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء السابع، ص٢٨٩-٢٩٠. مطر، مصدر سابق، ص١١٨. وكان أشهر مدارس الإناث في تسعينيات القرن التاسع عشر مدرسة الناصرة ومدرسة اللعازارية والمدرسة البروسية والمدرسة الأمريكية والمدرسة الإنكليزية. انظر: سامي، مصدر سابق، ص٨.

[٦] النصولي، مرجع سابق، ص٨٣.

[٧] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق ، ص١٠٠.

[٨] كوتلوف، مرجع سابق، ص١٩٩-٢٠٠.

إيدولوجية تحدد اتجاهات سياسية معينة في مجتمع بلاد الشام. ومع أن تعدد المدارس كان يعكس جزءاً من نظام الملل العثماني، إلا أنها لم تعكس حقيقة تعايش "الملل" المتوازن، بل بدأت تعكس مظاهر الخلل الكبير في توازن العلاقات الاجتماعية بين الطوائف مع التغلغل الأوروبي الاقتصادي والسياسي في بلاد الشام. فالموارنة التزموا بالمدارس الفرنسية، أما الفئات المسيحية التجارية فارتبطت بالمدارس الإنجيلية الإنكليزية- الأمريكية، التي أولت- بطريقتها الخاصة- "عناية" بالثقافة العربية، بينما انجذب الأعيان والتجار المسلمون إلى المدارس الحكومية، والمدارس الإسلامية الخاصة، فضلاً عن المدارس الملحقة بالجوامع وحلقات العلماء[١]. وإذا ماقمنا بموازنة صغيرة مع مصر أيام محمد علي باشا، فإننا نجد أن مصر استوردت أفكار أوروبا العلمية في الإدارة، والمصارف، والصناعة، والتجارة، في حين أن التعليم في بلاد الشام كان متأثراً بالرهبانيات والجمعيات الدينية الأخرى، إلى جانب تركيز كل رهبانية وإرسالية على نشر أفكار الدولة التي تعمل على حمايتها[٢]، ولاسيما أن تلك المدارس كانت تُدار ضمن سياسات أوروبية ممنهجة، فالتعليم الفرنسي ركز على إيجاد كوادر إدارية لإدارة أجهزة نظام المتصرفية، وبحث التعليم الإنجيلي (الإنكليزي- الأمريكي) عن إيجاد كوادر متحمسة للنموذج الغربي للترويج للديمقراطية الغربية. أما التعليم الرسمي فقد حاول تأمين ثقافة إيدولوجية- إسلامية تركز على الوحدة العثمانية والوحدة الاسلامية[٣]، وذلك في مرحلة دراسة البحث ١٨٤٠-١٨٧٨.

٢- الطباعة :

كانت الطباعة التي اخترعها العالم الألماني غوتنبرغ في القرن الخامس عشر، من أهم مقومات النهضة الأوروبية، وهو الأمر نفسه بالنسبة للمشرق العربي، فقد شكل ظهورها وانتشارها عاملاً مهماً من عوامل النهضة الفكرية العربية[٤]، في وقت كانت المؤلفات ضئيلة،

---

[١] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص١٠١.

[٢] جبر، مرجع سابق، ص٣٩٩-٤٠٠.

[٣] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص١٠٢.

[٤] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٢٧. يشير لويس شيخو إلى أن معرفة فن الطباعة، في المشرق أقدم من معرفة الأوروبيين به، فقد عرف البابليون الطباعة بقوالب من الآجر في عصور ما قبل الميلاد، وعرفها الصينيون حوالي القرن السابع الميلادي باستعمال الخشب. كما مارس عرب الأندلس فن الطباعة وقد استعملوا فيه الحجر، وذلك حسب ما ورد في بعض الكتب الأندلسية. انظر: شيخو، لويس، تاريخ فن الطباعة في المشرق، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٩٥، ص٧-٨.

والمخطوطات نادرة الوجود، وغالية الثمن، وكانت الكتب تعتمد على النسخ اليدوي؛ إذ كان تعليم الخط وفن الكتابة أمراً ذا شأن كبير[١].

ولم تكن الطباعة في بلاد الشام في القرن التاسع عشر بالأمر الجديد كلياً؛ لإنها كانت معروفة منذ القرن السابع عشر والثامن عشر، ولو على نطاق غير واسع، وكانت حكراً على الكنيسة ورجال الدين حتى أواسط القرن التاسع عشر بشكل شبه تام[٢].

لقد ظهرت الطباعة العربية بدايةً في أوروبا، فقد تأسست أول مطبعة عربية في إيطاليا أوائل القرن السادس عشر، وظهر أول كتاب باللغة العربية عام ١٥١٤[٣]، واستمرت الطباعة باللغة العربية في إيطاليا طيلة القرن السادس عشر، كما ظهرت مطبعة في ليدن في (هولندا) عام ١٥١٥ ونشرت كتباً عديدة باللغة العربية، وطُبع كتاب صناعة النحو كأول كتاب عربي في المطبعة الملكية بباريس، وتأسست في لندن مطبعة عربية عام ١٦٥٠، ثم في أكسفورد، في نفس المرحلة نفسها، ثم انتشرت الطباعة العربية في المدن والعواصم الأوروبية الأخرى وتوالى صدور الكتب العربية[٤].

أما أول مطبعة وصلت إلى "الشرق الأدنى" هي التي وصلت إلى الأستانة في أواخر القرن الخامس عشر[٥]، وهي مطبعة الأستانة العبرية، ويبدو أن الكتب العربية قد طبعت بجهود البعثات التبشيرية الكاثوليكية الأولى في القرن السادس عشر في هذه المطبعة، وكانت تطبع بالحروف العبرية فقط، ولم تبدأ هذه المطبعة بطباعة الحروف العربية بشكل رسمي إلا في أوائل القرن الثامن عشر بعد صدور " فتوى" من شيخ الإسلام العثماني بذلك[٦].

أما في بلاد الشام فإن أول مطبعة وصلت إليها هي مطبعة دير قزحيا التي أهدتها روما إلى الرهبانية هناك عام ١٦١١[٧]، واستقبلت حلب أول مطبعة عربية في المشرق في أوائل القرن

---

[١] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٤.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٥٤–٢٥٥.

[٣] زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الفكر، بيروت، ط١، ج٤، ١٩٩٦، ص٤٥. قدوره، مرجع سابق، ص٢٠. على أن اللغة العبرية هي أول لغة شرقية طُبعت، فقد طُبعت التوراة العبرية عام ١٤٥٥، ولكن الكتب العربية نالت النصيب الأكبر في الطبع والنشر. انظر: شيخو، تاريخ فن الطباعة في المشرق، مرجع سابق، ص٩–١٠.

[٤] شيخو، تاريخ فن الطباعة في المشرق، مرجع سابق، ص١٧. عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٥١–٢٥٢.

[٥] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٢٧. النصولي، مرجع سابق، ص١٣٤.

[٦] شيخو، تاريخ فن الطباعة في المشرق، مرجع سابق، ص٢٠. عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٥٢. الرفاعي، مرجع سابق، ص١٨–٢١. وللاطلاع على نص الفتوى، انظر: سركيس، مصدر سابق، ص١١٧.

[٧] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٤٦–٤٧. النصولي، مرجع سابق، ص١٣٤. جبر، مرجع سابق، ص٤٠١. الرفاعي، مرجع سابق، ص١٧.

الثامن عشر[١]، وكانت ثالث مطبعة عربية هي مطبعة دير مار يوحنا بالشوير حوالي عام ١٧٣٣، وقامت طائفة الأرثوذكس في أواسط القرن الثامن عشر بتأسيس مطبعة عربية في دير القديس جارجيوس، لمنافسة مطبعة الشوير الكاثوليكية[٢]. أما مصر فقد دخلتها أول مطبعة مع حملة نابليون عام ١٧٩٨[٣].

وفي القرن التاسع عشر وكما الحال بالنسبة للمدارس الحديثة ودور الإرساليات التبشيرية فيها، كان لهذه الإرساليات دور كبير في تقدم الطباعة وفنونها في بلاد الشام[٤]، ولاسيما بعد أن أخذ الصراع التبشيري مداه في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، وبعد أن نقل المرسلون البروتستانت الأمريكيون مطبعتهم العربية إلى بيروت عام ١٨٣٤[٥]، التي كانوا أسسوها في مالطا منذ عام ١٨٢٢، وقد قامت هذه المطبعة بنشر الكتب الدينية، وعلى رأسها الكتاب المقدس، إلى جانب المطبوعات والكتب المدرسية[٦]. ورداً على ذلك فقد افتتح الآباء اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية في بيروت عام ١٨٤٨، إلى جانب مطبعة أخرى أنشأوها في القدس عام ١٨٤٩[٧].

ثم توالى تأسيس المطابع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ففي بيروت ظهرت المطبعة السورية عام ١٨٥٧ لصاحبها خليل خوري، والمطبعة الشرقية عام ١٨٥٨ أنشأها الدكتور إبراهيم النجار، ومطبعة إهدن أواخر عام ١٨٥٩، والمطبعة العمومية للمطران يوسف الدبس عام ١٨٦٢[٨]، ومطبعة المعارف للبستاني عام ١٨٧٦، ومطبعة ثمرات الفنون والمطبعة الأدبية عام ١٨٧٤، والمطبعة الوطنية وغيرها[٩].

---

[١] شيخو، تاريخ فن الطباعة في المشرق، مرجع سابق، ص٣٢-٣٣. قدورة، مرجع سابق، ص١٣٠

[٢] شيخو، تاريخ فن الطباعة في المشرق، مرجع سابق، ص٤٣. جبر، مرجع سابق، ص٤٠٢.

[٣] عبد الكريم ، مرجع سابق، ص٢٥٣. رافق ، العرب والعثمانيون، مرجع سابق ، ص٤٣٠.

[٤] جبر، مرجع سابق، ص٤٠٢. النصولي، مرجع سابق، ص١٢٨. يشير صاحب كتاب العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية إلى وجود أحدى عشرة مطبعة في بيروت وكلها تعود للمسيحيين، سنة تأليفه لكتابه هذا، أي عام ١٨٧٤، وأن هناك مبادرة من المسلمين لتأسيس مطبعة خاصة بهم. انظر: مطر مصدر سابق، ص١١٩-١٢٠.

[٥] مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء السابع، ص٣٧٨.

[٦] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٤٧ . منسى ، مرجع سابق، ص٦٣.

[٧] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٦. جبر، مرجع سابق، ص٤٠٣. ويحصي مكاريوس ثلاثة عشرة مطبعة في بيروت عام ١٨٨٣. انظر: مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء الثامن، ص٤٦٥.

[٨] غنام ، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٦.

[٩] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٢٩.

أما دمشق فقد استقبلت أول مطبعة عام ١٨٥٥ على يد حنا الدوماني التي أحضرها من أوروبا[١]، ثم أنشأ المطران يوسف مطر المطبعة الحلبية عام ١٨٥٧، ثم توالى ظهور المطابع فيها مثل (مطبعة ولاية سورية الرسمية، والمطبعة العسكرية، والمطبعة الخيرية وغيرها).

وفي القدس أُنشئت فيها إحدى عشرة مطبعة بين عامي ١٨٣٠ و١٨٧٩ وكانت تطبع بلغات عديدة[٢]. وكان في حلب عام ١٨٨٢ (٨٣) مطبعة حكومية تطبع فيها الجرائد الرسمية والشعبية، إضافة إلى المطبعة المارونية، والمطبعة العزيزية[٣]. والسؤال الآن ما أهم النتائج المترتبة على ظهور الطباعة في بلاد الشام والمشرق العربي ؟.

في الحقيقة قامت المطابع بدور كبير في القرن التاسع عشر في نشر الثقافة والفكر؛لأن الكتب كانت- قبل ظهور الطباعة- نادرة الوجود، وكانت الثقافة على حدِّ قول بعض الرحالة **(تؤخذ من أفواه الرجال، لا من بطون الكتب)**[٤]، وحتى الكلمات والألفاظ ومدى صحتها أو خطأها كانت تعرف من كلام المثقفين، وليس من المعاجم والقواميس، كما يشير الباحثون إلى ضآلة التأليف في هذه المرحلة[٥]، أو كما يشير صاحب كتاب "قاموس الصناعات الشامية" بأن الناس في عصره (في القرن التاسع عشر) قد اتقنوا معظم أنواع الحرف والصناعات خوفاً من الفاقة والفقر إلا أنهم **(أعرضوا عن حرفة العلم وصناعة الأدب)**[٦]. وفي الواقع من الضروري الفصل ما بين النصف الأول والنصف الثاني من القرن التاسع عشر عند الحديث عن تاريخ الطباعة في بلاد الشام؛ لأنه كما ذكر قبل قليل احتكرت الكنيسة الطباعة حتى أواسط القرن التاسع عشر، تركز إنتاج المطابع في تلك المرحلة على الكتب الدينية بشكل شبه كامل؛ لذا فإن أثرها في النهضة الفكرية، والثقافة العامة كان محدوداً للغاية[٧]. أما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد أدت الطباعة دوراً مهماً في نشر الثقافة والتعليم، وإرساء أركان النهضة الفكرية في بلاد الشام، فقد أسهمت في حفظ الآداب العربية من التلف والضياع، وروَّجَتْ للعلوم

---

[١] شيخو، تاريخ فن الطباعة في المشرق، مرجع سابق، ص١٤٩.

[٢] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٢٨. مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء الثامن، ص٤٧٣-٤٧٤.

[٣] النصولي، مرجع سابق، ص١٣٥.

[٤] جبر، مرجع سابق، ص٢٠٤.

[٥] المرجع نفسه، ص٢٠٤.

[٦] القاسمي وآخرون، مصدر سابق، ج١، ص٥.

[٧] عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢٥٣.

والمعارف، وكان لها دور كبير ومهم في ظهور الصحافة التي اقترن ظهورها بظهور الطباعة بشكل مباشر[١].

٣- الصحافة:

يشير العديد من الباحثين إلى أن الصحافة صناعة أوروبية، ومن مستحدثات الحضارة المدنية الغربية، فقد ظهرت في أوروبا في القرن الخامس عشر في فرنسا، ووصلت إلى الشرق لأول مرة مع حملة نابليون على مصر وبلاد الشام ١٧٩٨[٢]؛ إذ أصدرت البعثة العلمية المرافقة للحملة الفرنسية ثلاث جرائد طبعت في المطبعة التي أحضرتها الحملة معها أيضاً، كانت إحدى هذه الجرائد جريدة الحوادث اليومية التي تنطق بالعربية، عدَّها أحد الباحثين في تاريخ الصحافة جَدَّةَ الصحف العربية، وتوقفت هذه الجرائد عن الإصدار مع انسحاب الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١، وتُعدّ جريدة الوقائع أول جريدة وطنية صدرت عام ١٨٢٨ في عهد محمد علي باشا[٣].

وظهرت صحف بلاد الشام الأولى على شاكلتين، الأولى: هي الصحف التي أسسها المثقفون والمفكرون من بلاد الشام في الخارج، وكانت أولها جريدة مرآة الأحوال في الأستانة لرزق الله حسون عام ١٨٥٥، وناهضت هذه الجريدة الحكم العثماني، واضطر صاحبها للهروب إلى روسيا[٤]. وفي الأستانة أيضاً ظهرت جريدة الجوائب عام١٨٦٠ لصاحبها أحمد فارس الشدياق[٥]، كما ظهرت صحيفة عطارد في مرسيليا، وبرجيس في باريس عام ١٨٥٨[٦].
أما الثانية: فهي الصحف التي ظهرت داخل بلاد الشام، وكانت جريدة حديقة الأخبار لصاحبها خليل خوري عام ١٨٥٨م أول جريدة عرفتها بلاد الشام[٧]، وهي صحيفة أسبوعية سياسية وعلمية

---

[١] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٨.

[٢] النصولي، مرجع سابق، ص١٣٩.

[٣] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٧٣. غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٩. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٢.

[٤] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٥٥. غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٠.

[٥] شريف، مرجع سابق، ص٨٢.

[٦] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٣. الرفاعي، مرجع سابق، ص٦٧.

[٧] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٧٤. زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٥٦. الرفاعي، مرجع سابق، ص٦٢.

وتجارية وتاريخية. وصدرت عام١٨٦٠ جريدة نفير سورية لصاحبها المعلم بطرس البستاني، ودعت هذه الجريدة إلى التعايش والتسامح والمحبة بين سكان وطوائف جبل لبنان[١].

وتجدر الإشارة إلى تنبّه السلطان عبد المجيد إلى كثرة الصحف وازدياد المطابع والطباعة في الفترة ما بين ١٨٤٠-١٨٥٦، فخوفاً من "بلبلة" الأفكار و"إشاعة" الاضطرابات والقلاقل، لاسيما في بلاد الشام، فقد أصدر في ٦ كانون الثاني ١٨٥٧ لائحة هي الأولى من نوعها في تاريخ الصحافة العثمانية والعربية، لتنظيم وضبط عمل المطابع والمطبوعات[٢].

ثم توالى صدور الجرائد والصحف في بلاد الشام وغلب عليها الطابع الرسمي والحكومي فقد صدرت جريدة سورية عام ١٨٦٥، وجريدة دمشق لأحمد عزة العابد في دمشق، وأصدر حاكم جبل لبنان جريدة لبنان عام ١٨٦٧، وصدرت في حلب جريدة الفرات في حلب عام ١٨٦٧[٣]، والجنة ولسان الحال عام ١٨٧٧، والشهباء عام ١٨٧٧، والاعتدال عام ١٨٧٩. وكان عبدالحميد الزهراوي يصدر جريدة (المنبر) في حمص، ويوزعها سراً في بلاد الشام ويهاجم فيها السلطان عبد الحميد الثاني وحكمه الاستبدادي[٤].

أما بالنسبة للبعثات التبشيرية ومع أنها اهتمت بالمدارس ثم بالطباعة، فإن الأخبار عن اهتمامها بالصحافة كانت ضئيلة، فقد أصدر المرسلون الأمريكيون عام ١٨٥١ مجلة (مجموع فوائد) التي كانت تبحث في الشؤون الدينية والعلمية والتاريخية والجغرافية، وعُدَّت باكورة المجلات التي ظهرت في بلاد الشام، ولم يكن رجال الصحافة في بلاد الشام يفرقون بين المجلة والجريدة، حتى اتبعوا النهج الغربي للتمييز بينهما[٥]، ثم حرر المرسلون الأمريكيون جريدة دينية باسم النشرة الشهرية، ثم أبدلوها بالنشرة الأسبوعية عام ١٨٧٠. وفي العام نفسه تبعهم اليسوعيون بنشر جريدة المجمع الفاتيكاني، ثم البشير[٦]، وفي عام ١٨٥٢ قام أعضاء الجمعية السورية بإصدار مجلة الجمعية تحت إدارة بطرس البستاني، وقد أسهم في تحريرها أغلبية أعضاء الجمعية،

---

[١] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٠ ، ٢٦٢.

[٢] الزواهرة، مرجع سابق، ص١٧٠-١٧١. ويشير عبد الرحمن بك سامي، لدى زيارته لبيروت ودمشق، إلى أن جرائد بيروت لم تتمتع بالحرية كما لغيرها (ولعله يقصد صحف مصر)، لأن **(مجلس المعارف في بيروت كان يطّلع على مسوداتها قبل طبعها لكي يحذف ما لا يوافق نشره)**. انظر: سامي، مصدر سابق، ص١١.

[٣] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٥٧. شريف، مرجع سابق، ص٨٢.

[٤] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٤-١٣٥.

[٥] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٥٩،٢٦٢.

[٦] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٧٤

واشتملت على جميع المواد العلمية والفنية والتاريخية والتجارية والأدبية[١]. وأصدر بطرس البستاني مجلة الجنان في بيروت عام ١٨٧٠؛ وهي مجلة جمعت بين العلم والآداب والسياسة[٢].

تلا صدور جريدة الوقائع المصرية عام ١٨٢٨ مرحلة ركود، حتى جاء عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)؛ إذ نشطت الصحافة وجميع مجالات الآداب والفكر، فوجد مثقفو بلاد الشام وصحفيوها في مصر ملاذاً آمناً[٣]، نتيجة اضطراب الأحوال الأمنية والحياتية والصراعات الطائفية، بعد أن عملت السياسة الأوروبية والعثمانية على ضرب عناصر الاستقرار[٤]، ولمسوا من الحرية في مصر ما دفعهم إلى إصدار الجرائد والمجلات بكثرة، وتنافسوا مع المصريين على هذا المجال، فتعددت الصحف وكثرت، ومن أقدم صحف بلاد الشام في مصر جريدة الكوكب الشرقي عام ١٨٧٣، والأهرام عام ١٨٧٦، ومرآة الشرق عام ١٨٧٩، ومجلة المقتطف التي تأسست في بيروت عام ١٨٧٤ ثم انتقلت إلى مصر عام ١٨٨٤[٥].

٤- الجمعيات الأدبية ودور المؤسسات التبشيرية والاستشراقية فيها:

عندما عجز الأفراد من المستشرقين عن احتواء كامل موروث الحضارة العربية والإسلامية وبقية حضارات الشرق، عمدوا إلى إنشاء الجمعيات الأدبية والفكرية، وإقامة المؤسسات والمراكز التوثيقية[٦]، وقد تورطت هذه المؤسسات في المخططات الاستعمارية، بعد أن امتدت السيطرة الاستعمارية الأوروبية إلى الشرق الأقصى، وأصبحت تستعد في القرن التاسع عشر لاختراق "الشرق الأدنى"[٧]. أقدم هذه الجمعيات الجمعية الآسيوية التي تأسست في بتافيا عاصمة جاوة عام ١٧٨١، ثم الجمعية الآسيوية البنغالية في كلكتا (الهند) عام ١٧٨٤، ثم أنشأ الفرنسيون الجمعية الآسيوية الباريسية برئاسة سلفستر دي ساسي S. De Sacy عام ١٨٢١، وكانت تنشر في السنة مجلدين لكل مقالات ومؤلفات المستشرقين[٨]. كما أنشأ الانكليز جمعية باسم جمعية بريطانيا العظمى وإيرلندا الآسيوية الملكية بإدارة جماعة من المستشرقين[٩]، وصدر للجمعية مجلة بعنوان مجلة لندن الآسيوية الملكية، وأنشأ الألمان جمعيتهم عام ١٨٤٤، إضافة

---

[١] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٢.

[٢] النصولي، مرجع سابق، ص١٤٥.

[٣] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣١.

[٤] النصولي، مرجع سابق، ص١٤٨.

[٥] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٢.

[٦] غنام، مرجع سابق، ص٢٦٣

[٧] لوكمان، مرجع سابق، ص١٦٠.

[٨] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٤٥-٤٦.

[٩] غنام، مرجع سابق، ص٢٦٣

إلى العديد من الجمعيات التي أسسها المستشرقون في النمسا [١] وأمريكا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، وغيرها[٢].

وقد تأثر مفكرو المشرق العربي، ولاسيما مفكري بلاد الشام بنشاط هذه الجمعيات وأدائها، ويتابعون جهودها الفكرية، فبادروا- متأثرين بالمنهج الغربي[٣]، وبمشاركة وتشجيع من البعثات التبشيرية، ولاسيما البعثات الأمريكية البروتستانتية- إلى تأسيس أول الجمعيات الأدبية في بلاد الشام؛ وهي جمعية الفنون والعلوم عام ١٨٤٧ التي اشترك فيها بطرس البستاني وناصيف اليازجي[٤] وميخائيل مشاقة وعدد من المبشرين البروتستانت مثل (إيلي سميث، وكرنيليوس فانديك وغيرهم)، ولم يشترك فيها أحد من المسلمين، واستمرت هذه الجمعية حتى عام ١٨٥٢[٥] وشكلت نواةً للعديد من الجمعيات العربية الأخرى، فقد عدَّها أحد الباحثين بداية قصة الحركة القومية للعرب في القرن التاسع عشر[٦]. وكما كان الأمر في المدارس والطباعة، فالتنافس بين البروتستانت والكاثوليك طال ميدان الجمعيات، فكان ردُّ اليسوعيين على هذه الجمعية تأسيسهم للجمعية الشرقية عام ١٨٥٠[٧]، وكان أغلب أعضائها من الطائفة الكاثوليكية (محليين وأجانب)، مثل طنوس الشدياق، وفرنسيس مطر وغيرهم[٨]. إلا أن هاتين الجمعيتين لم تستمرا طويلاً، إذ غلب عليهما الطابع التبشيري، والأهداف السياسية لبعض المستشرقين، كما لم يؤد التنافس بينهما- كما حدث في عملية إنشاء المدارس- إلى زيادة عددها، بل إلى انفراط عقدهما[٩]. وعلى أنقاض هاتين الجمعيتين ظهرت الجمعية العلمية السورية التي أُنشئت عام ١٨٥٧[١٠]، ولم يشارك فيها أحد من الأجانب، إذ تأسست بعضوية عدد من المسلمين والمسيحيين العرب، وشكلت بذلك نقطة تحول في الوعي الوطني، وكانت قد توقفت عن العمل مع أحداث عام

---

[١] غنام، مرجع سابق، ص٢٦٣-٢٦٤

[٢] شريف، مرجع سابق، ص٦٩.

[٣] غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٤.

[٤] منسى، مرجع سابق، ص٦٦. مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء السابع، ص٢٨٧، ٢٩١.

[٥] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٧٠. أنطونيوس، مرجع سابق، ص١١٧. شريف، مرجع سابق، ص٨٠ . غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٤.

[٦] أنطونيوس، مرجع سابق، ص٧١.

[٧] المرجع نفسه، ص١١٨.

[٨] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٧٥. غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٤ – ٢٦٥. منسى، مرجع سابق، ص٦٦.

[٩] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١١٨. غنام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٥.

[١٠] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٧٥.

١٨٦٠[1]، ثم عادت إلى ممارسة نشاطها عام ١٨٦٨، واعترفت بها الدولة العثمانية رسمياً، وانضم إلى صفوفها شخصيات من كل مدن بلاد الشام والأستانة أيضاً، وهي أول مظهر وطني تغلب فيه الشعور الوطني على الاختلاف الديني[2]، وتحولت هذه الجمعية- على رأي أحد الباحثين- إلى مهدٍ للحركة السياسية[3]. ومن أشهر الجمعيات التي كانت نقطة تحول في نوعية عمل الجمعيات، جمعيةُ بيروت السرية عام ١٨٧٥، فقد كانت جمعية سياسية طالبت بحقوق العرب، وحضت على النهضة والوقوف في وجه العثمانيين[4].

وتوالى ظهور جمعيات أخرى في بلاد الشام؛ كالجمعيات النسوية والخيرية، مثل جمعية شمس البر عام ١٨٦٩، وجمعية زهرة الآداب عام ١٨٧٣، وجمعية المقاصد الخيرية عام ١٨٨٠، وجمعية زهرة الإحسان عام ١٨٨١ في بيروت[5].

أما في دمشق فقد تأخر ظهور الجمعيات التي نذكر منها: جمعية رابطة المحبة عام ١٨٧٤ وجمعية المقاصد الخيرية عام ١٨٧٨، إضافة إلى الجمعية التاريخية عام ١٨٧٥وجاءت للبحث في التاريخ وغيره من العلوم الاجتماعية[6]، وجمعية الفنون الطبية التي نظمها الأطباء المحليون، وفي طرابلس ظهرت عدة جمعيات أدبية لكنها لم تستمر طويلا[7]. ولم تظهر الجمعيات الأدبية والعلمية في حلب قبل صدور الدستور عام ١٩٠٨[8].

---

[1] منسى، مرجع سابق، ص٦٦. كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص١٣٣.

[2] أنطونيوس، مرجع سابق، ص١١٨-١١٩. شريف، مرجع سابق، ص٨٠. غنام ، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص٢٦٥.

[3] منسى، مرجع سابق، ص٦٦.

[4] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٩.

[5] المرجع نفسه، ص١٣٩. زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٧١-٧٤. كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، مرجع سابق، ص١٣٤.

[6] قساطلي، مصدر سابق، ص١٢٠

[7] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٣٩-١٤٠.

[8] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص٧٧. مكاريوس، المعارف في سورية، مصدر سابق، الجزء الثامن، ٤٧٤.

٥- مستشرقو القرن التاسع عشر والتراث العربي القديم :

إن طرق تخيّل الشرق وتصويره أخذ أشكالاً متشابكة ومعقدة مع ازدياد وتوسع السيطرة الأوروبية في الشرق في القرن التاسع عشر[١]، فبعض أهداف الاستشراق كانت تتركز على معرفة ثقافة الشرق بشكل عام، ومنها ثقافة العرب، ودراسة تراثهم القديم، بغرض الثقافة ولأهدافٍ أخرى ناقشناها سابقاً[٢]، ثم اتجهت أنظارهم نحو أهداف أخرى (سياسية واقتصادية) عندما تحول بعض المستشرقين إلى رسل سياسيين لدولهم[٣]، واتخذت أوروبا من دراسات وأفكار هؤلاء استراتيجيات للمشاريع الاستعمارية، والعدائية للإسلام والعرب، ومعظم الشرق[٤].

ومهما اختلفت نيات المستشرقين ومقاصدهم، فقد أفاد العديد منهم التراث العربي فائدة عظيمة[٥]، وليس من الخطأ بشيء أن يعترف المرء بفضل بعض المستشرقين في تحقيق المخطوطات العربية القديمة[٦]، وفي إحياء ما اندثر من الرصيد المعرفي والعلمي[٧]، وفي خدمة اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها[٨]. فقد أسهم المستشرقون في نشر الكتب العربية القديمة، وتحقيق المخطوطات ووضع الفهارس والملحقات والشروح لها، إضافة إلى ترجمتها إلى لغاتهم، ناهيك عن مؤلفاتهم الخاصة عن الآداب والعلوم العربية بمختلف اللغات[٩]، وهذه عيّنة من هؤلاء المستشرقين :

كان الفرنسيون أكثر الأوروبيين اهتماماً بهذا المجال[١٠]، ويُعَدُّ سلفستر دي ساسي Sylvester De Sacy (١٧٥٠-١٨٣٨) أشهرهم، فعلى الرغم من أن جمعيته الآسيويّة التي أسهم في تأسيسها- وبقيّة الجمعيات المشابهة- تَعِدُّ استعمار الشرق أمراً مسلماً به، فقد قضى معظم حياته في التعليم والنشر والتأليف، وكان ملمّاً بمعظم اللغات الشرقية[١١]، وأتقن اللغتين العربية والفارسية، وألّف كتاباً في النحو العربي، وآخر في القراءة العربية إضافة إلى اهتمامه

---

[١] لوكمان، مرجع سابق، ص١٣٨.

[٢] انظر: البحث، ص٥٩-٦٣.

[٣] شريف، مرجع سابق، ص٦٨. الميداني، مرجع سابق، ص١٢٨-١٢٩.

[٤] المرجع نفسه، ص١٢٩. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٤٨.

[٥] شريف، مرجع سابق، ص٧٣.

[٦] لوكمان، مرجع سابق، ص١٥٨-١٥٩. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٤٨.

[٧] شريف، مرجع سابق، ص٧٣.

[٨] لوكمان، مرجع سابق، ص١٣٠. برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٤٨.

[٩] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٣. النصولي، مرجع سابق، ص١٨٧.

[١٠] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٤.

[١١] لوكمان، مرجع سابق، ص١٢.

بالتاريخ بشكل عام. ولعل آجلّ آثاره ترجمته لقصيدة البردة إلى اللغة الفرنسية، ونشر كتاب "كليلة ودمنة"، و"مقامات الحريري"، و"رحلة عبد اللطيف البغدادي"، و"ألفيّة ابن مالك" وغيرها من الذخائر والنفائس التي تربو على مئتي كتاب، ما بين نشر، وترجمة، وتأليف[١].

وقد أسهم العديد من المستشرقين ممن كانوا تلامذة لدوساسي أو معاصرين له في النصف الأول من القرن التاسع عشر في هذا الاتجاه[٢]، فقد أصبح تلميذه كاترمير E. quatremere (١٧٨٢-١٨٥٧) خلفاً له بعد وفاته ١٨٣٨؛ إذ نشر "مقدمة ابن خلدون" ومنتخبات "أمثال الميداني" و"مقامات الحريري"، ونشر "مفصّل مسالك الأبصار" لابن شهاب العمري واعتنى بـ"تاريخ المماليك" للمقريزي... وغيرها الكثير، إضافة إلى مقالات مهمة له نشرها في المجلة الآسيوية التابعة للجمعية الآسيوية الفرنسية[٣].

واشتهر من تلامذة دوساسي رينو Reinaud (ت ١٨٦٧) الذي نشر "تقويم البلدان" لأبي الفداء وترجمه إلى الفرنسية، وألّف في المخطوطات العربية، والرحلات العربية التجارية إلى الشرق الاقصى في القرن التاسع عشر للميلاد، ونشر "منتخبات عربية في الحروب الصليبية"، إلى جانب العديد من المقالات التي نشرها في المجلات الاستشراقية[٤]. بالإضافة إلى الكثير من المستشرقين الفرنسيين الآخرين[٥].

كما أسهم العلماء الألمان- ممن اهتموا بعلوم الشرق ولغاته وآدابه- بالحماسة نفسها في دراسة ونشر وترجمة الكتب والأعمال العربية، وأشهرهم فريتاغ W.G Freytag (١٧٨٨-١٨٦١)، وهو أيضاً من تلامذة دي ساسي، فقد نشر "ديوان الحماسة" لأبي تمام وترجمه إلى اللاتينية، وألّف كتاباً باللغة الألمانية عن اللغة العربية في الجاهلية والإسلام، ومعجماً في العربية واللاتينية، ونشر كتاب عبد اللطيف البغدادي "في وصف مصر"، و"زبدة الطلب في تاريخ حلب" و"حكم لقمان"، و"أمثال الميداني" مع ترجمتها وفهرستها ووضع الملاحق والإضافات لها[٦].

---

[١] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٤. شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٦٩. النصولي، مرجع سابق ، ص١٨٩. شريف، مرجع سابق، ص٦٩.

[٢] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٥. شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص٦٩-٧٠.

[٣] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص١١٥. زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٦. شريف، مرجع سابق، ص٦٩. النصولي، مرجع سابق، ص١٩٠-١٩١.

[٤] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص١١٦. زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٥-١٥٦. شريف، مرجع سابق، ص٦٩.

[٥] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٧،١٥٥. شيخو، تاريخ الآداب العربية، ص١١٦-١١٨.

[٦] المرجع نفسه، ص١١٨-١١٩. زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٥٨-١٥٩. شريف، مرجع سابق، ص٦٩-٧٠. النصولي، مرجع سابق، ص١٩١-١٩٢.

أما غوستاف فلوجل Gustav flugel (١٨٠٢-١٨٧٠) فقد نشر العديد من الكتب المهمة، منها "الفهرست" لابن النديم، كما ألّف كتاب "الكندي فيلسوف العرب"، وآخر عن نحويي البصرة والكوفة، وكتب بعض المقالات في المجلات الاستشراقية[١].

ومنهم فوستنفلته wustenfelte (ت ١٨٩٩)، وكان الأكثر نشاطاً على الإطلاق، فقد نشر وألّف ما يقارب مئتي كتاب، وأخرج العديد من الكتب التي كانت مندثرة تحت الركام، ركام الإهمال والنسيان، ومن هذه الكتب: كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي، و"معجم ما استعجم" للبكري، و"تهذيب الأنساب" للسمعاني، و"عجائب المخلوقات" للقزويني، و"المعارف" لابن قتيبة، و"سيرة ابن هشام"، و"أخبار قبط مصر" للمقريزي، إلى جانب العديد من المؤلفات باللغة الألمانية مثل "الإمام الشافعي"، و"تراجم أطباء العرب"، و"مؤرخي العرب ومؤلفاتهم" ... وغيرها الكثير[٢].

واشتهر منهم نولدكه Noeldecke (١٨٣٦-١٩٣٠)، الذي أتقن العربية السريانية وألّف في قواعد اللغتين وتقارب لهجاتهما، وكتب في "تاريخ عروة بن الورد"، وقدم دراسات في "المعلقات الخمس"، و"تاريخ الجاهلية"، ونشر كتاب "تقويم البلدان" لأبي الفداء، وترجمه إلى الألمانية[٣].

وكان أشهر النمساويين جوزف بورغشتال J. Purgstall (١٧٧٤-١٨٥٦) الذي عمل ترجماناً لقنصلية النمسا في الأستانة، وكان يتقن عدة لغات أجنبية، وألّف بعدة لغات مختلفة عدداً لا يحصى من الكتب والمقالات، اهتم في مؤلفاته بتاريخ الشرق وآدابه، فكتب عن "تاريخ الدولة العثمانية" في عدة مجلدات، و"تاريخ الآداب العربية" في سبعة مجلدات، ونقل إلى الألمانية كتباً للغزالي والزمخشري وابن الفارض وديوان المتنبي، إضافة إلى اهتمامه بالتاريخ الفارسي والتركي وآداب اللغتين[٤].

ومن الإنجليز اشتهر إدوارد لين E. Lane (ت ١٨٧٦) فقد أقام في مصر عدة سنوات، ونشر قاموساً (عربي- إنكليزي)، وله ترجمة نفيسة "لألف ليلة وليلة" في ثلاث مجلدات، إضافة إلى منتخبات من القرآن الكريم، وعدة مقالات، وكتب عن الآداب الإسلامية باللغة الإنكليزية[٥]. واشتهر من الإنجليز بالمر Palmer (ت ١٨٨٢)، الذي أتقن اللغة العربية وقرض الشعر ونقل

---

[١] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص١١٩-١٢٠. شريف، مرجع سابق، ص٧٠. النصولي، مرجع سابق، ص١٩٢.

[٢] شريف، مرجع سابق، ص٧٠. النصولي، مرجع سابق، ص١٩٢-١٩٣.

[٣] شريف، مرجع سابق، ص٧٠.

[٤] شيخو، تاريخ الآداب العربية، ص١٢٢.

[٥] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٦٣

الأشعار ترجمةً بين اللغتين العربية والانجليزية، وألّف كتاباً في قواعد اللغة العربية. واشتهر منهم مرجليوت Margoliouth، الذي كان مطّلعاً على العربية وآدابها ونشر "رسائل أبي العلاء المعري"، وله كتاب في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)[١].

ومن الإيطاليين أغناطيوس جويدي E. Guidi (١٨٤٤-١٩٣٥) الذي فهرس كتاب "الأغاني"، ونشر العديد من الكتب وألقى ما يقارب الأربعين محاضرة في جامعة القاهرة في الجغرافية والتاريخ وآداب اللغة[٢].

وكذلك أسهم الهولنديون أمثال دوزي R. Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣) في النشر والتأليف، وقد اختص دوزي في تاريخ المغرب والأندلس[٣]، وعكف دي غويه De Goeje (١٨٣٦-١٩٠٩)- أحد أساتذة كلية ليدن- على تنظيم المخطوطات الشرقية في مكتبة ليدن، وتفرّغ لنشر المؤلفات العربية، لاسيما المؤلفات الجغرافية لقدامى الجغرافيين العرب، فقد نشر كتباً قيّمةٍ جداً مثل "الممالك والمسالك" لابن خرداذبة، و"المسالك والممالك" لابن حوقل، و"جغرافية الإصطخري"، ومختصر كتاب "البلدان" لابن الفقيه الهمذاني، وكتاب "الأعلاق النفيسة" لابن رسته، وكتاب "البلدان" لابن الواضح اليعقوبي، و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي[٤]، والتاريخية مثل "تاريخ الرسل والملوك" للطبري، و"تجارب الأمم" لابن مسكويه، و"رسالة حي بن يقظان" لابن طفيل. ومنهم ثاودور جوينبول T. Juynboll (١٨٠٢-١٨٦١) الذي كان يتقن العربية فدرَّسها في جامعة ليدن، واعتنى بتاريخ دول الشرق، ونشر قصائد المتني وكتاباً للزمخشري، و"مختصر معجم البلدان" لياقوت الحموي وغيرها[٥].

ولم تكن حركة الدروس الشرقية نشيطة في روسيا كبقية الدول الأخرى، فمنذ أواسط القرن التاسع عشر أخذت الأكاديمية الملكية على عاتقها الترويج لهذه الدراسات، فبرز منهم الأستاذ غوتولد J. Gottwald (ت ١٨٩٧) الذي نشر "تاريخ سِنِّيَ ملوك الأرض والأنبياء" لحمزة الأصفهاني. والأستاذ كولسون D. Chwolson (ت ١٨٧٩) الذي ادّعى أن الصابئين المذكورين في القرآن الكريم هم المندائيون، وكان يُدرّس اللغات العبرية والسريانية والكلدانية[٦].

هذا إلى جانب العديد من المستشرقين، ممن لا يتسع المجال لذكرهم الذين أقبلوا على هذه الثروة الأدبية والعلمية نشراً وترجمةً وتأليفاً، وأسهموا بشكل كبير في لفت انتباه العرب والغرب

---

[١] زيدان، جرجي، مصدر سابق، ص١٦٤. شريف، مرجع سابق، ص٧١.

[٢] المرجع نفسه، ص٧١.

[٣] النصولي، مرجع سابق ص١٩٣.

[٤] لامنس، مصدر سابق، ص٣٩.

[٥] شيخو، تاريخ الآداب العربية، مرجع سابق، ص١٢٣.

[٦] المرجع نفسه، ص١٢٥.

إلى هذه الذخائر، فاستفادوا وأفادوا. فقد كان لهم دور مهم في استنهاض الهمم والتشجيع على البحث، وإحياء التراث وبعثه من جديد[١]، وفتحوا آفاقاً واسعة أمام المثقفين ومهّدوا السبل والأسباب للعودة إلى التراث وإحيائه الذي أصبح أساساً للنهضة الفكرية في القرن التاسع عشر[٢].

---

[١] شريف، مرجع سابق، ص٧١.

[٢] برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص١٤٨.

- **الخاتمة:**

يمكننا أن نستنتج مما سبق أن بلاد الشام شكّلت آخر معاقل الشرق (الإسلامي وغير الإسلامي) أمام المد الأوروبي الاستعماري، فبعد أن تمكنت القوى الأوروبية من إحكـام السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق الأقصى، بعد صراعات دولية حادة عليها- كانت بريطانيا أوفرها حظاً فيها- ضربت طوقاً على الدولة العثمانية من عدة منافذ وجهات في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وهذا ما تمثل في المعاهدات التي وقعتها بريطانيا مع مشيخات الخليج العربي عام١٨٢٠، والضغط الذي أحدثته كلٍ من روسيا والنمسا من الشمال والغرب، لاسيما روسيا التي ساهمت بشكلٍ فعال في أول انفصال كامل لإحدى الكيانات التي كانت ترزح تحت الاحتلال العثماني (اليونان عام ١٨٣٠)، وقامت فرنسا باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠، كما احتلت بريطانيا عدن بوابة البحر الأحمر عام ١٨٣٩، حتى بدت القوى العظمى وكأنها متفرغة لبلاد الشام الآن؛ إذ ألقت هذه القوى بكل ثقلها على هذه المنطقة بالذات، ولاسيما بعد أن تنازع عليها كلٌ من محمد علي باشا والسلطان العثماني. فأدى التدخل الروسي المفاجئ وغير المتوقع ربما، لصالح السلطان العثماني، إلى تنبيه هذه القوى إلى الخطر القادم من الشمال(الروس)، لاسيما أن بريطانيا استماتت في صد التوغل الروسي نحو الشرق والجنوب الشرق في إيران وأفغانستان، كي تحافظ على أمن وسلامة طرقها التجارية إلى الهند، بالإضافة إلى الخطر الذي شكّله محمد علي باشا على المصالح الأوروبية في بلاد الشام والمنطقة مما استدعى تدخل تلك الدول بقوة، ولاسيما بريطانيا، لوضع نهاية مناسبة للأزمة الحاصلة بين السلطان العثماني، ومحمد علي باشا الذي تركته فرنسا- الداعمة له- يواجه مصيره.

كانت النتيجة بدء مرحلة جديدة من تاريخ بلاد الشام الذي كان من أبرز سماته ظهور ملامح دورٍ ما للقوى الأوروبية، ولاسيما أن الدول الأوروبية بدأت بتعزيز وجودها الدبلوماسي في بلاد الشام عندما قامت بتعيين قناصل أوروبيين جدد في معظم المدن الرئيسية من بلاد الشام، بعد أن حدثت تعديلات جذرية على المهام التجارية للقناصل.

وكانت بلاد الشام مستعصية أمام كل محاولات التدخل الأوروبي منذ الحروب الصليبية، وكانت حملة نابليون أولى المحاولات الفاشلة في التاريخ الحديث والمعاصر للوصول إليها، وأما الآن وبعد انسحاب محمد علي فقد أدركت القوى الأوروبية أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً، وأن الدولة العثمانية أصبحت غير جديرة بالحفاظ عليها، بسبب الضعف الذي دبَّ في أوصالها، ومع ذلك لم تسارع تلك القوى إلى اقتسام ممتلكاتها بسبب عدم إمكانية اتفاقهم على القسمة فيما بينهم، واتّباع بريطانيا بالذات لاستراتيجية الحفاظ على وحدة وسلامة الدولة العثمانية حتى أواسط العقد الثامن من القرن التاسع عشر، ففضّلت تلك القوى اتباع سياسة النخر في جسد هذه الدولة حتى

تجعلها جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح. فقد كان سقوط الأستانة وشيكاً في حربي الشام الأولى والثانية لولا تدخل القوى العظمى الأوروبية، ففي هذا النزاع الأخير تبنت الدول الأوروبية قضية حماية الدولة العثمانية ومنعت عملية سقوطها بشكل رسمي بتوقيع القوى العظمى على مذكرة ٢٧ تموز عام ١٨٣٩ التي دخلت الأطراف الأوروبية بعدها في مفاوضات سياسية شكلت الأسس التي اعتمدتها كل دولة أوروبية في توجهها نحو بلاد الشام؛ فقد عكست هذه المفاوضات أهمية بلاد الشام للأطراف جميعاً، ورسمت مشهداً بالغ التعقيد في وسط تضارب مصالح الدول الأوروبية العظمى؛ كمشهد التقارب الروسي- البريطاني، مع الرابط النمساوي، ضد الرهان الفرنسي على مشروع محمد علي، كما أن دعم فرنسا لمحمد علي كان يقف عند حد سيطرته على بلاد الشام فقط، بل والبقاء تحت سيادة الدولة العثمانية، أما بريطانيا فاستطاعت إدارة الأزمة بهمة وزير خارجيتها بالمرستون، وخرجت من الأزمة بأفضل ما يمكن من نتائج، أما روسيا فقد فشلت في الحصول على مكاسب تعوّضها عن مكاسب معاهدة هنكار أسكلة سي عام ١٨٣٣، ولاسيما في قضية المضايق التي شكلت روح مفاوضات الجولة الثانية، بعد خروج محمد علي من بلاد الشام، واكتفت النمسا بالالتزام بمبادئ الحلف المقدس، ومبادئ مترنيخ.

وكان جبل لبنان الخاصرة الضعيفة التي استطاعت تلك القوى التغلغل من خلالها إلى جسد بلاد الشام، بسبب تعدد الطوائف والمذاهب فيها، في الوقت الذي بدأت فيه هذه الطوائف بالبحث لنفسها عن كيانات خاصة بها، تحت دوافع وتحريض الزعماء المحليين- الإقطاعيين، وكان التدخل الأوروبي ودعمه للعناصر المتناحرة عاملاً مهماً في تأجيج الخلافات، فقد زاد من سعة الهوة بين تلك الأطراف، وتسبب ذلك في ظهور آفة جديدة لم تعهدها بلاد الشام من قبل، ألا وهي النزاع الأهلي على أرضية طائفية، بعد أن سعت الدول الأوروبية إلى خلق كتل و"كيانات سياسية"، ومن هنا جاء التركيز على دراسة هذه المنطقة في المجال السياسي؛ إذ كانت جولات النزاع الأهلي دلائلاً واضحة على ما خلفه التدخل الأوروبي، البريطاني والفرنسي بالذات، من آثار سلبية تنذر بعواقب لا تحمد عقباها في بلاد الشام.

وعملت الامتيازات الأجنبية على تذليل العقبات أمام التوسع الأوروبي، ولاسيما تلك الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا في اتفاقية بلطه ليمان عام ١٨٣٨، وما لبثت أن تبعتها بقية الدول الأوروبية باتفاقيات مماثلة، وشكلت تلك الامتيازات ذروة التطور في مسيرة الامتيازات الأجنبية وعملها؛ لأنها فتحت الباب على مصراعيه أمام التغلغل الاقتصادي الأوروبي، فقد تم منح الدول الأوروبية تسهيلات تجارية مع تخفيضات جمركية مغرية جداً دون النظر إلى تحقيق شروط التوازن في العلاقات التجارية، مما أدى إلى ارتباك منقطع النظير في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بعد اضطراب أنماط العلاقات الإنتاجية القديمة أمام تدفق البضائع الأوروبية المصنعة وإغراق الأسواق الشامية بها، وكانت النتيجة ظهور تسارع في التحولات الاقتصادية

والسياسية، كان من الصعب على مجتمع بلاد الشام مواكبة مقتضيات تلك التحولات دفعة واحدة. ومع ذلك فقد ظهرت بعض بوادر التحول في الفكر السياسي لدى السكان في بلاد الشام، بينما قاومت علاقات الإنتاج تلك التحولات بشدة للحفاظ على التقاليد الإنتاجية السائدة.

وتضافرت جهود القناصل والمبشرين، مع نظام الامتيازات والفكر الاستشراقي (ما قبل التنوير الاستشراقي) على إرساء الأسس الأولى لملامح السياسة الأوروبية تجاه بلاد الشام، إضافة إلى غيرها من المناطق الأخرى التي تحظى بالأهمية ذاتها بالنسبة لهذه الدول. وبما أن جبل لبنان كان البوابة الضعيفة لبلاد الشام لما فيه من طوائف متعددة، فقد أصبح جبل لبنان ميداناً لعمل الإرساليات التبشيرية التي مررت في جزء كبير من عملها سياسات الدول الأوروبية الداعمة لها، بل إنها أصبحت في بعض الأحيان تمثل المصالح السياسية لتلك الدول، وأصبح كل مَنْ تقنعه باتباع تعاليم كنيستها يدخل مباشرة وتلقائياً في كنف وحماية الدولة الداعمة لتلك الكنيسة. وأرسى الفكر الاستشراقي ما يمكن تسميته الأسس الفكرية للسياسة الأوروبية في معظم الشرق، ومنها بلاد الشام التي بنيت في مجملها على فكرة التفوق الأوروبي التي تطورت باضطراد مع التطور الفكري الأوروبي السياسي والأدبي، ثم مع الكشوف الجغرافية التي حققت ثروات هائلة لأوروبا، وأخيراً مع التطور الصناعي الميكانيكي والبخاري الذي رسّخ لدى الأوروبيين فكرة التفوق الأوروبي بأوسع معانيه، وأصبحت مجمل تحركاتها ترتكز على هذا المبدأ، ومع مرحلة التنوير الاستشراقي الذي عكس تبدّلاً ما في الفكر الاستشراقي إلا أن المتزمتين والمتشددين لم يتركوا أمام هؤلاء فسحة للعمل، ومن جهة أخرى عكس أدب الرحلات بعضاً من الفكر الاستشراقي ونظرية التفوق تلك، فكثيراً ما عبّر بعض الرحالة عن آرائهم بسوداوية مع استعمال النقد اللاذع للكثير من العادات والتقاليد المشرقية، وإن وجدت بعض الاستثناءات هنا وهناك.

ودخلت أوروبا مرحلة جديدة من تاريخها الحديث والمعاصر أواخر القرن الثامن عشر، مع الثورة الصناعية. وفي القرن التاسع عشر كانت أوروبا قد قطعت أشواطاً في التقدم الصناعي إلى جانب التقدم في المجالات الأخرى بعد تحقيقها الكثير من التوسع الذي سيطرت فيه على مستعمرات كثيرة في أرجاء العالم، وكان هذا يعني بالضرورة التطور في المجال السياسي في أوروبا، ولاسيما على صعيد السياسة الخارجية، فقد تفتحت قريحتها الاستعمارية بما يضاهي تطورها التقني والصناعي. وانعكس ذلك في مدى وحدّة التنافس الدولي على المراكز الاستراتيجية في العالم، ومنها منطقة بلاد الشام، وللسبب نفسه شكلت المسألة الشرقية إحدى أهم القضايا في ملفات السياسة الخارجية للدول الأوروبية، بل يكاد يكون القرن التاسع عشر وقفاً على المسألة الشرقية؛ لما أفرزته هذه المسألة من تداولات وخصومات في أوروبا، ومنازعات وصراعات في المشرق العربي، وكانت بلاد الشام أكبر وأهم ساحاتها، فبعد جولات الأزمة اليونانية بدأت الأزمة

المصرية- العثمانية بالنزاع على بلاد الشام، لتتحول هذه المنطقة منذ ذلك الوقت إلى ميدان للمسألة الشرقية، فمن النزاع الأهلي في جبل لبنان بين عامي ١٨٤١ و١٨٤٥ إلى أزمة الأماكن المقدسة التي أدت إلى حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)، ثم أزمة عام ١٨٦٠ في جبل لبنان ودمشق، فقد عكست هذه الأزمات الأخيرة وما نتج عنها حجم التدخل الأوروبي في بلاد الشام، وأكدت على النتيجة الآتية وهي: أن المسبب الوحيد لأزمات ما بعد خروج محمد علي هو التدخل الأوروبي في بلاد الشام؛ إذ نتج عن أزمة عام ١٨٤١ ظهور قائم مقاميتين في جبل لبنان، وهو ما عكس التوجهات السابقة لحلول مترنيخ لتقسيم بلاد الشام بين محمد علي، والدولة العثمانية بخط يصل بين دمشق وبيروت، ناهيك عن دعم الدول الأوروبية للأطراف المتنازعة في سبيل تحقيق التوازنات الأوروبية- الأوروبية في بلاد الشام.

أما أزمة الأماكن المقدسة فهو مشهد فاضح لعملية التذرع بحماية الأماكن المقدسة، والتخفي وراء ستار الدين لتحقيق مصالح سياسية- استراتيجية، إذ تحول السبب في حرب القرم- وهو الخلاف على حماية الأماكن المقدسة- إلى أكثر الأمور ثانوية في مفاوضات الصلح قبل مؤتمر باريس، وتحولت قضايا نهر الدانوب والبحر الأسود وبعض مقاطعات البلقان إلى قضايا محورية في تلك الأزمة. بينما شكلت أزمة عام ١٨٦٠ مرحلة أساسية من تاريخ لبنان، بعد أن أقرت اللجنة الدولية نظام المتصرفية لجبل لبنان الذي ظل مستمراً بشكلٍ أو بآخر في العملية السياسية في لبنان، وعكس نوعاً من الانقسام الفئوي الذي جسّد الطائفية التي استمرت حتى بدايات الحرب العالمية الأولى.

وشكل ضعف الدولة العثمانية، وعملية "الاصلاحات" العثمانية ثنائية متلازمة؛ لأن تلك الإصلاحات جاءت على شكل إملاءات فرضتها أوضاع الدولة العثمانية وحاجتها إلى التضامن الأوروبي في وجه الأخطار التي تعرضت لها وعجزت عن صدها، مثل حركة محمد علي والضغط الروسي؛ إذ تمخض عن الخطر الأول خط كلخانه عام ١٨٣٩، وعن الضغط الروسي ظهرت إصلاحات خط همايون عام ١٨٥٦ والدستور العثماني عام ١٨٧٦، مع العلم أن ذلك لا ينفي الحاجة العثمانية الماسة للإصلاح التي تولاها عدد من رجالات الدولة العثمانية، وهذا ما يضعنا أمام الثغرة التي استطاعت القوى العظمى الاستفادة منها أيّما استفادة.

وبدأ الدور العام للهيمنة الاقتصادية الأوروبية يتضح في الدولة العثمانية وولياتها بعد انتهاء حرب القرم؛ إذ بدأت آثار سوء الحالة الاقتصادية بالظهور، بعد أن باشرت الدولة العثمانية بالاستدانة، وراقت سياسة القروض للدول الأوروبية؛ إذ اتحدت هذه السياسة مع سياسة العمليات الاستثمارية للبنوك للإحاطة بكامل الاقتصاد العثماني، فعند إعلان الدولة العثمانية إفلاسها عام ١٨٧٥، بدأت الدول الدائنة عن طريق البنوك المشتركة بإدارة الاقتصاد العثماني، وبدأ العد التنازلي لسقوط الدولة العثمانية. وكانت بلاد الشام من أهم مراكز أعمال تلك البنوك؛ إذ باشرت

بالاستثمارات في مجال النقل والمواصلات، وستنتقل في مرحلة لاحقة إلى إصلاح الموانئ وتوسيعها إلى جانب مدِّ خطوط السكك الحديدية، وكل ذلك جاء خدمة وتسهيلاً لحركتها التجارية فيها فحسب.

وتركت السياسة الأوروبية وممارساتها الكثير من الآثار في بلاد الشام على جميع الأصعدة، ولا يستطيع المرء وضعها كلها في خانة الآثار السلبية؛ إذ أقل ما يمكن أن يقال أنها فتحت منفذاً للانفتاح على حضارة الغرب والاطلاع على مكتسباته، وإن كانت بشروط الغرب ومقاييسه، فقد تفتحت الأذهان على ما وراء البحر المتوسط وشماله وما آلت إليه تلك الناطق من تطور وتقدم في العديد من المجالات، ويكاد يكون هذا كافياً للعب دور المنبه والموقظ لمجتمع بلاد الشام، والبدء بأنماط جديدة من التفكير وتداول جديد لأمور الحياة، مثل ظهور بوادر التحول في الفكر السياسي في بلاد الشام.

ومهما يكن فإن ذلك لن يكون مبرراً للأثار السلبية والممارسات السياسية للدول الأوروبية، لاسيما تلك الموبقات بحق المجتمع السياسي في بلاد الشام عند محاولة تفكيكه وتفتيته لتسهيل عملية التغلغل، ومن ثم فرض الهيمنة والسيطرة، هذا سياسياً.

أما الآثار الأوروبية في المجال الاقتصادي فقد كانت قاسية جداً، فبعد أن تمكنت هذه الدول- من خلال الوضع الاقتصادي العثماني العام- من التغلغل في الحياة في بلاد الشام والسيطرة على مفاصل الحياة الاقتصادية عن طريق الرأسمال الاحتكاري في التجارة والصناعة والزراعة، وخلق فئات برجوازية تجارية موالية للمصالح الأجنبية.

وتكاد أن تكون الخدمة التي قدمتها بعض المؤسسات الأوروبية جليلة، ولا سيما في مجال التعليم والثقافة، لولا ارتباطها الشديد بالسياسات الأوروبية، فقد عمدت الإرساليات الأوروبية إلى إنشاء المدارس الحديثة التي تحول بعضها إلى معاهد وجامعات مرموقة، إلا أن الاتجاهات الأوروبية كانت واضحة فيها -وعلى كل حال- فإن ذلك قد أدى بقصد أو بدونه إلى بداية جيدة لنمو الحركة الأدبية التي كانت لها مساهمة فعّالة في النهضة الفكرية والسياسية.

والله من وراء القصد

- **قائمة المصادر والمراجع:**

أولاً- وثائق غير منشورة:

- دار الوثائق التاريخية في دمشق.

- **قسم الوثائق العثمانية- الأوامر السلطانية:**

١- أوامر دمشق السلطانية.

٢- أوامر حلب السلطانية.

ثانياً- المنشورات ذات الصبغة الوثائقية:

١- آصاف، يوسف بك، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية، المطبعة العمومية- مصر، ط٢، ١٨٩٦.

٢- التونسي، موسى الكاظم، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، سلسلة وثائق سياسية(١)، دار البعث، دمشق، د.ط، د.ت.

٣- الخازن، فيليب وفريد، المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان١٨٤٠- ١٩١٠، دار الرائد اللبناني، الحازمية- لبنان، ط٢، ثلاث مجلدات، ١٩٨٣.

٤- رستم، أسد، المحفوظات الملكية المصرية، (بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد علي الكبير (١٢٤٨-١٢٥٠هـ/١٨٣٢-١٨٣٥م)، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، خمسة أجزاء.

٥- ريجنكوف. م، سميليا نسكايا. أ، سورية ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر (مذكرات رحالة، تقارير علمية واقتصادية، ووثائق قنصلية وسياسية وعسكرية)، راجعه مسعود ضاهر، دار النهار، بيروت، ١٩٩٣.

٦- ضو، أنطون، حوادث ١٨٦٠ في لبنان ودمشق (لجنة بيروت الدولية- المحاضر الكاملة ١٨٦٠-١٨٦٢، تحقيق وترجمة أنطوان ضو، مختارات ش.م.م، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٧- ملف وثائق فلسطين (مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية) من عام ٦٣٧- ١٩٤٩، وزارة الارشاد القومي-الهيئة العامة للاستعلامات، لا يوجد دار نشر، د.ن، د.ط، د.ت.

٨- نوفل، نوفل نعمة الله، الدستور، مراجعة خليل أفندي الخوري، المطبعة الأدبية، بيروت، في مجلدين، ١٣٠١هـ.

ثالثاً- المصادر العربية.

١- أبو شقرا، يوسف خطار، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، تحقيق عارف أبو شقرا، لا يوجد دار النشر، د.ن، د.ط، د.ت.

٢- الأسود، إبراهيم، دليل لبنان، المطبعة العثمانية، بعبدا، ط٣، ١٩٠٦.

٣- الأسطواني، محمد سعيد، مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر ١٢٥٦-١٢٧٧هـ/ ١٨٤٠-١٨٦١م، تحقيق أسعد الأسطواني، دار الجمهورية، د.ن، ط١، ١٩٩٤.

٤- البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.

٥- التونسي، مردخاي شملة، هذه مفاوضات المؤتمر المنعقد بالأستانة في المسألة الشرقية سنة ١٢٩٣ و ١٢٩٤، مطبعة الدولة التونسية، د.ن، ط١، ١٢٩٥هـ.

٦- جودت، أحمد، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، د.ط، المجلد الأول، ١٣٠٨هـ.

٧- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، د.ط، د.ت،.

٨- الدبس، يوسف، تاريخ سوري الدنيوي والديني، تحقيق مارون رعد، دار نظير عبود، د.م، د.ط، ١٠ أجزاء، ١٩٩٤.

٩- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الفكر، بيروت، ط١، ٤ أجزاء، ١٩٩٦.

١٠- سامي، عبد الرحمن، سفر السلام في بلاد الشام أو (القول الحق في بيروت ودمشق)، مطبعة المقتطف، د.ن، د.ط، ١٨٩٢.

١١- سركيس، سليم، غرائب المكتوبجي، تحقيق يوسف قزما خوري، دار الحمراء، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ويضم كتاب سر مملكة، تأليف: سليم سركيس، طبع في مصر، ١٨٩٥.

١٢- العظم، حقي، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، مطبعة الترقي، مصر، ط١، ١٩٠٢.

١٣- العقيقي، انطوان ضاهر، ثورة وفتنة في لبنان-صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ إلى ١٨٧٣، تحقيق وتعليق يوسف إبراهيم يزبك، د.ط، د.ت.

١٤- القاسمي، محمد سعيد، والقاسمي، جمال الدين، والعظم، خليل، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، دار طلاس، دمشق، ط١،جزأين، ١٩٨٨.

١٥- القاياتي، محمد عبد الجواد، نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي، بيروت، د.ط، ١٩٨١.

١٦- قدسي، الياس عبده، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية، دار الحمراء، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.
١٧- قساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢.
١٨- كامل، مصطفى المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، مصر، ط١، ١٨٩٨.
١٩- لامنس، هنري، المذاكرات الجغرافية في الأقطار السورية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، ١٩١١.
٢٠- لبيب، حسين، تاريخ المسئلة الشرقية، مطبعة الهلال- مصر، د.ط، ١٩٢١.
٢١- المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨١، ط٢، د.ت.
٢٢- مشاقة، ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، تحقيق ملحم خليل عبدو واندراوس حنا شخاشيري، مصر، د.ط، ١٩٠٨.
٢٣- مشاقة، ميخائيل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.
٢٤- مطر، الياس ديب، العقود الدرية في المملكة السورية، مطبعة المعارف، بيروت، د.ط، ١٨٧٤.
٢٥- المقدسي، البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، ١٩٨٧.
٢٦- مكاريوس، شاهين مذبحة الجبل -حسر اللثام عن نكبات الشام- تاريخ الحرب الأهلية الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠، دار لأجل المعرفة، ديار عقل- لبنان، ١٩٨٧، عن الطبعة الأولى، مصر، ١٨٩٥.
٢٧- مؤلف مجهول، تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي ١١٩٢-١٢٥٧هـ/ ١٧٨٢-١٨٤١م، تحقيق أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة، ط٢، ١٩٨٢،
٢٨- مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، تحقيق أسد رستم، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.
٢٩- مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، د.ط، د.ت.
٣٠- نوفل، نوفل نعمة الله، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، تحقيق ميشال أبي فاضل وجان نخول، جروس برس، طرابلس- لبنان، د.ط، ١٩٩٠.

رابعاً- المراجع العربية:

١- أبو النصر، عمر، سورية ولبنان في القرن التاسع عشر، مطبعة وزنكوغراف طباره، بيروت، ط٢، ١٩٢٦.

٢-أبو جابر، فايز صالح، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، دار البشير،عمان، ط١، ١٩٨٩.

٣-أبو علية، عبد الفتاح، وياغي، إسماعيل أحمد، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ، الرياض، ط٣، ١٩٩٣.

٤-أحمد، محمد حمدان، والنايف، حسام جميل، تاريخ أوروبة الحديث من عصر النهضة إلى قيام الثورة الفرنسية ١٤٩٢-١٧٨٩، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د.ط، ٢٠١١-٢٠١٢.

٥-أرملة، اسحق، آثار فرنسا ومآثرها في لبنان وفي سوريا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، ١٩٤٦.

٦-أسد، رستم، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٥٦-١٩٥٧.

٧-أمين، جلال، المشرق العربي والغرب (بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٨٣.

٨-بيطار، أمينة، تاريخ العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، د.ط، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

٩-أنطونيوس، جورج، يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٧.

١٠- أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٩٩٣.

١١- البدري، محمد عبد الستار، المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠١.

١٢- برو، توفيق، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١٤، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩١.

١٣- برو، توفيق، القومية العربية في القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، د.ت.

١٤- البساطي، أحمد سعد الدين، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، مكتبة الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٩.

١٥- بيهم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، د.ط، ١٩٢٥.

١٦- الجمل، شوقي وعبد الرزاق، عبد الله، تاريخ أوروبا- من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٠.

١٧- حاطوم، نور الدين، تاريخ الحركات القومية في أوربة – يقظة القومية في أوربة، دار الفكر، دمشق، ط١، ج٢، ١٩٩٦.

١٨- حاطوم، نور الدين، تاريخ القرن لتاسع عشر في أوربة والعالم، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ج٢، ١٩٩٥.

١٩-حاطوم، نور الدين، يقظة القومية العربية، المطبعة الفنية الحديثة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، د.ط، ١٩٨٦.

٢٠- حجر، جمال محمود، القوى الكبرى والشرق الأوسط (في القرنين التاسع عشر والعشرين)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٩.

٢١- الحصري، ساطع، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٥٦.

٢٢- حنا، عبدالله، حركات العامة الدمشقية في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر "نموذج لحياة المدن في ظل الاقطاعية الشرقية"، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٢٣-حوراني، ألبرت، الإسلام في الفكر الأوروبي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ١٩٩٤.

٢٤- الحيدري، ابراهيم، صورة الشرق في عيون الغرب: دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٢٥- خالدي، مصطفى وفروخ، عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية (عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي)، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، د.ط، ١٩٨٦.

٢٦- خليفة، عصام كمال، أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

٢٧- الخنساء، أحمد، تاريخ العلاقات الدولية (منذ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ حتى الحرب العالمية الأولى)، لا يوجد دار نشر، د.ن، ط١، ١٩٨٦.

٢٨- خوري، إميل وإسماعيل، عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨ (من مؤتمر فيينا١٨١٥ إلى معاهدة المضايق١٨٤١)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، د.ط، أربعة أجزاء، ١٩٦٠.

٢٩- خوري، يوسف قزما، الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية العلمية في القرن التاسع عشر، دار سوراقيا للنشر، د.ن، د.ط، د.ت.

٣٠- الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٧٦، ص١٦٤. عمـر، عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت.

٣١- راشد، زينب عصمت، تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت.

٣٢- رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، د.ط، ١٩٨٥.

٣٣- رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، مطابع ألف باء- الأديب، دمشق، ط٢، ١٩٩٣.

٣٤- رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، الجامعة الأمريكية في بيروت- منشورات كلية العلوم والآداب، بيروت، د.ط، د.ت.

٣٥- رستم، أسد، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤-١٨٤١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥.

٣٦- الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية- الصحافة السورية في العهد العثماني، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ج١، (وهو في جزأين).

٣٧- رمضان، عبد العظيم، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث- من ظهور البرجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ن، د.ط، د.ت، ثلاثة أجزاء.

٣٨- زهر الدين، صالح، التبشير وأثره في جبل لبنان، منشورات رسالة الجهاد، طرابلس الغرب، ط١، ١٩٨٦.

٣٩- الزواهرة، تيسير خليل محمد، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠-١٨٦٤م/١٢٥٥-١٢٨٢هـ، جامعة مؤتة، مؤتة، ط١، ١٩٩٥.

٤٠- زين، زين نور الدين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، دار النهار، بيروت، ط٤، ١٩٨٦.

٤١- زين، نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيروت، د.ط، ١٩٧١.

٤٢- السايح، أحمد عبد الرحيم، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الاسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٦.

٤٣-السباعي، بدر الدين، أضواء على قاموس الصناعات الشامية، دار الجماهير، د.ن، د.ط، د.ت.
٤٤-السباعي، بدرالدين، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية (١٨٥٠-١٩٥٨)، دار الجماهير، دمشق، د.ط، د.ت.
٤٥- السبكي، آمال، أوروبا في القرن التاسع عشر- فرنسا في مئة عام، عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٩٨٥.
٤٦- السكيف، ماري سركو، الامتيازات الأجنبية وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية على سورية (بلاد الشام) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، ٢٠١٠.
٤٧- سمحات، قاسم، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام ١٨٠٤-١٨٥٠م، د.ت، د.ط.
٤٨- سنو، عبد الرؤوف، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ١٨٤٠-١٩٠١، معهد الإنماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
٤٩- شريف، محمد بديع، والمحاسني، زكي، وعبد الكريم، أحمد عزت، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ط، د.ت.
٥٠- الشلبي، جمال، العرب وأوروبا: رؤية سياسية معاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
٥١-شيخو، لويس، تاريخ الآداب العربية (١٨٠٠-١٩٢٥)، دار المشرق، بيروت، ط٣، ١٩٩١.
٥٢- شيخو، لويس، تاريخ فن الطباعة في المشرق، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٩٥.
٥٣- الصباغ، ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، جزأين، ١٩٨٩.
٥٤- الصباغ، ليلى، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢.
٥٥- صفوت، محمد مصطفى، محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، د.ط، ١٩٥٨.
٥٦- الصلح، عادل، سطور من الرسالة- تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة ١٨٧٧، لا يوجد دار النشر، بيروت، ط١، ١٩٦٦.
٥٧- صياغة، نايف، الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، ١٩٩٥.

٥٨- ضاهر، مسعود، الدولة والمجتمع في المشرق العربي ١٨٤٠-١٩٩٠، دار الآداب، د.ن، د.ط، ١٩٩١.
٥٩- طربين، أحمد، ملامح التغيير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، معهد الانماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
٦٠- طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، ط١٠، ٢٠٠٨-٢٠٠٩.
٦١- عبد الرحمن، محمود، التنصير والاستغلال السياسي، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
٦٢- عتمان، أحمد، تاريخ قبرص- جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، مكتبة الآداب- جامعة القاهرة، د.ط، ١٩٩٧.
٦٣- العطار، نادر، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ج١، لا يوجد دار نشر، د.ن، د.ط، د.ت.
٦٤- العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام- تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق نجدة فتحي صفوة، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢.
٦٥- العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت، ثلاثة أجزاء.
٦٦- عامر، محمود، تاريخ الدولة العثمانية (سياسية- اجتماعية)، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، د.ط، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.
٦٧- عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت.
٦٨- عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (١٨١٥-١٩١٩)، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، د.ط، ٢٠٠٠.
٦٩- عوض، عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٦٩.
٧٠- غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦، جامعة الدول العربية- معهد الدراسات العربية العالمية، دار الجيل للطباعة، الفجالة، ط١، ١٩٦١-١٩٦٢.
٧١- غنام، رياض، المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري ١٨٣٢-١٨٤٠، الدار التقدمية، لبنان- المختارة، ط١، ١٩٨٨.
٧٢- غنام، رياض، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
٧٣- الفيومي، محمد ابراهيم، الاستشراق رسالة استعمار (تطور الصراع الغربي مع الإسلام)، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٩٩٣.

٧٤- قدورة، وحيد، بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ومكتبة فهد الوطنية، زغوان، تونس، د.ط، ١٩٩٢.
٧٥- كرد علي، محمد، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، د.ط، ٦ أجزاء، ١٩٢٧.
٧٦- كوثراني، وجيه، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي- من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، د.ط، ١٩٨٦.
٧٧- كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
٧٨- مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠٠٢.
٧٩- مجموعة مؤلفين، اليسوعيون في الشرق الأدنى والعالم، دار النهار، بيروت، د.ط، د.ت.
٨٠- محافظة، علي، العلاقات الألمانية- الفلسطينية من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٨٤١-١٩٤٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١.
٨١- محمد، عبدالله يوسف سهر، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، دراسات استراتيجية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد٥٧، أبوظبي، ط١، ٢٠٠١.
٨٢- محمد، نجاح وأبو جبل، كاميليا، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، دمشق، د.ط، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.
٨٣- محمد، نجاح، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، منشورات جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، ط٥، ٢٠٠٩-٢٠١٠.
٨٤- مخزوم، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الإنماء العربي- الدراسات التاريخية، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
٨٥- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣.
٨٦- مصطفى، نادية محمود وآخرون، العصر العثماني من عصر القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة، ١ط، ١٩٩٦.
٨٧- المقرحي، ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٦.

٨٨- مناع، عادل، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨ (قراءة جديدة)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
٨٩- منسى، محمود صالح، حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٧٨.
٩٠- موسى، منير مشابك، الفكر السياسي العربي في العصر الحديث، مكتبة السائح، طرابلس- لبنان، ط٢، ١٩٩٥.
٩١- مؤنس، حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، ط١٩٣٥،١، ط٢، ١٩٣٨.
٩٢- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق، ط٧، ١٩٩٤.
٩٣- النصولي، أنيس، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، تحقيق عبدالله الطباع، دار ابن زيدون، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
٩٤- نعيسة، يوسف وصالح، محمد حبيب، تاريخ العرب الحديث والمعاصر (مصر والسودان)، منشورات جامعة دمشق، د.ط، ٢٠٠٧.
٩٥- النواصرة، قاسم محمد أحمد، الموقف البريطاني والفرنسي من الحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١م)، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، د.ط، ٢٠٠٨.
٩٦- هشي، سليم حسن، المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون (١٦٠٠-١٩٠٠)، لا يوجد دار نشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١-١٩٨٢.
٩٧- الوعري، نائلة، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ١٨٤٠-١٩١٤، دار الشروق، عمان، ط١، ٢٠٠٧.
٩٨- ياغي، إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٦.
٩٩- ياغي، إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٧.
١٠٠- يحيى، جلال، ومهنا، محمد نضير، مشكلة قبرص، دار المعارف، د.ن، د.ط،١٩٨١.
١٠١- يحيى، جلال، الاستعمار المقنع، المكتبة الافريقية، الاسكندرية، ط١، ١٩٦٠.

خامساً- المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة إلى العربية:

١- A.J.P.Tayler، الصراع على السيادة في أوربا ١٨٤٨-١٩١٨، ترجمة كاظم هاشم نعمه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٧٦.

٢- أوين، روجر، الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠-١٩١٤، ترجمة سامي الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١٩٩٠.

٣- بازيلي، قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، د.ط، ١٩٨٩.

٤- بتكوفيتش، قسطنطين، لبنان واللبنانيون، ترجمة يوسف عطاالله، دار المدى، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٥- بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨.

٦- بولياك، أ. ن، الإقطاعية في مصر وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات المكشوف، بيروت، ط١، ١٩٤٨.

٧- بيشون، جان، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا في هذا الشرق، ترجمة محمد عزة دروزة، مكتبة الكشاف، بيروت، ط١، ١٩٤٦.

٨- تشرشل، تشارلز هنري، بين الدروز والموارنة، ترجمة فندي الشعار، دار المروج، د.ن، د.ط، ١٩٨٤.

٩- توبي، جاك، الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية ١٨٤٠-١٩١٤، ترجمة فارس غصوب، الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

١٠-حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، د.ط، د.ت، جزأين.

١١-حجار، جوزيف، أوروبا ومصير الشرق العربي- حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نغمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٧٦.

١٢-حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، بيروت، د.ط، د.ت.

١٣- خضر، بشارة، أوروبا والوطن العربي (القرابة والجوار)، ترجمة جوزف عبدالله، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

١٤- دو باري، دمشق ولبنان ربيع ١٨٦٠، ترجمة يوسف ضومط، مختارات- الزلقا، بيروت، د.ط، ١٩٩١.

١٥- دولينا، نينل الكسندروفنا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ترجمة أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٩.

١٦- رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٤)، ترجمة جلال يحيى، دار المعارف- المطبعة العصرية، الاسكندرية، د.ط، ١٩٨٠.
١٧- سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤، ١٩٩٥.
١٨- سميليا نسكايا، ايرينا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة يوسف عطاالله، الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
١٩- شارل موجل، فرانسوا، وباكتو، سيفرين، تاريخ العلاقات الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة شفيق محسن، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
٢٠- شولش، الكزاندر، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦- ١٨٨٢ (دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي)، ترجمة كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، د.ط، ١٩٨٨.
٢١- شيشلر، ليندا، دمشق في القرنين الثامن عش والتاسع عشر، ترجمة عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، دار الجمهورية، دمشق، ط١، ١٩٩٨.
٢٢- فِشر . هـ . أ، تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠)، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٦، ١٩٧٢.
٢٣- فوتيراس، ستافروس، امتيازات الجماعات المسيحية في المملكة العثمانية- مقالات نشرت تباعاً في جريدة الحوادث سنة ١٩١٢، ترجمة غطاس افندي قندلفت، المطبعة الوطنية، طرابلس الشام، د.ط، د.ت.
٢٤- كوتلوف، ل.ن، تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر- ١٩٠٨)، ترجمة سعيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، ١٩٨١.
٢٥- كيسنجر، الدبلوماسية من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة، ترجمة مالك فاضل البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٥.
٢٦- لوتسكي، فلاديمير بوريسوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، د.ط، د.ت.
٢٧- لوكمان، زكاري، تاريخ الاستشراق وسياساته- الصراع على تفسير الشرق الأوسط، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص٩٧.
٢٨- لونكريك، ستيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، منشورات الشريف الرضي، أيران- قم، ط٤، ١٩٦٨.

٢٩- ماركس، كارل، المسألة الشرقية حول القوميات في الدولة العثمانية، ترجمة جوزيف عبدالله، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠.
٣٠- مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، ط١، جزأين، ١٩٩٣.
٣١- مظهر، كمال أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد ملا عبد الكريم، لا يوجد دار نشر، بيروت، د.ط، د.ت.
٣٢- هرشلاغ، ز. ي، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت، د. ط، ١٩٧٣.
٣٣- هنتش، تييري، الشرق الخيالي ورؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي- الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٦.
٣٤- ياب، مالكولم، نشوء الشرق الأدنى الحديث ١٧٩٢-١٩٢٣، ترجمة خالد الجبيلي، الأهالي، دمشق، ط١، ١٩٩٨.

سادساً- الأبحاث في الدوريات والمؤتمرات:

١- التميمي، عبدالجليل، الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق (١٨٥٥-١٨٦٠)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢-١٣٥٨هـ/ ١٥١٦-١٩٣٩م، جامعة دمشق- كلية الآداب، د.ط، ج٢، ١٩٧٨.
٢- شتيبات، فريتز، تغلغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن التاسع عشر- اسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد لشام، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦-١٩٣٩م، جامعة دمشق . كلية الآداب، دمشق، د.ط، ج٢، ١٩٧٨.
٣- فرح، قيصر، أثر التحالف الرباعي في الإصلاحات الإدارية المقترحة لسورية، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق – كلية الآداب، دمشق، د.ط، ج٢، ١٩٧٨.
٤- خوري، فيليب شكري، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠- ١٩٠٨، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام٩٢٢-١٣٥٨هـ / ١٥١٦-١٩٣٩م، جامعة دمشق- كلية الآداب، دمشق، د.ط، ج١، ١٩٧٨.
٥- صالح، محمد حبيب، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٦٧-٦٨، كانون الثاني- حزيران ١٩٩٩.

٦- عاقل، نبيه، المستشرقون وبعض قضايا التاريخ الإسلامي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، العددان ٩-١٠، تشرين الأول ١٩٨٢.
٧- العربيات، غالب عبد أحمد وشنيكات، خالد حامد طاهر، الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١) "قراءة جديدة في التدخل الدولي"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، دمشق، العددان١١٧-١١٨، كانون الثاني – حزيران ٢٠١٢.
٨- محافظة، علي، التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة (١٨٥٠-١٩٢٥)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦-١٩٣٩، جامعة دمشق . كلية الآداب، دمشق، د.ط، ج٢، ١٩٧٨.
٩- مكاريوس، شاهين، المعارف في سورية، المقتطف، السنة السابعة، في عدة أجزاء، ١٨٨٣.
١٠- معلوف، اسكندر، حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها، مجلة المجمع العلمي العربي (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لاحقاً)، المجلد الأول، الجزء العاشر، تشرين الأول، ١٩٢١.
١١- الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المقتطف، مج٤٥، من تموز- كانون الأول ١٩١٤.
١٢- النسج الافرنجية، المقتطف، السنة الثالثة، ج٥، ١٨٧٨.
١٣- مذكرات الدكتور فان ديك من سنة ١٨٣٩-١٨٥١، مجلة الهلال، السنة الرابعة عشرة، ج٤، ١ يناير سنة ١٩٠٦، مطبعة الهلال، الفجالة- القاهرة.
١٤- الطيباوي، عبد اللطيف، نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سورية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً)، كانون الثاني ١٩٦٧، مج٤٢، ج١.
١٥- محمود، أمين عبدالله، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد٧٤، شباط ١٩٨٤.
١٦- الامتيازات الأجنبية، الهلال، السنة الرابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٥ إلى يوليو ١٩٠٦، مطبعة الهلال، الفجالة-القاهرة.

سابعاً- الرسائل والأطروحات الجامعية:

١- الحسين، محمد المحمد، مستجدات المسألة الشرقية بعد مؤتمر برلين (١٨٧٨-١٩١٦م)، رسالة ماجستير، إشراف أ. د. محمد أحمد، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢- الحمد، أحمد علي الخلف، السياسة البريطانية في بلاد الشام (١٧٩٩-١٨٧٨م)، رسالة ماجستير، إشراف أ. د. محمد حبيب صالح، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ، ٢٠١١-٢٠١٢م.

٣- زيدان، براءة، السياسة الروسية في بلاد الشام ومصر (١٧٩٨-١٨٧٨)م، رسالة ماجستير، إشراف أ. د. محمد حبيب صالح، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الانسانية- قسم التاريخ، ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

ثامناً- الموسوعات والتراجم:

١- البستاني، دائرة المعارف، لا يوجد دار النشر، بيروت، د.ط، ١٩٦٩.

٢- الزركلي، خيرالدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٤، ج١، ١٩٩٩.

٣- زيدان، جرجي، مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٣، د.ت، في جزأين.

٤- الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، في سبعة أجزاء، مع الاختلاف في تاريخ الطبعات لكل جزء.

٥- مجموعة باحثين، المنجد في الأعلام، دار الشروق، بيروت، ط١٢، ١٩٨٢.

٦- مجموعة مؤلفين، موسوعة مشاهير العالم، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، خمسة أجزاء، ٢٠٠٢.

٧- مردم بك، خليل، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.

٨- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض ط١، ٣٠ج، ١٩٩٦.

٩- الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك، نسخة طبق الأصل عن طبعة عام ١٩٦٥.

تاسعاً- المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Anderson, M. S, The Eastern Question 1774-1923, Macmillan, London, ST. Martin's Press, New York, 1966..

2-Volney, M. C-F, Syria and Egypt in the years 1783.1784 and 1785, translated from the French, two volumes, London.

3- Wehmeier, sally, Oxford Wordpower Dictionary, Oxford University Press, Oxford, Third Edition, 2004.

4- Issawi, Charles, The Middle East in the World Economy: A Long Range Historical View, Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1985.

5- Marriott, J. A. R, The Eastern Question an Historical Study in European Diplomacy, Amen house, London, Fourth Edition, 1956.

6- Kirk, George, A short History of the Middle East- From the rise of Islam to Modern Time, University Paperbacks Methuen, London, Six Edition, 1961.

7- Tibawi, A. L, A Modern History of Syria-Including Libanon and Palestine, Macmillan, London, 1969.

8- Pamuk, Sevket, the Ottoman and European Capitalism, 1820-1913, Trade, investment and production, Cambridge University Press, London, 1987.

9- Ma'oz, Moshe, Ottoman reform in Syria and Palestine 1840-1861, the Impact of the Tanzimat on Politics and Society, Oxford University Press, Ely House, London, 1968.

الملاحق

الوثيقة رقم(١)

خروج إبراهيم باشا عن طاعة السلطان وطلب الجنود والقوات لمحاربته.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الرابع، الوثيقة رقم ١٧٤، بتاريخ ٢١ ذو القعدة ١٢٤٧هـ.

الوثيقة رقم (٢)

الخسارة الفادحة لأحد ملتزمي الضرائب التي تقدر بخمسين ألف قرش، ومطلبه بالحد من استيراد الأقمشة الأجنبية لما ينتج عنه من أضرار على الأقمشة الوطنية، وعلى العمال والعمل والبلاد.



تابع مجلس يوم الاتنين في ٥ محرم ٦٦

تقرير جناب عبد القادر اغا افندي به زاده الى المجلس الشريف

انه قد صار الاطلاع وتحكيم على الخلاصة الصادرة من الديوان بتنفيذ قلم الدفعه والمكتفا ودق

المقطع ودق اللاجج لمعرفة الذي يبلغ ماله قياس السنة السابقة من ذلك بمقتضى استدعاء

سعادة افندينا ثنا اوليا النعم المعظم حسب منطوقه الخلاصة المتعطفه فتحكيم اوليا النعم

ان المقصد بكونه فيه صالح الميري غير انه يجب علينا ان نوضح لسعادتكم فيما سبقه في

جمع وصيانة اموال الميري وزيادتها على اي باره فسعادتكم لا يرفع لغيرنا وذات

حالما كون هذه الاقلام بالسنة السابقة حاصل لها خساره نحو خمسين الف غرش ومعلوم

سعادتكم ان مال الميري لا يتعذب منه باره الفرد ولا ينسمح عن ذلك جواه ولا تغدر

وهذه الاقلام لكل منها عهدة تجمع مالها ورفعتها واذا صدقتم يبلغ خساره فاستغربته

السيد محي البيك كاتب الوقية الدقة وباقي كتاب الاقلام والاطلاع على الدفاتر يظهر في ذلك صدقه

تقريرنا ففي هذه السنة بحسب حالة الكار وقلة تشغيلها من قبل تكاثر وجود اجناس الاجانب

الاوربيه فالقسم الثانيه كلما الها على ما يقتضي ومن ذلك يزيد بالاقلام المذكوره نقص

حاصلاتها وهذا شي معلوم عند حضراتكم وليس له تدبير فان تحكم يصير التبصر عما اعرضناه

لاجل ملاحظة حال وتحكيم ودفع المغدوريه عنه الموصله لخراب بحال حبس هذه الاقلام

بالاقسام السابقه لا تستطيع على تاديه مالها ثم ان دكاكين الدقه لهم اجرتهم على طرف الميري

يلزم تبيان ذلك في خلاصة الانعام لئلا يحصل من قبل دفع اجرتهم من الميري تعطيل كما جرى

بالسنة السابقة ثم وضع المكتفا يصير لها باباه اوزها على جانب الميري حسب عادتها بالسنة

السابقة ثم من كون تدفع المكتفا من طولة المده وتكرار هملها صار متقاربا الى العدم ومن

ذلك تقدم اخذ من تعطيل الكار لكي يحصل عندكم الاستحضار ودفع ادمكم اذا حصل الهمل الدفع

على غفلة يكون عوضه حاضر بوضعوا عوضه ولا يحصل تعطيل الى المكتفا لانه لو صار دفع لا يوجد

تماثي قطعة الرخام بيبع واذا عطل على غفله فلبينما يصير استحضار عوضه يلزم له طويل زمن

ان غش يصير لها فسادكم وكذلك نصرح في خلاصة الانعام اعني ان الذي تقتضي تعطيل لها المكتفا

من قبل المدفع فيكون خصم مال مدة التعطيل على جانب الميري فعن جميع ما تقدم اعرضه

نترجم النظر واعطي قرار حسن من حضراتكم كي لا يحصل تعطيل الى الاقلام الميريه ولا يعدم

ونرجو ملاحظة الطرفين لا الطرف الواحد حسبما تقدم هذا شي لا اقدر عليه ويعول الى

الخراب والنظر لحضراتكم والامر لمن له الامر افندم

لدى المذاكره بالمجلس روي ... الاقلام المذكوره في العام الماضي

لدى المذاكرة بالمجلس روى

من حيث ورود الجوهر من طرف عبد القادر اغا خطاب ر ادات الاقلام المذكورة في العام الماضي

حصل لهم خساره بنحو خمس الف غرش كتاب الاقلام وعدا عن ذلك منهم وانه لا يقبل التزامهم في

هذه السنة فالم تحصل المذاكرة في المجلس تنزيل شي من مالهم عن العام الماضي ليعقد على

القيام به وترتفع عنه معذوريته لخساره المذكوره وان اجرة دكاكين دقه اللاج والقطني

تكون من طرف الميري وبستحضر مدفع جديد الى المكنا كون الموجود الان صار قريبا الاضمحلال

وانه اذا صار تاخير في استحضار المدفع المذكور وعدم الموجود الان في برهة ذلك ه

وتعطيل المكنا فايام التعطيل تحسب على جانب الميري فعقب تلاوة ذلك بالمجلس روى

انه بخصوص توقف بضايع الاقلام المذكوره في محلات اخر من تكاثر البضايع الافرنجيه

فهذه فيما هو ملحوظ من تدقيق الاقلام المذكوره وتنازل اسعار العام الماضي لقلة

رواج بضايعها الذي هي القطني واللاج وغيرها فقبول هذه الالتماس فيه المعذوريه على جانب

الميري وان كانت اعذار عبد القادر اغا من تنزيل الاقلام المذكوره لسبب تدقيق بضايعها

مقبول ولكن لا يصوغ الرخصه من تنقيص الاموال الميريه على قياس تدنيها في الماضي فقد

تتزايد في المقابل بحسب تزايد البضايع واما اجرة دكاكين دقه القطني واللاج فهذه على

جانب الميري ومقبول ايضا منه واستحضار المدفع لزوم المكنا فهو لازم لدوران المصلحه

ودفع تشكي اصحابها الاستحقاق ولئلا يعدم دفع الدوالاب المذكور وتتعطل المكنا عن دوراته

فاذا حصل توانى من استحضار المدفع الجديد ووقع لا سمح الله عطل في المدفع القديم وتوقفت ه

المصلحه عن الدوران فايام التعطيل تحسب على جانب الميري وتقطع من اصل مال الالتزام

فلذلك المذاكره رؤى ان يستحضر عبد القادر اغا خطاب المذكور وعند المذاكره معه بالمجلس

قبل التزام الاقلام المذكوره على حكم العام الماضي فرذي حيث تعهد الاغا المومى اليه بمال الاقلام

٢٠ تابع مجلس يوم الاثنين في ٥ محرم سـ٦١ ١٠٦

المذكوره على حكم العام الماضي فتقتضي تحرير وضبط بالتزام الاقلام المذكوره لعهدة عبد القادر اغا
الموما اليه على الوجه الذي تقدم ذكره وشرح الشروط والقرارات المذكوره من ضمنه حسبما ذكر
لتعرض الى سعادة دفتردار بك افندي المحترم فاذا وجدان ذلك موافقا يصدر امر
بتحرير الشرطنامه للاغا المذكور بحكم الوجه المشروح ويوخذ عليه سندا بمال الالتزام المرقوم
للطرف الخزينة على جاري العاده ويكون سلوكه في تناول حاصلات الاقلام المرقومه
حكم السنه السابقه بدون زيادة بادة الفرد ثم بعد هذا قد رجع عبد القادر اغا الموما
اليه في المجلس شفاها انه من المعلوم لدى حضراتكم ان هذه الاقلام لما كانت في السابق بعهدة
المالكانات كان مربوط عليها مال الطرف دفترداريه اسم شي معلوم سنوي يوخذ من صاحب
المالكانه والان حيث انها عادت محلوله الى طرف الميري وعمال توخذ بوجه الالتزام
فسعادة دفتردار بك افندي الان عمال يطلب المبلغ المذكور من الملتزم فهذه ارجو
المذاكره بخصوصها ودفعها على جانب الميري حيث ان الاقلام رجعت الى الميري
وان يعطى له رخصه بالاول في المال ثلاثة اشهر ويتقسط عليه الى تسعة شهور يوخذ
القسط منه في اخر الشهر فروي بالمجلس ان لا باس بقبول التماس الاغا بالرخصه بالثلاثة
شهور الاول واخذ القسط منه على تسع شهور في اخر كل شهر حسب المذكور واما
مال الدفترداريه التي يذكر عنها انها على الاقلام فهذه ايضا لا تخصه ولا يطالب
بها حيث انها رجعت الاقلام الى طرف الميري فالملتزم لا يخصه فيها شي تقتضي
تحرير المضبطه على الوجه المشروح صادقه حضرة نخري افندي وحضرة نسيب افندي وحضرة
ابو السعود افندي المفتي وحضرة محمد افندي الجابي في ٥ محرم سـ٦١
وتحرر وضبطه بذلك حكم القرار

دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ١٧٤، بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١هـ / ١٨٤٥.

الوثيقة رقم (٣)

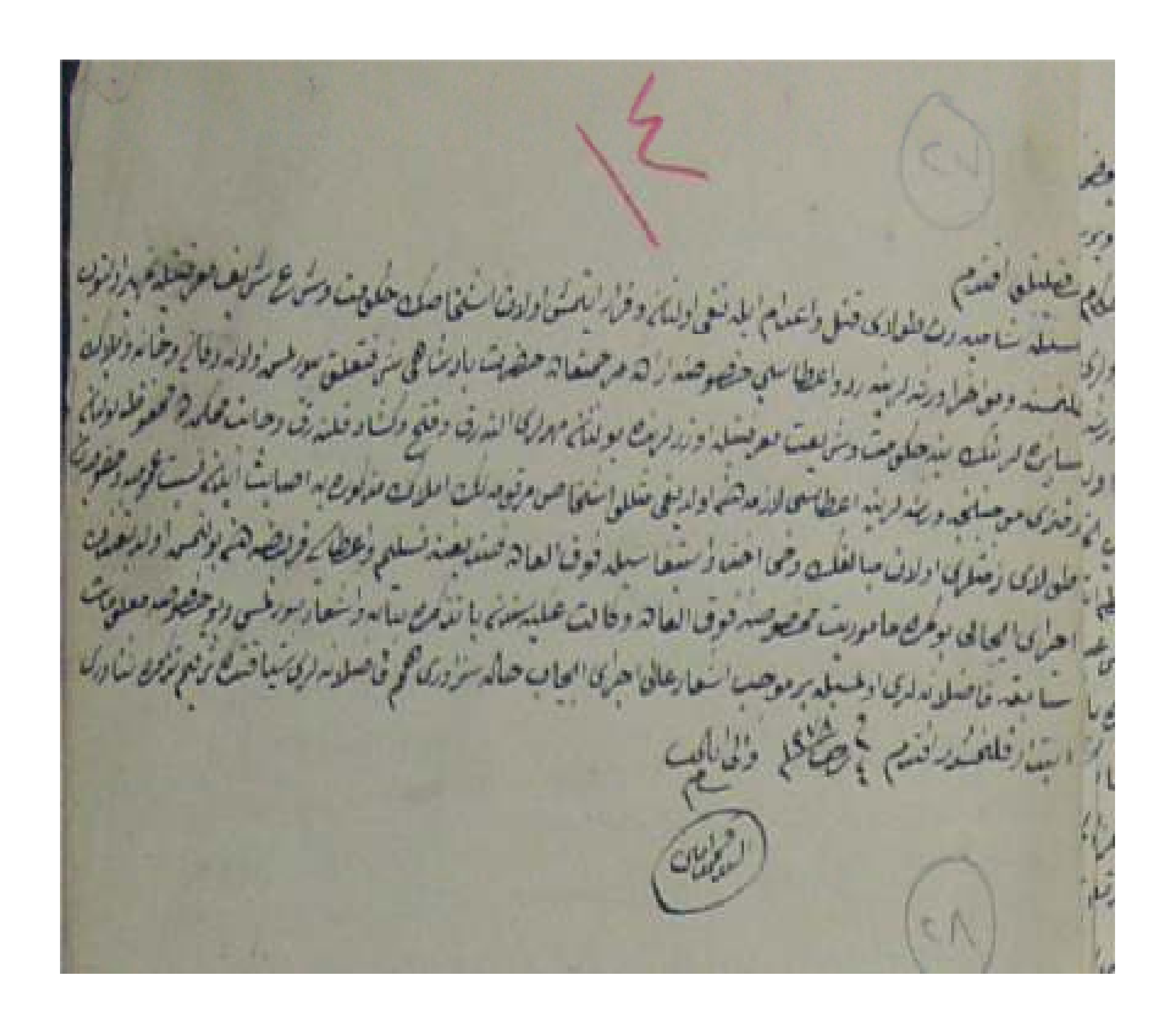
استرحام من أهالي بلاد الشام (الشام وحمص وحماة والمعرة وحوران) إلى الباب العالي في إسطنبول لرفع الضرائب عنهم بسبب المصائب والمحن.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ١٣٥، بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١هـ.

الوثيقة رقم (٤)

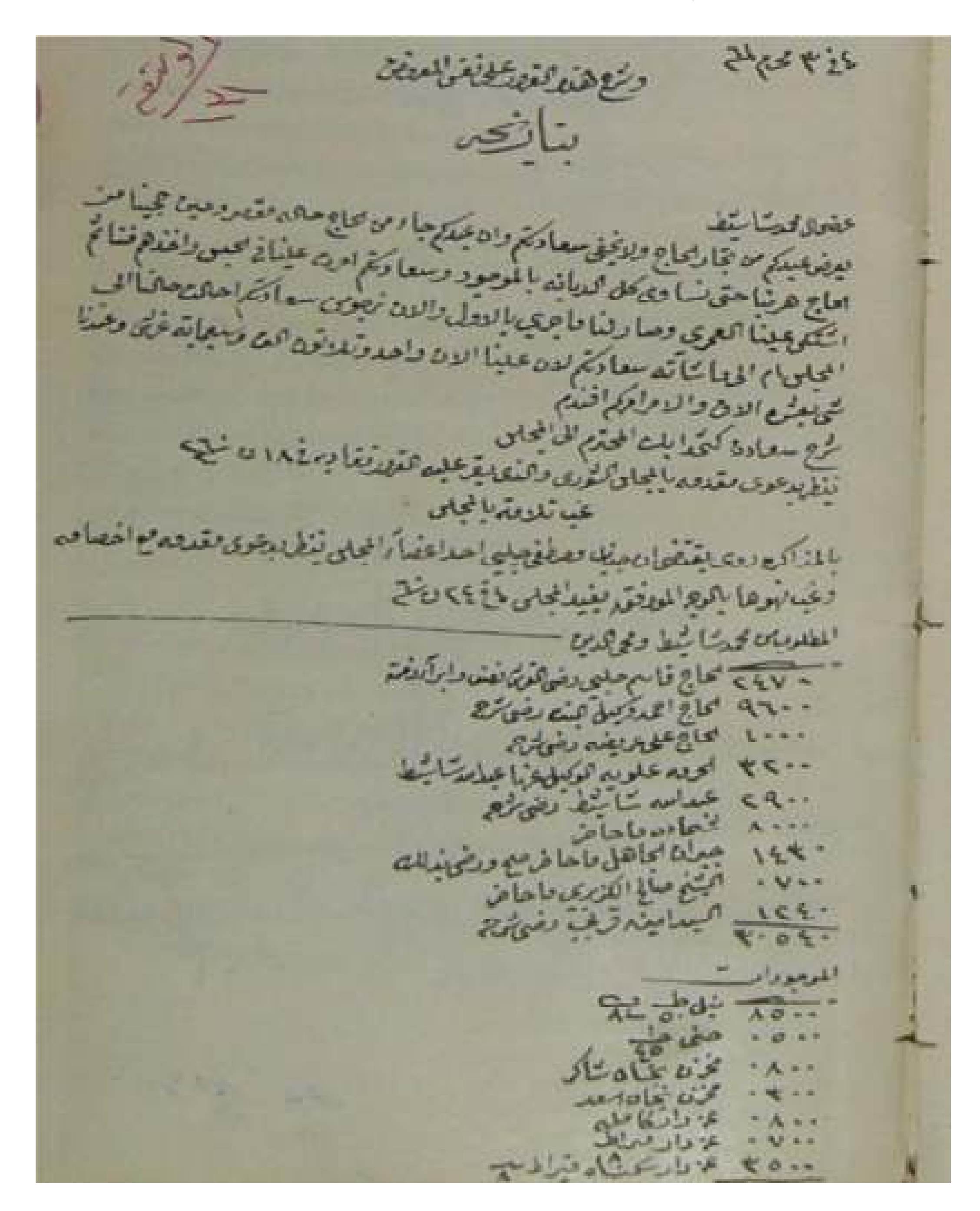
إعادة أملاك المحكومين عليهم بالإعدام في حادث الستين إلى الورثة.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد السادس، الوثيقة رقم ١٣٥، بتاريخ ٤ رجب ١٢٧٨هـ.

الوثيقة رقم (٥)

تجارة خاسرة وديون متراكمة تعكس الحالة الاقتصادية لسكان بلاد الشام في أربعينيات القرن التاسع عشر.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ١٣١، بتاريخ ١٨ رمضان ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م.

الوثيقة رقم (٦)

نهب وتدمير القرى من قبل البدو وبوار الزراعة ونزوح الأهالي عن قراهم، والبحث عن وسائل لعودة النازحين والفلاحين لتحسين أمورهم وصيانة الأموال الميرية.



بتاريخه

دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر دمشق السلطانية، المجلد الخامس، الوثيقة رقم ١٣١، ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م.

الوثيقة رقم (٧)

أمر سامي بتعيين السيد بطرس بن إلياس قره اللي مساعداً للسيد أنطوان بن بنكوص قبلان التاجر الأجنبي الخاضع للاتفاقية التجارية الدولية مع الدولة العثمانية.

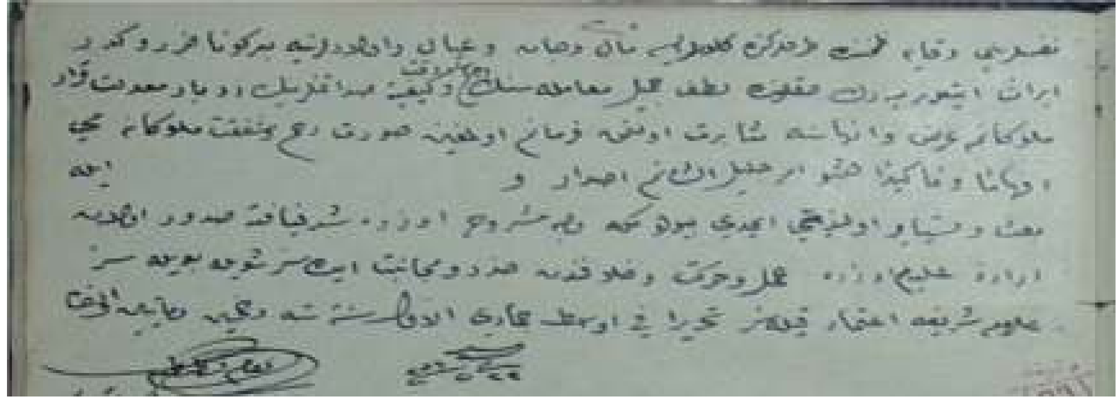


دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٤٩، الوثيقة رقم ٢٢٥، ١ جمادى الأول ١٢٥٣.

الوثيقة رقم (٨)

بلاغ صادر عن الدولة السلطان إلى المسؤولين والموظفين في ولايات مصر والشام وصيدا عن خيانة محمد علي باشا، لسعيه للانفصال عن الدولة العثمانية.

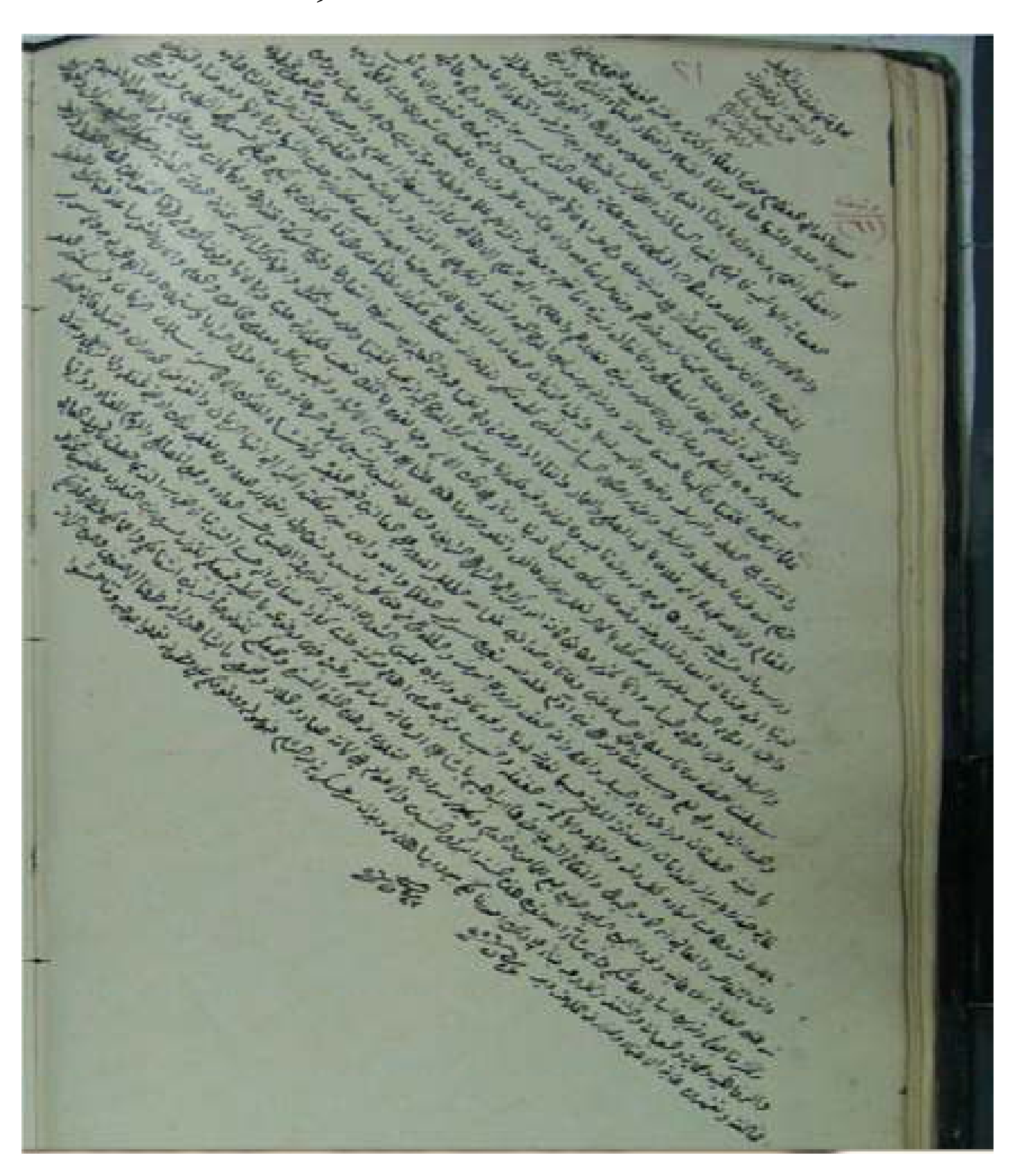




دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥٠، الوثيقة رقم ٥٨، أواسط جمادى الأول ١٢٥٦.

الوثيقة رقم (٩)

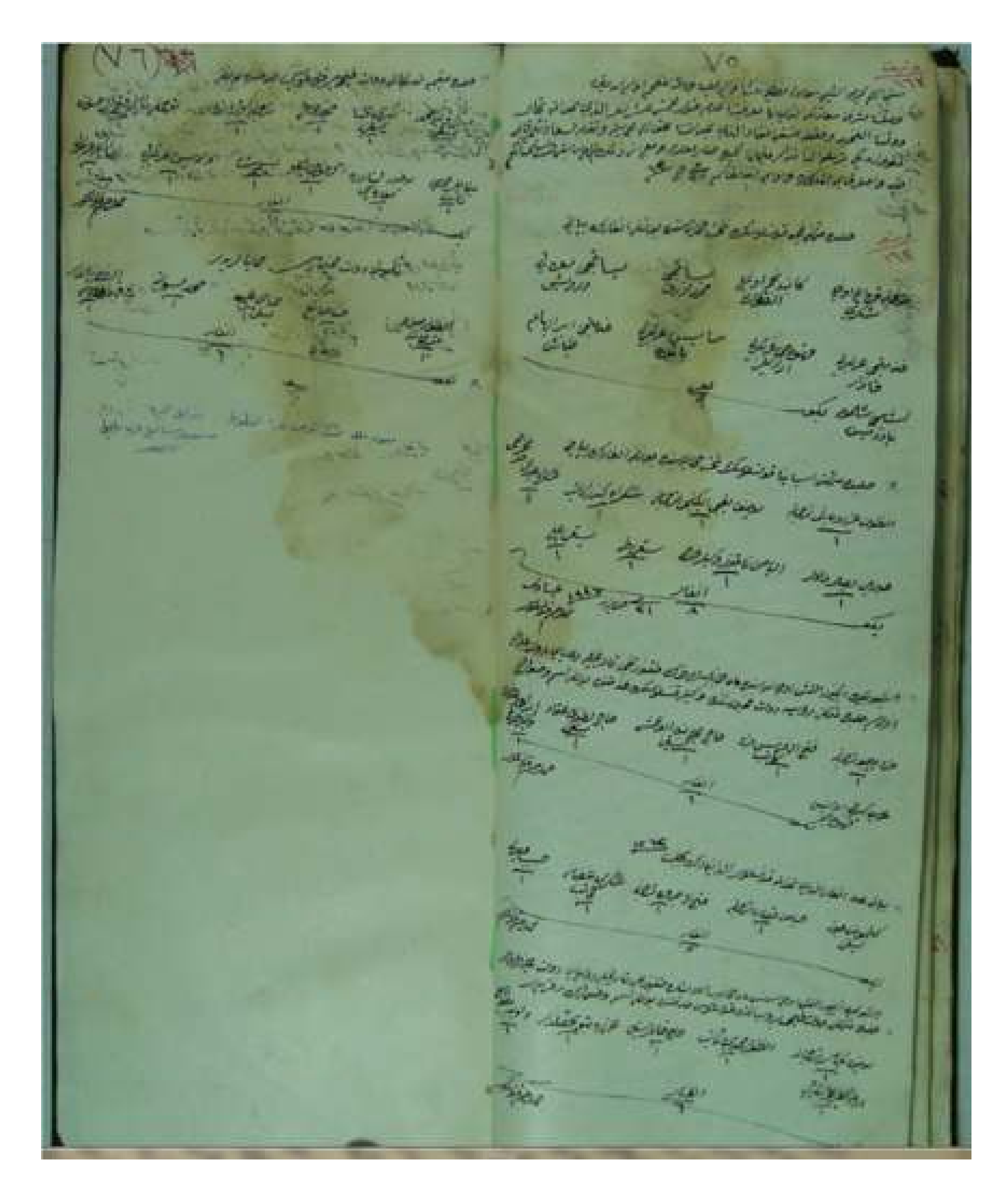
مرسوم إقامة اتفاقية تجارية بين الدولة العثمانية ودول (أوروبا والعجم والهند)، ومنح الامتيازات الخاصة لتجار هذه الرابطة، والشروط اللازم توفرها لممثلي هؤلاء التجار، والنظر في الخلافات القائمة بينهم، وانتخاب رئيسٍ للتجار.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥٠، الوثيقة رقم ٢٠٢، أواسط جمادى الأول ١٢٥٦.

الوثيقة رقم (١٠)

أسماء المستخدمين من رعايا الدولة العثمانية في قنصليات كلٍ (النمسا وإسبانيا وروسيا والدانمارك وألمانيا وتوسكانيا ونابولي) والمقيمين في حلب.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥١، الوثيقة رقم ١٦٣، ٢٥ جمادى الأول ١٢٦٣.

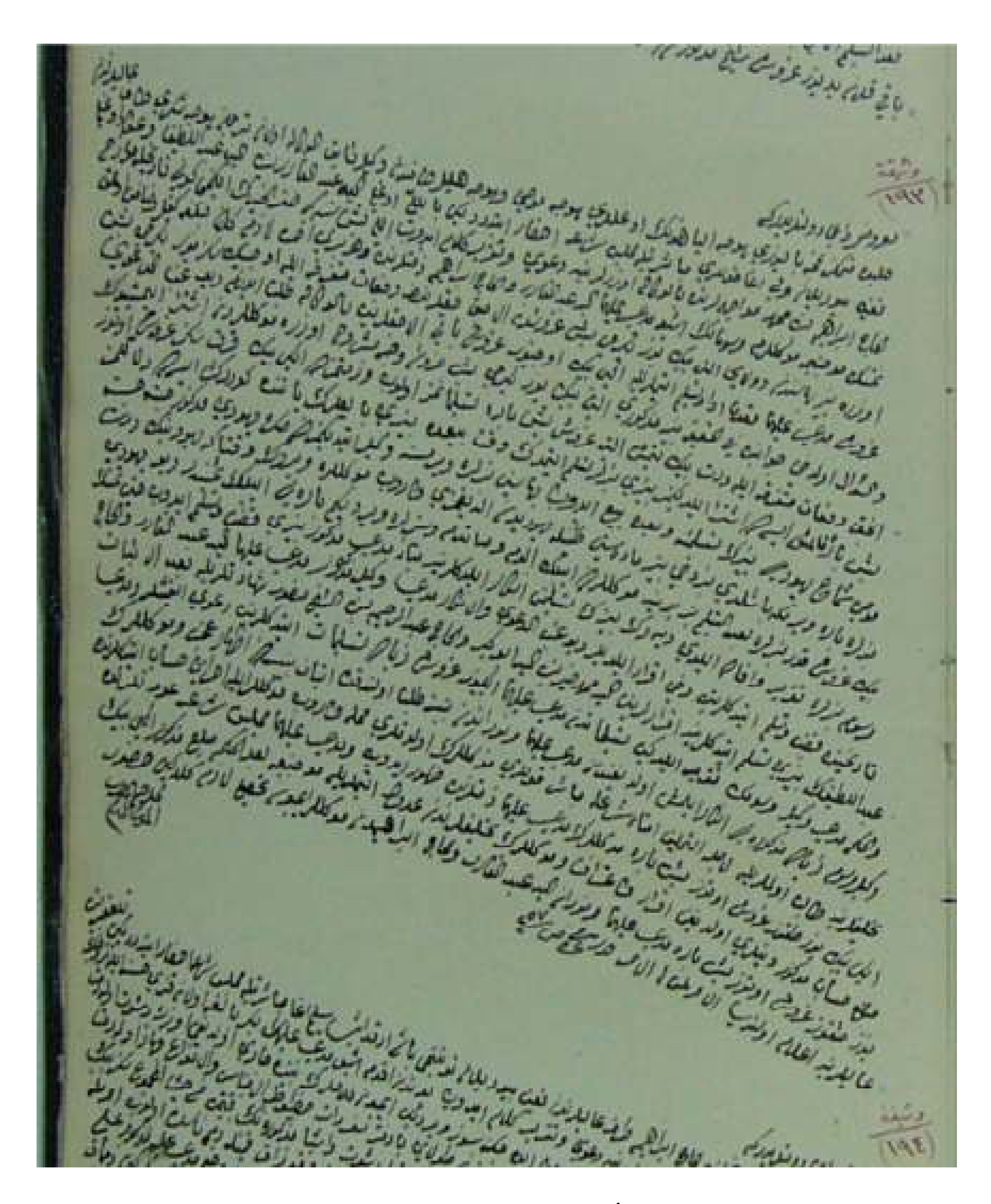
الوثيقة رقم (١١)

ترجمة للوثيقة رقم (١٠٣) وهو أمر صادر عن الدولة العثمانية إلى والي حلب للتحري عن الأجانب الممنوعين من استملاك الأراضي والأملاك العائدة لأهل الإسلام.

دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥٢، الوثيقة رقم ١٠٣، ١٩ رجب ١٢٥٩.

الوثيقة رقم (١٢)

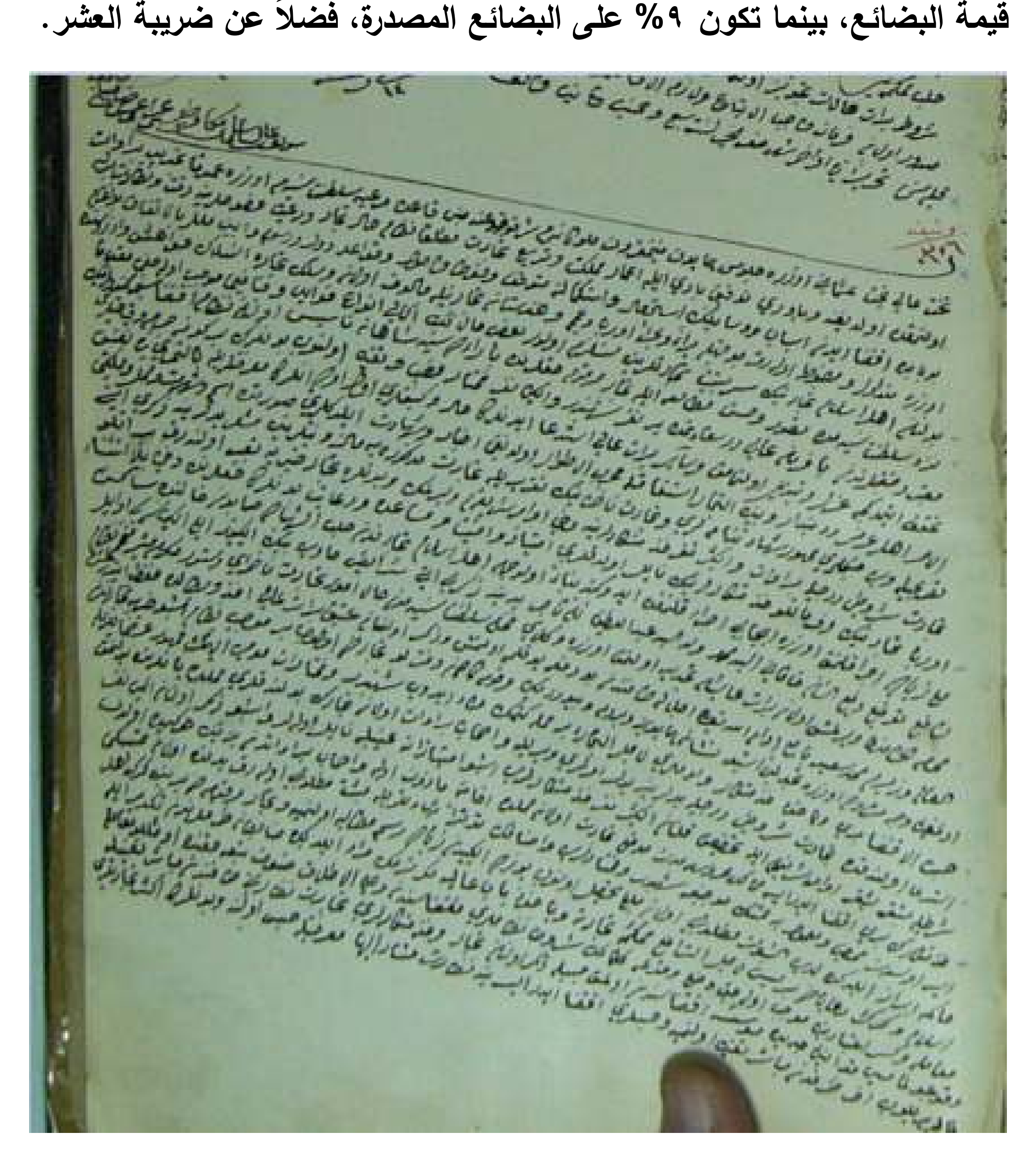
كتاب من قاضي حلب يفيد ثبوت ادعاء ترجمان القنصل النمساوي ووكيل ولديه على بعض التجار من أهالي من حلب، بعد عملية بيع وشراء لبعض الأقمشة.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥٠، الوثيقة رقم ١٩٣، صفر ١٢٥٧.

الوثيقة رقم (١٣)

مرسوم صادر عن الباب العالي بخصوص إقامة اتفاقيات تجارية مع الدول الأجنبية، وجاء فيها أن الضرائب المفروضة على البضائع الأجنبية هي ٣% من قيمة البضائع، بينما تكون ٩% على البضائع المصدرة، فضلاً عن ضريبة العشر.



دار الوثائق التاريخية، دمشق، أوامر حلب السلطانية، المجلد ٥٠، الوثيقة رقم ٣٠٦، ١٤ رجب ١٢٥٧.

الوثيقة رقم (١٤)

معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨.

المعاهدة (١)

التجارية والبحرية المبرمة بين الباب العالي ودولة بريطانيا العظمى - وقع عليها في بلطة ليمان سفك الاستانة في ١٦ أغسطوس من عام ١٨٣٨ .

انه في خلال أيام الصفاء التي استمرت بحمد الله زمناً طويلاً بين الباب العالي وملوك دولة بريطانيا العظمى أبرمت معاهدات رضي بها الباب

(١) ان المعاهدات التجارية المبرمة سابقاً مع الباب العالي انما هي تزيد في المعاهدات ويراد بالمعاهدات التجارية بوجه خصوصي ما أبرم منها بالطرق السياسية وانحصر موضوعه بالتجارة فقط الا ان الحاجة دعت الى ايجاد هذا الملحق بالنظر لتقدم التجارة الخارجية مؤخراً في الممالك المحروسة ونحن ذاكرون هنا المعاهدات التجارية سواء أبرمت عام ١٨٣٨ أو عام ١٨٦١ وان يكن ما أبرم في عام ١٨٦١ هو الجاري العمل بموجبه الآن والباعث على ذلك ان المعاهدة الاخيرة أتت مغيرة لما تقدمها وان الاخيرة تضمنت كثيراً من نصوص المعاهدات المتقدمة ولم تنسخها ومن حيث ان المعاهدات المبرمة بين الدول الاخرى متحدة المعنى والمبنى يكفي الاطلاع على واحدة منها ليعلم ما اشتملت عليه البقية فلهذا اقتصرنا على ايراد المعاهدة المبرمة بين الباب العالي وانكلترا وفرنسا لانهما الدولتان اللتان سبقتا بقية الدول في ابرام هذه المعاهدات ونختصر المعاهدة الروسية أيضاً المبرمة عام ١٨٣٨ لما جاء فيها من بعض الفروق ومن حيث ان اللغة الفرنساوية هي اللغة التي كانت مستعملة لدى الباب العالي كلغة رسمية وسياسية فلهذا كانت أغلب المعاهدات بالفرنساوية

العالي ووفاقات تبودلت عليها تصديقات الدولتين وربّت الرسوم الواجب دفعها على البضائع الصادرة من بلاد الدولة العلية والواردة اليها وعيّنت الحقوق والامتيازات والاعفاآت وسواجب التجار الانكليز الذين يتعاطون الاشغال التجارية ويقيمون في بلاد الدولة العلية

ومنذ عقدت المعاهدات لآخر مرة حدث تغييرات كثيرة في ادارة داخلية السلطنة العثمانية وفي صلاتها الخارجية مع الدول الاجنبية وغير ذلك من الاسباب

بند - ١ - كل الحقوق والامتيازات والاعفاآت الممنوحة للتجار الانكليز ولمراكبهم بموجب المعاهدات والاتفاقات الموجودة تثبت لهم الآن الا ما يبطله الاتفاق الحالي وقد تقرر بنوع خصوصي ان كل الحقوق والامتيازات والاعفاآت التي يمنحها الباب العالي والتي سيمنحها في المستقبل لرعايا دولة أجنبية ولمراكبها وكل ما يؤذن به لرعايا دولة أجنبية ولمراكبها يكون ممنوحاً ومأذوناً به لرعايا دولة انكلترا ولمراكبها وتعاطوه على الحرية (١)

(١) ان منطوق هذا البند اشتمل عليه موضوع البند الثاني ما عدا سين مذكرة أرسلتها الوزارة العثمانية لسفير انكلترا في ٢٢ أغسطوس عام ١٨٣٨ وهذا نصها

ان معنى عبارات البند الاول المطلوب ايضاحها ظاهر جلي في البند الثاني الذي يليه الملحق البندي بمضمونها ومع ذلك تكرر القول بان التجار الانكليز يكلفهم حسب أحكام المعاهدة ان يتعاطوا من الممالك العثمانية في أصناف البضائع التي يصدرونها للخارج الى بلادهم وتصدروها وذلك بعد دفع الرسوم المشترطة دفعها في المعاهدة واذا وجدوا بيعها في داخلية البلاد العثمانية بواسطة سائطهم فهم لا يمنعوها متبعين بذلك شروط معاهدة التجارة الداخلية .

بند - ٢ - لرعايا دولة انكلترا ولمن ناب عنهم ان يشتروا من سائر انحاء الممالك العثمانية كل أصناف البضائع زراعية كانت أو صناعية بدون استثناء صنف وأحصنتها (سواء كان ذلك للاتجار في داخلية البلاد أو في الخارج) وتتعهد الباب العالي صريحاً بالغاء كل أنواع الاحتكارات المضروبة على الحاصلات الزراعية والصناعية من حاصلات البلاد العثمانية والغاء الرخص التي كان يعطيها حكام البلاد لمشتري البضائع أو لمصدريها بعد مشتراها وعليه فكل الاجراآت التي تكون باعثاً لالزام رعايا حكومة انكلترا على طلب الرخصة المذكورة تعتبر مخالفة للمعاهدات والباب العالي يتعهد بمعاقبة الوزراء والضباط والمأمورين الذين يخالفون سالفة بصرامة بدون اهمال والتعويض بوجه العدالة والانصاف على الرعايا الانكليز عما يلحق بهم من الاضرار والخسائر اذا أجروا ذلك .

بند - ٣ - عندما يشتري التجار الانكليز أو نوابهم شيئاً من حاصلات البلاد العثمانية الزراعية أو الصناعية قصد بيعها في داخلية البلاد العثمانية يدفعون حين مشترى هذه الاصناف وحين بيعها أو حين التعامل بها على أي وجه كان الرسوم التي يدفعها في مثل تلك الاحوال الرعايا العثمانيون الذين يعاملون بالافضلية ممن يتجرون في داخلية البلاد من مسلمين وسواهم .

بند - ٤ - اذا اشترى الانكليز بعض حاصلات البلاد العثمانية الزراعية والصناعية قصد تصديرها فللتجار الانكليز ونوابهم نقلها معفاة من كل

أنواع الضرائب والرسوم الى المينا محل التصدير حيث يؤخذ عنها عند دخولها رسم قدره تسعة بالمائة . وهذا الرسم يقوم مقام كل الرسوم الاخرى الداخلية

ثم انه حال التصدير يدفع عن البضائع المصدرة رسم قدره ثلاثة بالمائة - كما هو جار الآن - ولكن البضائع التي تشترى من مواني التصدير بعد ان يدفع عنها رسم الدخول لا يؤخذ عنها الا رسم التصدير المنوه عنه أي ثلاثة بالمائة .

بند - ٥ - ان الشروط التي تقتضيها تسلم الترمانات لمراكب الانكليز التجارية التي تمر في الدردانيل والبوسفور تحرر على الوجه الذي لا يسبب لهذه المراكب تأخيراً .

بند - ٦ - قررت الحكومة العثمانية ان الاحكام الواردة في هذا الوفاق يسري مفعولها في جميع الممالك الشاهانية أي تركية أوروبا وتركية آسيا ومصر وغيرها من البلاد الافريقية التي هي من ممالك الدولة العلية وتنفذ على جميع الرعايا العثمانيين مهما كانت جنسيتهم

وخلا ما تقدم فقد قررت الحكومة العثمانية ان لا تمنع سائر الدول الاجنبية من تنظيم أحوال تجارتها على أساس هذا الوفاق .

بند - ٧ - من المقاصد الرغيبة بين الباب العالي وحكومة بريطانيا العظمى (منعاً للصعوبة والتأخير في تثمين البضائع التي يصدرها الرعايا الانكليز الى بلاد الدولة العلية والتي يوردونها اليها) تعيين مندوبين ذوي

﴿٩٦﴾ المعاهدات المبرمة بين الباب العالي

معرفة تامة باحوال البلادين التجارية وذلك بعد مضي كل أربع عشرة سنة لتنظيم تعريف يعمل بمقتضاه في خلال المدة المذكورة وعند انقضاء الاجل يعين كل من الفريقين مرخصين يعملون معاً لتحديد وتعيين مبلغ النقود التي يدفعها رعايا الانكليز بدل الرسم الذي قدره ثلاثة بالماية من البضائع التي يوردونها الى بلاد الدولة أو التي يصدرونها منها

وعلى المندوبين المذكورين ان يبينوا طريقة عادلة لتقدير الرسوم الخارجية المقررة في هذه المعاهدة على البضائع العثمانية المعدة للتصدير. ويبينوا أيضاً أمكنة التصدير التي تكون أكثر موافقة لتحصيل الرسوم

ويجري العمل بموجب التعريف الحديث مدة سبع سنوات تمضي ابتداء من يوم التعيين وعند انقضاء الاجل يحق لكل من المتعاقدين ان يطلب تعديل التعريف واذا لم يطلب أحد المتعاقدين تعديله في خلال الاشهر الستة التي تمر بعد انقضاء السنوات السبع يظل العمل جارياً بمقتضى التعريف الاول في مدة سبع سنوات آخر ابتداء من انتهاء أجل السنوات السبع الاول وهكذا يكون على التوالي بعد مضي كل سبع سنوات

بند – ٨ – يختص هذا البند بعبارات التصديق على البنود المتقدم ذكرها

ودولة انكلترا عام ١٨٣٨ ﴿٩٧﴾

بنود أضافية

حيث ان بعض الصعوبات حدثت بين سفير ملك انكلترا ومرخص الباب العالي بسبب تعيين الشروط الحديثة المعدة قاعدة يعمل بمقتضاها في ما يختص بتجارة البضائع الانكليزية التي تورد الى البلاد العثمانية أو التي تمر بها على وجه النقل. اتفق سعادة سفير ملك الانكليز ومرخص الباب العالي على ان يوقعوا على هذا الوفاق مستثنياً منه البنود الآتي ذكرها وحصل الاتفاق أيضاً على ان البنود المذكورة التي ارتضت بها الحكومة العثمانية تعرض على حكومة ملك الانكليز فان رضيت بها أدرجت بين أحكام المعاهدات النافذة والمبرمة حديثاً

أما البنود المنوه عنها فهي

بند – ١ – كل صنف من محصولات بريطانيا العظمى وايرلندا وملحقاتها وكل نوع من البضائع سواء كانت زراعية أو صناعية اذا كانت ملك تجار انكليز وشحنت على مراكب انكليزية أو اذا نقلها الانكليز براً أو بحراً من بلاد أجنبية الى بلاد الدولة العلية يؤذن بادخالها الى جميع انحاء السلطنة العثمانية بدون استثناء كما كان جارياً منذ القديم حتى الآن بعد ان يؤخذ عنها رسم قدره ثلاثة بالماية باعتبار أثمان البضائع المذكورة

﴿٩٨﴾ المعاهدات المبرمة بين الباب العالي

وعوضاً عن كل الرسوم الخارجية وغيرها من الرسوم المفروضة على البائع أو على المشتري كما هو جار الآن تقرر ان يدفع المورد بعد استلام بضائعه اذا باعها في محل استلامها أو اذا أرسلها من محل الاستلام لداخلية البلاد العثمانية لتباع هناك رسماً محدداً قدره اثنان بالماية وبعد دفع الرسم المذكور تباع البضائع وتشترى في داخلية البلاد وتصدر ثانية الى الخارج بدون ان يضرب عليها رسم آخر مهما كان وكل البضائع التي يدفع عنها في أحد المراني رسم التوريد الذي هو ثلاثة بالماية [illegible] ارسالها الى مينا أخرى معفاة من كل رسم سواه. ولا يؤخذ عنها الرسم الثاني الا عند بيعها أو عند ارسالها من المينا الى داخلية البلاد

ومن المقرر ان حكومة جلالة ملك انكلترا لا تدعي لهذه البنود ولغيره من بنود هذه المعاهدة تأويلا فوق المعنى المتبادر للفهم ولا تعارض حكومة جلالة السلطان باستعمال حقوقها في الادارة الداخلية اذا كان استعمال هذه الحقوق لا يضر بالامتيازات الممنوحة لرعايا دولة الانكليز ولممتلكاتهم بالمعاهدات القديمة والحديثة

بند – ٢ – لرعايا دولة انكلترا ولمن تابعهم ان يبيعوا ويشتروا بكل حرية في سائر انحاء السلطنة جميع أصناف البضائع الاجنبية التي تأتي الى بلاد الدولة العلية من الخارج واذا لم يكن دفع عن تلك البضائع الا رسم التوريد فعلى التجار من رعايا انكلترا ومن تابعهم ان يدفعوا عن البضائع المشتراة الرسم الضئيل الاعتيادي وقدره اثنان بالماية عند بيع

ودولة انكلترا عام ١٨٣٨ ﴿٩٩﴾

البضائع أو عند ارسالها الى داخلية البلاد قصد بيعها وبعد ذلك تنقل البضائع المذكورة وتباع وتصدر معفاة من كل أنواع الرسوم واذا دفع عن البضائع الاجنبية الرسمان أعني رسم التوريد ورسم الدخولية المحدد بموجب [illegible] للانكليز حالاً ولوكلائهم ان يشتروها ويبيعوها ويصدروها الى حيث شاؤوا بدون ان يضرب عليها رسم ما.

بند – ٣ – لا يضرب رسم ما على البضائع الانكليزية أعني الحاصلات الزراعية والصناعية والاشغال اليدوية وحاصلات البلاد الاجنبية سواء كانت زراعية أو صناعية اذا كانت مشحونة على مراكب انكليزية ومرت في مضيق الدردانيل والبوسفور والبحر الاسود سواء كان مرورها على المراكب التي أتت بها أو انها نقلت الى سواها أو أرسلت لجهة أخرى قصد بيعها فانزلت من السفينة الشاحنة الى سواها في مدة معلومة لا تتجاوز حد الافراط في التأخير

وكل بضاعة يؤتى بها الى بلاد الدولة العلية لترسل منها الى بلاد أخرى أو تظل عند صاحبها موقوفة حتى يرسلها الى بلاد أجنبية لتباع فيها لا يدفع عنها الا رسم التوريد وقدره ثلاثة بالماية ولا يدفع عنها رسم آخر

نقلاً عن: آصاف، يوسف بك، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية، المطبعة العمومية– مصر، ط٢، ١٨٩٦، ص٩٢-٩٩.

الوثيقة رقم (١٥)

خط كلخانه ٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ/ ٣ تشرين الثاني١٨٣٩م.

١

الدستور

تعريب الخط الهمايوني الذي قرئ في كلخانه

لقد علم الجميع انه لما كانت حصلت الرعاية التامة لاحكام الجليلة القرآنية والقوانين الشرعية منذ بداية ظهور دولتنا العلية وصلت قوة واستحكامات سلطنتنا السنية وجميع تبعتها الى اعلى مرتبة من الرفاه والعمورية لكن بحسب ما وقع منذ مئة وخمسين سنة من عدم الانقياد الى الشرع الشريف والامتثال الى القانون المنيف بداعي العوارض المتعاقبة والاسباب المتنوعة قد تبدلت تلك القوة الاولى والعمارية الى عكس ذلك من الضعف والافتقار ولما كان من الامور الواضحة عدم امكان ثبات الممالك التي لا تكون ادارتها تحت قوانين شرعية كانت افكارنا الملوكانية الخيرية مختصة منذ جلوسنا الهمايوني في مجرد اعمار الممالك واحياء وترفيه الاهالي والفقراء ونظراً لموقع ممالك دولتنا العلية الجغرافي وبحسب اراضيها وقابلية واستعداد اهاليها لا بد مع توفيق الباري تعالى ان يحصل المطلوب بظرف خمس او عشر سنين متى حصل التشبث بالوسائل اللازمة بعد الاعتماد على معونة الله والاستمداد عنايته الالهية والتوسل بجناب صاحب الرسالة والاستناد على روحانيته النبوية ولذلك نرى من اللازم المهم لاجل حسن ادارة ممالكنا المحروسة وضع بعض قوانين جديدة تتعلق موادها الاساسية بامنية النفوس والمحافظة على الاموال والعرض والناموس وكيفية تعيين التكاليف وجمع العساكر المقتضية ومدة استخدامها. ذلك لان الاشياء في الدنيا اعز على الانسان من النفس والعرض والناموس فاذا رآها في التهلكة ولم يكن عنده ذلك الى الخيانة بحسب ما في خلقته الذاتية وجبلته الفطرية لا بد له ان يتشبث ببعض الصور لاجل المحافظة على نفسه وناموسه ومن المعلوم ان هذا الامر يكون مضراً بالدولة والمملكة كما يعلم ان الانسان متى كان مستأمناً على نفسه وناموسه لا شك انه لا ينفصل عن الصدق

٢

والاستقامة ويكون اشغاله واعماله عبارة عن حسن الخدمة لدولته وملته وكذلك عند فقدان الامنية على المال لا يعود يلتفت لا الى الدولة ولا الى الملة ولا ينظر الى اعمار الملك بل يكون دائماً غير خال من بلية الفكر والاضطراب وبعكس ذلك اذا كان عنده الامنية الكاملة من جهة امواله واملاكه فانه يكون مهتماً باشغاله وتوسيع دائرة معاشه وتتزايد غيرته يوماً فيوماً على دولته وملته ومحبة وطنه ولا ريب انه يجتهد بحسن السلوك الموافق لذلك كما ان امر تعيين التكاليف تستلزمها كل دولة بسبب الاحتياج الى العساكر وغيرها من المصاريف المقتضية لاجل المحافظة على بلادها وبما ان هذا الامر لا يدرك الا بالاموال ولا يدرك المال الا من عطاء الاهالي كان البحث في صورة حسنة له من اهم الامور ومع ان اهالي ممالكنا المحروسة قد تخلصت قبل الان ولله الحمد والمنة من بلية الالتزامات الواحدة التي كانت تظن فيما سلف ايراداً لم تزل اصول الالتزامات التي هي من آلات الخراب ولم يحصل منها ثمر نافع في وقت من الاوقات جارية حتى اليوم وكأنها عبارة عن تسليم مصالح احدى البلاد السياسية وامورها المالية لادارة احد الناس وربما الى مخالب جوره وتغلبه فانه اذا لم يكن في حد ذاته صالحاً ينظر فقط في ما هو لمنفعته الخصوصية وتكون جميع حركاته وسكناته مبنية على الغدر والظلم ولذلك يلزم بعد الان ان يعين على كل فرد من اهالي البلاد ويركو مناسب بالنسبة الى املاكه ومقدرته كيلا يوجد من احد شيء زائد عن مقدرته وكذلك يجب تحديد مصاريف دولتنا العلية العسكرية وغيرها براً وبحراً وتعيينها بقوانينها المقتضية وعلى ذلك يصير اجراؤها وهكذا مادة العساكر ايضاً لانها من الامور المهمة كما تقرر ومع ان اعطاء العساكر لاجل محافظة الوطن هو من فرائض ذمة الاهالي لم يزل على ما هو جار لحد الان غير منظور فيه الى عدد النفوس الموجودة في كل ملة بل يطلب من بعضها ما هو زائد عن درجة احتماله ومن البعض الآخر ما هو انقص وكان هذا الامر يوجب عدم الترتيب والخلل في منافع مواد الزراعة والتجارة وكذلك استخدام الذين يحضرون الى العسكرية الى نهاية عمرهم يوجب الملل وقطع النسل فيجب وضع بعض اصول حسنة لاجل ما يطلب عند اللزوم من كل بلدة من الانفار العسكرية وتعيين طريق المناوبة ايضاً فتكون مدة الاستخدام اربع او خمس سنين والحاصل انه ما لم تحصل هذه القوانين النظامية لا يمكن تحصيل القوة والعمار والراحة لان اساسها جميعاً هو عبارة عن هذه المواد المشروحة كذلك يلزم ان تنظر دعاوي اصحاب الجرائم بعد الان علناً وجه التدقيق بمقتضى القوانين الشرعية وقبل ان يصدر الحكم لا يجوز اعدام احد اصلاً لا خفية ولا جهاراً لا بطريق

التسيم وان لا يحصل تسلط من طرف احد على عرض وناموس شخص اخر بل كل واحد
يكون مالكا امواله واملاكه ومتصرفا بها بكمال حريته وليس لاحد ان يتداخل معه بذلك
واذا بالفرض وقع احد بتهمة او قباحة وكان ورثاؤه ابرياء من تلك التهمة والقباحة
لا يحرمون من حقوق ارثهم بواسطة ضبط امواله ولكي تكون اهل الاسلام وباقي الملل الذين
هم من تبعة سلطنتنا السنية نائلين مساعداتنا هذه الشاهانية بدون استثناء اعطيت من
طرفنا الشاهاني الامنية الكاملة بمقتضى الحكم الشرعي لجميع اهالي ممالكنا المحروسة على نفوسهم
واعراضهم وناموسهم وبما ان باقي القضايا سوف يعطى لها قرار باتفاق الآراء فيلزم تكثير
اعضاء مجلس الاحكام العدلية بقدر اللزوم وان يجتمع ايضا هناك وكلاء ورجال دولتنا
العلية في بعض ايام يصير تعيينها ويتكلموا جميعا بحرية غير متأخرين عن ابداء آرائهم
ومطالعاتهم ويتذاكروا من جهة القوانين المقتضية فيما يخص هذه الامنية على الانفس
والاموال وتعيين الويركو ويتكالموا عن قضية التنظيمات العسكرية ايضا في دار شورى الباب
السرعسكري وكلما تقرر قانون يعرض لطرفنا الهمايوني لاجل المصادقة عليه وتوشيحه بخطنا
الهمايوني ليكون دستورا للعمل الى ماشاء الله تعالى وبما ان هذه القوانين الشرعية سيصير وضعها
لاحياء الدين والدولة والملك والملة يعطى العهد والميثاق من جانبنا الهمايوني بعدم حركة
تخالفها والقسم بالله على ذلك ايضا بحضور جميع العلماء والوكلاء في حجرة الخرقة الشريفة
وتحلف العلماء والوكلاء ويتنظم قانون جزاء مخصوص لاجراء التاديبات اللائقة للذين
يفعلون حركة تخالف القوانين الشرعية من العلماء والوزراء او غيرهم ايا كان بحسب
القباحات التي تثبت عليهم غير ملتفت في ذلك الى رتبة ولا خاطر وبما ان جميع المامورين
لهم والحالة هذه معاشات وافية وسترتب معاشات ايضا لمن وجد بينهم بلا معاش يجب ان
ينظر بقانون قوي يتأكد به بعد الان عدم وقوع مادة الرشوة الكريهة المنفور منها شرعا التي
هي السبب الاعظم في خراب الملك وبما ان هذه المواد المشروحة هي كناية عن تغيير
الاصول العتيقة وتجديدها بتمامها ينبغي ان تعلن ارادتنا هذه السلطانية مشاعة الى اهالي دار
السعادة وجميع ممالكنا المحروسة وان يعلم بها رسما جميع السفراء المقيمين في دار سعادتنا لتكون
الدول المتحابة ايضا شهودا على ابقاء هذه الاصول الى الابد ان شاء الله تعالى ونلتمس من
ربنا تعالى وتقدس ان يوفقنا جميعا والذين يفعلون حركة تخالف هذه القوانين المؤسسة
فيكونون مستحقين لعنة الله تعالى وعدم الفلاح الى الابد امين
في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ يوم الاحد

نقلاً عن: نوفل، نوفل نعمة الله، الدستور، مراجعة خليل أفندي الخوري، المطبعة الأدبية، بيروت، المجلد الأول، ١٣٠١هـ، ص٢-٤.

الوثيقة رقم (١٦)

معاهدة لندن ١٥ تموز ١٨٤٠ مع الملحق والبروتوكول السري.

ملحق رقم ٢

اتفاق بين بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا لإقرار السلام في الشرق ،
وضع في العاصمة البريطانية في ١٥ تموز ١٨٤٠
وهو الاتفاق المعروف باسم معاهدة لندن .

لما كان جلالة السلطان قد توجه الى اصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلندا ، وامبراطور النمسا ملك المجر وبوهيميا ، وملك بروسيا ، وامبراطور البلاد الروسية ، بطلب العون والمساعدة فيما يعانيه بفعل عداء محمد علي باشا مصر من صعوبات وشدائد تهدد سلامة الامبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان ،

ولما كان اصحاب الجلالة المذكورين ، وفاء للصداقة الخالصة القائمة بينهم وبين السلطان ، راغبين رغبة صادقة في السهر على سلامة واستقلال الامبراطورية العثمانية تأميناً لاستقرار السلام في اوروبا ، وملتزمين بتنفيذ العهد الذي قطعوه على انفسهم في المذكرة الجماعية التي وجهها ممثلوهم في الآستانة الى الباب العالي في ٢٧ تموز ١٨٣٩ ، والحؤول دون سفك الدماء الذي ستسببه مواصلة الأعمال الحربية التي بدأت في سوريا بين باشا مصر ورعايا جلالة السلطان ،

فقد قرر اصحاب الجلالة وجلالة السلطان ان يعقدوا فيما بينهم اتفاقاً لتحقيق الاهداف المبينة اعلاه ، وعينوا لوضع هذا الاتفاق مفوضيهم الآتية اسماؤهم :

عن جلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلندا : صاحب المقام الجليل الفيكونت بالمرستون مستشار جلالتها في مجلسها الخاص وحامل وشاح الحمام العالي وعضو البرلمان

ووزير الدولة الاول ووزير الخارجية .

وعن جلالة امبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا : البارون فيليب نومن حامل وسام ليوبولد من درجة قومندور وصليب الاستحقاق المدني ووسام البرج والسيف البرتغالي وصليب الجنوب البرازيلي وصليب القديس ستانيسلاس الروسي من الدرجة الثانية ، مستشار البلاط والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وعن صاحب الجلالة ملك بروسيا : البارون هنري فيلهلم فون بيلو فارس وسام النسر الأحمر من الدرجة الاولى وحامل الوشاح الأكبر من وسامي ليوبولد النمساوي ومملكة هانوفر ، ووسامي القديس ستانيسلاس من الدرجة الثانية والقديس فلاديمير الروسي من الدرجة الرابعة ، وقومندور وسام الصقر [illegible] ، ومن امناء ومستشاري البلاط ، والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وعن صاحب الجلالة امبراطور البلاد الروسية : البارون فيليب برونوف الحامل وسام القديسة حنة من رتبة فارس درجة اولى ، ووسامي القديس ستانيسلاس من الدرجة الاولى والقديس فلاديمير من الدرجة الثالثة ، وقومندور وسام القديس اسطفان الهنغاري ووسامي النسر الاحمر ومنظمة [illegible] من درجة فارس ، ومستشار البلاط والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وعن صاحب المهابة والجلالة والقوة السلطان عبد المجيد امبراطور العثمانيين : شكيب افندي حامل ، نيشان الافتخار ، من الدرجة الأولى ، ومن كبار رجال الديوان الامبراطوري ، والمستشار الفخري لوزارة الخارجية ، وسفير جلالته لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وبعد ان تبادل المفوضون اوراق اعتمادهم ووجدوها صحيحة شكلاً تم التفاهم

والاتفاق على المواد التالية :

١ - لما كان جلالة السلطان قد اتفق مع اصحاب الجلالة المذكورين على شروط التسوية التي ينوي جلالته ان يتكرّم بها على محمد علي وهي الشروط المبيّنة بالتفصيل في الوثيقة المنفصلة الملحقة بهذا الاتفاق فان اصحاب الجلالة يتعهدون بأن [illegible] متفقين لحمل محمد علي على [illegible] نص التسوية وروحها على ان يحتفظ كل منهم بحرية العمل وفقاً للوسائل المتوافرة له .

٢ - اذا رفض باشا مصر قبول هذه التسوية التي ستبلغ اليه من قبل السلطان بالتعاون مع اصحاب الجلالة فان اصحاب الجلالة يتعهدون ، حالما يطلب منهم السلطان ذلك ، بأن يتخذوا التدابير المتفق عليها فيما بينهم لتنفيذ التسوية .

ولما كان السلطان قد دعا اصحاب الجلالة حلفاءه ان ينضموا اليه لقطع المواصلات البحرية بين مصر وسوريا ومنع ارسال الجنود والخيل والسلاح والعتاد والمؤن الحربية بمختلف انواعها من احد هذين الاقليمين الى الآخر فان اصحاب الجلالة يتعهدون بأن يعطوا فوراً الاوامر اللازمة لقادة اساطيلهم في البحر المتوسط لتنفيذ طلب جلالته ، ويتعهدون ايضاً بأن يقدم قادة اساطيلهم ، كل في مدى الوسائل التي بيده ، كل المساعدات الممكنة لرعايا السلطان الثابتين على ولائهم واخلاصهم لجلالته .

٣ - اذا قام محمد علي ، عقب رفضه الانصياع لشروط التسوية المذكورة ، بتوجيه جيوشه البرية وقواه البحرية الى الآستانة فان اصحاب الجلالة ، عند اول طلب يقدَّم من قبل السلطان الى ممثليهم في العاصمة العثمانية ، يلبون هذا الطلب ويبادرون للدفاع عن عرشه متفقين لحماية الآستانة ومضيقي البوسفور والدردنيل وعاصمة السلطنة من كل اعتداء .

وقد اتفق اصحاب الجلالة على ان القوى التي سيستعملونها لهذا الغرض ستبقى

في مواقعها ومراكزها الدفاعية طول المدة التي يريدها السلطان ، فعندما يرى جلالته ان وجودها لم يعد ضرورياً فانها تنسحب معاً ويعود كل منها الى قواعده في البحر الاسود او البحر المتوسط .

٤ - اتفق اصحاب الجلالة اتفاقاً صريحاً على ان التعاون المنصوص عليه في المادة السابقة والذي يضع المضايق والعاصمة العثمانية بصورة موقتة تحت حمايتهم ضد كل اعتداء يأتي من جانب محمد علي لا يعتبر عند حصوله الا تدبيراً استثنائياً وضع ونُفّذ بناء على طلب صريح من السلطان لهذا الغرض فقط . ومن المتفق عليه بينهم ايضاً ان هذا التدبير لا يغيّر ولا ينقض شيئاً من القاعدة القديمة التي وضعها الباب العالي وحرّم [illegible] دخول الدردنيل والبوسفور على جميع الوحدات الحربية الاجنبية . والسلطان يعلن في هذا الاتفاق انه ، الا في الحالة المذكورة سابقاً ، عازم عزماً صادقاً على الحفاظ في المستقبل على هذه القاعدة القديمة من سياسته ، وعلى عدم السماح لاية سفينة حربية اجنبية بالدخول الى مضيقي البوسفور والدردنيل كما يتعهد اصحاب الجلالة من جهتهم باحترام الارادة السلطانية وبعدم الشذوذ عن هذا المبدأ الذي قررته .

٥ - يتم التصديق على هذا الاتفاق وتبادل وثائقه في لندن خلال شهرين او قبل ذلك اذا امكن .

كتب في لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠

الامضاء : بالمرستون
نومن
بيلو
برونوف
شكيب

نقلاً عن: خوري، إميل وإسماعيل، عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨ (من مؤتمر فيينا١٨١٥ إلى معاهدة المضايق١٨٤١)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، د.ط، ج٢، ١٩٦٠، ص٢٨٠-٢٨٧.

الوثيقة رقم (١٧)

تعليمات إدارية بشأن القنصليات الأجنبية في الدولة العثمانية في ٢٢ صفر ١٢٨٠هـ.

نقلاً عن: نوفل، نوفل نعمة الله، الدستور، مراجعة خليل أفندي الخوري، المطبعة الأدبية، بيروت، المجلد الأول، ١٣٠١هـ، ص٥٢٧-٥٢٩.

الوثيقة رقم (١٨)

خط همايون جمادى الآخر ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م.

تعريب الفرمان العالي المتوّج بالخط الهمايوني الذي جرى شرف
صدوره خطاباً للوكالة المطلقة بخصوص الاصلاحات

بعد الالقاب

لما كان من اقدم افكاري الخيرية السلطانية تحصيل سعادة الاحوال لصنوف تبعتي الشاهانية التي هي وديعة الباري لدى المؤيدة الملوكانية واستكمالها من كل جهة شوهدت ولله الحمد بكثرة وافرة اثار هي المخصوصة الشاهانية التي ظهرت في هذا الباب منذ يوم جلوسي الهمايوني المقرون باليمن وقد اخذت معمورية ملكنا وثروة ملتنا في الازدياد من وقت الى وقت الا انه لما كانت عداتي السلطانية تطلب تجديد وتاكيد النظامات الخيرية التي توقفت بوضعها وتاسيسها لحد الان لايصال الحالة الموافقة لشان دولتنا العلية واللائقة بالموقع العالي المهم الذي حازت عليه بحق فيما بين الشعوب المتمدنة الى درجة الكمال ولا سيما الان حيث تضاعف بعناية الله تعالى تاكيد الحقوق السنية التي لدولتي العلية في الخارج بحسب تاثير المساعي الجميلة من جهة عموم تبعتي الشاهانية وجهة ومعاونة نوايا الدول المفخمة الخيرية التي هي معنا باتفاق خاص بامر الاخلاص على ما يجعل هذا العصر مبدأ زمان مقرون بالخير لدولتنا العلية اصبح من اقتضاء ارادة مراحمي المعتادة الملوكانية ان تترقى آناً فآناً في الداخل ايضاً الاسباب والوسائل المستلزمة لتزايد قوة ومكنة سلطنتي السنية وتحصيل سعادة الاحوال الكاملة من كل وجه لجميع صنوف تبعتي الشاهانية المرتبطين مع بعضهم بالروابط القلبية الوطنية والمتساوين في نظر معدلة شفقتي الملوكانية وبناء على ذلك قد صدرت ارادتي العادلة السلطانية باجراء الخصوصات الاتية وهي . بما ان تلك التامينات التي صار الوعد والاحسان بها من طرفي الاشرف السلطاني لاجل امنية النفوس والاموال وحفظ الناموس في حق جميع تبعتي الموجودين في اي دين ومذهب كان بدون استثناء بموجب خطي الهمايوني الذي تلي في كلخانة وقد جرى الان تاكيدها وتأييدها مع التنظيمات الخيرية يجب اتخاذ التدابير المؤثرة لاجل اخراجها بكمالها الى الفعل . اما الامتيازات والمعافيات الروحانية جميعها التي أعطيت من طرف اجدادي العظام او احسن بها في السنين الاخيرة الى جماعة المسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة الموجودين في ممالكي المحروسة الشاهانية فقد صار تقريرها وابقاؤها الان ايضاً انما يلزم ان تحصل المبادرة فقط

الى رؤية امتيازات كل جماعة من المسيحيين والتبعة الغير المسلمة ومعاينة امتيازاتهم الحاضرة
بطرف مهلة معينة وتحصل المذاكرة في اصلاحها التي اوجبها الوقت وآثار التمدن
والمعارف المكتسبة في مجالس مخصوصة تتشكل في البطركخانات بارادتي واستحساني الملوكي
وتحت نظارة بابنا العالي ويجبر على عرضها والافادة عنها الى بابنا العالي ويصير توفيق
الرخصة والاقتدار اللذين صار التكرم باعطائهما من طرف حضرة ساكن الجنان السلطان
ابي الفتح محمد خان الثاني ومن خلفائه العظام الى البطاركة وباساقفة المسيحيين الحال والوضع
الجديد الذي صار التامين وهو من نبات خيرة السلطانة ومن بعد ان تقطع اصول
انتخاب البطاركة الجاري والحالة هذه يصير كذلك اجراء اصول تعيين وتعميم بلدة
حياتهم تطبيقاً الى احكام براءة البطركية العلية الصحة والتمام وحين نصب البطرك او المطران
والمرخص والايسكوبس والحاخام يقتضي ان يتم الاصول التحليفية تطبيقاً الى صورة يحصل
القرار عليها فيما بين بابنا العالي ورؤساء الجماعات المختلفة الروحيين ثم يصير منع الجوائز
والعائدات التي تعطى الى الرهبان تحت اي صورة واسم كان بالكلية وتخصيص عوضها
ايرادات معينة الى البطاركة ورؤساء الجماعات وكذلك بتعيين معاشات الى باقي الرهبان
على وجه العدالة بالنظر الى اهمية رتبهم ومناصبهم بحسب القرار الذي يعطى بعد الان ويحال
ادارة المصالح الملية المختصة بجماعة المسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة لحسن محافظة مجلس
مركب من اعضاء منتخبة فيما بين رهبان كل جماعة وعوامها بدون ان يحصل ابدا ما سكة
الكارزات واموال الرهبان منقولة كانت او غير منقولة ولا ينبغي ان يقع مانع في تعمير وترميم
الابنية المختصة باجراء العبادات في المداين والقصبات والقرى التي جميع اهاليها من مذهب
واحد ولا في باقي علائمهم كالمكاتب والمستشفيات والمقابر حسب هيئتها الاصلية لكن اذا لزم
تجديد محلات نظير هذه فيلزم عندما يستصوبها البطرك او رؤساء الملة ان تعرض صورة
رسمها وانشائها مرة الى بابنا العالي لكي تقبل تلك الصورة المعروضة ويجرى انفاذها على
موجب تعلق ارادتي السنية الملوكانية او تبين الاعتراضات التي ترد في ذلك الباب
بطرف مدة معينة واذا وجد في محل جماعة اهل مذهب واحد منفردين يعني غير مختلطين
بغيرهم فلا يقتضي منع ما عن اجراء المخصوصات المتعلقة بالعبادة في ذلك الموضع ظاهراً
واما في المدن والقصبات والقرى التي تكون اهاليها مركبة من جماعات مختلفة الاديان
فتكون كل جماعة مقتدرة على تعمير وترميم كنائسها ومستشفياتها ومكاتبها ومقابرها تبعاً
للاصول السابق ذكرها في المحلة التي تسكنها على حدتها لكن متى لزمها ابنية تقتضي انشاؤها

جديداً يلزم ان تستدعى بطاركتها او جماعة مطارنتها الرخصة اللازمة من جانب بابنا
العالي فتصدر رخصتنا السنية عند ما لا توجد في ذلك موانع ملكية من طرف دولتنا العلية
والمعاملات التي تتوقع من طرف الحكومة في مثل هذه الاشغال لم يوجد عنها شيء ويقتضي
ان توخذ التدابير اللازمة القوية لاجل تامين من كانوا اهل مذهب واحد مهما بلغ عددهم
بجريان مذهبهم بكل حرية ثم تمحى وتزال مؤبداً من المحررات الديوانية جميع التعبيرات
والالفاظ المميزات التي تتضمن تنزيل صنف عن صنف آخر من صنوف تبعة سلطنتي
السنية بسبب المذهب او اللسان او الجنس ويمنع قانونياً استعمال كل نوع تعبير وتوصيف
يوجب التحقير والعار او يمس الناموس سواء كان بين افراد الناس او من طرف المامورين
وبما كانت قد جرت فرائض كل دين ومذهب يوجد في ممالكي المحروسة بوجه الحرية
وجب ان لا يمنع احد اصلاً من تبعتي الشاهانية عن اجراء فرائض ديانته ولا يعاني من
جراء ذلك جوراً ولا اذية ولا يجبر احد على ترك ديانته ومذهبه اما انتخاب ونصب
مامورين سلطنتي السنية وخدامها فهو منوط بنفسي وبارادتي الملوكانية وبما ان جميع تبعة
دولتي العلية من اية ملة كانوا سوف يقبلون في خدامة الدولة ومامورياتها ويستخدمون
في الماموريات استناداً الى القابليات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب اهليتهم واقتدارهم
والذين هم من تبعة سلطنتي السنية يقبلون جميعاً عندما يتمون الشرائط المقررة سواء كان
من جهة السن او الامتحانات في النظامات الموضوعة للمكاتب بدون فرق ولا تمييز في
مكاتب دولتي العلية العسكرية والملكية وعدا ذلك تكون كل جماعة ماذونة بعمل مكاتب
ملية للمعارف والحرف والصنائع لكن تكون اصول تدريس مثل هذه المكاتب العامة
واختيار معلميها تحت نظارة وتفتيش مجلس معارف مختلط معمورة اعضاؤه من طرفي
الشاهاني ثم جميع الدعاوي التي تحدث فيما بين اهل الاسلام والمسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة
او بين التبعة المسيحية وبين باقي تابعي المذاهب المختلفة الغير المسلمة تجارية كانت او جنائية
تحال الى دواوين مختلطة والمجالس التي تعقد من طرف هذه الدواوين لاجل استماع
الدعاوي تكون علنية بمواجهة المدعي والمدعى عليه والشهود الذين فيما بينهم يقتضي ان يصادقوا
على تقاريرهم اليمين دائماً واحدة فواحدة بيمين يجرونه حسب اعتقادهم ومذاهبهم اما
الدعاوي العائدة الى الحقوق العادية فينبغي ان ترى شرعاً او نظاماً بحضور الوالي وقاضي
البلدة في مجالس الايالات والالوية المختلطة ايضاً وتجرى المحاكمات الواقعة في هذه المحاكم
والمجالس علناً واما الدعاوي الخاصة مثل الحقوق الارثية فيما بين شخصين من المسيحيين

٨

[illegible]

٩

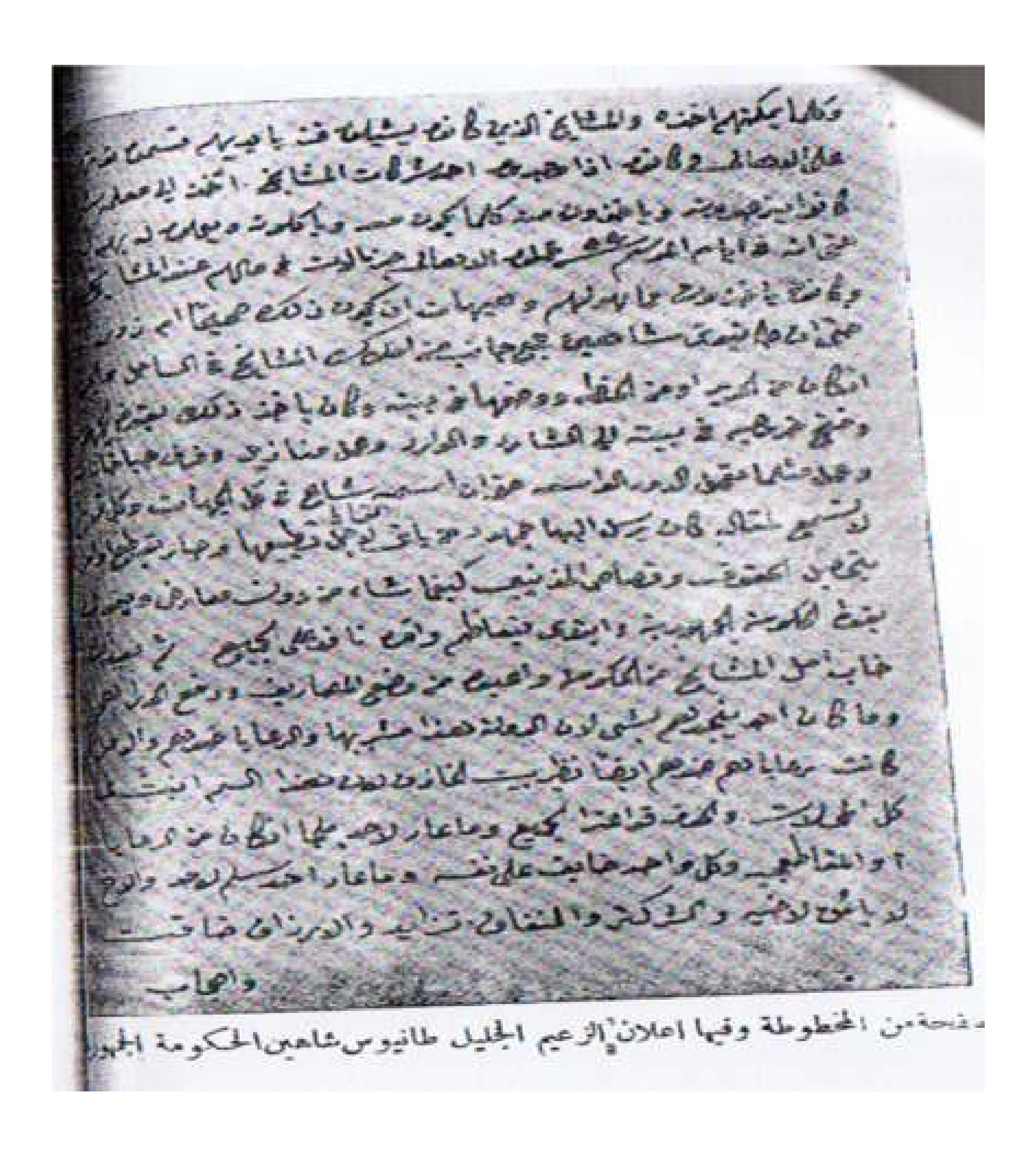
[illegible]

حسب اصوله في دار السعادة وفي كل طرف من ممالك الشاهانية وليبذل جل الهمة باجراء
مقتضيات الخصوصات المشروحة على الوجه المبين واستحصال واستكمال الاسباب اللازمة
والوسائل القوية لان تكون احكامه الجليلة منذ الان مرعية الاجراء على الدوام والاستمرار
وهكذا اعلموا وعلى علامتي الشريفة اعتمدوا تحريراً في اوائل شهر جمادى الاخرة سنة اثنين
وسبعين ومائتين والف

نقلاً عن: نوفل، نوفل نعمة الله، الدستور، مراجعة خليل أفندي الخوري، المطبعة الأدبية، بيروت، المجلد الأول، ١٣٠١هـ، ص٥-١٠.

الوثيقة رقم (١٩)

صفحة من مخطوط : ثورة وفتنة، أنطون ضاهر العقيقي، والحديث عن إعلان طنوس شاهين للنظام للجمهوري.


صفحة من المخطوطة وفيها اعلان الزعيم الجليل طانيوس شاهين الحكومة الجمهورية

نقلاً عن: العقيقي، انطوان ضاهر، ثورة وفتنة في لبنان– صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ إلى ١٨٧٣، تحقيق وتعليق يوسف إبراهيم يزبك، د.ط، د.ت، ص٨٨.

الوثيقة رقم (٢٠)

المدارس في بلاد الشام

المدارس في القدس.



جدول المدارس في القدس

ملاحظات

اسماء المدارس

مدارس جمعية انتشار الانجيل بين اليهود

مدارس الجمعية المرسلين الكنائسية

مدارس الجمعيات الالمانية

مدارس الروم الارثوذكس

مدارس اللاتين

ملاحظات

اسماء المدارس

مدارس الروم الكاثوليك

مدارس الارمن

مدارس اليهود

مدارس المسلمين

المطابع في القدس

نقلاً عن: مكاريوس، شاهين، المعارف في سورية، مجلة المقتطف، السنة السابعة، ج٨، آذار ١٨٨٣، ص٤٧١-٤٧٢.

المدارس في حلب

اما مدارسها فللمسلمين نحو عشر مدارس تعلّم العربية بنحوها و بعضها يعلّم الجبر و بعضها يعلّم التركية وفيها لهم نحو سبعة عشر مجتمعاً يعلّم الاولاد فيها القراءة وتلامذتها يبلغون ثلاث مئة . وللمسيحيين ١٠ مدرسة اشهرها مدرسة الرهبان الفرنسيسكانيين يعلّم فيها الفرنساوية والعربية والايطالية والتركية والموسيقى والتصوير والفلسفة والمساحة وغير ذلك وهذا جدول بيان مدارس حلب

مدارس	تلامذة	تلميذات	معلمون	الطوائف
٢٧	٥٥٠		٤٣	مسلمون
١	٦٠		٣	روم ارثوذكس
٣	١٥٠	٦٠	٥	موارنة
٣	٤٢٠	٣٠٠	٦	روم كاثوليك
٣	٣٣٠		١٥	فرنسيسكان
٣		٣٠٠	١٣	راهبات مار يوسف
١		٢٠٠	٣	راهبات يسوعية
١	١٥٠		٣	ارمن
١	١٠٠		١	ارمن كاثوليك
١	١٠٠	٥٠	٣	سريان
٤٣	١٧٥٥	٨١٠	٩٤	المجموع

واشتهر من اهل حلب رزق الله حسون بالنثر والنظم وتوفي في مدينة لندن ببلاد الانكليز وله عدة مؤلفات مطبوعة . واشتهر من اهلها ايضاً فرنسيس فتح الله مراش نظماً ونثراً وله مطبوعات منها كتاب غابة الحق ومشهد الاحوال والمرآة الحسناء والصدف في غرائب الصدف توفي في حلب وله من العمر ٣٧ سنة . ومن افاضلها ايضاً نصر الله افندي دلال صاحب كتاب "[illegible]" "وكتاب ثمار التدقيق في اصول التحقيق"

السنة السابعة ٦٠ ك طبعة اولى

نقلاً عن: مكاريوس، شاهين، المعارف في سورية، مجلة المقتطف، السنة السابعة، ج٨، آذار ١٨٨٣، ص٤٧٣.

٣٦١ المعارف في سورية

جدول المدارس في بيروت

مدارس صبيان	مدارس بنات	عدد المعلمين	عدد المعلمات	عدد التلامذة	عدد التلميذات	مذهب المدارس
٢١	٣	٤٤	١٥	٢١٧٠	٤٥٢	مسلمون
٥	٣	١٦	٧	٩٠٠	٥٠٠	روم ارثوذكس
١٠	١	٧٥	٣	١٣٨٠	٥٥	موارنة
٣		٣٠		٤٠٠		روم كاثوليك
٤	١	٧٥	٤	٦٩٠	٣٠٠	يسوعيون
	٤		٦٥		١٣٣٤	راهبات المحبة
	١		١٨		٥٠٠	راهبات الناصرة
٣		٦		٣٥٠		دار منصور
١		١		٥٠		كوشيون
١		٣		٧٠		سريان
١		٣		٥٠		ايطالية
٥	١	٣٠	٣	٢٥٠	٦٠	يهود
١٢	٢٢	٤٤	٨٧	٦٧١	٢٤٥٠	انجيليون
٦٥	٣٦	٢١٦	٢٠١	٦٨٨١	٥٥٧١	المجموع

ملاحظات:

سكان بيروت الآن نحو ١٢٠ الف نسمة من وطنيين واجانب

انشئت اكثر المدارس المذكورة في هذا الجدول بعد سنة ١٨٦٠

ان بعض مدارس المسلمين لا تزال على عهدها القديم

عُرض هذا الجدول على اكثر اصحاب المدارس قبل طبعه فوافقوا على صحته

نقلاً عن: مكاريوس، شاهين، المعارف في سورية، مجلة المقتطف، السنة السابعة، ج٧، شباط ١٨٨٣، ص٣٩١.

إحصائية لعدد المدارس في بلاد الشام عام ١٨٨٣.

وقد وضعت الجدول الآتي لبيان عدد المدارس والسكان ومواقع المدن الجغرافي

اسماء المدن	مدارس للذكور	مدارس للبنات	المعلمون	المعلمات	عدد التلاميذ	عدد التلميذات	عدد السكان	الطول الشرقي	العرض الشمالي
بيروت	٠٦٥	٠٣٦	٢١٦	٢٠١	٦٨٨١	٥٥٧١	١٢٠٠٠٠	٢٨' ٣٥°	٥٠' ٣٣°
دمشق	١٢٥	٠٢٨	٢٠٠	٠٤٥	٥٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٣٠ ٣٦	٣٣ ٣٠
القدس	٠٦٧	٠١٤	١٧١	٠٥٧	٢٧٨٣	١٠٨٦	٠٣٠٠٠٠	٤٦ ٣٥	٣٣ ٤١
حلب	٠٢٥	٠٠٧	٠٧٦	٠١٨	١٧٥٥	٠٨١٠	١٠٠٠٠٠	٣٧ ٩	٣٦ ١١ ٢٥"
طرابلس	٠١١	٠٠٤	٠٢٨	٠١٧	٠٦٨٧	٠٤٦٥	٠١٧٠٠٠	٤٤ ٣٥ ٣٠"	٣٤ ٣٦ ٣٦
حماه	٠٢٥	٠٠١	٠٣٧	٠٠١	١١٥٥	٠٠٣٠	٠٣٠٠٠٠	نحو ٣٧	٥٠ ٣٤
حمص	٠٥٨	٠٠٣	٠٦٣	٠٠٤	٣١١٠	٠١٩٠	٠٣٠٠٠٠	٣٠ ٣٧	٣٠ ٣٤
اللاذقية	٠١٣	٠٠٣	٠٣٧	٠٠٦	٠٦٦٤	٠١٦٠	٠١٣٠٠٠	٤٣ ٣٣	٢٥ ٣٥
عكا	٠٢١	٠٠٣	٠٣٠	٠٠٧	٠٥٠٠	٠١٥٠	٠١٠٠٠٠	٤٦ ٣٣	٥٥ ٣٣
صيدا	٠١٠	٠٠٥	٠٢١	٠٤١	٠٣٤٧	٠٣٤٠	٠٠٩٠٠٠	٣٠ ٣٥	٣٥ ٣٣
صور	٠٠٥	٠٠٥	٠٠٨	٠٠٧	٠٣٤٠	٠٣٨٠	٠٠٣٠٠٠	١٥ ٣٣	٢٩ ٣٣
نابلس	٠٣٠	٠٠٣	٠٣٦	٠٠٤	١٠٨١	٠١٤٣	٠٠٨٠٠٠	١٥ ٣٥	١٥ ٣٣
بعلبك	٠٠٣	٠٠٣	٠٠٥	٠٠٧	٠٣٠٠	٠١٣٣	٠٠٥٠٠٠	١١ ٣٦	١ ٣٤
حاصبيا	٠٠٣	٠٠١	٠٠٥	٠٠٣	٠٣٠٨	٠١٤٠	٠٠٦٠٠٠	٢٥ ٣٣	٤٠ ٣٥
المجموع	٤٨٠	١٣٣	١٠٣٣	٤١٨	٣٣٧١٠	١١٣٨٧	٥١٠٠٠٠		

اذا حسبنا ما في جوار هذه المدن مع ما في حوران ولبنان من المدارس يبلغ عددها نحو ٧٧٠ مدرسة فيها نحو ٨٠٠ معلم ومعلمة و٢٤٤٦٩ تلميذا وتلميذة واذا اضفنا ١٠٠ مدرسة و١١٠ معلمين ومعلمات و٣٠٠٠ تلميذ وتلميذة نفرض انه لم يصلنا علمها فيبلغ مجموع المدارس بسورية كلها ١٤٧٣ والمعلمين والمعلمات ٢٣٢٤ والتلامذة من صبيان وبنات ٦٣٥٦٦ وبمقابلة ذلك مع عدد سكان سورية الذين يبلغون ٢٠٠٠٠٠٠ يظهر ان المعارف لم تزل قليلة

نقلاً عن: مكاريوس، شاهين، المعارف في سورية، المقتطف، السنة السابعة، ج٩، نيسان ١٨٨٣، ص٥٣٧.

الوثيقة رقم (٢١)

نموذج من أول كتاب عربي مطبوع، نشر بمدينة فانو (إيطاليا) عام ١٥١٤.

الفن الاول من الكتاب الاول في حد الطب وموضوعاته من الامور الطبيعية يشتمل على ستة تعاليم

الفصل الاول من التعليم الاول من الفن الاول من الكتاب الاول من كتاب القانون

في حد الطب

[illegible]

Premiere pag du livre de médecine d'Ibn Sina imprimé à Rome

chez les Médecis en 1593.

([illegible] du [illegible] (H) - Granjon à Rome p. [illegible])

نموذج من أول كتاب عربي مطبوع: كتاب صلاة السواعي.

نشر بمدينة فانو (إيطاليا) سنة 1514

نقلاً عن: قدورة، وحيد، بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦–١٧٨٧)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ومكتبة فهد الوطنية، زغوان، تونس، د.ط، ١٩٩٢، من اليسار إلى اليمين، ص٢٢.

الوثيقة رقم (٢٢)

كتاب القدسات الثلاث الإلهية، طُبع بمدينة بخارست عام ١٧١٠.



كتاب
القدسات الثلاثه الالهيه * مع بعض احتياجات
اخر ضروريه للصلوات الارثوذكسيه *
قد طبع الان حديثا في اللغة اليونانيه والعربيه *
بالتماس ومشارفة الاب الطوباني
كير بوكير اثناسيوس البطريرك
الانطاكي سابقا *
بمصرف السيد الامجد الرفيع الشان * [illegible]
[illegible]

كتاب القدسات الثلاثة الالهية – طبع بمدينة بوخاريست سنة 1701

نقلاً عن: قدورة، وحيد، بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ومكتبة فهد الوطنية، زغوان، تونس، د.ط، ١٩٩٢، ص١١٦.

الوثيقة رقم (٢٣)

صفحة الإهداء بكتاب المزامير المطبوع بمدينة حلب عام ١٧٠٦.



بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد
الى حضرة ذى الجناب الرفيع والهمام النبيل
السيد المفخم والشريف الجليل كيركيريواني
قوسطنطين فاصارابا برنكوفان المتقلد ولاية
بلاد انكروفلاخيا المعظم ولدنا الروحاني الحبيب
النعمة لكم من الاله الضابط الكل وسيدنا يسوع
المسيح والروح القدس المعزى الذى اتانا
بحلوله الرسل القديسين الاطهار الالهيين
فرح عظيم شمل النصرانيين لما ظهر قسطنطين
العظيم حاملا اشارة الصليب الالهية على قوة الغلبة
العظيمة حين كانت المومنون قبله مضنوكين من
الاضطهادات اليونانية ثم اصبحوا بغتة ظافرين
مويدين اكثر منه يشمل اليوم الفرح الكلي
بل الاكمل كافة المومنين حين ظهرت لنا ايها
الهمام النبيل حاملا بيديك تلك الغيرة الروحانية
الواصلة منك نحو المومنين المقيمين في البلاد
العربية

Début de la Dédicace du Psautier imprimé à Alep en 1706

(Extrait de : Histoire des patriarcats. T. III p. 111.)

صفحة الاهداء بكتاب المزامير
المطبوع بمدينة حلب سنة 1706

نقلاً عن: قدورة، وحيد، بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ومكتبة فهد الوطنية، زغوان، تونس، د.ط، ١٩٩٢، من اليسار إلى اليمين، ص٢١.

الوثيقة رقم (٢٤)

كتاب الإنجيل المطبوع بمطبع الشوير عام ١٧٧٦.



كتاب

الانجيل الشريف الطاهر والمصباح المنير الزاهر بقسمة

كنايسيا على مدار السنة حسب ترتيب الآباء القديسين الشرقيين

مضبوطا على اللغة اليونانية وموافقا النسخة العربية

من غير تغيير بالاصل مع اننا حذفنا التفسير الموضوع

اليوناني الذي لا يوجد به التفسير

المذكور كما اوضحنا

كتاب الانجيل المطبوع بمدينة الشوير سنة 1776.

نقلاً عن: قدورة، وحيد، بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦–١٧٨٧)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ومكتبة فهد الوطنية، زغوان، تونس، د.ط، ١٩٩٢،، ص١٧٦.